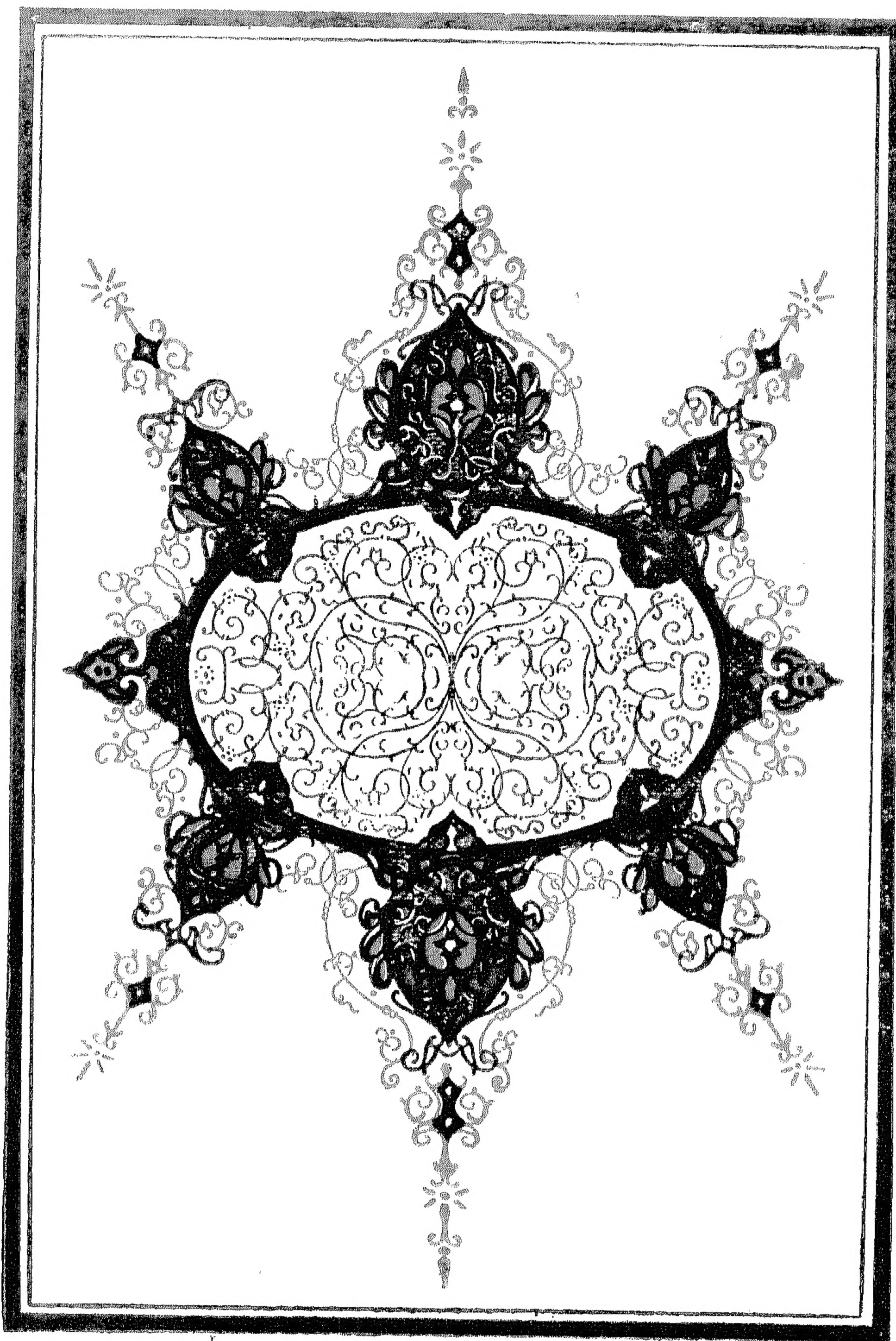


مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الثامن والعشرون

رمضان ١٣٩١ هـ

نوفمبر ١٩٧١ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة

٢٦ شارع مراد بالجيزة

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د / شوقي ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الثامن والعشرون

ربيعان ١٣٩١ هـ = نوفمبر ١٩٧١ م

المشرف على المجلة:

د. إبراهيم أنيس

أمين التحرير:

إبراهيم التري

الفهرس

تصدير :

دور الكومبيوتر
في البحث اللغوى
للدكتور ابراهيم أنيس

ص ٧

بحوث ومقالات :

المعجم الكبير
للدكتور ابراهيم مذكور

ص ١٢

اكثر من واحد
للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

ص ١٦

بكاء الشباب
للاستاذ على الجندى

ص ٢٣

لفتنا في عصر الانحطاط
للاستاذ أنيس المقدسى

ص ٢٩

في تاريخ الطب عند العرب
للدكتور عبد الحلیم منتصر

ص ٤٣

تحقيق لسان العرب
للاستاذ عبد السلام هارون

ص ٦٢

الفلسفة والفن
للدكتور محمد عزيز الحبابی

ص ١٨

سجع القرآن فريد
للدكتور أحمد الحوفی

ص ٩٥

تقدمة لتعريب المصطلحات
الفنية للاتصالات السلکية
واللاسلكية .
للمهندس صلاح عامر

ص ١٠٣

ها أنا وهاندا
للاستاذ محمد شوقي أمين

ص ١٠٨



-
- عن الأساليب التعبيرية : كان + الماضى
بدون (قد)
للدكتور حسن عون
ص ١١٥
 - المثل بين الفصحى والعامية
للأستاذ محمد قنديل البقل
ص ٢٢١
 - أسس وقواعد الكتابة السهلة الممتعة .
للدكتور فؤاد البهى السيد
ص ١٢٥
 - نقد النقد
للأستاذ محمود غنيم
ص ١٤٢
 - من التراث اللغوى :
 - اللهجة العامية المصرية فى القرن
الحادى عشر الهجرى .
للدكتور رمضان عبد التواب
ص ٢٣٨
 - معاجمنا اللغوية
للأستاذ حسن كامل الصيرفى
ص ١٥٢
 - تشخيصات مجمعية :
 - كلمة الأستاذ زكى المهندس فى
استقبال الأستاذ الشاذلى القليبي
ص ٢٥٤
 - كلمة الأستاذ عبد الله كنون .
ص ٢٥٥
 - كلمة الأستاذ الشاذلى القليبي .
ص ٢٦٢
 - النشاط المعجمى العربى أصيل أم دخيل
للدكتور محمد سالم الجرح
ص ١٦١
 - فى الجانب الاحصائى اللغوى
للدكتور احمد علم الدين الجندى



أعضاء راحلون :

● كلمة الأستاذ زكى المهندس في
تأبين المرحوم الأستاذ التميمي
محمد الفاضل ابن عاشور

ص ٢٧٣

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور .

ص ٢٧٤

قصيدة الأستاذ عزيز أباطة .

ص ٢٨٢

كلمة الدكتور التميمي محمد الحبيب
ابن الخوجة .

ص ٢٨٦

كلمة الأستاذ التميمي محمد
الطاهر ابن عاشور .

ص ٢٩٣

● كلمة الدكتور عبد الحلیم منتصر في تأبين
المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف

ص ٢٩٥

قصيدة الأستاذ عزيز أباطة .

ص ٣٠٩

كلمة أسرة الفقيد .
للأستاذ كمال نظيف

ص ٣١٢

كلمة ختام الجلسة
للدكتور طه حسين

ص ٣١٣

● كلمة الأستاذ زكى المهندس في تأبين
المرحوم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدي

ص ٣١٤

كلمة الأستاذ عبد الحميد حسن .

ص ٣١٥

كلمة أسرة الفقيد .
للدكتور فتحي الصعيدي

ص ٣٢٠

من أنباء المجمع :

ص ٣٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

دور الكمبيوتر في البحث اللغوي

لدكتور إبراهيم أنيس

لنفسى هنا ... أى فى عرين الأسد باستعمال هذا اللفظ الأجنبي
« الكمبيوتر » إلى أن يضع له معجمنا الموقر لفظا عربيا !

و « الكمبيوتر » هو فى حقيقة أمره جهاز عالمى له ذاكرة خارقة فوق مقدور
البشر ، وقدرة هائلة على سرعة الحساب ، وعلى ضخامة الكم الذى يقوم بحسابه .
فمما يعطيه « الكمبيوتر » من نتائج فى زمن قصير قد يتطلب من مجموعة من
الدارسين عمرا كاملا ربما يقدر بعشرات السنين .

وإذا كان هذا هو أوضح ما يتميز به « الكمبيوتر » فهل يكتفى أن يطلق عليه
اسم الحاسب الآلى ، مع علمنا بالكم البالغ الضخامة وبسرعة البرق فى حسابه وتذكره ؟ !
وهل يغنى عنا شيئا أن نضيف إلى هذا الاسم كلمة « الإلكتروني » لمجرد تمويه الاسم
على القارى ؟ !

وقد جرى ذكر « الكمبيوتر » في ندوة تضم صفوة من أهل العلم واللغة أعضاء مجمع اللغة العربية ، وتناول الحديث ما يمكن أن يطلق عليه باللغة العربية في ضوء ما نسمع عن إمكانياته ومجالات تطبيقه ، واقترح له اسم « الحسابة الآلى » على أساس أن التاء هنا لزيادة المبالغة ، أى مثل علامة وفهامة ! ! ولكننا آثرنا في تلك الندوة أن ننتظر رأى مجلس المجمع ومؤتمره بهذا الصدد .

على أن فكرة استخدام « الكمبيوتر » في البحوث اللغوية قد ظلت تداعب خيالى منذ سمعت عن مجالات تطبيقه ، ولكنى لم أجروا على مصارحة أحد بذلك إلى أن حدثنى فى هذا الشأن الأستاذ الكبير الدكتور « محمد كامل حسين » متسائلا : لماذا لا نستخدم « الكمبيوتر » فى بحوث لغتنا العربية ؟ وكأنى بعد هذا القول قد صحت من غفوة وقد غمرنى قدر كبير من الحماس ، لاسيا بعد أن تذكرت ما عانيت من جهد وإرهاق ومعى عدد من تلاميذى طلبة كلية دار العلوم فى الاستقراء والإحصاء بالطرق التقليدية ، حين قمت بالبحث منذ سنين فى محاولة للاهتمام إلى نسبة شيوع الأوزان فى الشعر العربى ، وكذلك فى إحصاء أبواب الفعل الثلاثى ، وجموع التكسير ، وغير ذلك مما نشر فى كتيبى أو فى مجلة مجمع اللغة العربية ، ومما لو قد أتيح لنا حينئذ أن نطبّق فيه ما يسمى الآن « برولوجرام الكمبيوتر » لوفرنا جهدا كبيرا وزمنا طويلا ، ولجئنا بنتائج أدق وأشمل .

ومع تعدد المجالات التى استخدم فيها « الكمبيوتر » فى بلادنا حتى الآن يبدو أنها فى الأعم الأغلب تستهدف إما تحقيق معدلات أكبر فى كفاءة الإنتاج بالشركات والبنوك والمؤسسات التجارية والصناعية ، أو تيسير الأمور الإدارية بوفرة البيانات ودقتها فى الوزارات والهيئات ، التى مهمتها الأساسية الخدمات العامة لجمهور المواطنين .

ولا نكاد مع الأسف نرى عندنا توسعا كافيا فى تطبيق « الكمبيوتر » للحصول على النتائج الأكاديمية البحتة ، التى لا تتطلع إلا إلى تطور فى نظرية علمية ، أو تقدم فى البحث المبحث ذاته ، بصرف النظر عن النفع المادى العاجل ! !

ومن هذا القليل في مجالات تطبيق « الكمبيوتر » ، أو ربما يكون أبرزها استخدامه في البحث اللغوي .

وقد آن الأوان لنا نحن أبناء العربية أن نحاول الإسهام في ذلك المجال . ولا أشك لحظة في أن ما سنحققه عن هذا الطريق سيغير من آرائنا بصدد كثير من الظواهر في لغتنا العربية .

وكان القدماء من علماء العربية يشيرون أحيانا في ثنايا كتبهم إلى ما سموه بكثرة الاستعمال ، ويعللون به ظواهر لغوية معينة ، ولكنهم لم يبينوا لنا في وضوح حدود ما سموه بكثرة الاستعمال ، بل كثيراً ما اختلفوا في نسبته .

وربما يكون تفكير هؤلاء القدماء بصدد « كثرة الاستعمال » هو الذي تباور بعدهم في ذلك البحث الذي قام به أحد أساتذة جامعة « هارفارد » ، ووقفنا عليه في الثلاثينات أي قبل أن يظهر « الكمبيوتر » في عالم المستحدثات ^(١) .

وخطرت لي وأنا أفكر في دور « الكمبيوتر » في البحث اللغوي تلك الملاحظات السريعة التي ترددت في كتب بعض علماء العربية من القدماء حين يشيرون إلى ما يمكن أن يعدّ علامات لتمييز الكامة العربية من الكامة الأعجمية مثل قولهم :

(١) لا تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية الأصل ، ولذلك تعدّ كلمة « المنجنيق » من الألفاظ الأعجمية .

(٢) لا تقع الطاء مع الجيم في كلمة عربية ، ولذلك عدّت كلمة « الطاجن » أعجمية .

(٣) لا تجتمع الصاد والجيم في الكلمات العربية الأصل ، فمثل « صولجان » وكذلك « الجص » مما اقترضه العرب .

(٤) لا تقع النون وبعدها راء في اللفظ العربي ، فمثل « نرجس » كلمة أعجمية .

1) Zipf, G. K. selected studies of the Principle of relative frequency in language Harvard 1932,

(٥) لا تكون الزاى بعد دال فى كلمة عربية ، فمثل « مهندس » كلمة أعجمية
تغيرت حتى صارت الآن على الصورة المألوفة « مهندس » ..

(٦) لا تجتمع الزاى أو الدال مع السين فى كلمة عربية ، فكلمة « ساذج »
معربة عن الفارسية .

ثم تساءلت بعد أن تذكرت كل ذلك وقلت : هل من سبيل إلى الوقوف على
ملاحم جديدة فى نسيج الكلمة العربية ؟ ! وانتهزت فرصة زيارتي للكويت بوصفى
أستاذ زائرا للجامعة هناك ، وتحدثت مع القائمين بالعمل على جهاز « الكمبيوتر »
وعلى رأسهم الدكتور على حلمى موسى الأستاذ بقسم الفيزياء ، وطال الحديث
والتفكير ، وتكفل الدكتور حلمى بوضع مشروع أو « بروجرام كومبيوتر » كما
يسمونه . لنهتدى عن طريقه إلى تلك الملاحم على أساس إحصاءات فى الحروف
الأصلية لمواد لغتنا العربية . وأنجز أستاذ الفيزياء الجزء الأول من هذا المشروع
الرائع ، وتم طبعه فى الكويت على نفقة الجامعة هناك ، كما تم توزيعه على جميع
أعضاء المجامع اللغوية فى البلاد العربية . وعلى أقسام اللغات وأقسام الرياضة والإحصاء
فى كليتنا الجامعية .

وبقى علينا نحن اللغويين أن نفيد منه ، وأن نستنبط على أساسه ما قد يعن
لنا من آراء جادة أصيلة فى بحوث لغتنا العربية .

ويكفى أن أشير هنا إلى أنى بعد أن تصفحت تلك الإحصاءات بدت لى وجهة
نظر جديدة بصدد كثير من ظواهر اللغة العربية ، وأرجو أن أستكمل بحثها ونشرها
فى المستقبل القريب إن شاء الله .

وبالله التوفيق .

ابراهيم أنيس
المشرف على المجلة

نوفمبر سنة ١٩٧١ م



المعجم الكبير

للدكتور إبراهيم مدكور

لا تخلو من عيوب مشتركة ، كالحشو والتكرار ، ونقص التعريفات أو غموضها ، وخلط المعلومات وبخاصة ما اتصل منها بالتاريخ والجغرافيا ، أو الكيمياء والطبيعة . وتبويبها معقد ، وفي الرجوع إليها عناء لا يقوى عليه عامة الدارسين . ولا يتمشى الأساس الذي تقوم عليه مع سنة التطور ، فهي تضيق دائرة اللغة ، ولا تقبل إلا ما أخذ به في الجاهلية وصدر الإسلام ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثاني للهجرة . وقد ارجح هذا عليها منذ زمن ، وأريد تداركه حديثا بوضع معجمات عربية جديدة تتمشى مع المنهج السليم .

٣- ولا شك في أن فن التأليف المعجمي نما وتطور على مر الزمن ، وبلغ القمة في

قد لا يكون ثمة لغة توافر لها من المعجمات مثل ما توافر من قديم اللغة العربية ، ففي القرن الثاني للهجرة افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات الكبرى ، ووضع « كتاب العين » المشهور ، وتنافس الباحثون من بعده في وضع معجمات متلاحقة في أحجام مختلفة ، وفي تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربي ، وربما ظهر في القرن الواحد عدة معاجم . وقد وصل إلينا معظم المعجمات القديمة ، وبين أيدينا اليوم قدر منها لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوروبية . ٢- وللمعجمات القديمة قيمة تاريخية لا تنكر ، فهي غزيرة المادة ، وثيقة الرواية ، وفيها معين لا ينضب في شرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . ولكنها

كلمة أقيمت في مؤتمر المستشرقين الثامن والعشرين الذي عقد في كانبيرا بأستراليا في المدة من ٦ إلى ١٣ من شهر

يناير ١٩٧١

البحث ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذى كان يأمل أن يخرج في سبع سنوات ، ولكن حالت الحرب العالمية الثانية دونه وما يريد . وعبثا حاول المجمع أن يلهم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود ٤٠ سنة إلا على جزازات غير مستوفاه

* * *

٥- ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم فيشر التاريخي ، أخذ نفسه بوضع ما سماه « المعجم الكبير » ، وأخرج منه عام ١٩٥٦ نموذجا في نحو ٥٠٠ صفحة عده تجربة دعا المتخصصين إلى قراءتها وتسجيل ملاحظاتهم عليها . ثم استمر في عمله ، واستطاع في منتصف العام الماضي أن يخرج الجزء الأول من معجمه الكبير الذى أقدمه اليوم . وهو مقصور على حرف الهمزة ، ويقع في نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير . وقد جاء كما ترون ثمرة جهود طويلة متصلة ، ووليدة خبرة واسعة . أعد ما ته محررون دربوا في كنف المجمع وتحت إشرافه ، وراجعها خبراء متخصصون

القرن التاسع عشر الذى ظهرت فيه معجمات هامة في لغات شتى ، مثل : « لا روس » فى الفرنسية ، و « أكسفورد » فى الإنجليزية ، و « أدلونج » فى الألمانية ومعجم أكاديمية بطرسبورج فى الروسية . وهى تحرص جميعا على الدقة والوضوح ، وتعنى بترتيب المواد ، وتحديد مدلول الألفاظ ، وتجارى تقدم العلم والفن . ونحا بعض المعجمات العربية الحديثة نحوها ، « كالمنجد » الذى ظهر فى أوائل هذا القرن ، وجاء محاكاة صادقة لمعجم « لا روس الصغير » .

٤- ويوم أن أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، أريد به أن يضطلع ، بين أعبائه المختلفة ، بوضع معجم تاريخي للغة العربية . وشاءت الصدف أن يكون بين أعضائه المؤسسين لغوى أوربي كبير ، هو المستشرق الألمانى فيشر الذى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، ورغب فى أن يخرج معجما عربيا تاريخيا على غرار « معجم أكسفورد » ولم يتردد المجمع فى أن يوفر له أسباب

توضيحاً للمعنى ، وتأييداً للاستعمال .
ورتبمت الشواهد ترتيبها طبيعياً ، فبدأت
بالقرآن ، وتلاه الحديث ، ثم جاء
بعدهما النص المنشور ، ومنه المثل ، ثم
ختم بالشعر ، واستشهد بالقديم
والحديث على السواء ، واللغة كل متصل
الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه ، ومن
التصور أن نقف بها عند حدود زمنية
معينة .

وعنى فيه عناية خاصة بالوضوح
والدقة ، فرتب ترتيباً دقيقاً ، وبوب
تبويباً سهلاً . بدأ فيه بالفعل الثلاثي ،
مع ضبط عين مضارعه وذكر مصدره ،
ثم تلاه الثلاثي المزيد بحرف أو أكثر ،
وجاء بعدهما الرباعي بأنواعه . ولم تذكر
المشتقات لأنها قياسية ، وختم بالأسماء
مشتقة كانت أو جامدة ، وذكرت معها
جموع التكسير وحدها في الغالب . والتزم
في كل هذا الترتيب الحرفي ، ولكن في
حدود المادة اللغوية ، تمثيلاً مع طبيعة
العربية وأنها لغة اشتقاقية . وصيغت
التعريفات في عبارة مختصرة وأسلوب
سهل ، ووضحت النصوص الماثورة
والشواهد المعقدة .

في علوم اللغة ، وفي اللغات السامية
والفارسية والتركية . ثم عرضت على
لجنة المعجم الكبير من بين أعضاء المجمع ،
وهم من كبار رجال الأدب واللغة والعلم
والفلسفة ، ولم يتردد هؤلاء في أن يرجعوا
إلى زملائهم المجمعيين الآخرين في نواحي
تخصصهم المختلفة .

٦- ونستطيع أن نقرر أن هذا المعجم
لون جديد في عالم المعجمات العربية ، فيه
تأصيل وتحقيق ، فذكر في صدر المادة
النظائر السامية إن وجدت ، وفي هذا
ما يربط العربية بأخواتها السامية ، وما
يفتح باباً لدراسة مقارنة . وأشار بعد
هذه النظائر إلى معاني المادة الكلية ،
متدرجة من الحسنى إلى المعنوى ، ومن
الحقيقي إلى المجازي .

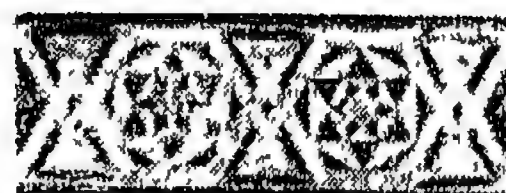
وفيه جمع واستيعاب ، ورجوع إلى
المصادر الأولى ، وتعويل ما أمكن على
النصوص الثابتة ؛ فلم يقتصر فيه على الأخذ
من المعجمات القديمة ، ومنها المطبوع
والمخطوط ، بل أضيف إليها كتب
الأدب والعلم والتاريخ . ولغة نطاق واسع
وميادين كثيرة يجب تتبعها والأخذ
عنها . واستشهد فيه ما أمكن على المواد

ولم يكن بد لمعجم القرن العشرين أن يتابع العلم في سيره وتطوره ، وأن يسجل لغته الخاصة ، وهي جزء من اللغة العامة فأورد من القديم اصطلاحات الفقهاء والمحدثين والمناطق والعروضيين . واكتفى من المصطلحات الحديثة بما شاع استعماله في الأوساط العلمية والحياة العامة ، أو كان وثيق الصلة بالاستعمال الأدبي واللغوي ، ووقف في ذلك كله عندما أفرد مجمع اللغة العربية ، وعرض المعجم أيضا لأعلام الأشخاص ، فعرف بها في اختصار وأنزلها منزلتها في تاريخ الفكر الإنساني . ولأسماء بعض الأماكن ذكر متصل في الأدب العربي ، ولا مناص من الإشارة إليها ، وإن عز تحديد مواقعها أحيانا . وأضيف إليها أسماء القارات والدول والمدن الشهيرة ، وما كانت له قيمة تاريخية ، أو نسب إليه علماء مشهورون .

وفي هذا المعجم جوانب ثلاثة أساسية : جانب منهجي هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب ، وجانب لغوي عني فيه بأن تصور اللغة تصويرا كاملا ، فيجد فيه طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم . وفيه أخيرا جانب موسوعي يقدم ألوانا من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات والأعلام ، وروعي في هذا الجانب الجمع بين القديم والحديث ما أمكن ، فذكرت منطيات العلم العربي ، وأضيف إليها ما جاء به العلم الحديث . وفي هذا كله عمق ودقة ، وأصالة وتجديد ، ويسر .

وتيسير .

ابراهيم مذكور
الأمين العام للمجمع



أكثر من واحد ..

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

هل من الخطأ في اللغة أن يقال : كذا اسم لأكثر من واحد ؟

وهل يتعين أن يقال : كذا اسم لغير واحد ؟

فالمثال الأول يفيد أن زيدا وعمرا
كلاهما عالم ، وأن ما عند زيد من العلم
أعظم مما عند عمرو .

والمثال الثاني يفيد أن كلا من بكر
وخالد كريم ، وأن بكرا أوسع كرما من
خالد .

قالوا : وهذا المعنى الذي يقتضيه
« أفعل التفضيل » لا يثبت في العبارة
التي هي موضوع البحث : « كذا
اسم لأكثر من واحد » فإنه ليس في الواحد
كثرة يشترك بها مع ما فوقه من الأعداد .

فلا يصح حينئذ أن يصاغ فيه « أفعل
التفضيل » من معنى الكثرة ، إنما الذي

بعض العلماء : إنه يجرى

على ألسنة كثير من

اباحسين وأفلامهم - عندما يعرض لهم

في بعض المقامات علم من الأعلام ، قد

سمى به عدة أشخاص أو عدة أشياء -

أن يقولوا : إنه « اسم لأكثر من

واحد » وهذا تعبير خطأ لا تسمح

به قواعد اللغة العربية .

وذلك أن صيغة « أفعل التفضيل »

تقتضي زيادة المفضل على المفضل عليه في

المعنى المشترك بينهما ، كما يقال :

« زيد أعلم من عمرو ، وبكر أكرم من

خالد » .

يمكن أن يكون صحيحاً هو أن يقال :
« كذا اسم لغير واحد » أى لاثنيين أو
ثلاثة أو ما فوق ذلك .

هذا ما يقوله أولئك العلماء ، وهو
قول يدل على أنهم لم يعطوا مسألة « أفعل
التفضيل » حقها من الدراسة المستوعبة ،
ولم يتتبعوا الاستعمالات المختلفة التي
وردت بها صيغة « أفعل » في اللغة
العربية ، بل وقفوا عندما اشتهر من
أحكام هذه الصيغة .

إن دلالة الصيغة على المفاضلة بين
أمرين بزيادة أحدهما على الآخر في المعنى
المشترك بينهما ليست الحكم الوحيد
لأفعل التفضيل ، وإنما ذلك إذا لم يقصد
به شيء آخر غير تلك المفاضلة ، فإذا
قصد به معنى آخر غير المفاضلة - وذلك
كثير فيما ورد في اللغة - فإن غاية
ما يستفاد من الصيغة إنما هو ثبوت المعنى
للطرف الذي يطاق عليه اسم التفضيل ،
ولا تفيد اشتراك الطرف الآخر في هذا
المعنى :

(١) فإذا قيل : « زيد أقصر من
عمرو » كان ذلك محتملاً أن يكون

« الأول » المفاضلة بين زيد وعمرو
في القصر على أساس اشتراكهما
في أصل هذا المعنى مع زيادة زيد
فيه على عمرو .

« الثاني » ألا يكون المقصود المفاضلة
بينهما على هذا الوجه ، وإنما يكون
المقصود إفادة ثبوت القصر لزيد ،
على حين أن عمرا يكون طويل
القامة ، وأن طول قامته بين
لا شبهة فيه ، ولكن لما كان الكلام
في معرض خاص هو بيانقامة كل
منهما جرى بالعبرة في صورة
المفاضلة ، أى أن المراد بها إفادة أن
قامة زيد قصيرة ، على حين أن
قامة عمرو طويلة بينة الطول ، وأنها
لا تشاركها في القصر .

(ب) وإذا قيل : « كل إنسان أحق
بماله » فليس المعنى فيه على أن
صاحب المال يشاركه غيره في ثبوت
حق له على هذا المال ، وأن حق
صاحب المال أكبر وأعظم من حق
غيره عليه .

ليس المعنى على ذلك ، فإنه ليس لأحد غير صاحب المال حق فيه أو عليه ، وإنما الحق كله لصاحبه .

(ج) ثم إنه لا ينكر في اللغة ولا في المنطق أن ينسب شيء إلى شيء آخر بالكبر أو الصغر أو المساواة ، فيقال : هذا أكبر من ذاك أو أصغر منه أو مساو له ، بل إن كل شيء يمكن أن ينسب إلى غيره على هذا الوجه ، وهو حينئذ لا بد أن يكون واحدا من هذه الثلاثة ، فهي لا تجتمع فيه جميعها . ولا اثنان منها ، كما لا يمكن أن يخلو منها كلها .

والواحد مع ما فوقه من الأعداد لا يخرج عن هذا القانون ، فهو لا بد أن يثبت له أحد هذه الأمور الثلاثة ، وينفي عنه الاثنان الآخرين ، فلا يمكن أن يقال : إنه مساو لما فوقه أو أكبر منه ، بل يتعين أن يقال : إنه أقل مما فوقه وأصغر منه ، وإذا صح أن يقال : إن الواحد أقل من الاثنين رأصغر منهما فإنه يصح بالضرورة أن

يقال : إن الاثنين أعظم من الواحد وأكبر منه وأكثر ، وذلك لا يوجب أن يكون هذا الواحد عظيما أو كبيرا أو فيه كثرة ، فإن وجوب مشاركة المفضل عليه للمفضل في أصل المعنى الذي تجرى فيه المفاضلة بينهما إنما يكون في « أفعل » الذي جاء على الوجه الذي اشتهر به كما قد سنا : فأما إذا كان على غير هذا الوجه فإنه لا يوجب تملك المشاركة .

* * *

(د) هذا واستعمال « أفعل التفضيل » على هذا الوجه الذي ليس فيه مشاركة بين اثنين في أصل معنى الصيغة لا ينبغي أن يقال إنه شاذ أو ضعيف ، فإننا نجد قد ورد في آيات كثيرة من الكتاب العزيز كما يتبين مما يلي :

١- قال الله تعالى : « أفمن يَهْدِي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يَهْدِي إلا أن يَهْدِي » .
(٣٥ يونس) .

٢- وقال تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم »
(٢٢ الملك) .

ففي الآية الأولى إشارة إلى القول الذي يتعين أن يكون جوابا في هذا المقام إذا كان مما يطلب فيه جواب ، وذلك القول المتعين هو أن الأحق بأن يتبع إنما هو ذلك الذي يهdy غيره إلى الحق ، وليس هو الذي لا يهdy إلا إذا هداه غيره .

لكن ذلك لا ينبغي أن يفهم على أساس « أفعل التفضيل » الذي يقتضى المشاركة بين أمرين في معنى مع زيادة أحدهما على الآخر فيه ، فإن من لا يهdy إلا إذا هداه غيره ليس له جدارة أن يكون أو حقيقة أن يكون متبوعا يهdy به غيره ، فليس هناك معنى مشترك بين الطرفين يزيد فيه أحدهما على الآخر .

فصيغة « أفعل » في قوله سبحانه « أحق أن يتبع » ليس المراد بها

إلا أن من يهdy غيره إلى الحق هو الجدير وحده أن يتبع وأن يقتدى به غيره .

وكذلك الحال في آية الملك « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » .

فإن القول المتعين بإزاء هذه المقابلة - وهو ما ترشد إليه الآية الكريمة - هو أنه لا شك أن الذي يمشى سويا على صراط مستقيم هو الأهدى

والأرشد ، وليس هو من يمشى مكبا على وجهه ، متخبطا في سيره ، لا يدرى أين هو ولا أين يذهب .

لكن هذه الصيغة : « أهدى »

لا يصح أن يفهم منها في الآية أن كلا من السائر على الصراط

المستقيم والمتخبط الهائم على وجهه

قد ثبتت له الهداية ، وأن حظ

الأول منها أعظم من حظ الثاني ،

فإن هذا الثاني ليس له حظ من

الهداية أصلا .

(هـ) وما وردت فيه صيغة « أفعل »
لغير المفاضلة التي تقتضى اشتراك
اثنين فى معنى مع زيادة أحدهما فيه
على الآخر قوله تعالى :

٣- « أفمن يلقى فى النار خيرا أم
من يأتى آمنا يوم القيامة » .
(٤٠ فصلت)

٤- وقوله سبحانه : « قل أذلك
خيرا أم جنة الخلد التى وعد
المتقون » (١٥ الفرقان)
واسم الإشارة فى قوله سبحانه :
« أذلك خيرا » راجع إلى
السعير والعذاب به كما دل
على ذلك قوله تعالى : « بل
كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن
كذب بالساعة سعيرا » .

٥- ومن ذلك أيضا قوله تعالى :
« أذلك خيرا نزلا أم شجرة
الزقوم » : (٦٢ الصافات)
واسم الإشارة فى هذه الآية راجع
إلى أنواع النعيم التى فصلتها
الآيات قبل ذلك لعباد الله
المخلصين ، والتى أشير إليها

فى قوله سبحانه : « إن هذا
لهو الفوز العظيم » لمثل هذا
فليعمل العاملون » .

٦- وكذلك قوله عز وجل : « أفمن
أسس بنيانه على تقوى من
الله ورضوان خيرا أم من أسس
بنيانه على شفا جرف هار
فانهار به فى نار جهنم » .
(١٠٩ التوبة) .

فى هذه الآيات وردت كلمة
« خيرا » ، وهى « أفعل تفضيل »
لكنها لا تفيد المفاضلة بين الأمرين
المتقابلين على أساس اشتراكهما
فى أصل الخيرية مع زيادة أحدهما
فيها ، فإنه لا خير مطلقا فى جانب
من يلقى فى النار ، أو من يكون
جزاؤه عذاب السعير ، أو من يكون
طعامه من شجرة الزقوم التى تنبت
فى أصل الجحيم ، أو من أسس
بنيانه على حافة جرف هار انهار به
فى نار جهنم .

لا خير فى شئ من ذلك ، وإنما
الخير كل الخير فى الطرف الآخر

النار ، أما الطرف الآخر فهو
الرسول صلى الله عليه وسلم
وأصحابه المؤمنون الأخيار .
ولا شك أن « ضلال السبيل
وشر المكان » أمران مقصوران
على فريق الكافرين الذين هم
أصحاب الجحيم .

(ز) ومن هذا القبيل الذى يتضح فيه
المراد قوله تعالى :

٨ - « أصحاب الجنة يومئذ خير
مستقرا وأحسن مقيلا » . (٢٤)
الفرقان) فإنه ليس المعنى على أن
أصحاب الجنة لهم فى الآخرة مستقر
ومقيل خير وأفضل من مستقر
أصحاب النار ومقيلهم مع إثبات
أصل الخيرية والحسن المستقر
هو لأهل ومقيلهم .

ليس المعنى على ذلك ، فإنه ليس
فى مستقر أهل النار أو مقيلهم
شيء من الخير أو الحسن ، وإنما
ذلك مقصور على مستقر أهل الجنة
ومقيل أهل الجنة .

المقابل ، وهو من يأتى آمنا يوم
القيامة ، ومن يكون جزاؤه جنة
الخلد التى وعد الله المتقين ، التى
فيها نزهة ومستقره الكريم ،
وكذلك من أسس بنيانه على تقوى
الله ورضوانه .

(و) وما يتضح فيه المعنى الذى قررناه -
وهو أن صيغة « أفعل » قد ترد
غير مراد بها المفاضلة بين أمرين
بحيث يكونان مشتركين فى أصل
المعنى مع زيادة أحدهما فيه - قوله
تعالى :

٧ - « الذين يحشرون على وجوههم
إلى جهنم أولئك شر مكانا
وأضل سبيلا » . (٣٤ الفرقان)
فإنه لا يمكن أن تكون
صيغة « أفعل التفضيل » هنا
فى كلمتى « شر وأضل »
لإفادة المفاضلة التى تقتضى
الاشتراك فى أصل معناه مع
زيادة أحد الطرفين فى هذا
المعنى على الآخر ، فإن هذين
الطرفين أحدهما الكفرة الفجار
المنكرون للبعث وهم أصحاب

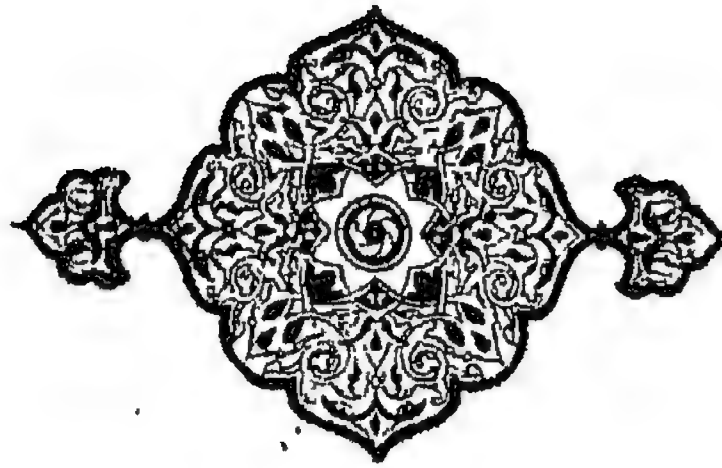
هذا - وإني أرى هنا أن أنهي القول
في هذه المسألة التي قام عليها هكذا
أكثر من دليل ، (ولا أحب أن
أقول : التي قام عليها غير دليل)
كما كان يريد المخالفون .

أرى أن أنتم هذا القول بآية بيّنة
من الكتاب العزيز ، وهي الآية
الثانية عشرة من سورة النساء ،
التي يقول الله تعالى فيها : « وإن
كان رجل يورث كلاله أو امرأة
وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما
السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك
فهم شركاء في الثلث » . فإن
قوله سبحانه : « فإن كانوا أكثر

من ذلك » معناه الذي لا يصح
خلافه هو : فإن كانوا أكثر من
أخ واحد أو أكثر من أخت واحدة .
ولا يجزئ أحد أن يقول إن معناه :
فإن كانوا أكثر من الاثنين :
الأخ والأخت معا ، وذلك أن كلمة
« أو » في الآية هي للدلالة على أحد
الشئيين ، وليست للدلالة على
الاثنين جميعا .

هذا نص قرآني فيه الدلالة الكافية
الشافعية ، التي تقطع الشك وتسد
باب الجدل ، والله وليّ التوفيق .

عبد الرحمن تاج
عضو المجمع



في نحو الأربعين من عمره ، ومعنى ذلك
أنه شاب في شرح الشباب ؛ إذ لا بد أن
المشيبي سبق وفاته بمدة طويلة .

فمن ذلك قوله :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس
إلا من فضل شيب الفؤاد

وكذاك القلوب في كل بُوس
ونعيم طلائع الأجساد

زارني شخصه بطلعة ضيم
عمرت معجلى من العواد

نال رأسي من ثغرة الهم داء
لم يناله من ثغرة المياد

ومعنى البيت الأخير : أنه لم يشب
شيبا طبيعيا ، بل وجد الشيب من الهم
فرجة نفذ منها إلى رأسه ؛ لأن من شأن
الهم أن يشيب صاحبه ؛ كما قال المتنبي :

والهم يخترم الجسم نفاذة
ويشيب ناصية الصبي ويهــرم

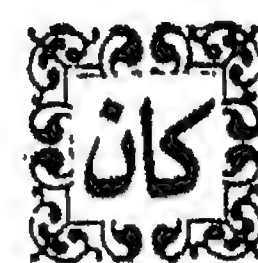
وفي معنى وفود الشيب المبكر ؛ يقول
أبونواس :

وإذا عددت بني كم هي لم أجـد
للشيب عذرا في النزول براسي



للأستاذ علي الجندى

عمر بن أبي ربيعة - إذا رأى
شابا - شد شعره ، وصاح :



واشباباه ! واشباباه !

ويقول الأصمعي : أفضل أنماط
الشعر : المرائي ، والبكاء على الشباب ،
ولقد بكت العرب الشباب ، وما وفته
حقه !

ومن الشعراء الذين بكوا الشباب بكاء
حارا ! وتوجعوا للشيب توجعا عميقا ؛
الطائي الأكبر « أبو تمام »

وكان « أبو تمام » مخلصا في بكائه
وتوجعه ؛ لأن المشيب نزل به مبكرا قبل
الأوان ! ويكفي أن نعرف أنه مات

ويقول البهاء زهير :

وليس مشيبا ما ترون بعـارضـى

فلا تمنعوني أن أهم وأطربا

فما هو إلا نُور ثغر لثمه

تعلق في أطراف شهرى فألها

وأعجبني التجنيس بينى وبينه

فلما تبدى أشنبا^(١) رحت أشيبا

وأراد أبو تمام « بشجرة الميلاد » :

الوقت المناسب الذى يهجم عليه الشيب

فيه ، لأنه يجد السبيل ممهدا حينئذ إلى

الحلول برأسه ، شأنه فى ذلك شأن كل

إنسان تعلو به السن .

وزبدة قوله : أنه يعلن فى شكوى مرة :

أن هذا الضيف غير المحتشم ، تسلل إليه

من ناحية الهموم والأحزان ، لا من ناحية

انصرام الشباب ، وتقادم العمر ، ومن

أجل ذلك حُق له أن يتوجع ويتفجع !

وقد أخذ عليه القاضى الجرجاني قوله :

« شيب الفؤاد » فذكر : أنه مما استقبح

من استعاراته ، ثم قال : وزعموا أنه

لما أنشد ذلك بحضرة أحمد بن أبي دؤاد

قال من حضر : وكيف يشيب الفؤاد ؟

فقال أبو تمام مرتجلا :

وكذاك القلب—وب فى كل بؤس

ونعيم طلائع الأجساد

ونحن لا نقر هذا النقد ، ولا نقيم له

وزنا ، لأن القلب يصح أن يوصف

بالشباب والشيوخنة تجوزا ، على معنى

التفتح للحياة ، والاستمتاع بمباهجها

ومسراتها ، وعلى معنى اليأس منها

والتجهم لها ، والصد عن نعمائها وزهرتها ،

وكلنا يحس ذلك إحساسا واضحا ، ويلمسه

فى تجاربه مع الناس ، فهذا فتى حزين

النفس ، حرج الصدر ، كاسف

البال ، لا يشعر بلذة العيش فى ريق

العمر ، ونضرة الصبا ؛ لأن قلبه قد هرم

وشاخ ، وهذا شيخ بلغ أرذل العمر ؛ وهو

ضاحك الوجه والثغر ، متوهج النفس ؛

كثير التفاؤل ، آخذا من متع الحياة بحظ

موفور ؛ لأنه يحمل قلبا غضا فتيا ، واسع

الآمال ، ذاخرا بالعواطف الجياشة ، لا يبالى

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد وعلوبة فى الأسنان وبريق .

مايظل أخضر ناضرا عامرا بالأحاسيس
المشوبة ، والأمانى الباسمة الناعمة ،
وصاحبه هامة اليوم أو الغد^(٣) !

وفي هذا المعنى يقول المتنبي - وقد
ذكر النفس بدل القلب - :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه
ولو أن ما في الوجه منه حراب

يغير متى الدهر ماشاء غيرها
وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

وقال كاتب هذه السطور - في معنى
شباب القلب مع شيخوخة الجسم - من
قصيدة يصف بها شيخا متصابيا :

ويح الشيوخ من القساو
ب الحائمات على الغدير

سكنوا وما برحت نوا
فق بين أحناء الصدور

لم ينضب الزيت المضىء
بها ، ولا حمم السعير

هذه الغضون التي رسمتها السنون على
العجين ! وبخاصة إذا كان شاعرا ؛
لأن الشعراء لا يعترفون بشهادة الميلاد !
ولا يجاوزون سن العشرين أبدا .

وقد أخذ المتنبي قول أبي تمام ، فنقل
شيب الفؤاد إلى الكبد ؛ فقال :

إلا يشب فلقد شابت له كبد
شيبا إذا خضبت سلوة نصلا^(١)

وأخذه ابن زيدون فقال :

فشبت وما للشيب وخط بمفردى

ولكن لشيب الهم في كبدى وخط

فاعترفا بأن الكبد تشيب ، وأرادا
بالكبد : القلب ؛ لأن من عادة العرب أن
تستعير لفظ الكبد للقلب ، حتى لتنسب
إليها الخفوق ؛ كقول عروة بن حزام :

كان قطة علق بجناحه

على كبدى من شدة الخفقان^(٢)

ونخرج من هذا : على أن القلوب منها
ما يهرم والجسم في الرّيعان ، ومنها

(١) نصل الحصاب ؛ : ذهب : يريد أنه لا يكاد يسلو ؛ حتى يعود إلى حبه

(٢) يرى بعضهم : أن الشاعر يريد الكبد حقيقة للمبالغة ، لأن الكبد لا تخفق ؛ فنسبة الخفوق إليها ، أبلغ
من نسبتها إلى القلب .

(٣) هامة اليوم أو غدا : أى يموت اليوم أو غدا .

ولا أن أحداً أمرضه الشيبُ ، ولا عزاه
المعزون عن الشباب !
وهذا خُلف من القول !

وقد كفانا الشريف المرتضى ، مشونة الرد
على هذا النقد المغرض ، فقال : وهذا
من الآمدى قلة بصر. في نقد الشعر ،
وضعف بصيرة بائق معانيه ، التي يغوص
عليها حُذاق الشعراء ، ولم يرد أبو تمام
العيادة الحقيقية التي يغشى فيها
العواد مجالس المرضى ، وذوي الأوجاع ،
وإنما هذه استعارة وتشبيه ، وإشارة إلى
الغرض خفية ، فكأنه أراد أن شخص
الشيب - لما زارني - كثر المتوجعون لي ،
والتأسفون على شبابي والمتفجعون من
مفارقتهم ، فكأنهم في مجلس عواد لي ،
لأن من شأن العائد ، أن يتوجع ويتفجع !
فكنى بقوله المذكور ، عن كثرة من تفجع
وتوجع لمشيبه ، وهذا من أبي تمام كلام
في نهاية الحسن والبلاغة ، وما المعيب
إلا من عابه ، وطعن عليه .

منهومة بالحسن هــ
زئمة بأحكام الدهور

خرقاء تمضي لاتبـ
لى بالعذول ولا العذير
وضعيفة الحبات تحت

شغافها أسد هــ

يبلى الشباب وتستجد
صباية بدنى الخـ

سلب الكبير وقاره
وقراره عبث «الصغير» (١)

فليس أبو تمام إذا مخطئا في قوله ،
ولا متجاوزا مايسلم به الألباء ، ولكن هذا
الشاعر قد سبق عصره في كثير من
أخيلته ومعانيه ، فلم يفهمه بعض النقاد ،
ورموه بأنه خالف عمود الشعر المعروف .

وقد أخذ عليه الآمدى أيضا قوله :
«عمرت مجلسي من العواد» - وكان
يتعصب عليه - فقال : لاحقيقة لهذا
ولامعنى ؛ لأننا ما رأينا ولا سمعنا : أن
أحدا جاءه عواد يعودونه من الشيب !

(١) الصغير : كناية عن القلب الصبي .

زفافه ! فأين تجب التعزية ، إن لم تجب
في هذا الموطن ؟ !

ونجد شاعرا آخر ، هو محمود الوراق
يُعَجِّب من حمق الناس ، وغفلتهم في تعزية
من يفقد بعض حُطام الدنيا وعَرْضها ،
ولا يعزّونه إذا بزّه المشيب حُلَّة الشباب !
فيقول :

أليس عجيبا بأنّ الفـــــــتي
يُصاب ببعض الذي في يديــــه
فمن بين باكٍ له مُوجــــع
وبين معزٍّ مُغذٍّ (١)

ويسأله الشيبُ شَرْخَ الشَّيبا
ب فليس يُعزِّيه خَلْقٌ عليه
وقد جعل ابن الرومي فقد الشباب ؛
نهاية البلاء ، وغاية المصائب ! فقال :
أرى المرء مذيلقَى الترابَ بوجهه
إلى أن يُوارى فيه رهنَ المعاطب
وإن لم يُصَبْ إلّا بشَرْخِ شبابــــه
لكان قد استوفى جميعَ المصائب
وإذا كان العزاء واجبا في مصيبة واحدة ،
فكيف به في جميع المصائب ؟ !

ونزيد على ما قاله المرتضى : أن الشعراء
صرّحوا : بأن تبكير الشيب وذهابه
برسوم الشباب الناضر ، من الخطوب
الجسام ؛ كمصيبة الموت سواء بسواء .

وقد جرت العادة أن يعزّي الناس
بعضهم بعضا في ذلك !

وفي هذا يقول داود بن جهوة :

سأبكي بدمع أو دم أشتفى بســــه
فهل لي عذرٌ إن بكيت على نفسي
سلام على الدنيا ولذّة عيشهــــا

سلام غُدُو أو رَواحٍ إلى رمــــس
وأنكرت شمسَ القُبيب في ليلٍ لِمَتِ
لعمري للذيلى كان أحسنَ من شمسى

كأن الصبا والشيب يطمسُ نــــوره
عروسُ أناس مات في ليلة العرس
فهذا شاعر يبكى على نفسه قبل أن
يموت ؛ لأنه اعتبر الشيب موتا !

ثم هو يشبه صباه الذى طمس نوره
الشيب ، بالعروس ؛ تخترمه المنون في ليلة

(١) أغد السير ، وفي السير : أسرع .

تمام، عدل عن نهج عصره في تعاطي الشعر.

ولا ريبة أن الآمدى والقاضى
الجرجاني من نقاد الأدب الحذاق
وقد عرفا بالذوق السليم، وثقوب الفطنة،
فسقطهما قليل، وغير خطير، ولكن
الاحتراس يكون أوجب، حين يكون
الناقد من علماء النحو أو اللغة، فقد
عرف هؤلاء من قديم بالتحامل على
الشعراء؛ بحكم تزمّتهم، ووقوفهم عند
حدود الألفاظ، وقصورهم عن متابعة
الشعراء في أخيلتهم المجنّحة الموشية.

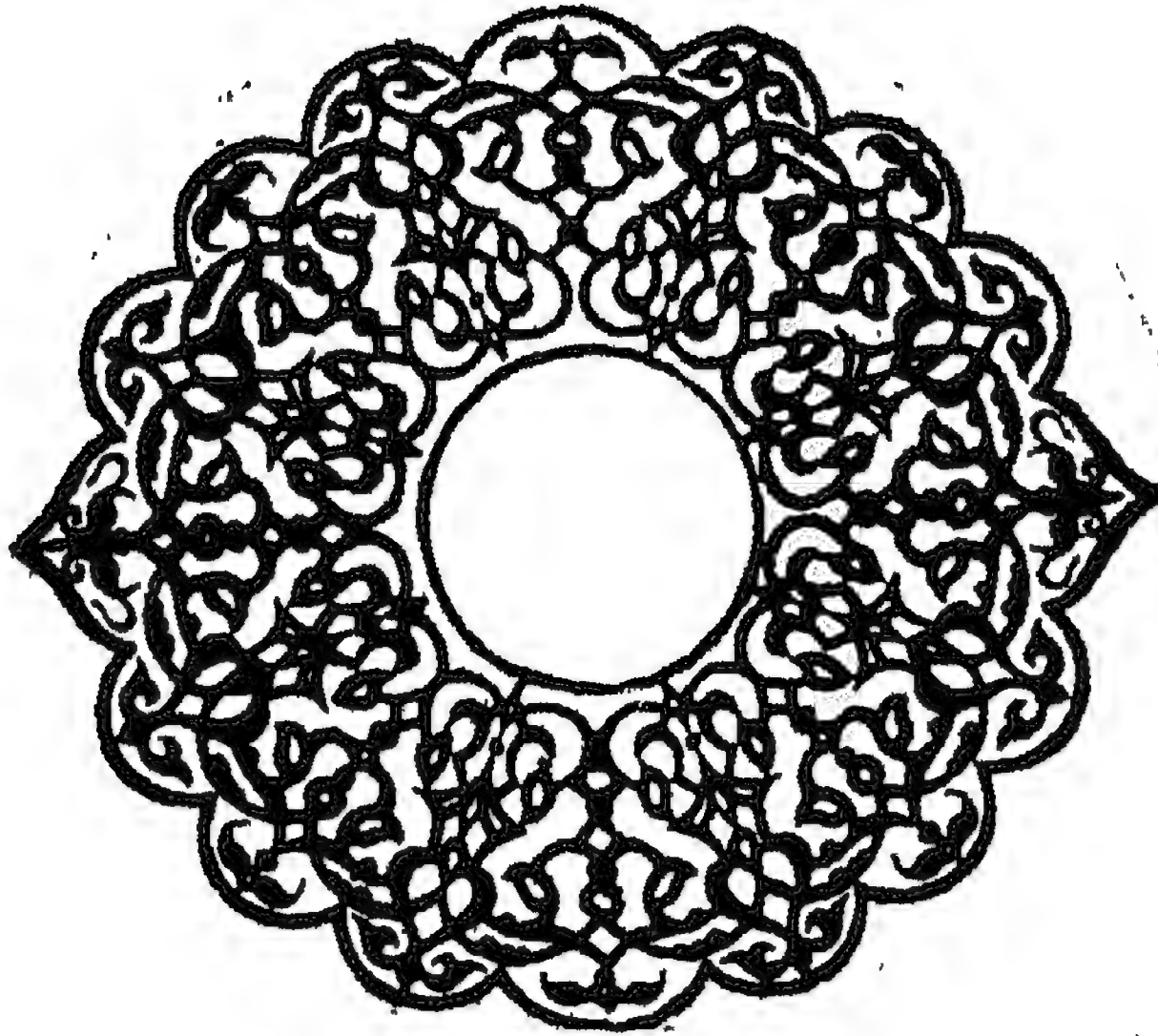
على الجندى

عضو المجمع

ولعل من الغريب أن نرى المتنبي يبكى
على الشباب، وهو يرقل في وشبه، ويمرح
في عنانه، فيقول:

ولقد بكيت على الشباب ولمّا
مشودةٌ ولما وجهى رونق
حذراً عليه قبل يومٍ فراقٍ
حتى لَكِدْتُ بقاء جفنى أشرق

والعبرة فيما تقدم: أنه يجب أن
نتلقى كلام النقاد بالاحتراس في تناولهم
الشعر، وألاً نلقى إليهم القياد المطلق
بلا تأمل وتمحيص، وخاصة حين يتعلق
النقد بشاعر عالم مثقف فيلسوف كآبى



عدد كبير - خصوصا في مصر والشام
والأندلس حيث كثرت المدارس والمعاهد
واتسع مجال التعليم للطلاب . ومن يراجع
أسماء الأعلام الذين عرفوا في اللغة والأدب
والتاريخ وسائر العلوم مابين القرنين
السابع والعاشر للهجرة (أى مابعد سقوط
العباسيين حتى قيام الأتراك العثمانيين)
قد يأخذ العجب من صمود اللغة أمام
الزعازع السياسية التي قضت على سلطان
العرب وأقامت مكانهم أعاجم من مغول
وفرس وأتراك وسواهم - وإليك بعض
هؤلاء الأعلام مع سنى وفاتهم بحسب
التاريخ الميلادى ^(١) .

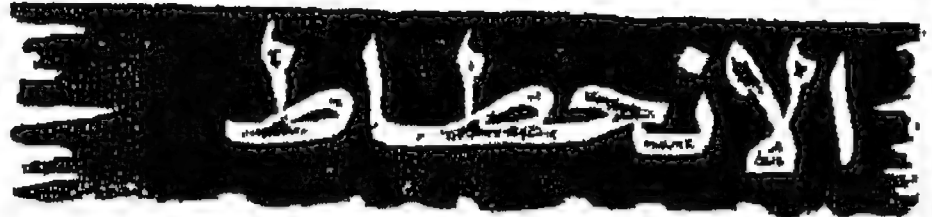
في اللغة - ابن مالك صاحب الألفية
(١٢٧٧) ، ابن منظور صاحب لسان
العرب (١٣١٢) ، ابن هشام صاحب
المغنى (١٣٥٩) ، الفيروز ابادى صاحب
القاموس المحيط (١٤١٤)

في الأدب والشعر - الثعلفرى (١٢٧٦) ،
البوصيرى (١٢٩٥) ، صفى الدين العلى
(١٣٤٩) ابن مكنس (١٣٩١) ، ابن
نباتة (١٣٩٦) ، الطواط (١٣١٨) ، ابن

لغتنا



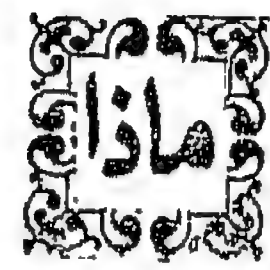
في عصر



للأستاذ أبيس المقدسى

يراد بعصر الانحطاط ،

وكيف كانت لغتنا فيه ؟



سؤال نحاول أن نجيب عليه بما يلى :

بين مؤرخى الأدب العربى من يذهبون
إلى أن انقضاء العصر العباسى فى بغداد
كان انقضاء لعصر الازدهار فى اللغة
العربية وآدابها . والواقع أن الأمر لم يكن
كذلك ؛ فإن العربية برغم ما أصاب أهلها
من ضعف وتأخر فى الحياة السياسية
ظلت قرونا بعد سقوط الخلافة العباسية
ساطعة الأنوار فى شتى الأقطار . فقد نبغ
فى تلك الأثناء من أهل الأدب والعلم فيها

(١) أثرتنا هنا التاريخ الميلادى تسهيلا لكثيرين من القراء فى العصر الحاضر

ما نسميه أو ما اصطلاحنا أن نصفه بالانحطاط. الغوى لم يبرز ويشع في اللغة إلا في ظل الحكم العثماني؛ أي ما بين القرن السادس عشر للميلاد وأواخر القرن التاسع عشر - وخصوصا في القرن الثامن عشر إلى منتصف التاسع عشر - ذلك بأن حكّام العهود السابقة للعهد العثماني، وإن كانوا من الأعاجم، فإنهم لم يحاولوا تجريد العربية من امتيازاتها كلغة العلم والأدب والثقافة في زمانهم، بل هم أنفسهم تعرّبوا؛ إذ جعلوا مراكز حكمهم في قلب البلاد العربية واعتمدوا لغة البلاد في معاملاتهم الرسمية وغير الرسمية. أما الأتراك العثمانيون فقد حكموا العرب من عاصمة بعيدة عن مناطقهم هي القسطنطينية على البوسفور التي عرفت لبّان حكمهم بالآستانة وتعرف اليوم باستنبول. فلم يتعرّبوا بل ظلّوا متمسكين بلغتهم التركية على أنها لغة الدولة. ولم تكن العربية عندهم أكثر من لغة الدين يدرسونها للتفقه في العلوم الإسلامية والاستعانة بها على إدارة مصالحهم في المناطق العربية من سلطنتهم الواسعة. ولا ينكر أن بعضهم أتقنها، على أن الوسائل

فهد (١٣٢٤)، ابن حجة الحموي (١٤٣٣)، الأبشيهي (حوالي ١٤٠٠)، لسان الدين بن الخطيب (١٣٧٤).

في التاريخ والجغرافيا - ابن العديم (١٢٦١)، ابن سعيد المغربي (١٢٧٤)، ابن خلكان (١٢٨٢)، القزويني (١٢٨٣)، ابن العبري (١٢٨٦)، ابن الطقطقي (١٣١٠)، أبو الفداء (١٣٣٤)، ابن شاعر الكتبي (١٣٦٢)، صلاح الدين الصفدي (١٣٦٢)، ابن خلدون (١٤٠٥)، القلقشندي (١٤١٨)، المقرئزي (١٤٤١)، ابن حجر العسقلاني (١٤٤٨)، أبو المحاسن تغري بردي (١٤٦٩).

ومن أصحاب الموسوعات - النويري (١٣٣١)، الطوسي (١٣٧٣)، العمري (١٣٤٧)، جلال الدين السيوطي (١٥٠٥). هذا فضلا عن أعلام عُرِفوا في سائر مجالات العلم كالطب والفلك والرياضيات والطبيعات وسواها.

فالعربية في العصور التي تلت العصر العباسي لم تفقد حيويتها ولم تعد مجهلة بل ظلت إلى أمد طويل الأداة المثلى للأدب والعلم والتأليف. والحقائق أن

والحسن البوريني (١٦١٥) صاحب
تراجم الأعيان - ونجم الدين العربي
(١٦٥٠) صاحب الكواكب السائرة -
وأبو العباس المقرئ (١٦٣٠) صاحب
نفح الطيب - وحاجي خليفة (١٦٥٧)
صاحب كشف الظنون - وابن العماد
(١٦٧٨) صاحب شذرات الذهب -
وعبد الغني النابلسي (١٧٣٠) الأديب
الرحالة - والمرادي (١٧٩١) صاحب
ملك الدرر .

فضلا عن عدد غير قليل من الشعراء
والمعنيين بالعلوم الإسلامية أو الدخيلة .
بيد أن هؤلاء الأعلام لا يعكسون لنا
عكسا حقيقيا الحالة العلمية التي شملت
الأقطار العربية إبان الحكم العثماني
وخصوصا في القرنين الأخيرين السابقين
للنهضة الحديثة ، وإنما كانوا فيه أشبه
بجزر قليلة متفرقة في بحر محيط
واسع .

ولا بد لنا ونحن نتكلم على الانحطاط
اللغوي في ذلك العهد من أن نفرق بين
(لغة التأليف) و(لغة الترسل) .
فالأولى ويقصد بها اللغة التي كانت
تستعمل في تصنيف الكتب لجمع أو
عرض المعلومات والأخبار والبحث

في عهدهم لم تتوفر للنهوض بها ، إذ لم يكن
في المناطق العربية التي يحكمونها إلا القليل
بل النادر من المدراس ومعاهد العلم .
فعمّ الجهل تلك المناطق وخدمت فيها
شعلة الأدب والعلم ، وهكذا أخذت
اللغة تنحط تدريجيا . وظلت على هذه
الحالة حتى ظهرت حركة الانبعاش
العلمية في أواسط القرن الماضي .

بيد أن الإنصاف يقتضي أن نقرر أن
العهد العثماني برغم تدهور اللغة والحياة
الأدبية فيه ، لم يخل طوال قرونه الأربعة
من أدباء وعلماء ظلت العربية حيّة على
أفلامهم . يكفي أن نذكر من أسمائهم
مايلي :

في اللغة والأدب - شهاب الدين
الخفاجي (١٦٥٨) صاحب شفاء الغليل ،
وشارح درّة الغواص للحريزي - ويوسف
البديعي (١٦٦٢) كاتب سيرتي أبي تمام
والمتنبي - وعبد القادر البغدادي (١٦٨٢)
صاحب خزائن الأدب - والمرتضى الزبيدي
(١٧٩٠) صاحب تاج العروس -
وأبو العرفان الصبّان (١٧٩١) صاحب
الحاشية على شرح الأشموني .

وفي التاريخ والرحلات - طاش كبرى
زاده (١٥٦٠) صاحب مفتاح السعادة -

وهي طيبة جدا غير أن في هوانها يَبوسة .
إلى قوله يصف جامعها : « قد رفعت قواعده
بالحجارة الموجهة كبارا مؤلفة ، وجعل
عليها شرف بهية ، وجعلت أساطينها
أعمدة سوداء ملساء على ثلاثة صفوف
واسعة جدا ؛ وفي الوسط إزاء المحراب
قبة كبيرة ، وأدير على الصحن أروقة
متعالية بفراخ فوقها ؛ ثم بُلط جميعه
بالرخام الأبيض ، وحيطانه إلى قامتين
بالرخام المجزّع ثم إلى السقف بالفسيفساء
الملونة ومن أعجب شيء فيه تأليف
الرخام المجزّع كل شامة إلى أختها .
ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه
سنة لأفاد كل يوم صبيحة وعقدة أخرى . »

ومن كتاب (المسالك والممالك)
للإصطخرى وهو أيضا من أهل القرن الرابع
الهجرى ، وصفه لتجار فارس إذ يقول :

« وأما تجارهم فالغالب عليهم معبة
المال والحرص . فأما أهل سيراف (ميناء
على الخليج) والسواحل فإنهم يسيرون
في البحر حتى ربما غاب أحدهم عامة عمره
في البحر . ولقد بلغنى أن رجلا من أهل
سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج

في مختلف الشئون ، ككتب التاريخ
والأدب والعلم والقصص وما إليها .
فهذه كانت منذ أقدم العهود يعتمد فيها
على العموم الأسلوب السهل المرسل الخالى
من التصنع الفنى . وظلت كذلك حتى
دخلت العهد العثمانى . إلا أنها أخذت في
هذا العهد تفقد ما كان لها سابقا من جودة
النسيج ومتانة التركيب ، وما زالت حتى
وصلت في أواخره إلى دركة الركافة
والرثاثة . وما نحن للتمثيل فنقل هنا
بعض نصوص من كتب تاريخية أو
جغرافية وضعت في عهود سابقة للعهد
العثمانى ثم نقابلها بأمثالها من مؤلفات
العهد المذكور .

من كتاب (أحسن التقاسيم) للأبى عبد الله
المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٨ م)
قوله يصف دمشق :

« ودمشق هي مصر الشام ودارة الملك
أيام بنى أمية ، وثم قصورهم وآثارهم .
بنيانها خشب وطين ، وأكثر أسواقها
مغطاة . وهي بلد قد خرقتة الأنهار وأحقت
به الأشجار ، وكثرت به الثمار مع رخص
الأسعار - لا ترى أحسن من حماماتها
ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها .

لا يعاندهم ملك إلا أقصوه ، ولا يوافيهم
جبار إلا كسروه ، فذلّت لهم البلاد وأذن
لظاعتهم العباد .

ومن كتاب (نزهة المشتاق) للشریف
الإدریسی المتوفى سنة (٥٥٤٨) ننقلها
النص من وصفه لمدينة المریة بالأندلس -
قال : « وكانت المریة قبل الآن تحوى
من صنوف آلات النحاس والحديد إلى
سائر الصناعات مالا يُحَدّ ولا يَكَيّف .
وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير
الرخيص . . . وكانت المریة إليها تقصد
مراكب البحر من الإسكندرية والشام
كله . ولم يكن بالأندلس أيسر من أهلها
مالا ، ولا أتجر منهم في الصناعات
وأصناف التجارات تصريفا وادخارا .
والمدينة في ذاتها كبيرة كثيرة التجارات ،
والمسافرون إليها كثيرون » ، إلى قوله :
" وموضع المریة من كل جهة استدارت به
صخور مكدة وأحجار صلبة مضرّة
لا تراب بها ، كأنها غربلت أرضها من
التراب » . .

من السفينة نحو من أربعين سنة .
وكان إذا قابل البر أخرج صاحبه لقضاء
حوائجه في كل مدينة - يتحول من
سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو
تشعثت فاحتيج إلى إصلاحها . وقد
أعطوا من ذلك حظا جزيلا حتى إن أحدهم
يبالغ ملكه أربعة آلاف ألف دينار ، فتراه
في لباسه لا يتميز من أجيره .

وهذا نص من كتاب (مروج الذهب)
للمسعودی المتوفى سنة ٥٣٤٦هـ . قال في وصف
له لأرض سبأ في اليمن : « ذكر أصحاب
التاريخ القديم أن أرض سبأ من أخصب
أرض اليمن وأثراها وأغلقها وأكثرها
جنانا وغيطانا ، وأفسحها مروجاً ، على
بنيان حسن مقيم وشجر مصفوف ،
ومسالك للماء متكاثفة وأنهار متفرقة .
وكان أكثر من مسيرة شهر للراكب
المجد على هذه الحال . فكان أهلها
في أطيب عيش وأرفهه ، في نهاية الخصب
وطيب الهواء وصفاء الفضاء ، وتدفق
المياه ، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة ،
وكانت بلادهم في الأرض مثلاً . فمكثوا
على ذلك ما شاء الله من الأعصار ،

حين وصولها إلى المسجد النبوي
في المدينة . قال :

«وصلت راكبة في قبّتها وحولها
قباب كرائمها وخدمها ، والقراء أمامها ،
والفتيان الصقالب بأيديهم مقامع الحديد
يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها
إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم .
فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها
ومشت إلى أن سلّمت ع النبي (ص) ،
والخوّل أمامها ، والخدام يرجعون
أصواتهم بالدعاء إشادةً بذكرها .
ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين
القبر الكريم والمنبر ، فصلّت فيها تحت
الملحفة ، والناس يتزاحمون عليها والمقامع
تدفعهم عنها » .

هذه نماذج من لغة التأليف في كتب
التاريخ والجغرافيا وما إليها خلال
العهدين العباسي والمغولي ، وهي على العموم
من الأسلوب المرسل السهل المحافظ على
أصالة التركيب وصحة اللغة مع تفاوت
في درجات الجودة ، في سبك الكلام وبلاغة
الإنشاء ، بالنسبة لاختلاف درجات المؤلفين .

وإذا تدرجنا في التاريخ إلى القرن
السابع الهجري يطالعنا كتاب (الكامل)
لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فنقرأ فيه
مثلاً وصفه لزلزال في بلاد الشام إذ
يقول : «في هذه السنة (أى ٥٦٥ هـ)
كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير
الناس مثلها ، وعمّت أكثر البلاد من
الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها .
وأشدّها كان بالشام ، فخرّبت كثيراً من
دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر
وحلب وغيرها . فتهدمت أسوارها وقلاعها
وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم
ما يخرج عن الحد » - إلى قوله ذاكرة
ما كان لحاكمها الأمير نور الدين من
الاهتمام بتفقدتها : « وكان شديد الحذر
على سائر البلاد من الفرنج . ثم أتى حلب
فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها
من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها
فأقام بظاهرها ، وبأشرف عمارتها بنفسه .
فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد
وجوامعها . »

ونص آخر ننقله من أواخر هذا
القرن . وهو من وصف في (رحلة ابن
جبّير) لإحدى الأميرات الحاجات

في هذه المرة إلى ضربه بالدهيشة
فلما حضر بين يديه تكلم له تميز
الدوا دار الثاني ، فأخلع عليه السلطان
وأعاده للاستادارية « . وفي نص آخر
يقول : « وفي جمادى الأولى رسم
السلطان للعسكر بأن في يوم الجامكية
يصعدوا إلى القلعة بالشاش والقماش
لقبض الجامكية (مايترتب لهم من مال).
وأراد أن يمشى على النظام القديم .
فدارت الطواشية على الممالك السلطانية
وأعلموهم بذلك ، فما وافق العسكر على
ذلك وبطل تلك الإشاعة عن قريب » .
وأكثر لغته على هذا النسق .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا
استدلنا على ذلك من مؤلفات أديب من
أبرز أدباء ذلك القرن هو عبيد الغنى
النابلسي . ففي كتابه (الرحلة القدسية)
نلمس تكلّفا مع هلهلة في العبارة لم
نعهدا في كتب السابقين من كتاب
العصرين العباسي والمغولي ، كما يظهر لك
من النص التالي ، إذ يصف خروجه من
بيت المقدس . قال :

«عزمتنا على الخروج من هاتيك البلاد
والتوجه إلى الأهل والاولاد ، فحضر

والذي يبدو ، أو يمكن استنتاجه ، أن
لغة التأليف لم يطرأ عليها تغير يذكر
قبل العهد العثماني (أى قبل القرن
السادس عشر للميلاد) . ففي أوائله
يطالعنا ابن إياس بتاريخه (بدائع
الزهور في وقائع الدهور) وهو كتاب
ذو أهمية وفائدة عظيمة من الوجهة
التاريخية ، ولكنه من الوجهة اللغوية ركيك
العبارة ، شأن بعض المؤلفات الأخرى
في ذلك القرن ، برغم أنه قرن أنشأ
عددا غير قليل من أعلام المؤلفين واللغويين :
وإليك مثالا من أسلوب ابن إياس -
قال : « وفي صفر رسم السلطان بنفسه
زين الدين الاستادار إلى القدس ويقصده .
فلما خرج إلى سبيل ابن قايمار بعث
السلطان إليه من فتشه فلم يوجد معه
غير ثلاثمائة دينار وبعض فضة . وكان
قد وثى به عند السلطان بأن معه مال .
ثم رسم بإعادته إلى القاهرة وطلع إلى
القلعة فأدخلوه البحرة ، وأحضر إليه
السلطان في يومه بالمعاصير ، وعصره
فلم يقر بشيء من المال ، فأجاب بأن
يبيع أوقافه ويرضى السلطان . فتكلم ناظر
الخاص يوسف بأمره وأحضر بين يدي
السلطان . وقيل إن السلطان لم يعصره

مسرعين ، إلى أن وصلنا ذلك الحرم
الأمين . فدخلنا من الباب ، مع الجماعة
والأصحاب . وبدأنا بصلاة الظهر مع
الجماعة ، وبادرنا بأداء الفرض والطاعة ،
ثم قمنا إلى جهة المزار العظيم ، والقبر
الذي أشرفت عليه أنوار الكلیم »

فالتأمل في إنشاء هذا المؤلف الذي
كان من أكبر أدباء القرنين السابع عشر
والثامن عشر لا يسعه إلا أن يرى فرقا
بين لغته ولغة المؤلفين ذوى الأصالة
السابقين . على أن النابلسي في تأليف
كتبه لم ينحرف كثيرا عن الأصول ولم
ينحدر إلى الدركة التي انحدر إليها غيره
من مؤلفي العهد العثماني ، وبخاصة بعض
مؤرخي النصف الأول من القرن التاسع
عشر ، كما سنرى بعد .

ومن هذا القبيل رحلة مصطفى البكري
الصديقي المتوفى في أواسط القرن الثامن
عشر دونها ولا تزال مخطوطة في خزانة
الكتب الخالدية بالقدس بعنوان (الحلة
الذهبية في الرحلة الحلبية) . وقد
لخصها المرحوم أحمد سامح الخالدي
في مجلة الرسالة (مصر) مج ١٦ - ٩٧٦

لوداعنا جملة من أصحابنا، فسرنا على
بركة الله تعالى . وخرجنا من باب العمود ،
وخرج معنا إلى مقام الشيخ جراح
سادة من أهل الكرم والجود ، وفات
معنا صاعدا هاتيك العقبة الكدود ، بعض
الأصحاب إلى أن وصلنا إلى خان البيره ،
فنزلنا هناك على مياه كثيرة ، ورياض
نضيرة . ثم سرنا إلى قرية سنجل ، وبتنا
وكانت ليلة عطره ، لكنها من اللصوص
خطرة . حتى انتفض الصباح عن صبغة
الليل ، وشمّر الدجى لمسيره الدليل .
ومنها يصف زيارته لقبر النبي موسى بعد
توديعه من كان يشيعه من الرفاق فيقول :
« فسرنا بعد طلوع الشمس بساعتين ،
حين انتهاء وداعنا وحصول أول البين .
ولم نزل في الطريق ، حتى وصلنا إلى
حمى ذلك الفريق ، بعد قطعنا كل فج
عميق . وكان دخل وقت الظهر وفات ،
وكادت أن تدرك المشاة الوفاة . من
شدة الدعر ، وكثرة الوعر . فأشرفنا
من ذلك الشاهق العالى ، ووجدنا ذلك
النور المتلالي . وأقبلنا على ذلك الكثيب
الأحمر ، وقد بنى حوله بالجص والحجر
الأغبر . ولم نزل نازلين ، وفي السير

وطبقتهما من المؤلفين - وهالك نماذج
من لغة التأليف في عصرهما .

فالجبرتي المتوفى ١٨٢٥ وهو من علماء
عصره . قال فيه زيدان : « أصله من
جبرت وهي الزيلع في الحبشة .

وكان والده من كبار العلماء الفلكيين .
أما ابنه المؤرخ عبدالرحمن فقد درس
في الأزهر وتمكن من علوم عصره .
ولما جاء الفرنسيون مصر تعين كاتباً
في الديوان . وانقطع بعدئذ إلى التأليف
وقد بلغ السبعين من العمر . وعاصر أهم
الحوادث التي جرت في أواخر القرن
الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .
وأهم مؤلفاته (عجائب الآثار في التراجم
والأخبار) . وعنه ننقل النص التالي
للتمثيل على أسلوبه ذ بل على أسلوب
عصره العام - قال في ج ١ ص ٢٥٨ من
طبعة مصر ١٣٢٢ هـ :

«ولما حضر حمزة باشا - سنة تسع
وسبعين ومائة وألف - المذكور واليا على
مصر ، وطلع إلى القلعة ، فعرضوا له أمر
صالح بيك ، وأنه قاطع الطريق ومانع
الغلال والميرى ، وأخذوا فرمانا بالتجريد

وهذا مثال منها في وصف مدينة حمص .
قال : « ولم يعشم لنا نصيب ، بدخول
مدينة حمص العجيب ، تكويننا ومزدرعا
وأموها ، لأن الخراب حتى في ظهوره
تباهى . وكان أكثر خرابها من قبيلة
(الموالي) ، الذين من والاهم لم يوال
الموالي . على أن فيها من المزارات
والسادات الكثير ، ويغلب على أهلها
البلاهة والتغفل مع الجذ والتشمير .
ولقد دخلت جامعها الكبير ، فرأيت آية
في التعمير ، فصليت فيه الظهر والعصر
بنفر غير كبير » .

وما بين هذا القرن (الثامن عشر)
ومنتصف القرن التاسع عشر تزداد لغة
التأليف تدهورا وانحطاطا . ويظهر لنا
ذلك في مؤلفات الأمير حيدر الشهابي
والشيخ عبدالرحمن الجبرتي . حتى إن
الشيخ رفاعه الطهطاوي المتوفى ١٨٧٣
والذي يعد من كبار رواد نهضتنا كان
مع سعة معارفه يسف أحيانا فيخلط
في كتابته الكلام الصحيح الجيد بالعبارات
الساذجة العامية ، على أنه كان أفضل إنشاء
وأمتن عبارة من الجبرتي وحيدر الشهابي

(١) رجع كتابة آدا ؛ اللغة العربية ج ٤ ص ٢٨٣

فكسره وذهب إلى بيته . وبقي الأمر
بينهم على المسألة أياما « الخ الخ . .

وكتاب الجبرقي معظمه على هذا
النسق الركيك الإنشاء والذي يكثر فيه
الكلام العائى والتراكيب العامية ، مع أن
المؤلف من أهل العلم ومن تلامذة الأزهر
وكتابه من المراجع التاريخية التى يعتمد
عليها فى الاطلاع على أحوال مصر
السياسية فى ذلك العهد .

أما الأمير حيدر الشهابى فمن لبنان
أو قل من بلاد الشام توفى ١٨٣٥م وتاريخه
معروف ولغته أضعف من لغة الجبرقي
وأدنى إلى العامية . وهذا نموذج منه :

« ثم بعد ذلك حضر الجزار من الشام
لعكا وترك متسلما بالشام محمد آغا
أمينه ، الرجل الظالم ، حتى إن كان
الجزار نسي أحدا من أهل الشام وما
ظلمه ، يفكر فيه متسلما . ثم بعد
وصوله إلى عكا بعشرة أيام خرج باكرا
إلى باب السرايا قبل طلوع الشمس
وأمر بتكسير أبواب المدينة ، وجعل
يرسل غلمانه يقبضوا على من يأمرهم

عليه . وتقلد حسين بك كشكش حاكم
جرجا أمر التجريدة ، وشرعوا فى
التشهيل والخروج . فسافر حسين ببيك
وصحبته محمد ببيك أبو الذهب وحسن
بيك الازباوى ، فالتطموا مع صالح
بيك لطمة صغيرة ، ثم توجه (أى صالح
بيك) وعدى إلى شرق أولاد يحيى .
وكان حسن ببيك شبكة مملوك حسين
بيك قد نفاه على ببيك أمير الحج إلى
قبلى (أى إلى الجنوب) . فلما توجه
حسين ببيك بالتجريدة ، وعدى صالح ببيك
شرق أولاد يحيى انفصل عنه (عن
صالح) وحضر إلى سيده حسين ببيك
وانضم إليه كما كان » . ثم يقول :

« ورجع محمد ببيك أبو الذهب وحسن
بيك إلى مصر . وتخلف حسين ببيك
يريد الذهاب إلى منصبيه بجرجا
وأقام فى المنية . فأرسل إليه على ببيك
(أمير الحج المذكور) فرمانا بنفسه
إلى جهة عينها له ، فلم يمتثل لذلك ،
وركب فى ممالكه وأتبساعه وأمراه
وحضر إلى مصر ليلا فوجد الباب الموصل
لجهة قناطر السباع مغلوقا فلم يفتحوه .

(١) ص ١١٢ من النسخة التى صدرت فى بيروت سنة ١٩٥٥ للاب شيلي والأب خليفة .

ثم بعد ذلك أرسل جنودا وقبضوا
على أهل البر من الفلاحين والمشايخ
وأصحاب المقاطعات ، وهؤلاء قتل
البعض منهم ، والبعض كان يقطع
آذاتهم وأنفهم ويطلقهم » .

فمما ورد في هذين الكتابين وفي
سواهما من كتب هذا العهد لكتاب
كانوا يعدّون من كبار المؤرخين والأدباء
نستطيع أن نرى إلى أية دركة وصلت
لغة التأليف قبيل الحركة التي قام بها
رواد النهضة الأدبية الحديثة .

هذا من حيث الأسلوب العام في تأليف
الكتب من تاريخية وسواها مما يراد بها
سرد المعلومات لا الأناقة الفنية . فإذا
تحولنا إلى الترسل الفني - أي كتابة
الرسائل والخطب الأدبية - وجدنا الأمر
نفسه ، بل ما هو أشد وأدهى . ولكي
نستجلي الفرق بين الترسل الفني في
عصر الانحطاط وما سبقه من العصور
الكتابية ، نستعرض الآن بلمحة خاطفة
الآطوار التي مر فيها عبر تاريخنا الأدبي
وهي على العموم كما يلي :

عنهم من العمال والكتّاب ، وأهالي عكا ،
ويحضروهم إليه . وبعد قليل استاقوا
لبين يديه أكثر من مائتين نفر ، فأرسلهم
جميعا إلى السجن ، ثم قبض على النواب
أيضا وحبسهم . وكان كلما رأى إنسانا
يدعوه إليه وينظر في وجهه ويكشف
رأسه وينظر به ، فالذي يقول إن به
نیشان يرسله إلى الحبس ، والذي ما يجد
به نیشان يطلقه . وبعده أحضر الفعالة
وعمل بهم كذا ، وقبض على جملة منهم
ومن النجارين وأرباب الصنایع الأخر
حتى أمتلات الحبوس من الناس .

وفي ثاني الأيام دعى عسكر المغاربة
وأمرهم أن يخرجوا جميع المحبوسين إلى
خارج البلد ويقتلوهم ، ففعلوا ما أمرهم به
حتى صار يوم مهول لا يسمع فيه غير
أصوات عويل وبكاء وندب من الأمهات
والعيال والأولاد والبنات والإخوة الذين
ترملوا وتيتموا ، ثم من المقتولين ، ولا
يرى فيه غير جثث القتلى كالغيم مطروحين
خارج البلد صايرين طعاما لوحوش
الأرض . ثم عند المساء أمر المنادی في
شوارع المدينة في عكا : أن كل من يخرج
يدفن ميتة على الصمت ، وأن المرأة
التي تبدى عويلا تقتل فضلا عن الرجال .

وابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب
وأما لهم ، فضلا عن أصحاب المقامات
ومن جرى مجراهم

الطور الرابع - ويمتد من نهاية الطور
الثالث حتى ابتداء النهضة الحديثة في القرن
السابق لقرننا الحالي : وهو الموسوم بطور
الانحطاط . والانحطاط الترسل في
مظهران : مظهر الزخرفة البديعية المستهجنة
ومظهر الإسفاف المبذل . وهاك أمثلة على
كل من هذين المظهرين :

فمن تكلف الزخرفة المستهجنة ، ديباجة
مكتوب إلى أحد الأكابر ننقلها من كتاب
بعنوان (مجموع إرشادات في لطائف
المكاتبات وتحائف المراسلات) (١) :

«إن أرضا تشرفت بمواطئ تلك الأقدام ،
وتمسكت بأذيال ذلك الهمام ، لجديرة أن
تقبل بسواد الأحداق ، دون بياض الأوراق
وتلثم بالأفواه والمحاجر ، دون ثغور السطور
والمحابر ، غب إهداء لطايف تحيات
نشرها فائح طيب الشميم ، وشراف
دعوات ذكرها صالح مقرونة الإجابة
من رب رحيم ، إلى جناب الولي الكريم ،

الطور الأول - ويشمل صدر الإسلام
إلى أواخر العهد الأموي . وينتظم مانقله
لنا الرواة من رسائل وخطب . وهي على
العموم تتسم بطابع خاص من الجزالة
والإيجاز المحكم الخالي من التصنع .
فيجري الكلام فيها جريانا طبيعيا دون
حشو أو تكلف أو تطويل .

الطور الثاني - ويشمل القرن العباسي
حتى القرن الرابع الهجري . وفيه يتحول
الترسل عن الإيجاز إلى التوسع والتبسط.
فتطول الرسائل ، ويأخذ الكتاب بإنشاء
الفصول في الأغراض . وأظهر مزاياه
الإنشائية توازن العبارات وحسن النسج
لديباجة الكلام ، ويمثله عبد الحميد الكاتب
وابن المقفع والجاحظ والتوحيدى وطبقتهم .

الطور الثالث - يبتدىء من القرن الرابع
الهجري ويمتد إلى القرن العاشر فيشمل معظم
العصر العباسي ثم العصر المغولي حتى صدر
العصر العثماني ، وهو طور التأنق البسديعي
ويسوده التفنن في استعمال السجع وتكلف
المحسنات اللفظية والمعنوية . ومن مشاهيره
(وهم كثر) ابن العميد والصابي والقاضي
الفاضل وابن الأثير والعماد الأصبهاني

(١) مخطوطة في مكتبة عيسى اسكندر المعلوف وكان قد تكرم رحمه الله وسمح لنا بالاطلاع عليها والاستفادة منها .

من اتخذ إفاضة المعروف وإغاثة الملهوف مذهباً ،
واختص بعموم النفع في الأرض مشرقاً
ومغرباً ، المشار إليه بالمعالي ، ولا زال كرمه
معتم آمال الراغبين ، ومحط رحال
الطالبين ، معروض العبد الدليل ، لحضرة
المولى الجليل ، هو أنه . . . الخ .

وعلى غرار هذه المجموعة (من القرن
الثامن عشر الميلادي) مجموعة « رسائل
سعيدية » نشرتها دار الطباعة المغربية
في تطوان^(١) . ومنها هذه القطعة من رسالة لأبي
فارس القشتالي وزير السلطان المغربي أبي
العباس أحمد المنصور بعث بها إلى قائد
الأساطيل البحرية . قال فيها بعد مقدمة
طويلة كثيرة الزخرفة : « هذا ودرر ودكم
كانت تقدمها إلينا على البعد أمواج البحار
وعرف ولائكم ما زالت تهديه للقلوب على
شحط الدار نسيات الأسحار ، وعقائد
إخلاصكم بلسان الاشتهار هنا وهناك في
القديم تتلى ، وعقائد مصافاتكم على منصات
الوفاء تجلى » ، وهكذا إلى آخر الرسالة .

وهذه قطعة أخرى من إحدى رسائل ذلك
العهد تمثل ما وصل إليه من زخرفة مستهجنة

أسلوب الترسل المتصنع في ذلك العهد^(٢) .
(وهي رسالة من أحدهم إلى رجل كبير) :
« يقبل الأرض المقبلة بشفاه المقل
لا بشفاه الثغور ، الضاربة سراق المجد فوق
هام النسرين وهالات البدور ، المتخذة
الجوزاء نطاقاً ، والثريا شفا وأقراطا
والنجوم قلائد وأعلاقاً » . . . إلى قوله :
« ووصف أشواق زنادها له بين القلوب رى
وورى ، وعضبها الماضي الشبا له في أديم
القلب شق وفري ، وشكوى فراق تمتته
الآعداء فجاء على وفق الاقتراح ، وعدم
المحب معه صبرا من حيث راح . قد حل
عري التجلد والاقتدار ، ودار بكووس
منونه فأزحق الأرواح من وقت دار . . .
إن المملوك منذ استولى عليه بعد مولانا وفراقه
وذاق صاب هجره وبعده المرير مذاقه ، ما
خيطت جفونه على سنة مع وجود إبر أهدابه ،
ولا ألف جنبه المضطجع منذ فراقه ظي
الكناس وانجصر مع ليث الفراق في غابه . .
قد نبذ الإخوان والأخذان ظهرياً ، وهز إليه
نخلة ودادهم فتساقطت عليه حشفا وكان
يجد بقرب مولانا رطباً جنيّاً » . وهي

(١) تحقيق الأستاذ عبد الله كنون .

(٢) راجعها وراجع أمثالها في كتابنا (تطور الأساليب الشعرية) ص ٣٤٥ - ٣٥٨

كتاب الأنيس المفيد نشر دى ساسى .
محركات سياسية لفيليب وفريد الخازن
مخطوطة مجموع إرشادات فى لطايف
المكاتبات وتحائف المراسلات (فى مكتبة
عيسى المعلوف)

تطور الأساليب النثرية لأنيس المقدسى .

١١

وسواها .

فلما حدث الانبعاث الأدبى على أيدي
رواد النهضة الحديثة أخذت اللغة تخلع عنها
أطمار عهد الانحطاط ، ثم خطت إلى الأمام
فتخلصت تدريجيا من التكلف البديعى
الغث والإسفاف المبتذل . ولم تكذب تبرزغ
شمس القرن العشرين حتى كانت قد جرت
شوطا واسعا فى هذا السبيل .

! وها نحن اليوم فى إبان هذا القرن وقد
استطاعت اللغة أن تعيد مجدها الغابر فى
اختيار الألفاظ الحية الناصعة والتركيب
الحررة البليغة ، لا فرق فى ذلك بين الترسل
الفنى ولغة التأليف العلمية على أنواعها .
وقد كان لتقدم الصحافة شأن فى هذا التجدد
كما كان لرقى المعاهد العلمية وتقدم الحياة
الحضارية فى مختلف الأقطار العربية .

أنيس المقدسى

عضوالمجمع من لبنان

رسالة طويلة وكلها على هذا النسق المزخرف
الذى أولع به مترسلو عهد الانحطاط تقليدا
لمن اشتهر فى العصور السابقة بالمقدرة على
صنع الكلام ، وتحليلته بأنواع السجع والبديع
فأساءوا إلى اللغة من حيث أرادوا الإحسان .

فإذا قابلت بين هذا الأسلوب الغث الممل
الذى كان يسود الترسل الأدبى إبان القرنين
السابقين للنهضة ، وما كان عليه الترسل أيام
عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وأمثالهم
منذ أواخر العصر الأموى حتى أواسط وأواخر
العصر العباسى تبين لك إلى أية دركة بلغ
الانحطاط فى إنشاء المترسلين خلال القرنين
السابع عشر والثامن عشر وبعض القرن
التاسع عشر من العهد العثمانى .

وأحط من الترسل الأدبى فى هذا العهد
الترسل الديوانى ؛ فالمراسلات الديوانية
جمعت إلى غثاثة الزخرفة البديعية الإسفاف
والابتذال العامى حتى على أقلام الخاصة من
المراسلين . ومن أراد الاطلاع على ذلك
بتفصيل فليراجع المؤلفات التالية حيث يجد
المثبات من الشواهد :

تاريخ الأمير حيدر الشهبانى .

الأصول التاريخية لأسعد رستم وقد جمع فيه
المؤلف عددا كبيرا من مراسلات الحكام .

في تاريخ الطب عند العرب

للدكتور عبد الحليم منتصر^(١)

يعالج مرضا واحدا ، لا جملة أمراض ،
والبلاد تعج بالأطباء ، فبعضهم لأمراض
العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ،
وبعضهم للأسنان . . . وهكذا . ويذكر
أن قيروش ملك الفرس أرسل مرة إلى
مصر في طلب مختص بالعيون ليستخدمه
في بلاطه .

وتحتوى بردية « ابيرس » وي.ج.ع
تاريخها إلى ١٥٥٠ ق . م . على كثير
من الوصفات الطبية ، مع ذكر مركبات
مفرداتها ، وفيها ذكر لأسماء بعض
الأمراض مثل الرماد الحبيبي ، وأمراض
المفاصل والديدان وغيرها . كما ورد فيها
ذكر للمرض المعروف الآن باسم البلهارسيا

الحق أن نقول إن
المصريين القدماء ، كانوا
مركز الإشعاع الحضاري للعالم كله ، هم
واضعو أسس كثير من العلوم ، ومنها
الطب والكيمياء . ويعتبر « امحوتب »
أول طبيب ورد ذكره في التاريخ ، كان
وزيرا للملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة
منذ نحو خمسة آلاف سنة ، وقد اشتهر
امحوتب بمهارته في الطب والفلك والحكمة
والفلسفة ، حتى خلد عصر مليكه «زوسر»
بتشييده هرم سقارة ، وحتى رفعه المصريون
إلى مصاف الآلهة ورسموه إلها للطب .
ويروى «هيرودتس» أن الطب يمارس في
مصر على طريقة الاختصاص ، فالطبيب

(١) اعتمدنا في هذه الدراسة على مصدرين رئيسيين هما: عبون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

ومقدمة في تاريخ الطب العربي للدكتور التيجاني الماحي ، بالإضافة إلى مصادر أخرى وردت في المتن .

الخروج والصبر والكزبرة والنعناع والمر
والمصطكى والزعفران وحب الزلم والبيرورح
وغيرها . كما عرفوا الرمد الحبيبي
والالتهابات الرمدية الأخرى والشعرة
والظفرة والمياه الزرقاء وكان لهم اعتقاد
في الحسد ويتخذون لها الطلاسم والتائم .
وعرفوا استعمال الجبائر واستخدموا
الحجامة . وكان المصريون القدماء أول
من عرف الخمائر واستعملوها في صناعة
الخبز . وذكر هيرودتس أن قدماء
المصريين كانوا يتعاطون الأدوية المسهلة
مرة في الشهر ، ويتناولونها ثلاثة أيام متتالية
وبالجملة فقد وضع المصريون القدماء
أساس الطب ، واقتبس منه اليونان
والأشوريون والبابليون وغيرهم .

أما في بلاد اليونان ، فيعتبر «بقراط»
المعلم الإنساني الأول لمهنة الطب ولد عام
٤٦٠ ق . م . من أسرة تنتمي لطائفة
اسقليبياد . وهو أول من رتب الطب
وبوبه ، وبناه على أسس علمية صحيحة ،
وقد رفع من آداب المهنة ووضع تقاليدها
الحسنة ، وهو أول من بنى الطب على
أساس التجربة العلمية الصحيحة وطهره
من الخرافات والأساطير ، وقد خلف

أما بردية « ادوين سميث » ويرجع
تاريخها إلى ١٦٠٠ ق . م . ، فأغلب
محتوياتها جراحية ، وفيها وصف شامل
للجروح ، وطرق علاجها والكسور
البسيطة والمركبة واستعمال الجبائر والختان
وغيرها من جراحات بسيطة ، وفيها يبتدئ
الطبيب وصف الأعراض والعلامات ثم ينتقل
إلى تشخيص الإصابة ، ويختتم بالعلاج .
وكذلك تحوى برديات « كاهون »
وشستر بيتي « وبرلين » ولندن «
وبردية أمراض النساء ، وصف كثير من
الأمراض وطرق العلاج ، وتحديد تركيب
وكمية الجرعة من الدواء ، وطريقة
تناوله ، وكان القدماء يعتمدون كذلك
على الرقى والعزائم والطلاسم السحرية . كما
دلت دراسة هذه الوثائق كذلك على أن
المصريين القدماء عرفوا استعمال المقيئات
والأشربة والحقن الشرجية والغرغرات
والمراهم ويستنشقون الأدوية والأبخرة
وعرفوا كذلك الأقمعة واللبخ والمزقات
والأدوية المدرة للبول والمعركة ، ومارسوا
الفصد ، واستعملوا الأفيون والأدوية
المسكنة والمفرحة ، وخواص الشوكران
(سم سقراط) وأملاح النحاس وزيت

المكان الثاني بعد ابقراط ، وكان أحب
الآطباء إلى العرب ، وقد ترجموا من
كتابه بالإضافة إلى الستة عشر كتابا
المشهورة ، نحو ثمانية وخمسين كتابا ،
وأشهر تراجمه حنين بن اسحق ، وعيسى
بن يحيى ، أما ديسقوريدوس فهو أبو
الصيدلة ، وكتب ديسقوريدوس موسوعة
نباتية ، نقلت إلى العربية تحت اسم
كتاب الحشائش ، ومنهم بولس الأيجنطى
(٦٢٥ - ٦٩٠ م) وأعماله الجراحية
مشهورة ، وقد وصف عملية ثقب الجمجمة
واستخراج حصاة المثانة بالشق ، كما قام
باستئصال اللوزتين ، وبزل الاستسقاء ، وبتر
الثدى - يقول عنه القفطى كان مقامه
بالأسكندرية وكان خبيرا بعلم النساء
كثير المعاناة لهن ، والقوابل يلقينه ويسألنه
عن أمور النساء ، ولذلك سمى بالقوابلى ،
ومن تصنيفه كتاب الكناش فى الطب
وكتاب علم النساء .

أما الطب الفارسي فقد بدا فى عصر
جهشيد ، فهو الذى أظهر عاوم الصناعة
الطبية وتعرف خواص الأدوية فشاعت
هذه الصناعة بين الناس فى ذلك الزمان .
وفى عهد أسرة الكيانمين استقدم دارا

ابقراط سبعة وثمانين كتابا ورسالة فى
شئون الطب ، وقد نقل العرب عددا من
كتبه ، منها «الفصول» و «عهد ابقراط»
و «الكسور» و «تقدمة المعارف» والأمراض
الحادة والاختلاط والأمراض الوافدة والماء
والهواء وطبيعة الإنسان . وكان يقول
لا تشرب الدواء إلا وأنت تحتاج إليه .
وأن الجسد يعالج على خمسة أضرب ، ما فى
الرأس بالغرغرة وما فى المعدة بالقيء ، وما فى
البدن بالسعال البطن ، وما فى الجسد بالعرق
وما فى العمق وداخل العروق بإرسال الدم .

وفى جامعة الإسكندرية القديمة نبغ
عدد من أساتذتها فى عاوم الطب وخاصة
التشريح ، لأنهم وجدوا فى كنف البطالة
ما يمنع العدوان الذى يناله من يقدم على
تشريح الموتى فى تلك العصور ، واستطاع
علماء التشريح فى الأسكندرية أن يسبقوا
غيرهم فى وصف صمامات القلب والأثني
عشر وبعض أجزاء الدماغ الهامة . كما
عرفوا الأعصاب بنوعيتها الحسية والمحرك ،
وميزوا بينها وبين الأوتار العضلية ، ومن
أشهر أطبائهم اوريباسوس وهيروفليس
واراسيترساتوس ، ولكن أشهرهم على
الإطلاق كان جالينوس ، الذى يحتل

زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبظهور الإسلام ، نشأ ضرب جديد من الطب ، يسمى بالطب النبوى ، يشتمل على مجموعة من الأحاديث الخاصة بالمرضى ، ! تحتوى على وصفات لعلاج بعض الأمراض . وقد ألف كتابين من الجزء السابع من البخارى يتألف الأول من اثنين وعشرين بابا تشتمل على ثمانية وثلاثين حديثا عن عيادة المرضى والدعاء لهم ، ويحوى الثانى ثمانية وخمسين بابا تشتمل على واحد وتسعين حديثا ، جاء فيها ذكر بعض العلل كالصداع والشقية والرمد والعذام والحمى واستطلاق البطن وذات الجنب ! (التهاب الرئة) والطاعون ولسعة الحية والعقرب . وفيها إشارات للمداولة بالعسل شرابا وبالكى والاحتجام من الشقيقة ، ووصف ألبان الإبل ، وإشارة إلى الأئمة وماء الكماة للرمد واستعمال الحية السوداء ، خمس أو سبع منها تسحق ثم تقطر فى أنف المريض مع قطرات الزيت ، والعود الهندى سعوطا لذات الرئة ، وارقة الجسم بالماء البارد للحمى . وقوله عليه السلام إذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها .

عددا من الأطباء المصريين لبلاطه الخاص وكان عظيم الثقة بهم فنشروا وصفاتهم بين الفرس وفى عهد الأسرة الساسانية جمعت نصوص الزندافستا . وكان الطب عند الفرس خليطا من التقويم والرقى وبعض المبادئ الطبيعية العلمية .

وقد نقل العرب أسس طبهم من الشجوب القديمة التى تجاورهم ، وخاصة الكلدان والفرس والهنود ، وأضافوا إلى ذلك من تجاربهم وكان لديهم فى العصر الجاهلى طريقتان للعلاج ، تعتمد الأولى على الكهانة والعرافة . وتعتمد الثانية على العقاقير من نباتية ومعنوية ، وكذلك الكى والحجامة والفصد ومن أشهر أطبائهم فى الجاهلية «ابن حزيم» حتى كانوا يقولون «أطب من ابن حزيم» ، ثم الحارث بن كلدة الثقفى . ومن أقواله ، من سره البقاء ولابقاء ، فليبادر بالغذاء وليخفف الرداء وليقل غشيان النساء ، وللحارث من الكتب كتاب «المحاور فى الطب» ومنهم النضر ابن الحارث بن كلدة .

ومنهم ابن أبى رمثة التميمى ، وكان طبيا عالما بصناعة الجراحة . وكان فى

ومن الذين قاموا بدراسة موضوع الطب النبوى «الذهبي» وفيه يقول «أن قواعد الأطباء أن أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن، فكلما كانت أخلاق النفس أحسن كان مزاج البدن أعدل» والحموى، في كتابه الأحكام النبوية في الصناعة الطبية وابن قيم الجوزية في كتابه الطب النبوى، ويقول ابن خلدون في ذلك إنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات. فقد كان يقول أنتم أعلم بأمور دنياكم، فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على وجهة التبرك. ويقول صاعد الأندلسي «كانت العرب في صدر الإسلام لا تعنى بشيء من العلم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب، فأنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس إليها ولما كان عندهم من الأثر من النبي (صلعم) [حيث يقول: يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحدا وهو الهرم].

وفي العصر الأموي اشتهر من الأطباء «ابن ائال» وكان طبيبها لمعاوية بن أبي سفيان، وكان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها. وأبو الحكم وحفيده عيسى ومنهم ابن ماسرجويه الطبيب البصري في زمن عمر بن عبد العزيز، وله كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها، ثم عبد الملك بن ابهر الكنانى، وكان طبيبا عالما ماهرا، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب.

ومنهم يتاذون الطبيب وقد اختص بخدمة الحجاج بن يوسف، وقال ابن قتيبة إن الحجاج قال له مرة صف صفة آخذ بها نفسي ولا أعدوها قال يتاذون «لا تتزوج من النساء إلا شابة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا، ولا تأكله حتى ينعم طبخه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل عليه شيئا، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت في النهار فم، وإذا أكلت في الليل فتمشي ولو مائة خطوة».

وقد اشتهر في أواخر عهد الأمويين «زينب» طبيبة بنى أود: يقول عنها

ابن أبي أصيبعة « كانت عارفة بالأعمال الطبية » خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات مشهورة بين العرب بذلك .

ويروى ابن النديم أن خالد بن يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان كان شغوفاً بالكيمياء ، استخدم عدداً من العلماء ترجموا له الكثير من الكتب اليونانية والنجوم . وكانت الكيمياء قديماً منصبة على العشر على أكسير الحياة وحجر الفلاسفة . وبالرغم من ذلك يقول برثوليه « لقد بلغ جابر بن حيان في الكيمياء ما بلغه أرسطو في المنطق .

وكان الوليد بن عبد الملك أول من أنشأ المارسياتانات في الإسلام ، فقد أنشأ مارستاناً بدمشق عام ٨٨ هـ ، جعل فيه الأطباء ، وذكر الطبري أن الخليفة المذكور أمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الأرزاق ، وهذا أول محجرشيد في الإسلام

وكان يختيشوع ممن اشتهروا في الطب في عهد العباسيين ، وله كُنَّاش التذكرة ثم ابنه جبريل وقدر ما جمعه جبريل في شتى خدمته في عهد الرشيد والمأمون

بمقدار ٢٥ مليون جنيه استرليني ، أكثرها من مال البرامكة ، وخلف جبريل ابنه يختيشوع بن جبريل وكان طبيباً حاذقاً : وكان ابنه سعيد آخر أفراد هذه الأسرة الطبية العظيمة التي انفردت بخدمة بلاط العباسيين مدى قرون ثلاثة ، وأفرادها موضع تقدير الخلفاء ومحل ثقتهم .

وقدمت الترجمة في العصر العباسي بثلاثة أدوار ، الأول من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد أي من عام ١٣٦ - ١٩٣ هـ . وقد نبغ في هذا العهد عدد من التراجمة ، نذكر منهم من عني بنقل كتب الطب خاصة من أمثال يحيى بن البطريق ، وجورججوس بن بختيشوع وعبد الله بن المقفع ويوحنا ابن ماسويه وغيرهم ، ويبتدىء الدور الثاني من ولاية المأمون ١٩٨ - ٣٠٠ هـ واشتهر من التراجمة قسطنطين بن لوقا البعلبكي ، وحنين بن اسحق ، وابنه اسحق بن حنين وعيسى بن يحيى ، وثابت بن قرة الحراني ، وقد بذل المأمون جهده في استخدام التراجمة ، وكان ينفق في ذلك بسخاء ، وكان يحرض الناس على قراءة الكتب ويرغمهم في تعليمها ، واقتدى به

الكثيرون من أهل دولته في بغداد فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها ، وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الأدب والمناظرة ، وأصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون إلى عدة من خلفائه . أما ترجمة الدور الثالث الذي يبتدئ من ٣٠٠ هـ وينتهي في منتصف القرن الرابع الهجري ، فكانوا أكثر اشتغالا بنقل المنطق والطبيعة ، منهم متى بن يونس ، وسانان بن ثابت بن قره ، ويعبد حنين بن اسحق العبادي (١٩٤ هـ - ٢٦٤ هـ) شيخ ترجمة العصر العباسي ، بلغ اهتمامه بترجمة الآثار اليونانية مبلغا عظيما ، فكان يجوب الأقطار في طلبها والحصول عليها ، مثال ذلك كتاب البرهان لجاليينوس الذي كان نادر الوجود في القرن الثالث الهجري ، والذي قال عنه حنين إنني بحثت عنه بحثا دقيقا ، وجبت في طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر إلى

الاسكندرية ولم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق ، وقد ترجم حنين إلى العربية سبعة من كتب أبقراط ، وترجم إلى السريانية من كتب جاليينوس «خمسة وتسعين ، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين ، كما راجع وأصلح ما ترجمه تلاميذه ، ستة إلى السريانية ، وسبعين إلى العربية ، كما ارجع وأصلح معظم الخمسين كتابا التي كانت ترجمت إلى السريانية ، ونقل أيضا ثلاثة من كتب أوريبا سوس خلاف ما نقله من كتب الفلسفة وغيرها لأفلاطون وأرسطو ، وبلغت تآليفه الخاصة نحو ثلاثين كتابا ، ومن أشهر تآليفه كتاب العشر مقالات في العين ، ويعتبر هذا الكتاب أقدم ما ألف في أمراض العين ، بطريقة علمية منظمة ، وقد نشره وحققه ما يرهوف ، ومن أخلد أعماله ترجمة كتاب التشريح لجاليينوس .

أما ابنه اسحق ، فقد كان أواخر عصره في علم الطب ، وكان يلحق بأبيه في النقل وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها ، ولاسحق بن حنين جملة تآليف في الطب والمنطق بلغت خمسة عشر ، خلاف ما ترجمه من كتب القدماء .

وفي أواخر عصر الترجمة - بعد منتصف القرن الرابع الهجري - ظهرت بشائر عهد جديد هو عهد التأليف ، واشتهر من هؤلاء المؤلفين في الطب أربعة وهم :

علي بن سهل الطبري : صاحب كتاب فردوس الحكمة وحفظ الصحة ، ومنافع الأطعمة والأشربة .

محمد بن زكريا الرازي : صاحب كتاب

الحاوي ، والمنصوري في التشريح ، ومحنة الطبيب ومنافع الأغذية ، وقد اجمع المستشرقون المشتغلون بتاريخ الطب على أن الرازي أعظم طبيب أنجبته النهضة الإسلامية . وقد تتلمذ على الطبري ، وله رسالة في الجدرى والحصبة قال عنها المستشرق « نيوبرجر » أنها حلية في جيد الطب العربي . ويعد الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة المسماة بالقصاب وأول من عمل مراهم الزئبق وأول من أنشأ مقالات خاصة في أمراض الأطفال وله كلمات مأثورة في العلاج - منها ، مهما قدرت أن تعالج بالأغذية ، فلا تعالج بالأدوية ومهما قدرت أن تعالج بدواء مقرد فلا تعالج بدواء مركب « ومنها » إذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة « ومنها ينبغى للطبيب أن يوهم

ومنهم أبو يعقوب يوحنا بن ماسويه ، خدم الرشيد والأمين والمأمون وعاش إلى عصر المتوكل ، وولاه الرشيد بيت الحكمة وقلده ترجمة الكتب اليونانية التي حصل عليها في حروبه بأنقرة وعمورية ، بلغت تصانيفه عند القفطي واحدا وعشرين كتابا . ومن ضمن مؤلفاته كتاب في الجذام ، وهو أول من كتب فيه .

ومنهم ثابت بن قرة الحراني (٢٢١ هـ - ٢٨٨ هـ) وابناه إبراهيم وسنان ، وحفيداه ثابت وإبراهيم ، وكانوا نقلة جيدين ، وبلغت مؤلفات ثابت ثلاثة وعشرين ، منها خمسة في الطب وباقيها في الحساب والهندسة والفلك ، غير ما نقل للأوائل من كتب المنطق والرياضيات والطب ، كان يجيد اللغة اليونانية ، كما يجيد السريانية والعبرية وترجم في المنطق والرياضيات والطب والتنجيم ، ونبغ ابنه سنان بن ثابت في صناعة الطب . ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكي . كان طبيبا حاذقا عالما باللغات اليونانية والسريانية والعبرية ، نقل كتب كثيرة من اليونانية إلى العبرية - أحصى ما نقل وفسر وشرح - فبلغت خمسة وثلاثين كتابا .

والرازي فقال أن أبقرراط يميل إلى الإيجاز والغموض وأن جالينوس يميل إلى التوسع والتطويل ، إلى قلة عناية ، وأوريباسوس وبولس الأيجنطي بالتشريح - وقال عن كتاب الحاوي للرازي أن ضخامته وتكاليفه تجعل الحصول عليه مطلباً وعراً ، ونعت المنصوري في التشريح للرازي بشدة الاختصار ويقول ابن المجوسي في كتابه الملكي « ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ومواضع المرضى ، كثير المداولة لأموالهم وأحوالهم مع الأساتذيين الحذاق من الأطباء ، كثير النقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، متذكراً لما كان قد قرأه من تلك الأحوال ، وما يدل عليه من الخير والشر . ويتألف كامل الصناعة من جزأين يشتمل الأول على عشر مقالات ، الأولى عن الأمزجة والطبائع والأخلاط والثانية والثالثة في التشريح ، والرابعة في الهواء والرياضة والحمام والأغذية ، والست الباقية في أسباب الأمراض وأعراضها وعلاماتها . ويتألف الجزء الثاني من عشر مقالات ، قاصرة على المداواة وطرق العلاج . وتختص الأخيرة بالصيدلة ونقع في ثلاثين باباً ويتميز بلفظه وسلاسته ودقته .

المريض بالصحة ويرجيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس ، ومنها ينبغي للطبيب ألا يدع مساعلة المريض عن كل ما تتولد منه علته .

على بن العباس المجوسي : يقول عنه القفطي « طبيب فاضل كامل ، فارسي الأصل ، صنف كتاباً أسماه الملكي » وهو المعروف بكامل الصناعة - اشتمل على علم الطب ، مال الناس إليه في وقته ، ولزموا درسه ، إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا ، فمالوا إليه وتركوا الملكي بعض الترك ، والملكي في العمل أبلغ والقانون في العلم أثبت .

ولد المجوسي بالأهواز ببلاد فارس ، ولم يذكر أنه ألف غير كتاب الملكي المعروف بكامل الصناعة ، وهو مقسم إلى ٢٠ مقالة تحتوى على أبواب عديدة ، والمقالتان الأولى والثانية قاصرتان على فصول في التشريح كانت المرجع الرئيسي لعلم التشريح في سالرنو ، بإيطاليا وفي غيرها في المدة بين عام ١٠٧٠ - ١١٧٠ م وقد حوت مقدمة « الملكي » نقداً لأساطين في الطب اليوناني والعربي مثل أبقرراط وجالينوس وأوريباسوس وبولس الأيجنطي

ابن سينا يقول :

لما عظمت فليس مصر واسعى

لما غلا ثمنى عدمت المشتري

يعتبر كتابه القانون في الطب أشهر

كتبه على الاطلاق وهو موسوعة علمية

ضافية ، وهو خلاصة الفكر اليوناني

والعربي، ويمثل القمة التي وصلت إليها

الحضارة العربية في فنون الطب تجربة

ونقلا ، تبلغ عدد كلماته قرابة المليون

كلمة ، واشتهر القانون في أوروبا شهرة

عظيمة في القرون الوسطى ، وبلغ من

المكانة ما بلغته كتابات جالينوس وأبقراط

وكان الكتاب المدرسي في الطب في

جامعتي مونبليه ولوقان في أواسط القرن

السابع عشر، وقد طبعت ترجمته إلى

اللاتينية ست عشرة مرة في الثلاثين سنة

التي كانت غاية القرن الخامس عشر ،

وأعيد طبعه عشرين مرة في القرن السادس

عشر ، وهذا لا يمثل إلا الطبقات الكاملة منه .

أما الطبقات التي تقتصر على جزء أو

أجزاء منه فلا حصر، لها وقد طبع القانون

بالعربية مرتين الأولى بروما سنة ١٥٩٣

والثانية بمصر (بولاق سنة ١٢٩٤ هـ)

وابن سينا أول من كشف ووصف عضلات

العين الداخلية وأول من حاول التفرقة بين

اليرقان الناشئ من انحلال الكريات

الدموية وبين الذي ينشأ من انسداد

القنوات الصفراوية ، وسبق غيره إلى

معرفة بعض الأمراض التي تنتقل بوساطة

مياه الشرب، وأنه عزاها إلى حيوانات دقيقة

لا ترى بالعين يتعاطاها الإنسان في الماء

دون أن يحس بها . كما وصف بدقة

الحالات الإكلينيكية الخاصة بأمراض

الجلد والأجهزة البولية والتناسلية

والعصبية .

وأهم مميزات الطب العربي في ذلك

العصر .

تأثره بنظرية الاخلاط الأربعة

Four Humours Theory واتخاذها أساسا

للباثولوجيا العربية، وتقول هذه النظرية أن

ظواهر الكون تتكون من عناصر أربعة، الماء

والهواء والتراب والنار، ولها صفات أربع -

الحرارة والجفاف والرطوبة والبرودة -

ويقابل هذه العناصر والصفات أخلاط

أربعة في الإنسان، الدم والصفراء والبلغم

وإفراز الطحال (سوداء) والأخلاط حسب

تعريفهم هي أجسام سيالة ، يستحيل لها

الغذاء ، فالدم له خواص الهواء (حار رطب)

والصفراء لها خواص النار (حارة جافة)

الأمراض ، وأدخلوا في الصيدلة ، الكثير من مواد النبات ، السنامكي والجوز المقش ، والراوند وخيار شنبور وغيرها وبرعوا في استعمال الأشربة وتحضير المراهم والأدهنة واللحوق وكان أول أقربازين ألف في العصر العباسي ألفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكان المعول عليه ، إلى حين ظهور أقربازين امين الدولة ابن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠ هـ ومن أطباء العرب المشهورين الكندي ، وله واحد وعشرون كتابا في الطب .

وأمين الدولة بن التلميذ - يقول عنه ابن خلكان سلطان الحكماء ، مقصد العالم في علم الطب أبقر اطعصره وجالينوس زمانه ، له تصانيف منها كتاب الأقربازين المشهور ، وسنان بن ثابت بن قرة وله تصانيف جيدة في الفلسفة وعلم الهيئة والفلك والهندسة ، واشتهاره بهذه العلوم يضارع اشتهاره بالطب . وكان الخليفة المقتدر أول من فرض على الأطباء تأدية امتحان للحصول على أجازة تخولهم ممارسة المهنة ، وأنط بسنان بن ثابت أن يقوم بامتحانهم وتشبيت من يصلح منهم ، ومنع من لا يصلح . وأحصى عدد الأطباء ببغداد لأمين الدولة فبلغوا قرابة ثمانمائة وستين ، وفي أيام المستنجد فوضت رئاسة الطب

والبليغ له صفات الماء (بارد رطب) والطحال خاصية التراب (بارد جاف) . وتذهب النظرية إلى أن الإنسان لا يكون في حالة الصحة إلا بتعادل هذه الأخلاط تعادلا تاما يكسر كل منها سورة الآخر بلا غلبة ، وإلى أن المرض ينشأ من وفرة إحداها وتغلبه على بقية الأخلاط أو من ضعفه وتغلب بقية الأخلاط عليه ، فمن توفر لديهم البليغ وغلب بقية الأخلاط الأخرى سموهم أصحاب المزاج البليغي . والمزاج السوداوى ينشأ من زيادة إفراز الطحال ومثل ذلك المزاج الدموى والصفراوى . وقسمت العلل إلى بلغمية وسوداوية وصفراوية .

ويعتبر كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوى أول كتاب جراحى عند العرب .

كذلك تميز الطب العربى بإدخال الكثير من الأدوية المفردة والمركبة وعمل الأقربازينات وقد ساعد العرب معرفتهم للنبات ومهارتهم في الكيمياء ، فأصبحت كتبهم تعج بالمركبات والمستحضرات المعدنية والنباتية والحيوانية ، التي أدخلوها لعلاج بعض

ببغداد لأمين الدولة بن التلميذ ونيط به
القيام بامتحان المتطبيين .

ومنهم يوحنا بن سرافيون - يقول
عنه القفطى أنه كان طبيباً في صدر الدولة
العباسية ، وأبو الحسن أحمد بن محمد
الطبرى - من أهل طبرستان عاش في القرن
الرابع الهجرى كان فاضلاً عالماً بصناعة
الطب ، وكان طبيباً للأمير ركن الدولة ،
وله الكتاب المعروف بالمعالجات الابقراطى ،
يقول ابن أبى أصيبعة إنه من أجل الكتب
وأنفعها . فقد استقصى فيه الأمراض
ومداواتها على أتم ما يكون .

وعيسى بن على الكحال - قرأ على
حنين بن اسحق ، وكان مشهوراً بالحذق
في أمراض العين ومداواتها ، وكتابه
المعروف بتذكرة الكحالين ، كان يمارس
طب العيون في بغداد ويعتبره المستشرقون
أكبر طبيب للعيون أنجبته العصور الوسطى
وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية ومات في^{٢٦}
أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . وتتألف
تذكرة الكحالين من ثلاث مقالات ، الأولى
في حد العين وتشريحها وطبقاتها وورطوباتها
وأعصابها وعضلاتها ومن أين نبات كل طبقة
ومن أين يأتى غذاؤها ، والثانية في عاد

أمراضها الظاهرة للحس ، وأسبابها وعلاماتها
وعلاجاتها ، والثانية في أمراضها الخفية
عن الحس وعلاماتها وعلاجاتها ونسخ
أدويتها . وقد أشار المؤلف إلى أنه اعتمد
على ما قرأه في كتب جالينوس وحنين بن اسحق
وغيرهم من الكحالين المشهورين مع يسير
مما شاهدته من مشايخ زمانه في صناعة الكحل

أبو الحسن أحمد بن محمد
الطبرى : من أهل طبرستان ، عاش في
القرن الرابع الهجرى كان فاضلاً عالماً
بصناعة الطب ، وكان طبيباً للأمير ركن
الدولة وله الكتاب المعروف بالمعالجات
الابقراطية ، استقصى فيه ذكر الأمراض
ومداواتها على أتم ما يكون كما يقول ابن
أبى أصيبعة ، وصف في مقدمته نوعين من
الأطباء الطبيب الذى ليس بفيلسوف ،
وهو الذى يقتصر علمه وهمته على علاج
الداء فحسب ، مع قلة المعرفة والبعد عن
الفلسفة ، والطبيب الفيلسوف ، هو من
يسمو بعلمه وإدراكه إلى طلب الغاية ، ولم
يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن .
ويقع المخطوط في ٨٨١ صفحة ومقسم إلى
عشر مقالات الأولى في الفصول التى لا
يستغنى الطبيب الذى ليس بفيلسوف عن

الغناء ، وهو يحدث أريحية ولذة ، ويعين على طول الصلاة والدراسة ، والأطباء يستعملونه في تخفيف الآلام على مثال ما يستعمله الحملون لتخفيف الأثقال .

ابن أبي أصيبعة : هو موفق الدين أحمد بن أبي القاسم بن أبي أصيبعة ، ولد في دمشق سنة ١٢٠٣م ودرس الطب هناك ، ثم نرح إلى مصر واستزاد منه وتعلم لابن البيطار المسالي ، واشتغل في بیمارستانات القاهرة ، وألف كتابه المشهور «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» ، يضم تراجم الأطباء من عهد اليونان إلى عصره ويعتبر مصدرا من المصادر الهامة في تاريخ الطب العربي .

ابن النفيس : على بن أبي الحزم القرشي ، كان إماما في علم الطب الإيضاحي ، صنف كتاب الشامل في الطب تدل فهرسته على أنه يكون في ثلاثمائة جزء ، أنجز منها ثمانين سفرا وهو الآن وقف بالبيمارستان المنصوري في القاهرة وله أيضا شرح القانون لابن سينا في عدة أسفار ، وكتاب موجز القانون ، وكتاب شرح تقدمه المعارف ، وكتاب تشريح

معرفتها لثلا يكون غملا إذا سئل عن شيء منها ويقول أنه ذكرها على وجه الإخبار بها والتعريف لا على جهة التعليم لأن التعريف لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ، والتعليم يحتاج إلى ذلك .

ابن جزلة : أبو علي يحيى بن عيسى ابن جزلة ، ولد ببغداد سنة ١٠٧٤م ، يقول أنه كان يطب أهل محله وسائر معارفه بغير أجر ولا جمالة ، احتسابا ومروعة ، ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض وله ، كتاب «تقويم الأبدان» وكتاب البيان فيما يستعمله الإنسان ، وله رسالة في مدح الطب ذكر ابن خلكان أنه أوقف كتبه قبل وفاته ، وكان يدرك عظيم فائدة الموسيقى في شفاء الأمراض وفي ذلك يقول «والموسيقى من الأدوات النافعة في حفظ الصحة ووردها وتختلف بحسب اختلاف طباع الأمم ، وقديما وصفت هذه الصناعة لبحث النفوس إلى السنن الصحية ، استعملها الأطباء في شفاء الأبدان المريضة ، فموقع الألحان من النفوس السقيمة موقع الأدوية من الأبدان المريضة ، وأفعاله في النفوس ظاهرة من مشي الجمال عند الحداء ، وشرب الخيل عند الصفير ، ومرح الأطفال لسماع

سماه مادة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء
والتحرز من ضرر الوباء .

أبو يعقوب اسحق بن سليمان الإسرائيلي :
ولد أبو يعقوب بمصر عام ٨٥٠ هـ ،
يقول عن ابن أبي أصيبعة « كان يكحل في
أوليته ثم سكن القيروان ولازم اسحق
ابن عمران طويلا إلى أن نيف على مائة
سنة » وذكر ابن جليجل أنه كان عالما
بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق
وتأليف الألحان والهندسة وطبائع الأعداد
والهيئة وعلم النجوم ، وله مؤلفات جليلة .

نجيب بن عمر السمرقندى : هو
نجيب الدين أبو حامد محمد بن علي
بن عمر السمرقندى ، أرخ له ابن أبي
أصيبعة ، قال إنه صاحب كتاب الأسباب
والعلامات ، وكتاب الأقربازين ، مات مقتولا
في سمرقند عندما دخلها التتار (جنكيز
خان سنة ٦١٧ هـ) قال السمرقندى في
مقدمة لكتاب الأسباب أنه جمعه لنفسه
مع القانون لابن سينا ومن المعالجات
البقرائية للطبرى ، وكامل الصناعة لعل
ابن العباس المجوسى ، وقد اشتهر كتاب
الأسباب من أجل شرح نفيس بن عوض

القانون ، وفيه وصف للثة وسبق غيره
إلى كشف الدورة الدموية الرئوية .

موفق الدين عبد اللطيف البغدادى -
ولد في بغداد سنة ١١٦٢ م - ٥٥٧ هـ
درس الطب والفلسفة واشتغل بتدريسها
حينما من الزمان بدمشق وحلب ، ثم رحل
إلى مصر حيث التقى بموسى بن ميمون
وتمكن في مصر من دراسة العظام دراسة
دقيقة واستطاع أن يكشف أخطاء
جالينوس التي وردت في وصفه للهيكل
البشرى . فمن ذلك عظم الفك الأسفل
فالكل أجمعوا على أنه عظمتان بمفصل
وثق عند الحنك ، وقولنا الكل إنما نعنى
ها هنا جالينوس وحده ، الذى شاهدناه من
حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه
مفصل أصلا ، واعتبرناه ماشاء الله من
المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي
جمجمة ، فلم نجده إلا عظما واحدا .

التميمي : محمد بن أحمد بن
سعيد ، نشأ في بيت المقدس درس الطب ،
وكان له غرام في تركيب الأدوية ، له عدة
معاجين . له كتاب يقع في عدة مجلدات

الطب قراءة الكناشين المؤلفة في فروعها فقط دون الكتب المؤلفة في أصوله مثل كتب أبقراط وجالينوس ليستجلوا بذلك ثمة الصناعة ، ويستفيدوا به خدمة الملوك في أقرب مدة ، إلا أفرادا منهم رغبوا عن هذا الغرض وطلبوا الصناعة وقرأوا كتبها على مراتبها : ومن أشهر أطباء الأندلس وبلاد المغرب .

اسحق بن عمران - نشأ في بغداد ورحل إلى أفريقيا في أيام ابن الأغلب التميمي بالقيروان ، يقول ابن أبي أصيبعة « وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة ، له كتاب في المناخوليا لم يسبق إلى مثله .

ابن الجزار : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد ، كان أبوه طبيبا وعمه كذلك ، عاصر اسحق بن سليمان وصحبه وأخذ عنه وعاش نيفا وثمانين سنة ومات سنة ١٠٠٤ م . . وجد له خمسة وعشرون قنطارا من كتب طبية وغيرها ، له تأليف عديدة في الطب ، ذكر القفطي أنه رأى له كتابا كبيرا في الطب يقع في عشرين مجلدا يسمى الفصول والبلاغات . ويقول ابن جلجل أنه لم تحفظ عليه بالقيروان زلة قط ، كان

ابن حكيم الكرمانى له (٨٢٠ هـ) شرحا يقول عنه حاجى خليفة « حقق فيه فأجاد وأوضح المطالب فوق ما يراد » والباب الخاص بالمناخوليا من هذا الشرح أجود ما جادت به القرائح ، ولعله بحق أعظم ما كتب عن هذا الداء إلى ما بعد بداية هذا القرن .

ولنجيب السمرقندى كتابان في الأقربازين ، وكتاب أغذية المرضى .

الطب في بلاد الأندلس والمغرب العربى ؟

بلغت الحضارة الأندلسية ذروتها بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتهر في ذلك العهد عدد من أطبائهم في الصناعة والتأليف وخاصة في المدة من ابتداء القرن العاشر ونهاية القرن الثالث عشر الميلادى . وأضاف ، المؤلفون الأندلسيون إلى ما اقتبسوه من الحركة العلمية في بلاد المشرق خلاصة تجاربهم ، وتحمل بعض مؤلفاتهم أثر الاستقلال والطابع الشخصى .

ويقول صاعد الأندلسى في كتابه طبقات الأمم ، إن أطباء الأندلس في عهده . إنما عرض أكثرهم من علم

يترك لغلالمه صرف الأدوية والأشربة
للمرضى نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد
شيئا .

ابن جليل - هو سليمان بن حسان الطبيب
الأندلسي المعروف بابن جليل ولد بقرطبة
سنة ٣٣٣ هـ عنى بعلم الطب فغلب عليه
وعرف به وبلغ منه الغاية ، طلبه وهو ابن أربع
عشرة وافتن فيه وهو ابن أربعة وعشرين
وكان طبيبها فاضلا خبيراً بالمعالجات جيد
التصرف في صناعة الطب ، وله بصيرة واعتناء
يقوى الأدوية المفردة .

وكتابه المعروف بطبقات الأطباء ،
والحكماء من المصادر الهامة في موضوعه ،
نقل عنه القفطى وابن أبي أصيبعة ولابن
جلجل أيضا كتاب تفسير أسماء الأدوية
المفردة ، وكتاب مافات ديسمقوريدوس من
أسماء النبات .

ابن وافد - هو ابن المطرف عبد الرحمن
اللخمي بن وافد ، ولد بطليطلة سنة ٣٨٧ هـ
يقول عنه صاعد في طبقاته « أحد أشراف
أهل الأندلس ، عنى عناية بالغة بقراءة
كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب
أرسطو وغيره من الفلاسفة ، وتمهر في علوم

الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه
أحد في عصره ، ألف فيها كتابا جليلا لا
نظير له ، وله في الطب منزع لطيف ومذهب
نبيل ، وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية
ما أمكن التداوى بالأغذية أو ما كان قريبا
منها ، فان دعت الضرورة إلى الأدوية
فلا يرى التداوى بمركبها ما وصل إلى
التداوى بمفردها ، فاذا اضطر إلى تركيب لم
يكثر التركيب ، وله نوادر محفوظة وغرائب
مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة ،
والأمراض المخوفة بآيسر العلاج وأقربه ،
وله خمسة كتب أخرى في الطب ذكرها ابن
أبي أصيبعة .

الشريف الإدريسي - هو عبد الله محمد
بن محمد عبد الله بن إدريس الحسيني ولد
بقرطبة سنة ٤٩٣ هـ - وحل بصقلية في
كنف مايكها روجر الثاني ، وألف كتابا في
الجغرافيا سماه نزاهة المشتاق في اختراق
الآفاق ، وصنع له كرة أرضية من الفضة
واشتهر الإدريسي بكتابه المسمى الجامع
لصفات أشتمات النبات « يقول ابن أبي أصيبعة
كان فاضلا عالما بفنوى الأدوية المفردة ،
ومنافعها ومنابتها وأعيانها ، وله كتاب
الأدوية المفردة ، أشار فيه إلى كتب النبات

التي استعان بها مثل كتاب الحشائش
لديسقوريدوس ، والمفردات لاصطفن
وجالينوس ، وكتاب الأدوية المفردة لحنين
ابن اسحق ، وغيرها .

أبو القاسم الزهراوى - ولد بقرطبة
سنة ٩٣٦ م اشتهر بممارسة الجراحة ،
وكتابه المسمى التصريف لمن عجز عن التأليف
موسوعة في الطب والجراحة - يمتاز بكثرة رسومه
ووفرة أشكاله للآلات التي كان يستعملها
وأكثرها من استنباطاته ، واستمر كتاب
التصريف العمدة في الأمور الجراحية مدى
خمسة قرون ، ترجم مرات عديدة .

ابن زهر - أبو مروان عبد الملك بن زهر ،
ولد بأشبيلية ودرس الطب عن أبيه ، يقول
ابن أبي أصيبعة كان جيد الاستقصاء في
الأدوية المفردة والمركبة حسن المعالجة .

وقد شاع ذكره في الأندلس وفي غيرها
من البلاد ، واشتغل الأطباء بمصنفاته ،
ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال
صناعة الطب ، واشتهر كتابه التيسير في
المداواة والتدبير « وقد ضمنه وصف علمه
الجرب ولم يكن قد سبقه إلى وصفها غير
الإسكندر الطرولى ، كما أنشأ فصولا

في وصف التهاب التامور المصلى ، والتهاب
الأذن الوسطى ، وشلل البلعوم ، كما جاء
فيه وصف لعملية استخراج الحصى من
الكلية ، وفتح القصبة الهوائية ، وقد
أصيب ابن زهر بخراج الحيزوم

وترك وصفا شائعا للأعراض التي
كان يشكو منها وقد ترجم التيسير وطبع
مرارا .

ولقد أثر ابن زهر أثرا بليغا في الطب
الأوروبى ، وظل هذا التأثير بليغا إلى نهاية
القرن السابع عشر الميلادى .

وينتمى ابن مروان إلى أسرة عظيمة ،
كنى أفرادها جميعا « بابن زهر » ونبغ
منهم عدد ليس بقليل في المدة من القرن
الحادى عشر والثالث عشر ، منهم .

(أ) محمد بن مروان بن زهر توفى
سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) .

(ب) أبو مروان عبد الملك محمد بن
مروان .

(ج) أبو العلا زهر بن أبي مروان توفى
سنة ٥٢٥ هـ - ١١٣٠

نوع من العقاقير منها ٣٠٠ لم يسبقه إلى وصفها أحد وترجم كتابه إلى اللغة اللاتينية وكان عليه المعول حين عصر النهضة الأوروبية ويعمل ابن البيطار بحق خليفة ديسقوريدوس في علم الصيدلة وله كتاب المغني بالأدوية ، وكتابه الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام ، وكتاب الأفعال العجيبة والخواص الغريبة ، وشرح كتاب ديسقوريدوس .

ابن خاتمة - هو أحمد بن علي بن محمد أبو جعفر بن خاتمة ، يقول المقرئ « كان أستاذا أديبا بارعا كاتباً بليغاً حاملاً ، طبيباً ماجداً فاضلاً عدلاً ، توفي ٧٧١ هـ وقد كتب في الوباء وأثبت حصول العدوى وتعتبر رسالته في الوباء خير ما كتب في موضوعها إلى فجر القرن السادس عشر .

ابن ميمون - هو أبو عمران موسى بن القرطبي ولد في قرطبة سنة ١١٣٥ م ، نرح إلى مصر وواصل الدرس والتحصيل بهمة لا تعرف الملل ، واحترف الطب ودخل خدمة صلاح الدين وعينه الملك الأفضل طبيباً له - وتوفي سنة ١٠٢٤ م وألف ابن ميمون عشرة تصانيف أهمها فصول القرطبي وتسمى أيضاً فصول موسى بن ميمون ومنها ،

(د) أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء توفي سنة ٥٥٧ هـ - ١١٦١ م .

(هـ) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء (الحفيد) ٥١٤ - ٥٩٦ هـ (١١١٠ - ١١٩٦ م) .

(و) أبو محمد عبد الله ابن الحفيد ولد سنة ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م .

ابن رشد - أبو الوليد محمد بن أحمد

ابن رشد أحد فلاسفة الإسلام المشهورين ولد بقرطبة ودرس الفلسفة والطب وألم بفلسفة أرسطو ، ألف في الطب كتابه المشهور باسم « الكليات » وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة وكان يقصد من أبي زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما مثل كتاب كامل الصناعة . ومن مآثور كلام ابن رشد قوله من استقل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله ، وقد خلف ضمن مصنفاته في الفلسفة مصنفات عديدة في الطب .

ابن البيطار - كان رئيس العشابين في مصر ، كان أواخر زمانه في حرفة النباتات وكتابه الجاسع في الأدوية المفردة أشهر من أن يذكر ، وهو يحتوي على وصف ١٤٠٠

المقالة الفاصلة وسماها « السموم والتحرز من الأديوية القتالة » وقد أبرز فيها ابن ميمون الكثير من تجاربه الخاصة وله رسالة في الربو وأخرى في البواسير ، وسن أهم رسائله الرسالة الأفضلية وتبحث في الحالات النفسية المختلفة كالغضب والحزن والسرور وأثرها في الصحة وعلاجها برياضة النفس وتقويتها ، وتدل هذه الرسالة على أن موسى ابن ميمون كان عالما نفسانيا محنكا وأنه أدرك عظم الفائدة من تسيخير قوى النفس في علاج أمراض البدن ، وقد اشتهر بذلك حتى مدحه الشاعر بقوله :

أرى طب جالينوس للجسم وحده -
وطب أبي عمران للعقل والجسم .
وقد ذكر أن بعضا من أطباء الغرب قد عرفوا مبادئ التحليل النفسي واستخدموها .

أبو عبد الله الحنط الكفيف - من أهل قرطبة وقد اشتهر بالطب وقد توفي سنة ٤٣٧ هـ ، وقد اشتهر من النازحين إلى مصر من الأطباء موسى بن ميمون وابن البيطار التميمي كما اشتهر من أطباء مصر رشيد الدين أبو خليفة وابن رضوان والشيخ السديد

وقد ترجم كثير من كتب الطب العربية إلى اللاتينية واقترن اسم جامعة ساليرنو بأسماء بعض التراجم المشهورين الذين نقلوا علوم العرب إلى اللغة اللاتينية وأهم هؤلاء التراجمة « قسطنطين الأفرقي » ترجم كتاب كامل الصناعة لعلي بن عباس المجوسي ، ونقل أيضا لأبي يعقوب اسحق بن سليمان وابن الجزار ، وتبع قسطنطين تلميذه يوحنا اقليطس - وخرج ابن تالم الذي أتم نقل الحاوي للرازي إلى اللغة اللاتينية .

وتعتبر الحروب الصليبية التي شبت ناراها عام ١٠٩٧ م وامتدت حتى ١٢٧٣ م من العوامل المهمة في نقل العلوم العربية وخاصة الطب إلى بلاد الغرب ، فقد حمل كثير من المرضى والأطباء وغيرهم من الراجعين إلى أوطانهم الكثير من الوصفات العربية إلى بلادهم ، وكانت ساليرنو أهم الشغور التي يرجع عن طريقها المحاربون العائدون إلى أوطانهم .

والخلاصة أن العرب أضافوا الكثير إلى علوم الطب والصيدلة والطب العام وأمراض العيون والبيمارستانات .

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع

تحقيق لسان العرب

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

كما أن صواب عجزه :

٥٩٧ (حمض) ٤١٠ س ١٣ قول

الأغلب :

* كانت له قُبَّةٌ سَحَقَ بجاد *

* لا يحسن التحميص إلا سردا *

كما في المراجع المتقدمة. وانظر تفسير

وفي تفسيره : «فإنه يريد التفخيد» ،

البيت في اللسان (بنى) .

صوابه «التفخيد» بالذال . وبذلك

صححت في بيروت ١٤٠

٥٩٩ - (عرض) ٢٦ س ٢٣ وبيروت

الجزء التاسع

١٦٥ والمخطوطة أيضا : «قال أبو ذؤيب

٥٩٨ - (خفض) ٤ - ٢٥

يصف برذونا» ، وهو تحريف عجيب ،

وبيروت ١٤٥ والمخطوطة ، قول الشاعر :

صوابه «يصف برقا» ، وهو ما يقطع به

لو وصل الغيث لأندى امرئ

الشعر من قول أبي ذؤيب :

كانت له قُبَّةٌ سَحَقَ بجاد

أمينك برق أبيت الليل أرقبه

لكن في المخطوطة : «امرأ» بالنصب ،

كأنه في عراض الشام مصباح

وصوابه : «لأبنين امرأ» ، كما في اللسان

٦٠٠ - (عرض) ٢٨ س ١٨ وبيروت

(بنى ١٠٣) والحيوان ٥ : ٤٦١

١٦٧ والمخطوطة : «تعرض ، أى أقمه

والمخصص ٥ : ١٢٢ والخصائص ١ :

في السوق» .

٣٦ وأمالى ابن الشجرى ٢ : ٢٠٦ .

(١) متابعة لما نشر في الجزء ٢٦ من المجلة .

إذا أعطيته بدل ما ذهب منه ، وقد تكرر
في الحديث ، والمستقبل التعويض « ،
صوابه : « والمستعمل التعويض » كما في
مقاييس اللغة (عوض) . يعني أن «عوضه»
أكثر استعمالاً من «أعاضه» .

٦٠٤ - (عوض) ٥٦ س ١٧

وببيروت ١٩٣ قول رشيد :
حلفت بما ثرات حول عوض
[أنا] وأنصاب تُركن لدى السعير
إنما هو «السعير» هيئة التصغير ، كما
سبق في التنبية رقم ٣٨١ ، وكما ورد
[مضبوطاً هنا في النسخة المخطوطة .

٦٠٥ - (فرض) ٧١ س ١٢ وببيروت
٢٠٦ والمخطوطة : « ليس فيها إلا نوى
معلّق بالتفاريق » صوابه « بالتفاريق »
بالتاء المثناة . والتفاريق : جمع ثُفروق ،
وهي أقمار البُسر والتمر .

٦٠٦ - (فضض) ٧٢ س ١٧ وببيروت

٢٠٧ والمخطوطة أيضاً : « وفي حديث خالد
ابن الوليد أنه كتب إلى مروان بن فارس » .
وقد حار مصححو طبعة بولاق وقالوا : « كذا
هو بالنسخ التي بأيدينا » ، والصواب إن
شاء الله « إلى مرازمة فارس » كما في اللسان

والعبارة مبتورة ، فالذي في التهذيب
١ : ٤٦٨ : « تعرض به ، أي أقمه
في السوق » .

٦٠١ - (عضض) ٥١ س ٢٠ - ٢١

وببيروت ١٨٨ والمخطوطة أيضاً : « وإذا
كان القوم لابنين لهم فلا عليهم أن يروا
عَضاضاً » ، والنص بهذه الصورة محرف ،
صوابه : « لابنين فلا عليهم ألا يروا
عَضاضاً » ، كما في التهذيب ١ : ٤١
لابنين ، بكسر الباء ، أي أصحاب لبن ،
أي لو كان عندهم لبن لاستغنوا عن الطعام .
والعضاض ، بالفتح : ما يُعَض عليه من
طعام .

٦٠٢ - (عضض) ٥٣ س ١٢ وببيروت

١٩٠ والمخطوطة كذلك : « واللّصف
والكلبة والعُمر والتُّغر » ، وجاءت « التُّغر »
بالتاء المثناة المضمومة ، وصوابها « الثُّغر »
بالتاء المثناة المفتوحة ، كما في التهذيب
١ : ٧٥ . وانظر اللسان (ثغر ١٧٣) .

ومنه قول كثير :

وفاضت دموع العين حتى كأنما
بُرأد القذى من يابس الثُّغر يُكحل

٦٠٣ - (عوض) ٥٥ س ١٥ وببيروت

١٩٢ والمخطوطة : « وأعضته وعوضته ،

٦٠٩ - (حطط) ١٤٥س ٨ وببيروت
٢٧٥ والمخطوطة أيضا :

كَأَنَّ مِحْطًا فِي يَدَيَّ حَارِثِيَّةٍ
صَنَاعَ عَلَتْ مِنِّي بِهِ الْجِلْدَ مِنْ عَلٍ
بدون ضبط للكلمة «عل» ، ووجه
ضبطها «من عل» بالضم ، كما في جمهرة
أشعار العرب ١٠٩ وهو من قصيدة مرفوعة
الروى ، أولها :

تَأَبَّدَ مِنْ أَطَالِلِ عَمْرَةٍ مَا سِلُّ
وَقَدْ أَقْفَرَتْ مِنْهَا ثُرَاءُ فَيَنْدَبِلُ

٦١٠ - (خبط) ١٥٢س ٢٣ وببيروت
٣٨٣ : «قال علقمة بن عبدة» ياب سكاك
باء «عبدة» وأهمل ضبط الباء في المخطوطة
ووجه ضبطها : «عبدة» بفتح الباء .
وفي الخزانة ١ : ٥٦٥ في ترجمة علقمة
هذا ، وهو علقمة الفحل : «وعبدة بفتح
العين والباء . وأما عبدة بن الطيب فهو
بسكون الباء ، كذا في الصحاح .
والعبدة ، محرّكة ، بمعنى القوة ، والسمن ،
وصلالة الطيب ، والأنفه » .

٦١١ - (خبط) ١٥٣س ١٩ وببيروت
٢٨٣ والمخطوطة أيضا : «قال دبّاق الدبيري»

(خدم ٥٨) . والمرازبة : جمع مرزبان ،
وهو الرئيس من العجم .

٦٠٧ - (قبض) ٨١س ٨ وببيروت
٢١٥ قول الفقهسي :

* في هجمة يَغْدِرُ منها القابض *
وليس للغدر هنا معنى ، إنما هي «يُغْدِرُ»
من الإغدار ، يقال : أغدره ، أى تركه .
وكذا أنشدته وفسر دابن الأنباري في شرح
السبع الطوال ٥٧١ . وجاءت رواية
في اللسان (عوض) :

* في هجمة يُشِيرُ منها القابض *
يُشِيرُ ، أى يُبْقِي ، من السور ، وهو
بقيّة الماء في الإناء .

٦٠٨ - (حطط) ١٤٤س ١٤ وببيروت
٢٧٥ والمخطوطة : جاء في تفسير قول
الشماخ :

وإن ضربت على العِلَّاتِ حطت
إليك حِطاط هادية شنون
«العِلَّات : الأعداء» ، صوابها
«الأعدار» . والعلة : العذر ، ومنه قوله :
* ما علتى وأنا جلد نابل *

أى ما عذرى في ترك الجهاد ومعنى أهبة
القتال .

٦١٤ - (رهطه) ١٧٧س ٣ وببيروت

٣٠٥ وكذلك المخطوطة : قول روبة :

* هو الدليل نفراً في أرهطه *

صوابه «الدليل» بالذال المعجمة ،

نظرفيه إلى قول الله في كتابه : «أنا أكثر

منك مالا وأعز نفراً» .

وانظر ملحقات ديوانه ٨١ والخزانة

١ : ٢٢٤ وشرح شواهد الشافية ١٥٢

٦١٥ - (سجلط) ١٨٤س ٨ وببيروت

٣١٢ قول الشاعر :

أحب الكرائن والضومران

وشرب العتيقة بالسنعجلاطه

وفي المخطوطة : «الضومزان» بالزاي

وبدون ضبط للنون ، والوجه «الضومران»

بالراء وبفتح النون ، ولا داعي لارتكاب

علة الحذف في هذه العروض ، وإن كان

فتح النون فيه زحاف القبض ، كما أن

«السنعجلاط» صواب ضبطها كسر الطاء ،

كما في المخطوطة . وانظر ما سبق في

التحقيق رقم ٤٠٤ في مادة (ضمير)

صوابه «أَبَاق» . وفي اللسان (أَبَق) :

«وَأَبَاق : رجل من رَجَازهم ، ويكنى أبا

قريبة» . وفي تاج العروس : «وَأَبَاق

كشَّاد : شاعر دُبيري مشهور ، كنيته

أبو قريبة» .

٦١٢ - (خلط) ١٦٤س ١٧ وببيروت

٢٩٤ : «قال بَسَامَة بن الغدير» وفي المخطوطة

«بَسَامَة» وكلاهما خطأ ، إنما هو -

«بَشَامَة» ، وهو من شعراء المفضليات .

والبشامة : واحدة البشام ، وهو شجر ذو

ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق

الصعتر ، ولا ثمر له . والغدير لقب أبيه

واسمه عمرو . وانظر المؤتلف والمختلف

للأمدى ٦٦ وما سبق في التحقيق رقم ٥٦٧

٦١٣ - (خمت) ١٦٨س ٦ وببيروت

٢٩٧ : «فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو

فُوْهَة» ، وفُوْهَة السكة والطريق والوادي

والنهر : فُوهَة ، وهي غير مرادة بلا ريب .

وفي المخطوطة : «فُوْهَة» وانحرف الأول

غير منقوط فيها . وصوابه : «قوهة»

بالقاف المضمومة وسكون الواو ، كما في

اللسان (قوه) والصباح (خمت) .

٦١٦ - (شبط) ١٩٩ س ٢٢ وببيروت
٣٢٧ قول الشاعر :

من شبابيط لُجَّةٍ وسط بحر

حَدَّثَتْ مِنْ شَحْوَمِهَا عَجْرَاتِ

وجاءت في المخطوطة : « حَدَّتْ » بإهمال

نقط الحرف الذى قبل التاء ، وليس

لإحداهما وجه ، إنما هى « حُدْب » كما

في الحيوان ٣ : ٤٦٨ جمع حُدْبَاء ،

وأصلها حُدْب بِإِسْكَانٍ للدال ويجوز في

الشعر ضم عين فُعل كما هنا ، وكما في

قول أبي سعيد المخزومي .

طوى الجديدان ما قد كانت أنشده

وأنكرتني ذوات الأعين النجل

٦١٧ - (شرط) ٢٠٤ س ٢١ وببيروت

٣٣١ قول خالد بن قيس :

* لَيْتَكَ إِذْ رَهَيْتَ آلَ مَوْءَلِهِ *

صوابه « رُهَيْتَ » كما في المخطوطة

واللسان (فعل ، وآل) ومجالس ثعلب

٤٥٠ يخاطب بذلك مالك بن بَجْرَة ،

وكان قد رهنَ عند بني مَوْءَلَة بن مالك ،

في دية على قومه .

٦١٨ - (فلط) ٢٤٧ س ١٦ وببيروت

٣٧٢ قول الراجز :

* شَرِبْتُ مِنْهُ بَيْنَ كُرِهِ وَنَعَطِ *

صوابه « ثَعَطُ » كما في المخطوطة

واللسان (ثَعَطُ) . والثعط ، بفتح التاء

المثلثة والعين المهملة : إِنْتَانِ الْمَاءِ .

٦١٩ - (قبط) ٢٤٨ س ١٨ وببيروت

٢٧٣ والمخطوطة أيضا قول الكميت :

لَيْسَاحَ كَأَنَّ بِالْأَتْحِمِيَّةِ مُسْبِغٌ

إِزَارًا وَفِي قُبْطِيَّةٍ مَسْجَلِبٌ

صوابه « مُسْبِغٌ » كما في التهذيب ،

يقال : أَسْبَغَ إِزَارَهُ ، أى أطاله وأوسعاه

٦٢٠ - (قطط) ٢٥٦ س ٧ ، ٩

وببيروت ٣٨٠ وكذلك المخطوطة وتاج

العروس قول رؤبة :

* تَقْلِيلُ مَقَارِعِنَ مِنْ سُمِّ الطُّرْقِ *

صوابه « تفليل » بإلفاء ، كما في

ديوان رؤبة ١٠٦ وكما يقتضيه تفسير

تاج العروس من قوله : « وتفليل فاعل

سوى ، أى سوى مساحيهن تكسير ما قارعت

من سم الطُّرْق . والطُّرْق : جمع طُرْقة ،

وهى حجارة بعضها فوق بعض » .

والتفليل : التكسير . وقبل الشطر :

* سَوَى مَسَاحِيَهُنَّ تَقْطِيطَ الْحَقِّقِ *

٦٢١ - (قوط) ٢٦٢ س ١٤ وببيروت
٣٨٦ والمخطوطة ، قول الراجز :

* إذا استمى ادبيها الغطامطا *

وردت كلمة « ادبيها » بدون همز
في جميع النسخ ، وهو الأمر الذي أوقع
مصحح الطبعة الأولى في ريبة ، وكتب
« قوله ادبيها كذا بالأصل . وحرره » .
وضبطت بضم الهمزة « أدبيها » في نوادر
أبي زيد ١٧٣ . وقال أبو زيد : « يقال
استمى خيرها واستميت خيرها ، أي
اخترت خيرها » . والوجه عندي :
« أزيها » . والأزبي : الصوت . ويؤيده
ما في النوادر أن أبا حاتم رواد « أربيها »
بالراء . أما الغطامط فكذا ورد ضبطه
بالفتح ، والذي في اللسان والقاموس
والتاج أنه بالضم صوت غليان ماء البحر .

٦٢٢ - (وسط) ٣٠٨ س ١ وببيروت
٤٢٩ والتاج ، قول القتال الكلابي :

من وسط جمع بني قريظ بعد ما

هتفت ربيعة يا بني خوار

صوابه « يا بني جواب » كما في
ديوانه ص ٣٦ والخصائص ٢ : ٣٦٩

وأما ابن الشجري ٢ : ٢٥٨ كما أن
« قريظ » صوابها « قريظ » بالطاء
المهملة كما في المراجع المتقدمة وفي جمهرة
ابن حزم ٢٨٢ أن قُرطاً وقُرَيْطاً وقُرَيْطة
بطون من بني كلاب يقال لهم القُرطاء .
وفي اللسان والمقتضب لياقوت أنهم :
قُرط وقُرَيْط - كأمير - وقُرَيْط . كزبير ،
ويقال لهم القُروط . وانظر ما أثبت في
تعلقي على الجمهرة . وجواب هذا اسمه
مالك بن عوف بن عبد الله بن جعفر
ابن كلاب . وهو الذي نفي بني جعفر
ابن كلاب وطردهم حتى لحقوا باليمن
ببني الحارث بن كعب ، فحالفوهم مدة
ثم رجعوا إلى جواب وقومهم فاصطلحوا .
انظر جمهرة ابن حزم ٢٨٤ . ومن أنحوات
البيت هذا البيت المشهور :

ولقد لحنتم لكم لكيما تفهموا

ووحيت وحيّاً ليس بالمسرتاب

٦٢٤ - (عظظ) ٣٢٦ س ٢٢ وببيروت

٤٤٧ قول العجاج :

* وعظظ الجيسان والزئني *

صوابه « والزئني » كما في ديوان
العجاج ٧١ والمقاييس ٤ : ٥٣ والزئني

هو الكلب الصيني القصير القوائم .
وانظر له الحيوان ١ : ١٥٧ ، ٣١١/٢ :
٣٧٢ : ٦ / ١٧٩

٦٢٥ - (غنظ) ٣٢٩ س ٢١ - ٢٣
وببيروت ٤٥٠ والمخطوطة ، قول جرير :
ولقد لقيت فوارساً من قومٍ
غنظوك غنظاً جرادة العيسار
والصواب نسبة الشعر إلى ابن آدم
النعمى الكلبي ، كما في التاج (جرد) .
والشعر ليس في ديوان جرير . وورد
في المقاييس (غنظ) وفي اللسان (غير)
بدون نسبة .

٦٢٦ - (قرظ) ٣٣٥ س ١٣ وببيروت
٤٥٥ وكذا المخطوطة : « أن خزيمة
ابن نهد كان عشور ابنته فاطمة » .
صوابه « خزيمة » بالحاء المهملة المفتوحة
كما في تهذيب اللغة ٩ : ٦٧ ومختلف
القبائل لابن حبيب ص ٢٠ وجهرة
أنساب العرب ٤٤٦ والمقتضب لياقوت
الورقة ١٥٧ نسخة دار الكتب المصرية .

٦٢٧ - (بضع) ٣٦٢ س ٩١ وببيروت
٨ : ١٥ : « البضع ما لم يبلغ العقد
ولا نصفه » .

صوابه « العقد » بفتح العين كما
في المخطوطة ، والمعجم الوسيط (عقد) .
والعقد بالفتح هو العشرة والعشرون
والثلاثون إلى التسعين . وأما العقد ،
بالكسر ، فهو آحاد العقد من الواحد إلى
التسعة . وانظر حواشي نصر على القاموس
في مادة (بضع) والألف المختارة من
صحيح البخاري الحديث ٨٩٦ ، ٩٢٥

٦٢٨ - (بضع) ٣٦٣ س ٤ وببيروت
١٦ والمخطوطة قول ساعدة الهذلي :

ساد تجرم في البضيع ثمانيا
يلوى بعيقات البحار ويغضب

صوابه « يلوى » من ألوى ، كما
في اللسان (لوى) عند إنشاد البيت .
وانظر التحقيق رقم ٢٤٩

٦٢٩ - (بلع) ٣٦٧ س ١ وببيروت ٢٠
والمخطوطة : « وبلعاء أيضا فرس لأبي
ثعلبة » ، صوابه « لأبي بن ثعلبة » ، كما
في المخصص ٦ : ١٩٧ . وانظر الخيل
لابن الأعرابي ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢

٦٣٠ - (جبع) ٣٩٠ س ٦ قول
ابن مقبل :
وطفلة غير جبع ولا نصف
من دل أمثالها باد ومكثوم

٦٣٩ - (جمع) ٤٠٧ س ٤ وببيروت
٥٦ والمخطوطة : «قال قيس بن
الأسلت» ، وإنما هو أبو قيس بن الأسلت
وهو شاعر معروف من شعراء المفضليات .
وأبو قيس هو كنية الشاعر ، واسمه
صيفي بن الأسلت ، وهو ممن اختلف
في إسلامه ، ف قيل إنه أسلم ، وقيل إنه وعد
بالإسلام ثم سبق إليه الموت فلم يسلم .
وترجمته وأخباره في الإصابة ٧ : ١٥٨ ،
٥ : ٢٥٧ ، ٤ : ٢٥٢ والأغاني ١٥ : ١٥٤
وابن الأثير ١ : ٢٨٤ . والبيت الذي
رواه ابن منظور هو في المفضليات ص ٢٨٥

٦٣٧ - (جمع) ٤١٠ س ١٠ وببيروت
٥٨ والمخطوطة : «قال اللحياني : كان
أبو زياد وأبو الجراح «بإثبات بياض
بين هذين العلمين . والواقع أن الكلام
ليس فيه انقطاع» كما في المحكم لابن
سيده ١ : ٢١٣

٦٣٨ - (خضع) ٤١٦ وببيروت ٦٤
والمخطوطة أيضا ، قوله : «وغول خيدع
منه ، وطريق خيدع» ، والخطأ في ضبط
الكلمة الأولى من هذا النص يخفى على
كثير ، وليس المراد الغول ذاك الحيوان

الخرافي ، وإنما هو «غول» بفتح الغين
كما في التهذيب ، والغول ، بالفتح :
بعد الأرض والمفازة ، سميت بذلك لأنها
تغول السابلة ، أي تقذف بهم وتسقطهم
وتبعدهم . وانظر اللسان (غول ٢٢) . ١٩

٦٣٩ - (خضع) ٤١٩ س ٢٣ وببيروت
٦٧ والمخطوطة : «يقال للشواء المخدع
والمغلس» ، وردت الكلمة الأخيرة
بالعين المعجمة ، وصوابها «المغلس»
بالعين المهملة كما في التهذيب ١ : ١٦
ونقله عنه صاحب التاج في (علس) .
وجاء في اللسان (علس) : «والعليس :
الشواء المنضج» . وأما مادة (غلس)
فبعيدة كل البعد عن هذا الاشتقاق .

٦٤٠ - (خرج) ٤٢١ س ٢٢ وببيروت
٦٩ : «الجنون والطوفان والثول» .
وضبطت «الطوفان» بفتح الطاء والواو
في النسختين ، ولكنها وردت مهمة
الضبط في المخطوطة ، وجاءت في التهذيب
بضم الطاء ، وهو الأقرب إلى الصواب ، إذ
أن من معانيه البلاء والموت ، ومن معانيه
أيضا ظلام الليل ، كما في قول العجاج :
«وعم طوفان البلاء الأثابا» . . .

٦٤٣ - (خضع) ٤٢٥ وبيروت ٧٢

والمخطوطة ، قول الكميت :

إذ من لاخضع الحديد

ث ولا تكشفت المفاصل

وردت كلمة « المفاصل » بالصاد المهملة

وردد بهامش الأصل في نسخة « الثياب »

وصوابه « المفاضل » بالصاد المعجمة ،

كما في تهذيب اللغة ١ : ١٥٥ .

وفي اللسان : « والمفضل والمفضلة ،

بكسر الميم : الثوب الذي تتفضل به

المرأة » ، أي تلبسه وحده .

٦٤٤ - (خضرع) ٤٢٨ س ١٦

وبيروت ٧٥ وكذلك المخطوطة ، قول

الراجز :

خضارع رد إلى أخلاقه

لما نهته النفس عن أخلاقه

صوابه « عن إنفاقه » أي إنفاقه للمال

كما هي الرواية في جمهرة ابن دريد

٣ : ٣٩٤ والمخصص ٣ : ١٤ .

والخضارع : البخيل يتسمح .

٦٤٥ - (درع) ٤٣٥ س ١٣ والمخطوطة .

« قال أبو الأخر » برائين مهملتين .

وفي بيروت ٨١ والتاج : « أبو الأخرز »

وللطوفان ، بالتحريك أيضا وجه ،

إذ هو بمعنى الطواف والاستدارة بالشئ .

٦٤١ - (خشمع) ٤٢٤ س ١٠ وبيروت

٧١ . جاء في التعليق على حديث :

« كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت

الأرض من تحتها » ، « ويروى خشفة

بالحاء والفاء » ، والصواب « حشفة بالحاء

والفاء » ، أي بالحاء المهملة ، كما

في المخطوطة والتهذيب ١ : ١٥١ . ويؤكد

ما جاء في اللسان (حشف) : « والحشفة :

صخرة رخوة في سهل من الأرض » ،

وجاء في الحديث أن موضع بيت الله

كانت حشفة ، فدحا الله الأرض عنها .

٦٤٢ - (خشمع) ٤٢٤ س ١٣ وبيروت

٧٢-٧١ : « والعرب تقول للجئمة

اللاطئة بالأرض » . وردت « الجئمة »

بالجيم وفتح الشاء ، وجاء بعد ذلك أيضا :

« وهى الجئمة » بالجيم كذلك وفتح

[الشاء ، ووردت الكلمتان في المخطوطة

بالجيم وإسكان الشاء فيهما . وصوابهما

« الحئمة » بالحاء المهملة كما في التهذيب

١ : ١٥١ واللسان (حشم) . وثاؤها

تقال بالإسكان كما يقال أيضا بالفتح .

« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في سفر ، فسمع رجلين يتغنيان وأحدهما
يجيب الآخر وهو يقول :

لا يزال حواري تلوح عظامه
زوى الحرب عنه أن يعجن فيقبرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
انظروا من هما ؟ قال : فقالوا : فلان
وفلان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
اللهم اركسهما ركسا ودعهما إلى النار
دعا » .

وفي البيت المذكور ما يسميه العروضيون
« الخزم » .

٦٤٧ - (ذرع) ٤٤٨ سن ١٩

وببيروت ٩٣ قول ابن قيس العدوي :

إن المذرّع لا تُعْنَى خنولته

كالبغل يعجز عن شوط المحاضير

وفي كتاب البغال للجاحظ أذه عرهم
ابن قيس الأسدي . أما « تُعْنَى » فقد جانبها
الصواب ، إنما هي « تغنى » كما في
كتاب البغال . ووردت الكلمة مهمة
في المخطوطة . والمذرّع هو الذي أبوه
عربي وأمّه أمة ، فمن ذلك كانت خنولته
لاتغنى عنه شيئا .

رأه بعدها زاي . وهذه طين على بلّة ،
صوابهما « أبوالأنخر » ، كما في الصحاح
واللسان (قمجر) . وأبوالأنخر الحماني
راجز معروف ، ترجم له صاحب المؤتلف
٥٢ وقال : « أحذبنى عبدالعزى بن
كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم .
وعبدالعزى هو حمان ، راجز ميمون
مشهور » . وذكر في اللسان (قمر ٤٢٨)
« أبو الأنخر الحماني » فأصاب في الاسم
وأخطأ في النسبة ، إذ هو « الحماني »
بكسر الحاء لاضمهها . وأضاف اللسان أن
اسمه « قتيبة » . والأنخر : الذي أقبلت
حذقتاد إلى أنفه .

٦٤٦ - (دع) ٤٣٩ سن ١٧ وببيروت

٨٥ : حديث : « اللهم دعها إلى النار
دعا » . وفي المخطوطة : « دعها » ،
وتقرأ هذه في الكتابة القديمة « دعها » ،

إذ كانوا لا يضعون الكسرة تحت الشدة
فوق الحرف ، إنما يجعلون الكسرة
حيثما كانت في أسفل الحرف . ومهما
يكن فإن صوابهما « دعهما » بضمير
الاثنين . والحديث بتمامه في مسند أحمد
٤ : ٤٢١ من حديث أبي برة قال :

وورد بعده في الصفحة نفسها :
« والمدرعة : الضبع لتخطيط ذراعيها » .
ومن الواضح أنه تحريف مطبعي صوابه
« المدرعة » بالذال المعجمة .

٦٤٨ - (ربيع) ٤٥٦ س ١٣ وببيروت
١٠٠ قول لبيد :

رابط الجاش على فرجه
أعطف الجون بمربوع متل
والقصيدة مقيدة بالسكون في رويها ،
فالصواب « متل » كما في المخطوطة
وديران لبيد ١٨٦ والمعاني الكبير لابن
قتيبة ١١٠١ . ووردت الكلمة مهمة
ضبط اللام في مطبوعة الألمان (تل) .
والمربوع : الرمح الوسط لا قصير ولا طويل
والمثل : الذي يتل به أي يصرع . والبيت
من قصيدة أولها

إن تقوى ربنا خير نفل
وبإذن الله ريثى وعبل

٦٤٩ - (ربيع) ٤٦٤ س ٢٥ وببيروت
١٠٨ والمخطوطة : « وفي التهذيب :
ما في بني فلان أحد تغني رباعته » ،
صوابه « يغني رباعته » بالياء في يغني ،
والنصب في رباعته : أي ليس فيهم

من يحسن القيام بأمور الرئاسة غيره .
ومنه قول الأخطل في ديوانه ١٤٥ يمدح
مصقلة بن هبيرة : ١

ما في معد فتى يغني رباعته
إذا بهم بأمر صالح فعلا
والرباعه هنا الرئاسة ، أي لا يقيم أمر
الرباعه غيره . ووقع هذا البيت أيضا
في اللسان محرفا برواية : « تغني رباعته »
فيكون هجوا لمعد كلها . والمراد أن ليس في
معد كفاء للرئاسة وضبط حالها وأمورها
غيره . ١

٦٥٠ - (ردع) ٤٨١ س ١٨ وببيروت
١٢٣ قول مجنون بنى عامر :

صفراء من بقر الجواء كأنما
ترك الحياة بها رداغ سقيم
وفي المخطوطة « الحياه بها رداغ » .
بإهمال كلمة « الحياه » وضبط « رداغ »
بالنصب . وصواب الكلمة الأولى

« الحياء » بالهمزة في آخره مع الرفع ،
كما أن صواب الأخيرة « رداغ » بالنصب
كما في المخطوطة والحماسة بشرح
المرزوقي . وقال المرزوقي : « وصفها
بأنها درية اللون ، وأن فيها مشابهة من

بقر الجِواء ، وأنها حييَّة قليلة الحركات
لنعمتها ، قليلة الكلام لفرط حياتها ،
فكان بها نُكُشٌ سَقَمٌ ، لما ألفتُه من
الكسل . انظر الحاشية رقم ٥٥٣ .

٦٥١ - (رقع) ٤٩٢ س ٢ وببيروت ١٣٢
والمخطوطة ، قول الشاعر :

وما تركَ الهاجونَ لي في أديمكم
مَصْحًا ولكنِّي أرى مترقعا

و «مَصْحًا» بفتح الميم والصاد لا وجه له ،
إنما هو «مُصْحًا» ، يقال أَصَحَّ : صار
صحيحا ، فهو مُصِحٌّ . وانظر الحيوان
٣ : ١٣٨ .

٦٥٢ - (رقع) ٤٩٢ س ١٤ وببيروت
١٣٣ وكذلك المخطوطة : «ويقال للذي
يزيد في الحديث ، وهو تنبيق وترقيع
وتوصيل» ، والوجه : «تنبيق» بتقديم
الباء على النون ، كما في تهذيب اللغة
(رقع) . والتنبيق مأخوذ من بنيةقة
القميص ، وهي رقعة تكون في موضع
الجيب منه بحيث يدخل اللابس الرأس .

٦٥٣ - (ريغ) ٤٩٩ س ٢١ وببيروت
١٣٩ والمخطوطة ، قول ذي الرمة :

طراقُ الخوافي واقعا فوق ربيعة
لدى ليله في ريشه يترقرق

كذا وردت كلمة «لدى» ، وصوابه
«لدى ليله» بالنون ، أي ما يسقط
في الليل من الندى والبلل ، ينعت بازيا .
ويقال : طائر طراق الريش ، إذا ركب بعضه
بعضا . وهذا الصواب مطابق لما في اللسان
(طرق ٨٩) وديوان ذي الرمة ٤٠٠
والمخصص ٨ : ١٣١ - ١٠ : ٨٣ .

الجزء العاشر

٦٥٤ (زبع) ٢ س ٥ قول مشهم يرثي
أخاه :

وإن تلقه في الشرب لاتلق فاحشا
على الكأس ذا قازورة متزبعا
إنما هي «الشرب» بفتح الشين ،
وهو جماعة الشاربين . و «قازورة»
وردت في بيروت ١٤٠ : «قازوزة»
بزائين ، وكلاهما خطأ ، والصواب
«قاذورة» كما في المخطوطة واللسان
(قذر) والمفصليات ٢٦٦ والاشتقاق
٢٧٨ ، ٣٧٦ . والقاذورة : الذي يتبرم
بالناس ويشقذر منهم ، لسوء خلقه .

٦٥٥ - (سبع) ١٣ س ٥ وببيروت
١٥٠ قول الراجز :

ياليت أني وسبيعا في الغنم
والجرح متى فوق حرار أحم

ووضعت في المخطوطة حاء تحت
« حده » تأكيداً لإهمال الحاء ، وهو
وهو خطأ صوابه « جُدَّة » بالجيم المضمومة ،
كما في البيان للجاحظ ٢ : ٢٨٨ والبيان
(سدا ٩٧) . والألف مع : الثور الوحشي
الذي في خديه سواد يضرب إلى الحمرة
قليلاً . والجُدَّة ، بالضم : الخُطة في
ظهره تخالف لونه . والشاعر هذا هو
المثقب العبدى ، كما في البيان . والشعر
في صفة ناقة شبيهها بالثور .

٦٥٨ - (سلع) ٢٤ س ٣ وببيروت ١٦٠

والمخطوطة ، قول الشاعر :

بسلع صفاً لم يبد للشمس بدوة
إذا مارآه راكب أرعدا

بترك بياض بين راكب ونهاية البيت .
والبيت في الحيوان ٤ : ٢٠٨ منسوب
إلى عنثرة بن شداد . وتما عجزه كما
في الحيوان :

* إذا مارآه راكب اليم أرعدا *

واليم هو البحر .

٦٥٩ - (سلع) ٢٥ س ٢ وببيروت

١٦١ : « قال الورك الطائي » ، وفي تاج
العروس : « قال وداك » ، صواب هذا

وفي المخطوطة : « والجرح منى فوق
حرار أحم » بهذه الصورة المهمة ،
وإنما هو « والخُرج نى فوق كراز
أجم » كما في الصحاح وإصلاح المنطق
لابن السكيت ٤٥١ والمخصص ٦ : ١٥
واللسان (كرز) . والخُرج هو جُوالق
الراعى الذى يضع فيه رادته ومتاعه .
والكراز ، كشداد : الكبش الذى يضع
عليه الراعى كُزره ، أى خُرجه . وأما
الحرار فليس له وحه . والأجم : الذى
ليس له قرون . وفي اللسان : « وكبش
أجم لا قرنئ له » .

٦٥٦ - (سرع) ١٥ س ١٤ وببيروت

١٥٢ قول الراعى :

فلو أنّ حقّ اليوم منكم إقامة
وإن كان صرّح قد مضى وتسرعاً
والصرّح لا يمضى ولا يتسرع ، وإنما
هو « صرّح » بالسين كما في كتاب
سيبويه ١ : ٤٣٩ والإنصاف ١٨٠ .
والصرح : المال الراعى .

٦٥٧ - (سفع) ٢١ س ٥ وببيروت

١٥٧ قول الشاعر :

كانّهم أسفع ذو حسنة
يمسده البقل وليل سدى

العنق . والآق : الواسع . ويعين هذا
التصحيح أن البيت الذي بعده :

وكم عائد لي وكم زائر
لو أبصرني زائرا قد شهق

٦٦٢ - (شبع) ٣٦ س ٥ - ٦ وببيروت
١٧١ والمخطوطة : « وقول بشر بن
المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة » .
وهذا خلط ، وإنما هو « بشر بن المغيرة ،
في المهلب بن أبي صفرة » . وانظر
تهذيب اللغة ١ : ٤٤٧ والحامسة بشرح
المرزوقي ٢٦٥ .

٦٦٣ - (شجع) ١٧٣ س ٢٠ وببيروت
١٧٣ والمخطوطة ، قول الشاعر :

* على شجعات لاشحاب ولا عضل *

والشجعات هنا : قوائم الإبل الطوال .
وكذا ورد محرفا في تاج العروس ،
وصوابه : « لاشخات » كما في التهذيب
(شجع) ، وكما توقعه وحده مصحح
طبعة بولاق . والشخات : جمع شخت
وشخيت ، وهو الدقيق من كل شيء .

٦٦٤ - (شرح) ٤١ س ٢ - ٣
وببيروت ١٧٥ : « لاتحتاج مع ظهور
ماها إلى نوع بالعلق من البشر ولا حتى

كله » الورل « باللام كما في المخطوطة
واللسان (بقر) والحيوان ٤ : ٤٦٨ .

٦٦٥ - (سمع) ٢٧ س ٧ وببيروت ١٦٣
والمخطوطة ، قول الشاعر :

سماع الله والعلماء أنى

أعوذ بخير خالك يا ابن عمرو
وصواب الرواية : « بحق خالك » ،
كما في سيبويه ١ : ١٧٠ باتفاق نسخته .
وكذا وردت على الصواب في اللسان (حقا
٢٠٦) مسبوقة بقوله : « والعرب تقول :
هذت بحقوه ، إذا عاذبه ليمنع » .

٦٦٦ - (سمع) ٢٩ س ٥ وببيروت ٦٥
والمخطوطة ، قول الشاعر :

ومسمعتان وزمارة

وظل مديد وحصن أنبق

والبيت لأحد السجناء كما في البيان
٣٠٦٣ . وصوابه « وحصن أمق » ، كما
في البيان ومجالس ثعلب ٥٤١ واللسان
(زمر ٤١٦ ومق ٢٣٣) . والرواية
في جميعها : « ولي مسمعان » . والمسمع :
القيد . وقال ثعلب : « المسمعتان القيدان ،
كأنهما يغنيانه . وأنت لأن أكثر ذلك
للمرأة » . . والزمار : الغل يوضع في

- في الحوض « . وإنما الحثي للتراب ونحوه ،
وصوابه « ولا جَبِي في الحوض »
كما في التهذيب (شرح) . وجبى الماء
في الحوض : جمعه . ووردت الكلمة
في المخطوطة مهمة النقط إهمالا تاما .
- ٦٦٦ - (شرح) ٤٢ س ١٠ والمخطوطة :
قول الخليل يذم رجلا :
فَكَفَّ عن الخير مقبوضة
كما خط عن مائة سبعة
وجاءت في بيروت ١٧٦ : « كما
خط » بالحاء المهملة على الصواب ،
كما في التهذيب ودلائل الإعجاز ١٧٨ .
ورواية أدب الكتاب للصولي ٢٤١ :
* كما نقصت مائة سبعة *
- ٦٦٥ - (شرح) ٤١ س ١٧ وبيروت
١٧٦ والمخطوطة : « فمعنى أقوى وأقفر
واحد على الخلوة » وتام العبارة كما
في التهذيب : « واحد يدك على الخلوة »
فسقطت من الأصل كلمة « يدل » .
- عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع



قناعة الفلسفة بأي موضوع ، تفضولها في كل الميادين هو تعريفها ، إن كانت تقبل أن تعطى تعريفاً ما ، ولو مؤقتاً وتقريبياً . يقول المفكر الألماني المعاصر (كارل ياسبيرس Karl Jaspers) :
« الأسئلة أهم من الأجوبة ، لأن كل جواب سيصبح سؤالاً جديداً » .
فـ (ياسبيرس) لم يعط تعريفاً للفلسفة ، ولكنه أبرز جانبها هاما يقرب من التعرف عليها .

صدق التجربة

إننا مضطرون إلى أن ندخل على قولة (ياسبيرس) تعديلاً : الفلسفة ، كما يظهر لنا ، لا تهتم بأسبقية الأسئلة على الأجوبة ، ولا تجعل من الجواب سؤالاً . فالذي يهم الفلسفة ، بالدرجة الأولى ، هو أن يحيا السائل سؤاله ، والمجيب جوابه ، هو أن تشترك الأجوبة مع الأسئلة ، في نفس التوتر وفي نفس الحيرة ، لأن الجواب ينبع من العين التي يتفجر عنها السؤال ، العين الواحدة التي هي صدق التجربة .



تسأل أحدكم : لم الفن ؟
فنعقب بسؤال آخر :
ولم لا الفن ؟

ليس للفلسفة موضوع محدد ، كل الموضوعات تدخل في نطاقها . فكما أنه :
« لا يملاً بطن ابن آدم إلا التراب » ،
طبقاً للحديث النبوي ، يحق لنا أن نؤكد أنه لا يشبع فكر الفيلسوف حتى التراب . تشتغل الفلسفة بكل المواضيع التي تهتم الإنسان ، وتتطلع دائماً إلى أخرى ، فهي ، كما يقول القرآن الكريم عن جهنم : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأت وتقول : هل من مزيد ؟) (١) فعدم

(١) سورة ق : الآية ٣٠

إذا رجعنا إلى الجذر اللغوي العربي ،
وجدنا أن معناها مطابق لمعاني الفلسفة
المعاصرة . الحكمة = الكلام الموافق للحق ،
صواب الأمر وسداده .

ويفسر عبد الله بن عباس «حكمة» ،
في القرآن الكريم ، بتعلم الحلال والحرام
(وهو معنى أخلاقي عام ، وإسلامي خاص) .
وقيل : الحكمة هي الكلام المعقول
المصون عن الحشو^(١) . إذن ، الحكمة -
كل ما يمنع من الجهل ، والظلم ، والخطأ .
ومنه أيضا إتقان الشيء والتمكن منه^(٢) .
فالحكيم ، في تونس مثلا ، هو الطبيب .
لأن من الحكمة منع المرض وإتقان^(٣)
« فنون » العلاج .

على هذا ، يجوز لنا أن نوكد أن معنى
الفلسفة هو أنها لا تنطوي تحت معنى
واحد .

* * *

الفن الحق هو أيضا تجربة تكتسب
صدق حيويتها من التوتر النفساني أو
الفكري ، المنبعث من تساؤل وجواب عن
رؤى الفنان ووجدانه ومصيره . نجد
الفنان ، في نهاية المطاف ، وقد تجلت تجربته
في إبداعه . فعلى مستوى التجربة الصادقة ،
يتصل الفن بالفلسفة ، إذ تجربة الفنان
إنما هي تغيير خالص عن مضمون ما يعبر
عنه الفيلسوف ، وإن اختلفت التعابير .
فالمضمونات موحدة في الأهداف
والخصائص .

* * *

عرف اليونان ورثتهم الفلسفة بأنها
« محبة الحكمة » ، وهو تعريف لم يعد
صحيحا ، لأنه يتعدى الفلسفة ليشمل
مجموع اهتمامات الإنسان ، من أنواع
العلم والفن والسياسة والاقتصاد . فالحكمة

(١) انظر : على الجرجاني ، التعريفات (٢) انظر : أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة

(٣) الطب : (أ) علاج الجسد والنفس (عن تاج العروس)

(ب) السحر ؛ والرفق (نفس المصدر) .

(ج) المهارة والخلق (أبو حيان التوحيدي) . كل حاذق بعمله يسميه العرب «طبيبا» . من ذلك قولهم :
« اصنعه صنعة من طب لمن حب » ، و « اعمل في هذا عمل من طب لمن حب » . وجاء في بيت ينسب لعليمة :
« فإن تسألوني في النساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب »

الإنسان والطبيعة

كل فن إن هو إلا تداخل صميمي بين
الطبيعة والإنسان : اندماج في الطبيعة
 وأنسنتها في تركيب متناسق ، ولكنه
 تركيب يحافظ على الخاصيات الذاتية
 للفنان وللطبيعة . والاندماج هما بلغ
 في العمق ، يُبقى نقط الاساس قائمة
 تفصل ، بخطوطها السحرية ، بين عالم
 الذات وعالم الموضوع ، بين المشاهدة
 والمُشاهد (بكسر الهاء) ، والمُشاهد
 (بفتح الهاء) . ويمكننا أن نضيف بأنّه ،
 حتى في ميدان الذات ، لا بد من التفرقة
 بين المفاهيم ، مثلاً : بين الحب والمحِب
 والمحبوب . ففي ذلك البون يوجد المجال
 الشاسع للعمل الفلسفي ، وللإبداع الفني .

إنها مفارقة ! ولكن المفارقة ، في نفس
 الوقت ، عبث وغنى . فالفنان ، منذ كان
 وهو ، كالفيلسوف ، حليف للسِر والغموض
 والمفارقات ، فلو كشف له الغطاء لنزف
 معين الأيحاءات الخلاقية . فالروعة ، كل
 روعة ، في تعاون الوجدان والتخيل مع
 الحدس والعقل ، على مصارعة الغامض
 والمجهول ، لإرغام الطبيعة على إزاحة شيء
 ما من اللثام الغليظ الملقى على كيانها .

إن التخيل يتحدى الفنان ، كما يتحدى
 العالم الذي يفرض الفروض قبل أن يقوم
 بالتجارب في الطبيعة ليسيطر عليها .
 فالشاعر ، والنحات ، . . . يخصصان
 إمكانيات العالم ، والعلم يفتح آفاق الكون
 أمام الفن . فالأهم التي تتكلم مخيلتها
 يجف معين الفنون عندها ، فتجهل العلوم
 والفلسفة . الكون ، بما فيه الإنسان أكثر
 ثراءً من المادة ، ومن الذات ، ومن الفن ،
 ومن الفلسفة ، ومن العلم ، لأنه طبيعة
 فيها ذات مع ذوات ، تحس ، وتتفلسف
 وتعلم . إن الإنسان لا يولد في الطبيعة ،
كبقية الحيوانات ، بل يولد في الثقافة :
 يفتح عينيه على طبيعة تخضع إلى
 مكتسبات تاريخية ، إلى اختراعات
 واكتشافات وتقنيات ، وتقنيات .
 فبوصفنا ذوات شاعرة تحيا بالتخيل
 والعقل والحدس والفضول ، ننزع من
 الطبيعة أسرارها ، ونؤنس كل شيء
 حولنا : تلك وظيفتنا .

* * *

كل الأحداث التي ينسج منها تاريخ
 البشر إن هي إلا مراحل في تطور وتمتين

بتدخل المنطق والتجربة ، من أجل البرهنة والتقنين .

الدائية :

عالم الفن عالم غريب ، فيه تلتقي الذات بالطبيعة .

ولكن : ما الذات ؟

لن نستطيع أن نتعرف عليها إذا نحن لم نحدد ، أولاً ، ما نعني بـ « طبيعة » . والطبيعة ، هي بدورها ، ترفض كل تحديد لها لا يبدأ بتعريف الذات . هنا ، أيضا ، يلتقي العلم بالفن وبالفلسفة ليقفوا جميعا حيارى .

يصرح العلم :

سأكتفى بتسجيل العجز وفرض الفروض لأبني عليها أجهزة تركيبية من الملاحظات والتجارب ، ثم أسير كما لو كانت الحقيقة كمشة في يدي .

ويقول الفن :

أنغمر في حقيقة الغموض وأمزجها بغموض الحقيقة ، وأسقى الناس من هذا التركيب ، في آنية من الرموز . . .

علاقات الإنسان بالطبيعة . لقد كان دائما - وما زال - الإنسان والطبيعة كعاشقين يتراوغان ، رغم ترابط مصيرهما ، كلاهما يظهر قليلا من صميمته للآخر ، ويتستر عنه لينمى الإغراء . هذا ما يجعل الإنسان مغامرا حتى جنون الفن ، وفضول العلم ، وجدلية الفلسفة .

وبقدر ما يتقدم التاريخ بالإنسان يزداد غذاؤه من التخيلات ، والمفاهيم ، والرؤى والأحلام ، والإشارات والرموز . عندما أخرج (فرويد) كتابه « تفسير الأحلام » ، الذي فتح آفاقا شاسعة للسيكولوجيا المرضية وللأنثروبولوجيا ، هُوجِمَ بعنف من طرف علماء معاصرين ، مثل (ليبان) ، من جامعة (برلين) ، الذي كتب عنه :

« لقد انتصرت عند (فرويد) الأفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمي » .

إنه انتقاد يجلى (من غير قصد) واقعا أصبحنا اليوم نعيه وعيا ثابتا : الكشوفات العلمية لا تستغنى عن الحدس والخيال الفني . فالنظرة الساذجة إلى العالم هي المدخل إلى كل معرفة ، ثم تتعمق الأمور

أما الفلسفة فتكتفى بالتصريح بأنها :

مباريات دائمة بين فرقٍ من نقط الاستفهام . دورها أن تتساءل باضطراب عن فعاليات العالم ، وفعاليات الفنان ، وعن ماهية العلم والفن .

الإنسان كائن خلق من صراع الذات والطبيعة ، صراع المواجهة والتلاحم .

يندهش البدائي أمام مظاهر وظواهر الطبيعة ، كما اندهش قدماء فلاسفة اليونان الذين ادعوا أن كل الأشياء مليئة بالآلهة . الفنان يسكن الأشياء ويحيها معها ، يحيها ، لذا قيل عن الشاعر إنه مسحور ، إنه مجنون ، وضعفوا شخصيته كما فعل العرب إذ نسبوا لكل شاعر شيطانا يوحى إليه . يقول أبو النجم :

إني ، وكل ساحر من البشر

شيطانه أنثى ، وشيطاني ذكور

والشيطان ملك عاص ، كما في الفكر السامي ، أو من أسر الآلهة ، كما عند اليونان والرومان .

* * *

يفرض العالم على الطبيعة أن تدخل معه في حوار .

والفنان يجعل الفراغ يتحدث ، يحمله أكثر من معنى : ننظر إلى لوحة زيتية ، فنواصل مع ألوانها وخطوطها . ولكن ما فيها من فضاء فارغ من السطور والأصباغ ، هو أيضا ، يشارك في التعبير الفني . فلو أن الفنان ملأ كل اللوحة خطوطا وألوانا ما كان فن ، نعني ما حصل تواصل بين الذات والطبيعة . فالذي يهرق محبرة المداد على ورقة لا يعطينا فنا .

الشعر تقاطيع : الشطر الأول من البيت والشطر الثاني يجمعهما فراغ ما بين الشطرين ، فيكونان وحدة ، ويعود الشاعر إلى السطر ، فيكون بين البيت وما سبقه فضاء ، ويسكت الشاعر بين الأبيات ، مجزئا الزمان إلى وحدات .

والغناء تقاطيع ، المد والحمل ، ممسا يجعل الكلمات العادية موسيقية ، مضيفة لكل واحدة شخصيتها ، تسفر عن عذوبة أو عن حرارة . فالموسيقى والشاعر يكشفان عما في الكلمة من حياة ، ومن حنان أو جبروت ، ويشحنانها ، أحيانا ، بمعان جديدة .

* * *

نظرتان : غربية وشرقية :

يعطى الفن الغربى ، منذ الإغريق حتى يومنا هذا ، أكبر عنايته لما فى الصورة الشخصية البشرية من لطف وتعبير ، ولما للجسد الإنسانى من نعومة ومرونة ، سواء فى النحت أو فى الفن التشكيلى . أما الفنان الصينى والفنان اليابانى فيهتمان ، أكثر ، بالمناظر الطبيعية ، بجمال الطيور والأزهار .

جانبان مختلفان من جوانب التزام الفن لحل ألغاز الكون : الغربى أدهشته ذاتية الكائن البشرى ، والفنانون الشرقيون بهرتهم شيشية وحيوية الكائنات الطبيعية . فالجمع بين النوعين من الفن يبرز الإطار العام للمصير الإنسانى : البحث عن المبدأ الحى ، المبدأ الروحى السارى فى العالم والذى هو مصدر الجمال والقبح ، الخير والشر .

من هنا تبدأ كل ميطافيزيقا .

* * *

يحاول الفنان أن يجعل الأشياء تعكس ما يحمل الإنسان فى ذاته من أسرار ، وأن يستغل مواهبه فى إجلال إلهامات

الطبيعة ، على شكل ما ، فنشاهد أنفسنا فى الأشياء وبفضل الأشياء :

إنها تذكرة ، وأكثر من تذكرة ، إنه إحياء ، وأغنى من أى إحياء ذلك الكشف الكلى الذى يغشانا عند المشاهدة المباشرة للقبلة وقد نحتها فنان ، فى قطعة من مرمر . إن الفنان لا يعبر عن القبلة بجعل فم فوق فم ، فالتصاق شفيتين بشفتين يعطى صورة ظاهرة عن عملية التقبيل ، لا التعبير الصادق عن أسرار القبلة ، عما تكنه القبلة فى أغوارها من أبعاد ميطافيزيقية . فكثيرا ما نرى فمًا فوق فم ، ولكنها عملية لا تتعرق من سطحياتها . تكشف القبلة عن أبعاد الوجدان اللامتناهية وعن الوجود عندما نشاهدها مجسدة فى الرخام وقد أعاد لها منقش الفنان حقيقتها العليا : رعشة عنيفة يذوب فيها جسدان بحثا عن أغوار وجود أعمق . إنه اكتشاف « الروح » وقد تمسكت من مجموع إمكانيات الجسد . إنه لغز الحلول ، حلول شخصين فى حلم الأبدية ، بعد أن أصبح الرخام شاهدا على قدرة مقص الفنان الذى يكسب الجمادات تعبيراً

(أفلاطون) أن في روحنا فنانا يرسم
 لأصورة الموضوعات التي يقدمها الإحساس .
 / أشياءونا تشهد علينا ومن ثمة كانت
 الفنون أوثق وأغنى رجوع لتاريخ الإنسانية
 تاريخها النفساني والموضوعي ، لأن
 المؤرخين للوقائع لا يعطوننا لويحات
 الحياة الفكرية والعاطفية ، بل يكتفون
 بتسجيل الأحداث الظاهرة ذات القلب
 الكبير ، الوقائع كمعطيات خام . فلو لا
 الفنان ما كان تاريخ حق ، لا بالنسبة
 للأمم ولا بالنسبة للأفراد .

* * *

أدوار النقد

قد اقتضت الأوضاع أن يتكون رهط
 من الاختصاصيين يقربون الشقة بين
 الفنان والمؤرخ ، وبين الإنتاج الفني
 والجمهور ، هم النفاد .

ليس دور الناقد أن يؤرخ للأدب
 وللفن ، بل أن يقيم الإنتاج ، أن يبين
 على اكتشافه وإبراز ما قد يستر عن
 إدراك المستهلك العادي .

فصيحاً ، ويدوخ القوى الطبيعية لمشيئة
 الإنسان . يود المرمر لو يقول : إني حي ،
 إني عاشق ، ولكنه يكتفى بالتصريح :
 أنا ترجمان ، من بين ترجمة الإنسان .

* * *

البعد الأنطولوجي للفن

أبرز علم الأوثنولوجيا المكانة التي
 يتبوؤها الفكر الأسطوري لدى «البدائيين»
 مع مقارنة مميزاته الكبرى بخصائص الفكر
 العقلاني . فوصلت الأوثنولوجيا إلى هذه
 النتيجة : على رأس مميزات الفكر البدائي
 والفكر العقلاني معا ، حدث خاص ، هو أن في
 أكثرية العمليات الذهنية ، يمتزج صميمياً ،
 التخيل بالرغبات ، ومن هنا يكتسب
 قوته على الخير وعلى الشر . فالفنون
 التشكيلية أصيلة في طبيعتنا ، لأن كل
 صورة تنبعث عن التخيل وعن رغبة ،
 في آن واحد . يجوز لنا أن نستنتج من
 هذا أن الغرائز البشرية تجد أفصح تعابير
 عنها في الأجهزة الفيزيولوجية والبيولوجية
 للجسد ، أما الوجدانيات فهي في توتر
 دائم باحثة عن وسائل تعبيرية ، وإلى
 الآن لم تجد إلا الفنون . فكما ادعى

الكتاب أو التمثيلية أو القطعة الموسيقية أو اللوحة ، والتساؤل عن الإنتاج - في - ذاته ، لا على ما فيه من صالح لأن يستغل في الدعايات والشوفينية . فالجامعي يسمو عن تسخير البحث العلمي لما يتعارض مع كرامة الحقيقة . فأدبنا العربية وفنوننا معرضة لمهاترات النقاد الارتجاليين ، يرفعون للسماء من شاؤوا ، على حساب القيم الحقيقية ، مقابل صدقات ، أو مجاملة للصدقات . فإذا يشس الناقد من الهبات ، ولم تتوفر أغراض أخرى ، هاجم الآثار ليكسر إنتاجا في تصاعده .

نعم ، دور النقد خطير ، لأنه يرمى إلى تنمية الذوق والثقافة بربط الصلة بين رسالة المبدعين والجمهور . يقود الناقد إلى المعركة التي ينتصر فيها الشعور والفكر والذوق السليم على اللامبالاة ، وتنتصر الإصاغة على التهجي ، إنها مغامرة لتغيير الإحساس الساذج إلى سلوك ورؤى . ويعمل الناقد على تخليد الأموات ، مزيجاً عنهم غبار النسيان ، إذ يجعلهم مرجعاً ، في مقارناته ، وفي أحكامه على المعاصرين .

دور الناقد دور وساطة وإرشاد للمنتجين والجمهور . النقد الجيد توجيه مجلد ، يعيننا على اختيار ما يجب أن نتعرف عليه ، وما ينبغي أن نعيد قراءته ، أو أن نخرج إلى المتحف لنشاهده مرة أخرى . دور الناقد أن ينفذ عما هو جديد جدير بالاهتمام ، وأن يفضح السطو ، جاعلاً من الأمانة معيار الأصالة . الناقد على بصيرة مما يجري في ميدانه . إنه شاهد عيان يشرى حساسيتنا ، على الدوام .

إذا كانت هذه هي خطورة المهام التي يطالب بها الناقد ، وجب عليه أن يعرف تاريخ الثقافات ، ليرى نقط الانصهار ونقط الاختلاف ، فيوحى بالطريق المثري للذهنية الإنسانية ، يبنى الجسور بين الماضي والحاضر والمستقبل .

وربما كانت كتابات الناقد أخصب من كتابات وألواح المبتكرين . إنه ، كما نرى ، عبء كبير لا يقدر على تحمله إلا قلة القليل . وهذا ما حدا اليوم بالجامعات ، إلى تأسيس كراسي للنقد .

أصبح النقد علماً يخضع لقوانين ، من أهمها ، أو أهمها ، العمل على تفهيم

ميول غامضة يجسدها الممثل بالحركات والأقنعة . فالفن المسرحي يكون تأليفا يضم أنواع الفن إلى العامل الديني وإلى الخرافة .

أما اليوم ، فمختلف أصناف الفن قد تحررت ، إلى حد بعيد ، من عبء ماضى الولادة ومن مرحلة الحبو . وأخذت ترمى إلى التأكيد بأنه : لا محاكاة للآلهة ، ولا متعة الزخرفة والزينة بقادرة على مواجهة المصير ، مصير عالم يتغير بسرعة لا يستطيع الإنسان أن يماشىها . ففي عدم التوازي بين إيقاع نمو التقنيات وإيقاع قوتنا على التكيف ، منبع الخيرة والعبث .

* * *

مشكلة العصر هي الشوق المصدوم إلى تكيف مستمر مع ما تسمخض عنه - يوميا - الصناعة وتطبيقاتها في الحياة المجتمعية . ف (كافكا Kafka) يعطى صورة مزعجة عن هذا الوضع الذي مسخ الإنسان وحوله إلى حشرة حقيرة . أصبحنا نحن جميعا محاصرين بـ « جدار الصين » العتيق ، ومتهمين ، دون أن نعرف شيئا عن التهمة ولا عن يتهمنا .

ويردد صدى هذه المأساة (ألبير كامو Camus) إذ يسمى الحياة بـ « الطاعون » :

ما يتطلب من الناقد هو ثقافة عامة ، مع رؤية شمولية ، وهذا ما تقدمه الفلسفة . فليس ، إذن ، بعجيب أن يهتم الفلاسفة منذ أقدم العصور حتى اليوم ، بـ « علم » النقد ، أو « فن » النقد . لقد رأينا أن دور الناقد دور وساطة بين المنتجين والمستهلكين وهل دور الفيلسوف إلا دور وساطة ؟ إنها وساطة بين مختلف الفنون وبين أصناف المعرفة . فلا غرابة أن يهتم الفلاسفة - المعاصرون بمختلف الفنون ، مثل (برغسون) و (باشلار) و (شول) ، و (كروتشى)

* * *

عبدية المصير :

مصدر كل الفنون هو الدين والميول الجنسية .

1) كان الرقص يرمى إلى غيبوبة الوجد للتعبير عن التفانى في حب الآلهة ، وهو ، في نفس الوقت ، تصعيد لرغبات لاشعورية (كما حلل ذلك فرويد) . كان الرقص دوما توأما للطرب ، وبالتالي للشعر .

ويلتحم الرقص مع الطرب ومع الشعر في التمثيل ، وهو مجموع تعابير تعبديّة لاستعطاف الآلهة ، أو تعابير رامزة إلى

إلى الشاعر أبي القاسم الشابي يحكى عن
تحرقه :

يا ربة الشعر والأحلام ، غنّينى !
فقد سئمت وجوم الكون من حين

ناحت بنفسى مآسيها ، وما وجدت
قلبا عطوفا يسليها ، فعزّينى !

وهذا من خلدى نوح ترجعه
بلوى الحياة وأحزان المساكين .

على الحياة ، أنا أبكى لشقوتها ،
فمن ، إذا مت ، يبكيها ويبكىنى ؟

لولاك فى هذه الدنيا لما لمست
أوتار روحى أصوات الأفانين

ولا استخف حياى ، وهى هائمة
فجر الهوى فى جفون الخرد العين

* * *

مواقف الفلسفة والفن من هذه الأوضاع :

والآن : ما موقف الفن والفلسفة ؟

لقد بلورا مفهوم «إنسان» ، فأبرزوا

أبعادا جديدة : الإنسان هو الكائن الذى

يحيا مع فكرة الموت المحتم ، ومع ذلك

يتجاوز الموقف العيى والمفارقات ليحقق

الوباء يجتاح مدينة (وهران) ، لكن
الأناية تعمى القوم فيعمل كل على إنقاذ
نفسه ، أو استغلال الحال لصالحه ، باستثناء
أقلية ، كالـدكتور (رييو) .

إذن : الحياة مجرد عبث . تلك نظرة
(كافكا) و (كامو) .

فإذا سألنا : هل من منقذ ؟

أجاب المؤلف المسرحى (بيكيـط Bockott) :

«انتظروا جودو» !

(جودو) إله لم نتخذ معه موعدا . فلن
يأتى ، ذلك الأصم - الأكم ، مهما طال
الانتظار ، ومع ذلك يجب أن ننتظر !

فلنتمرد ، مع أبطال (كامو) ، ولنعش
القرف والغثيان ، مع أبطال (سارتر) ،
فهذا لا يغير شيئا من الوضع .

نجد عند أبي حيان التوحيدى صدى قويا
لهذه التجربة : قلق ، وحسرة ، وشعور
بالضياع . لقد عبر عن إحساساته بصدق ،
إلا أنه بقى فى مستوى تجربة فردية ، يحياها
دون أن يتجاوزها . فالأديب ، أو الفنان ،
يسير غور التجربة ، ويشخصها ، تاركا
النظريات والعلاج للفيلسوف . فلنستمع

إنسانيته في تحدٍّ مستحرج : فبتعاون الفلسفة والفن ، يقوى الإنسان قدرته على التحدى الذى تفرضه عليه الحياة ، واليوم أكثر من ذى قبل .

إن الثقافة الفنية والفلسفية سلاحان في معركة المصير من أجل السيطرة على تاريخ لبيئة الإنسانية .

* * *

يسير نمو الذهنية على إيقاع النمو العام . لإنسان اليوم مطالب بالتكيف مع إلحاحات عصرنا الجبار ، دون أن يهمل عن أفضل مكتسبات الماضي . فالذى يرفض تحقيق هذه العملية تسحقه الأزمات ويصبح غير متشبث بالتاريخ .

الإنسانية ، الآن ، في فترة المواجهة الكبرى مع واقع جديد . عنيف ، مستعجل لا ينتظر . فوعى هذه الحقيقة ، يرغمنا على ألا نطيل الوقوف أمام حائط المبكى الذى شيده (كافكا) و (كامو) وغيرهما على العبث والغصة النفسانية .

لا يكفي أن نشخص الكائن البشرى ، علينا أن نتفهمه وأن نوّمن بحضورنا في العالم ، نتغير بتغيره . فتتضح إنسانيتنا ، بقدر ما تتضح الإمكانيات المادية والتقنية .

* * *

هناك اتجاه إنسانى (Humanisme)^(١) جديد يحاول أن يعطى للإنسان ثقة قوية بإمكانياته الذاتية : الإنسان يحقق مصيره كاملا ، دون أية معونة خارجية ، إذ يجد في ذاته الجذور الميتافيزيقية للوجود ، بها يصارع ميتافيزيقا المطلق .

على هذا الممشى ، يسير الوجوديون الملحدون ، مع مطالبة الفلسفة والفن بأن يبعثا عن جذور الوجود في تعاون صميمي .

يلاحظ (هايديجر Heidegger) أن المفكرين الأوربيين ارتكبوا غلطا فادحا عندما اعتبروا « الكينونة » موضوعا كبقية الموضوعات ، وافترضوا أن حقيقة التفكير الفلسفي تقوم على مطابقته للموضوع . فالوجود الحقيقي ليس هو الظاهرات ، بل

(١) يطلق الأستاذ علا ل الفاسي لفظة « إنسية » على Humanisme ، وهذا توليد موفق .

واللفظة قديمة ، وردت عند المعري في (رسالة الغفران ، ص ٢٠٥ ، القاهرة ، دار المعارف) وتأتى نعتا لما هو من خاصيات الإنسان ، فبعد أن سأل ابن القارح عن لغات الجن ، يجيب الجن (أبو هدرنش) : « إنا أهل ذكاء و فطن ، ولا بد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الإنسية »

بما يلتقي. أضواء على أنماط التعبير في
الأنطولوجيا المعاصرة .

* * *

المطلق والوجود :

إن النزعة التي رأينا خطها الكبير عند
(سارتر) و (هايديجر) ، تستهدف
تركيز الوجود الإنساني والكينونة الكونية
في الإنسان ، وكأنها تستبدل بمطافيريقا
المطلق بمطافيريقا وجودية .

فهل في استبدال المطلق (الله) بمطلق آخر
(الإنسان) ربح للإنسانية ؟

إن الانتقال من الكائن البشري المفرد
إلى مجموع النوع الإنساني ، أو فحسب
إلى مجرد هيئة محدودة ، قد يؤدي بنا إلى
مفاهيم مجردة غامضة كثيرا ما انتقدتها
الإلحاد على الدين ، طبعا ، يرجع فضل
كبير إلى الوجودية والأنطولوجيا المعاصرة ،
وإلى الفنون الحديثة ، في إجلال صميمية
الإنسان كفرد ، وبلورة قيمها وخصائصها

لكن ، هل من نظرية أو منهج لمعانة
المحافظة على الكينونة الفردية ، في صفائها
مع اعتبارها ينبوع كل وجود ؟

« الشيء - في - ذاته » ، كما عند -
(كانط) . ولكن ، لفهم الشيء - في -
ذاته ، أو الكينونة ، يجب أن ننطلق من
كينونتنا نحن : إني أدرك أن الكينونة
وجود في كينونتي أنا .

بناء على هذه النظرية الوجودية ، بوسعنا
أن نوكد أنه يجب على البحث العلمي ، هو
أيضا ، أن يبدأ من كينونتي ، من وجداني
كالفنون سواء بسواء ، ما دام مصدر كل
الفعاليات هو الوجود الذاتي . لذا اهتم
(هايديجر) بالفنون ، خصوصا بالشعر ،
فخصص كتابا لقصائد (هولديرين
Holdorlin) كما ركز (ميولوبونتي
Morleau-Ponty) آراءه الفلسفية ، في غير
ما دراسة ، على أمثلة من الفنون التشكيلية
ومن السينمائية . أما (سارتر) فقد وسع
نطاق الاتصال ؛ فهو ، في مغامرة البحث
عن جذور الوجود ، يتفلسف ، ويكتب
القصة والمسرحية ، ويؤلف عن الشاعر
(بودلير) وعن القصصي (جان جوني
Jean Giono) ، ويحرر المقالات عن الفنون
التشكيلية وعن النقد الأدبي ، كما يستغل
الفن السينمائي . وهكذا أعطى (سارتر)
مثالا على قرابة الفلسفة بالفنون الأدبية ،

قوله ناقصة إذا لم يضاف إليها : والجنة ،
كذلك ، هم الآخرون .

المشكلة هي أن يتأسس العالم والمستقبل ،
وهذا لن يتم بالأفراد ، بل بالناس ، نعى
بكائنات بشرية تشخصت كينونتها بفضل
تداخل الذوات ، أى بالتواصل مع الآخرين .

* * *

لنا

التواصل :

هنا نقطة التلاقى بين الفن والفلسفة :

كيف يحصل تواصل « أنا » بآخرين ؟
مشكلة قديمة ، ولكنها أصبحت اليوم
هى المشكلة الأساسية : تضعها المسرحيات
مثلها فى ذلك مثل الشعر المعاصر ، والموسيقى
الجديدة ، والنحت . . . الكل يجرى
وراء أسرار قلق العصر وما يغلف تواصلنا
من إبهام وغموض ؛ الكل يعمل على بلورة
غمراتنا النفسانية ، كأن العالم حامل ،
والجميع يسهم فى تهيب الجول للمولود المنتظر ،
مع رجاء ، وخوف ، وقلق ، وتمرد أحيانا .
فكما يقول (جان كوكتو Jean Cocteau)

«الشعر يشبه كوارثات القطار : لا

تفسر ، وإنما نحس بها» .

كيف يحصل التواصل بين كينونة فرد
وكينونات الآخرين ؟

الصميمية تمارس فى ارتباط « أنا »
بـ « نحن » . لأن العزلة تفقر الوجدان
وتصب الضباب على الوجود .

هناك وجه اعتراض مشابه من طرف
أنصار التصوف على نظرية المعتزلة المنكرين
لرؤية الله :

إذا امتنعت الرؤية الإلهية فى الآخرة ،
فما فائدة الجنة ؟

أليس النظر إلى وجه الحبيب أكبر نعيم
وأجلى ضياء من كل جنة ؟ فالجحيم والحرمان
هما الحجز عن الرؤية :

« وإذا اكتفى غيرى بطيف خياله
فأنا الذى ، بوصاله ، لا أكتفى »

وكان (لامرتين Lamartine) يردد
صدى هذا البيت إذ يقول :

«يكفى أن تفقد كائنا واحدا لتصبح
دنياك قفرا» .

نعم ، (سارتر) على حق عندما أكد
أن «الجحيم هم الآخرون» . ولكن ، هذه

الحب العذرى ، أو الأفلطونى ، ولا الحب
الصوفى .

ربما وجد المفكرون ، فى الحب الجنىسى
مفتاحا لمعرفة التواصل . هكذا تأسست
« السيكسيولوجيا » *sexiologie* بعد أن
أخذت معطياتها الأولى من الفنون ومن
الفلسفة . إنها علم خاص ، يتخذ من
الفعلة الجنسية ، والرغبات ، والانفعالات
النفسانية والجسدية والمجتمعية ، موضوعات
أساساً للتعرف على الإنسان . هكذا ،
اكتشفت دينامية الجسد اللامتناهية ،
وبدأت تخرج من ظلامها الحالك لتضيء
لنا مفهوم الإنسان .

* * *

الفن يضيف إلى الطبيعة ، لا ينسخها :
تعلمنا أيضا ، بفضل الأبحاث الفلسفية
المعاصرة وإيحاءات الفن الجديد ، أن زمنية
الوجدان تخالف زمان الطبيعة ، وأن
للأشياء حيزا ، أما الإنسان فأوسع من
الفضاء .

هذا واضح فى الفن التشكيلي التجريدى
فما تعبر عنه اللوحة يفتح على أكثر ما
يمكن من التأويلات ، لأن ما عند الفنان

أصبح الفن صراعا وتحديا . لأننا
نعيش توترا عالميا ، ومن هنا جاءت قضية
الالتزام ، وبات تداخل الفنون مع الفلسفة
والعلوم أمرا لازما : الجميع يعيش نفس
الوضع الدرامى ؛ فغناء ورقص الخنافيس
إن هما ، كذلك ، إلا تعبير عن التمرد
ضد الدراما .

* * *

يعيش الفلاسفة نفس الوضع ، بنفس
المشاعر . لذا يطلبون النجدة من العلوم
الطبيعية ، والاقتصاد ، والتاريخ ، ومن
الفنون ، ويتجلى هذا واضحا فى الخطوة
التي تعطيها الفلسفة اليوم للسانيات
(la linguistique) ، ولنهجية العلوم ،
وللأنثروبولوجيا ، ولتاريخ الفنون .
لتتضح لها معالم المشكلية (la problématique)
المعاصرة .

لقد انتهى عصر ثنائية الروح والجسد
ودخل الجسد فى الفلسفة كمواطن معترف
به ، تتساوى حاجياته مع الحاجيات
المعنوية . فالحب (فى معنى العملية الجنسية)
ندرسه الفلسفة بنفس الاعتبار الذى تدرس
به أى موضوع آخر ، فلا تفضل عليه

ولما كان تفاعل بين الطبيعة الخام ووجدان
- الإنسان .

إن حزنا غريبا يغمرنا عندما نقرأ هذا
التصريح للكاتبة (كاترين مانفيلد
(K. Manfield) :

« أنظر إلى الجبال ، وليست سوى
جبال الأشياء التي أرى » .

فالفنانة العظيمة لم تتفاعل مع الطبيعة ،
لم ترأ أكثر مما يمكن أن تسجله آلة فوتوغرافية ،
لم تؤنس المنظر بعطاء ، فكأن وجدانها
انكمش على ذاته تحت عبء مشاغله
الحزينة ، في تلك الفترات التي كانت
تعانى فيها فقر الذات والعزلة . فليست كل
فترات حياتنا لحظات إبداع فتي . ثم إن
الحلق الفني ليس أبدا مجرد نقل أو محاكاة
للواقع ، فكما يقول بيكاسو :
« إني لا أصور ، في لوحاتي ، ما أراه
بعيني ، بل ما أدركه بفكري » .

* * *

الفن شعور ، وفكرة ، وصناعة :
يقول (ماركس) :

« إن ما يفرق بين أقل مهندس معماري
وبين نحلة أكثر تجربة ، هو أن المهندس

أكبر مما تسمح به الألوان ، والظلال ،
وأبعاد اللوحة . قيل ل (جورج براك
J. Braque) أمام لوحة تصوير طبيعة ميتة :
« إن هذه الإضاءة غير موجودة في الطبيعة »

فأجاب :

« إذن . أنا لست من الطبيعة » .

وسئل أيضا :

« وهذا النور ، هو الآخر ، من أين
أتى ؟ » .

فصرخ الفنان

« إنها لوحة جديدة لا تعرفونها » .

لقد تغافل السائل عن أن البعد الأساسي
في كل عمل فني ، هو ما يضاف إلى الطبيعة
هو العنصر الإنساني الذي ينفخه الفنان من
أنفاسه وعرقه ورعشاته .

فعندما نقف ، في الهند ، أمام عجل
منحوت ، لا نشاهد شكلا من أشكال البقر
الطبيعية ، ولكننا نشعر بحضور عجل
صدر عن إحساس ، شوهد في رؤيا داخلية ،
إنه شبه طبة ثانية مزيدة ومنقحة . فلولا
ذاك العطاء المزيّد ، لما كان فن أو تعبير ،

بالتأليف الفلسفى ، لأجاب لأنه فيلسوف
والفيلسوف إنسان يبحث عن تعابير تفي
بما يريد أن يوصله للجمهور ، وجمهور
اليوم لم يعد ينحصر فى فئة النخبة ، بل
إنه الأمة ، أو الأمم ، على صعيد التاريخ
الإنسانى^(١) .

التاريخ مغامرات وجدانية وفكرية تجسد
رؤى الفيلسوف والفنان ، عن الكون
والإنسان ، بالكلمة ، والصخرة ، والصوت
واللون .

فمن التأملات ، ومن الروح الفنى ،
ينشأ الروح العلمى ، ويتأسس الفكر
الجماعى ، الذى هو وحدة الاتجاه والأهداف .
فكما أن التصوف يفتح المجال أمام وحدة
الوجود ، فإن الفلسفة والفن يتفتحان على
« وحدة الشهود بالحياة ، وعلى حلبة التواجد
فى الطبيعة ومع الطبيعة . تتمخض ألطف
مشاعر الإنسانية فى وجدان الفنانين ، لتشع

يبنى الخلايا فى رأسه ، قبل أن يبنيها من
الشمع . فنتيجة عمل المهندس توجد ذهنيا ،
فى تخيل العامل ، قبل تحقيقها فعليا .
(رأس المال) .

فعندما يأخذ الناقد أو المشاهد فى التساؤل
عن معنى أثر فنى وعلاقته بالطبيعة ، يتناسى
أن الفن تعبير عن ذات وطبيعة ، وأن
للوحة الزيتية « شخصية » ، وأن فهمها
لا يكون بالتحليل المنطقى (أو المنطقى فحسب)
ولكن من المنظر الأنطولوجى . ذلك ما
نتحسسه فى هذين البيتين لأبى القاسم
الشابى :

« أنت ، يا شعر ، قصة عن حياى ،
أنت ، يا شعر ، صورة من وجودى
أنت ، يا شعر ، إن فرحت ، أغاريدى
وإن غنت الكآبة ، عودى »

* * *

نظن أنه لو سئل (سارتر) لماذا يكتب
القصة والتشيلية . . . ، ولا يكتب

(١) فقرات من كلمة ألقيناهما فى (٧-٦-١٩٦٦) بالرباط ، بمناسبة مهرجان الشعر الذى نظمته اتحاد كتاب المغرب
العربى ، ونشرت فى مجلة آفاق (العدد الخاص بهذه المناسبة) .

من محاسن حياتهم وكما أنها ابتسامة عذرا انفجرت
أ من شمس تعانق طراوة الصباح ^(١)

* * *

خاتمة :

ولنختم الآن بتساؤل :

هل للآداب والفنون مستقبل في البيئات
التي غزتها الصناعة الكبرى ؟

مستقبل الآداب والفنون مستقبل نمو
مستمر . ألا نشاهد أنه ، في كل سنة ،
يتزايد عدد زوار المتاحف ، وقراء القصص
والشعر ، ويتكاثر الإنتاج الأدبي والفني ؟
ففي هذا ما يبشر بكل خير .

الفلسفة ، والآداب ، والفن ، لغات ،
واللغة وعي واقعي للأفراد وللأمم . فمن

خلال اللغة تعي الأمة نفسها بأنما واعية .
الفلسفة ، والآداب ، والفنون ، إن هي
إلا أبجدية التساؤل ، نتعلمها طول العمر ،
إذ لا مكان ، في خريطة التقدم المعاصر ،
لأية أمة دون فن ودون آداب .

إن عظمة الفن وثرائه الأدب في البنيات
العميقة ، تلك التي تتركز على رؤى ،
إنسانية وكونية ، أي على مفاهيم فلسفية
عن الإنسان ، وعن الوجود ، وعن ممارسة
الحرية الواعية الهادفة . فأروع التماثيل
واللوحات ، وأعذب الأنغام ، وأعمق
الشعر ، هو ما يدعو إلى التأمل في الكون
والمصير ، والتعاطف مع الدوات الأخرى .
محمد عزيز الحبابي
عضو المجمع المراسل من المغرب



(١) يكفى أن تفتح قاموسا فلسفيا (ألمانيا أو إنجليزية أو فرنسية) لنرى كم أعطى المفكرون ، على اختلاف
العصور ، من تعاريف لـ « فلسفة » ؛ إذ من الصعب أن يحدد الإنسان ، تحديدا نهائيا ، ميادين المنظومة التي ترمى
إلى التأمل في صراعات الإنسان لمصيره وهجاءاته للطبيعة ، وفي تواجده بذاته مع ذاته ومع الآخرين

وكانهم لم ينتبهوا إلى أن السجع
القرآني فريد ، يمتاز بأنه يحقق الملائمة
بين المعنى والأسلوب^{*} أروع تحقيق ،
ويخضع كلا منهما للآخر في إعجاز بيّن
لا ينكر .

وذلك أن سجعاته متعاقبة مع ما قبلها ،
مستقرة في مواضعها ، كفيلة بروعة
المعنى ، وجمال الصورة ، واتزان النطق ،
وتجانس الجرس ، وحلاوة الوقع .

ولهذا ترشد الآيات إلى فواصلها ،
ويتوقعها من له عرق في الأب وذوق ،
قال زيد بن ثابت : أُملي علينا رسول
الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « ولقد
خلقنا الإنسان من سلالة من طين .
ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم
خلقنا النطفة عَلَقَةً ، فخلقنا العلقة
مُضْغَةً ، فخلقنا المضغَةَ عِظَامًا ،
فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه
خلفاً آخر^(١) » فعند ذلك قال معاذ بن جبل :
فتبارك الله أحسن الخالقين . فضحك
رسول الله ، فقال له معاذ : مم ضحكك
يا رسول الله ؟ فقال : بها خُتِمَتْ^(٢) .



للدكتور أحمد الحوفي

[١]

من البحث السابق
أن في القرآن الكريم سجعا
وأنه لا غضاضة في أن نصف بعض سورته
وبعض آياته بأنها مسجوعة .

ويبدو أن الذين أنكروا السجع في
القرآن الكريم كالباقلاني وأبي الحسن
الأشعري وابن خلدون لم يرتضوا كلمة
السجع ، فآثروا عليها كلمة فاصلة أو
فواصل ، ليثبتوا أن الإعجاز في الأسلوب
القرآني الذي جاء على نسق مغاير للمعهده
العرب واقتدروا عليه .

(٢) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١٧٠/٢

(١) سورة المؤمنون ١٢ - ١٤

[٢]

والحق أن سجعات القرآن الكريم
تتماز بخصائص كثيرة أعجزت البلغاء
أن يحاكوها ، فمن هذه الخصائص :

١ - أنها نازلة في مواضعها ، ملائمة لمواقعها ،
بريئة من التكلف ، تتبع فيها الألفاظ
المعاني ، وتنهض خير نهوض بما تتطلبه
هذه المعاني ، فلا نقص ولا زيادة
ولا تكرار لضرورة السجع .

اقرأ قوله تعالى : « قال نوح رب
إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله
وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كُبَّاراً »^(١) ،
تجد أن كباراً بمعنى (كبير) ، ولكنها جاءت
هنا للدلالة على هذا المعنى ، ولتحقيق
السجع ، على حين أن كلمة (كبير) وردت
في آية أخرى محققة للمعنى وللسجع معاً
في قوله تعالى : « إن ربك يبسط الرزق
لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده
خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم
خشية إِملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إن
قتلهم كان خطأً كبيراً »^(٢) .

وكذلك جاءت كلمة كفار صيغة مبالغة
من الكفر في آية ، وجاءت كلمة كفور
صيغة مبالغة أخرى من الكفر في آية ثانية ،
قال تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر
دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار .
وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا
نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان
لظالم كفار »^(٣) ، وقال سبحانه :
« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها
منه إنه لاثوس كفور . ولئن أذقناه نعماء
بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات
عني ، إنه لفرح فخور »^(٤) .
وجاءت كلمة عسر في موضع وكلمة
عسير في موضع آخر ، وهما بمعنى واحد ،
قال تعالى : « فتول عنهم يوم يدعوا
الداعي إلى شيء نكُر . خشعاً أبصارهم
يخرجون من الأجداث كأنهم جراد
منتشر . مهطعين إلى الداعي يقول
الكافرون هذا يوم عسر »^(٥) .
وقال سبحانه : « فذلك يومئذ يوم
عسير . على الكافرين غير يسير »^(٦) .
ووردت كلمة كذب في الآية الكريمة :

(٢) سورة الإسراء ٣٠ - ٣١
(٤) سورة هود ٩ - ١٠
(٦) سورة المدثر ٩ - ١٠

(١) سورة نوح ٢١ - ٢٢
(٣) سورة إبراهيم ٣٣ - ٣٤
(٥) سورة القمر ٦ - ٨

وقال ابن المنير الإسكندري : كأنه يقول إذا عاينت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها ، فحصل عند أخذها وصفان : كونك ظلوماً ، وكونك كفاراً ، يعني لعدم وفائك بشكرها ، ولي عند إعطائها وصفان : وهما أني غفور رحيم أقابل ظلمك بغفراني ، وكفرك برحمتي ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقيير ، ولا أجازي جفائك إلا بالوفاء^(٦) .

ونقل السيوطي رأياً آخر لم يذكر قائله هو أن الآية التي ختمت بأن الإنسان ظلوم كفار كانت في سياق وصف الإنسان المنعم عليه ، أما الآية التي ختمت بأن الله تعالى غفور رحيم كانت في مساق صفات الله تعالى وتعداد نعمه وإثبات ألوهيته^(٧) . والذي يقرأ السورتين من أولهما إلى هاتين الآيتين يتحقق من ذلك .

وهذا الذي قالوه صحيح كله .

وقد يوهم النظر العجلان أن الفاصلة غير ملائمة في نحو قوله تعالى : « تُسَبِّحُ

» وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً^(١) ، وكلمة كذاباً وهي بمعنى كذب في الآية الكريمة . « إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً . وكل شيء أحصيناه كتاباً^(٢) »

ولكن قد تقع فاصلتان مختلفتان في نهايتي آيتين متفقتين لفظاً ومعنى ، كقوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار^(٣) »

وقوله سبحانه : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم^(٤) » فلماذا اختلفت الفاصلتان ولفظ ماقبلهما ومعناه واحد ؟

قال الزمخشري في تفسير الآية الثانية : إن الله لغفور رحيم ، حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها^(٥) .

(٢) سورة النبأ ٢٧ - ٢٩

(٤) سورة النحل ١٨

(٧) الإتيان ٢ / ١٧٣

(١) سورة الجن ٥ - ٦

(٣) سورة إبراهيم ٣٤

(٥) الكشاف ٢ / ٣٢٥

(٦) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ١٧٣

الضحو مع العرى ، ولكن التدبر يقضى بالنسق الذي انتظمت به الآية الكريمة ، لأن فيها لونا بلاغيا يسمى قطع النظر عن النظر ، إذ فصلت الظما عن الجوع ، وقطعت الضحو عن الكسوة ، مع ما بين كل منهما من تناسب ، ليتحقق تعداد النعم وتصنيفها ، ولو أن كل نعمة قرنت بما يماثلها لتوهم المخاطب كل نعمتين نعمة واحدة .

يضاف إلى هذا تناسب الفواصل ، لأن الظما لو قرن بالجوع فليل إن لك ألا تجوع فيها ولا تظما لا تثر سلك رموس الآيات ، وأحسن به منتظما^(٣) .

على أن الآية الكريمة راعت حاجة الإنسان إلى الشبع واللباس ، وأنه لا يستطيع الاستغناء عنهما ، فجمعتهما ، وراعت المناسبة بين رى العطش والاستظلال ، وأنها تابعان للباس والشبع ، فقرنتهما^(٤) .

وثمة تعليل آخر هو أن الجوع والعرى يدلان على الشدة والحاجة ، لأن الجوع

له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حلما غفورا^(١) .

وذلك لأن ختام الآية الدالة على أن كل شيء يسبح بحمده بجملة أخرى تؤكد حلمه تعالى ومغفرته ، هذا الختام يحتاج إلى تدبر ، لأن المخلوقات كلها تطيع الله ، وتخضع للنوايس التي أودعها فيها ، وتسبح بحمده ، وإن كنتم لا تدركون تسبيحها ، وأما أنتم فإنكم تعصون الله ، ولكنه يحلم عليكم ، ويغفر لكم ، فجاء ختام الآية بالحلم والمغفرة مناسبا لمعصية المخاطبين المقدرة في الآية .

وكذلك في قوله سبحانه وتعالى : « فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظما فيها ولا تضحى »^(٢) .

فإن النظرة العجلى تستحسن أن يذكر الظما مع الجوع ، وأن يذكر

(٢) سورة طه ١١٧ - ١١٩

(٤) خزائن الأدب المحوى ٩٧

(١) سورة الإسراء ٤٤

(٣) الانصاف على هامش الكشاف ٢ / ٤٤٩

فقدان الطعام . ونحو المعدة منه ، والعري
فقدان الكساء وخلاء الجسد منه ، كذلك
يتلازم الظمأ والضحو ، لأن الظمأ حرارة
في الجوف والضحو حرارة في الجو
وعلى الجسد .

لهذا لا يكاد السامع المتذوق أو القارئ
المتدبر يسمع آية أو يقرأها وهي
مختومة بغير ما نزلت حتى ينكر ما سمع
أو ما قرأ ، كالأعرابي الذي سمع قارئاً
يتلو قواه تعالى : « فإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ » ^(١) هكذا : فاعلموا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ، فقال الأعرابي : هذا لا يكون ^(٢) ،
لأنه أدرك ببديته أن ختام الآية بالمغفرة
والرحمة لا يلائم الزلل المتعمد بعد
الوعد والوعيد وبعد بيان الخير والحض
عليه ، وبيان الشر والتحذير منه ،
وإلا كان اقتران الغفران بالزلل إغراء به
وتهويناً من شأن العقاب .

ويشبهه هذا أن أعرابياً سمع قارئاً يتلو
قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا

أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله ،
والله عزيز حكيم » ^(٣) ، هكذا : والله
غفور رحيم ، فقال : ما ينبغي أن يكون
الكلام هكذا ، فقليل له إن القارئ غلط ،
والصواب « عزيز حكيم » فقال : نعم ،
هكذا تكون فاصلة هذا الكلام ، فانه
تعالى لما عزَّ حكم ^(٤) .

٢- وتمتاز سجعات القرآن الكريم بأن
لكل من القرينتين أو الفقرتين المسجوعتين
معنى يغاير معنى الأخرى ، على حين أن
أسجاع الكتاب البلغاء كثيراً ما تقوم
على تأدية الفقرتين لمعنى واحد ، وهذا
نوع من التطويل لا أثر له في كتاب الله .
اقرأ قوله تعالى : « والشمس وضحاها ،
والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جَلَّأها ،
والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ،
والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ،
فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح مَنْ
زكَّاها ، وقد خاب مَنْ دَسَّأها » ^(٥) .

واقراً آية سورة تجد هذه القاعدة
مطرده لا تتخلف .

(١) سورة البقرة ٢٠٩

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٣٣٩ والإتقان للسيوطي ٢ / ١٧٠

(٣) خزنة الأدب للحموي ٩٧

(٤) سورة المائدة ٣٨

(٥) سورة الشمس ١ - ١٠

٣- وللنفوس الوقفة الملائمة ، وتحس

الأذن لذادة الوقع ، مع روعة المعنى وبراعة الصورة وتميز التعبير .

فقد تجيء متحدة الحرف الأخير كقوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبينين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا »^(١) .

فمن المسبوقه والممدودة بالألف قوله تعالى : « إن للمتقين مفازا . حدائق وأعابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا »^(٢) .

وقد تجيء من حروف متقاربة المخارج ، نحو قوله تعالى : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعنا إلى ربي لنكونن من الخاسرين ، أفلا ننبئ الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذود دعاء عريض »^(٣) فإن الطاء والظاء والضاد متقاربة المخارج .

ومن المسبوقه بالياء والممدودة بالألف قوله تعالى : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك في النهار سبحا طويلا .

وكثيرا ما تجيء مسبوقه وممدودة بحرف من حروف اللين ، فتستريح النفس عنده .

(٢) سورة فصلت ٤٩ - ٥١

(١) سورة المدثر ١١ - ١٧

(٣) سورة النبا ٣١ - ٤٠

واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلاً . رب
المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً .
واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرة
جميلاً ^(١) .

ومن المسبوقه بالواو والممدودة بالألف
قوله سبحانه : « واتخذوا من دونه آلهة
لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . ولا يملكون
لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً
ولا حياة ولا نشوراً . وقال الذين كفروا
إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم
آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً » ^(٢) وقوله
تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ
للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً . وقد منا
إلى ، ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ^(٣)
وقوله تعالى « قل أرأيتم شركاءكم الذين
تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من
الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم
كتاباً فهم على بينة منه ، بل إن يعد
الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً . إن الله
يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن
زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان

حليماً غفوراً . وأقسموا بالله جهد أيمانهم
لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى
الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ^(٤) »
وكثيراً ما تتنوع الفاصلة فتجىء من هذا
كله .

على أنها تأتي في كثير من السور منتهية
بالنون أو بالميم ، فيتحقق بالمد وبالنون أو
الميم ترنيم وإيقاع منغم يضمنى على الأسلوب
جمالاً فوق جماله ، كقوله تعالى « أفنجعل
المسلمين المجرمين . ما لكم كيف تحكمون .
أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما
تخبرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم
القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم
بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاء فليأتوا
بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف
عن ساق ويُدْعَوْنَ إلى السجود فلا يستطيعون .
خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا
يُدْعَوْنَ إلى السجود وهم سالمون . فذرني
ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم
من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدى
متين ^(٥) » .

(٢) سورة الفرقان ٣ - ٤

(٤) سورة فاطر ٤٠ - ٤٢

(١) سورة المزمل ١ - ١٠

(٣) سورة الفرقان ٢٢ - ٢٣

(٥) سورة القلم ٣٥ - ٤٥

اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس ، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صمرت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يُطمع فيه أوفى أكثره ، ولما وجد فيه أثريتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفراد بهذا الوجه المعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لكان ذلك خلافا بينا أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجرس النغمة ، وفى حسن السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرايت لذلك هجنة فى السمع ، كالذى تذكره من كل مرثى لم تقع أجزاءه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكرة .

[للبحث تكملة]

أحمد الحوفى

وإنه ليعجبنى قول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى : « وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب . ونراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعى فى القرار .

فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متدابة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه به وأليق بموضعه .

على أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القاقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضرور أخرى من النظم الموسيقى . وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى

نقدمة لتعريب المصطلحات الفنية للاتصالات السلكية واللاسلكية

للمهندس صلاح عامر

الانتهاء من تعريب
المصطلحات الفنية للاتصالات
السلكية واللاسلكية



الاتصالات تمتد بين العواصم العربية وتقتضى حركة الاتصالات تبادل البرقيات العربية على شبكات التلغراف ، وكذلك تبادل اصطلاحات العمل على دوائر الهاتف مما أوجد ضرورة ملحة تقتضى الاتفاق على هذه المصطلحات العربية التى تعتبر أحيانا وكأنها شفرة خاصة يؤدى تبادلها إلى القيام بعمليات فنية تحقق سرعة التوصيل (Connection) ونجاح الاتصالات فى حد ذاتها . ولهذا كان على الاتحاد أن يعمل على إيجاد عبارات عربية متفق عليها لتقابل أحيانا جملا إنجليزية أو فرنسية مما يدرج استخدامه فى التخاطب العادى ولكن قد تختلف الجملة أو العبارة العربية المقابلة ما لم يتفق عليها ، وكذلك تضمن ذلك الجهد التصدى لتعريب مصطلحات فنية أجنبية قد تأخر التعريب العربى الموحد لما مما أدى إلى وجود أكثر من مصطلح عربى يستخدم فى مختلف البلاد العربية أو حتى

(Teloconmunication) خطوة كبيرة نحو تحقيق التعريب العادى ، ونحو إثبات جدارة اللغة العربية وقدرتها ، بل وتفوقها فى التعبير العادى السليم . فإن مصطلحات الاتصالات تضم أغلب مصطلحات علوم الإلكترونيات الحديثة وكذلك مصطلحات هندسة وطبيعة الكهرباء ، ولقد تم هذا العمل التاريخى بناء على تعاون عربى شامل ، فقد توفرت على المرحلة الأولى لتعريب هذه المصطلحات لجنة مبنية من البلاد العربية فى إطار اتحاد الاتصالات السلكية واللاسلكية للبلاد العربية وترجع هذه النشأة إلى أهمية توحيد المصطلح العربى فى دنيا الاتصالات البرقية أو التلغرافية (Tolography) أو فى دنيا الاتصالات الهاتفية (Telephony) إذ أن شبكة هذه

في البلد العربي الواحد مما يعوق النشر العلمي ويشوش النقل العلمي والتعليم .

ولقد استن هذا الاتحاد العربي هذه السنة الحميدة والتي أحسب أن أغلب المنظمات العربية ستحدو حذوها وهي أن تبعث بمقترحات التعريب للمصطلحات الأجنبية التي تتوفر هذه المنظمات العربية على دراستها في تجمع عربي إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، حيث تتعرض لمراجعة اللجان الفنية بالمجمع ، فهي تعرض أولا على مجمع القاهرة ، ثم ثانيا على اتحاد الجامعات العربية ، وبذلك تنتهي هذه الجهود إلى اتفاق منبثق من الدوائر الفنية ثم ينتهي إلى أعلى مستوى لغوي عربي . وحتى يحظى ذلك التعريب الموحد بعد ذلك بما يقتضيه ميلاد هذه المصطلحات الجديدة من نشرها بوسائط نشر المصطلحات الجديدة المختلفة وفي القواميس الفنية الجديدة .

وسأحاول في هذه المقدمة تحليل هذا الجهد الذي بذل في تعريب مصطلحات الاتصالات أو مصطلحات البرق والهاتف والراديو ، ومما يسترعى الانتباه أنه حتى هذه العناوين الأساسية لم يكن هنالك اتفاق بشأنها فكلمة البرق كانت تستخدم في بلاد عربية مثل سوريا بدلا من التلغراف في مصر . ولقد أقر الاصطلاحان (برق أو تلغراف) أما اصطلاح (الهاتف) فقد ألغى اصطلاح التليفون الذي درج على التداول في مصر وبعض البلاد العربية ، وكلمة هاتف عربية

الأصل تؤدي المعنى الفني والهندسي تأدية كرامة ولهذا فإن كلمة خط هاتفي : (Telephone line) تحل الآن محل خط تليفوني وكذلك (مركز هاتفي) بدلا مما اصطلمحنا على أن نقول عنه سنترال تليفون فكلتا الكلمتين أجنبيتان عن اللغة العربية تماما ولا داعي لإدخالهما في اللغة في حركة نموها الدائمة ما دامت توجد ألفاظ عربية سهلة دارجة أيضا — وكذلك فقد أقر إدخال كلمة راديو بصفة نهائية إذ أن كلمة لاسلكي لا تغني عن اصطلاح « راديو » الذي يعبر مثلا عن الإذاعة الصوتية أحيانا وسيتبقى كلمة لاسلكي تستخدم في مجالها الصحيح كما هو في تعريب كلمة (Telecommunications) فقد أقر الاصطلاح العربي اتصالات سلكية ولاسلكية لها . ونعود إلى ما تم من إفساح مكان لكلمة راديو في اللغة العربية فقد أصبح لها الحق في أن تكون صفة فنقول راديوي كما في (Radio Transmission) فنقول لإرسال راديوي .

ولقد كانت هنالك مصطلحات أجنبية درج الفنيون العرب على استعمالها في التخاطب وفي الكتابة أمكن إيجاد مصطلحات عربية مناسبة لها مثل Jack وهو ثقب للتوصيل الكهربائي بين خطين تليفونيين مثلا ، فقد أقر له مصطلح عربي جميل وهو « مقبس » وكذلك كلمات Impedance وهي دلالة طبيعية ورياضية لخاصة من خصائص الدوائر الكهربائية فقد أقر المجمع كلمة

ومما هو جدير بالتنويه أن تقریب مصطلحات الاتصالات السلكية واللاسلكية منطوق على نشر فنى عربى تم إعداده بدقة باللغة ، وهو أنه فى نفس الوقت الذى يعرب فيه المصطلح الفنى يتم اعتماد تعريف علمى هندسى دقيق للمصطلح مما يعتبر فى حد ذاته رسدا علميا دقيقا لمعانى هذه المصطلحات واكسابا للكلمة العربية معناها الجديد بدقة مما يجعل هذا التعبير صالحا تماما لنشره فى القواميس الفنية الجديدة . وفيما يلى أمثلة لهذا الإنتاج العلمى الضخم الذى يقدمه مجمع القاهرة لأبناء اللغة العربية .

لاسلكى (راديو) Radio Radio
مصطلح عام يطلق على استعمال الموجات
المغناطيسية الكهربية للاتصال بدون أسلاك.

اتصال سلكى ولاسلكى

Telecommunication

Télécommunication

تراسل أو بث أو استقبال بالوسائل
الكهربية المغناطيسية سواء كانت سلكية
أو لاسلكية أو ضوئية ويشمل هذا التراسل
العلامات أو الإشارات المرئية أو المسموعة
وكذلك المكتوبات «المطبوعات» ، الصور
والأصوات وما إلى ذلك .

التلغرافية (إبراقية)

Telegraphy Télégraphie

نظام للاتصالات السلكية واللاسلكية يتم
به إرسال المواد المكتوبة أو المطبوعة أو
المصورة باستعمال إشارات مصطلح عليها .

«مُعَاوَنَة» لما ولقد كان يستخدم قبل ذلك
اصطلاحات عربية كثيرة منها «ممانعة»
مما كان يحول دون تفهم موحد على النطاق
العربى وقد أقر استخدام «المفاعلة» لتعريب
مصطلح The Reactance وفى مجال
خصائص الدوائر الكهربية فقد اعتمد
استخدام «توهن» بدلا من الاصطلاح
الأجنبى (Attenuation) وقد كانت
تستخدم فيما مضى كلمة «اضمحلال»
ولكن توهن أكثر دقة فى التعبير .

وتحتوى المصطلحات الراديوية على
تعبيرات كانت تستخدم فى مجالات أخرى
فى اللغة العربية واعتمدها فى قاموس مصطلحات
الراديو يدخلها فى دنيا العالوم لأول مرة
ومنها :

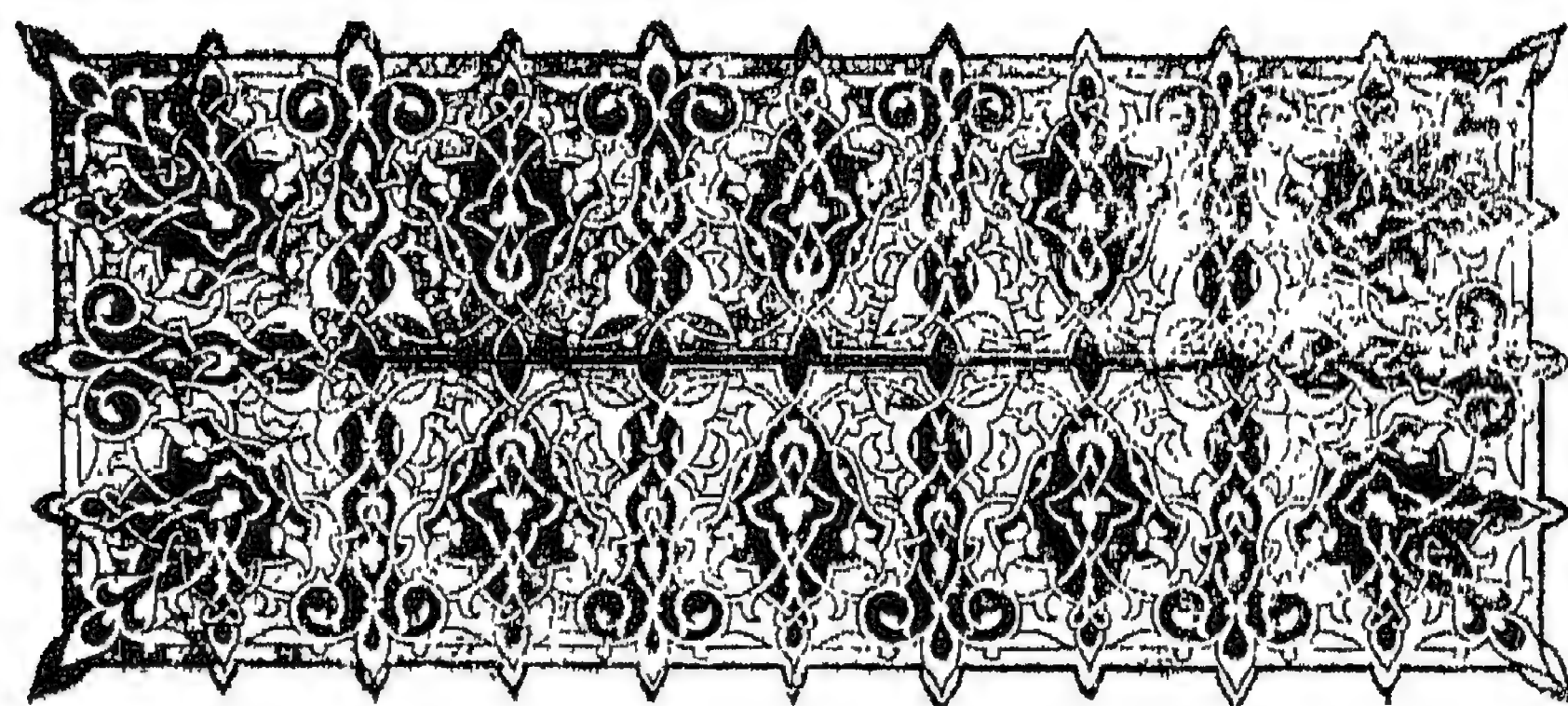
Match	يوأتم
Phase	طور
Modulation	تشكيل
Amplify	يضخم
Aerial	هوائى
Admittance	مساحة
Relay.	مرحل
Tuning	موالفة
Frying	نشيش
Exciter	باعث
Characteristic	خصائص
Breakdown	انهيار
Illum	همهمة

طاقة	مساحية
Click (Clic, Claquement)	Admittance Admittance
ضوضاء دائرية ، تحدث مثلاً عن تفريغ فجائى للمكثفات أو من جراء قطع الدائرة .	مقلوب المعاوقة أى ($\frac{1}{\text{المعاوقة}}$) .
مكثف	الموائى
Condenser, Condensateur,	Aerial, Antenna Antenne, Aérien
أداة لتخزين الشحنات الكهربائية مكونة من موصلات على هيئة ألواح أو رقائق تفصلها عن بعضها عوازل كهربائية .	موصل أو مجموعة موصلات تستعمل مع أجهزة اللاسلكى فى إرسال الموجات اللاسلكية واستقبالها .
To Couple Coupler يقرون	مضخم التحكم الأوتوماتيكى فى الكسب
يضع دائرتين أو أكثر فى حالة تقارن .	Amplifier, Automatic Gain Control (AGC) Amplificateur, Regulateur Automatique de Niveau
تسميع (صوت غير مرغوب)	جهاز يستخدم لزيادة التحكم فى التضخم الإجمالى فى نظام ما بتأثير الإشارة الداخلى إليه بحيث يبقى منسوب الإشارة الخارجة ثابتاً .
Crosstalk Diaphonie	انتقال غير مرغوب للطاقة من دائرة تراسل إلى دائرة أخرى .
تشكيل	تشوه الاتساع
Modulation Modulation	Amplitude distortion Distorsion d'amplitude
عملية يتم بواسطتها تعديل خصائص معينة لموجة ما طبقاً لخاصية موجة أخرى أو إشارة .	تغير كسب المضخم بتغير اتساع الإشارة الداخلة (مع ثبات التردد) .
مرحل (كهربائى مغنطيس)	توهن (فى الحركة الموجبة)
Relay (Electro mag.) Relais (électro magnétique)	Attenuation, Affaiblissement
مرحل يشغل بمرور تيارات فى لفيفة واحدة أو أكثر من لفائف مغنطيس كهربى .	تناقص الطاقة الكهربائية نتيجة للامتصاص الذى يحدث عند انتقال الموجات فى الأسلاك والأوساط المختلفة .
Tuning الموائسة	

لغة أساسية في منظمات دولية فنية مثل منظمة البريد العالمية واليونسكو ، ولقد أصبحت أيضا لغة النشر العلمى سواء بالكتب التى تتناول الموضوعات العلمية الجديدة أو فى الدوريات والمجلات الهندسية العربية . والله الموفق وهو المستعان فى إبراز فضائل وخصائص لغة القرآن الكريم .

صلاح عامر

إن خطوة التعريب للمصطلحات الهندسية التى يضطلع بها مجمع اللغة العربية تسير على التوازي مع احتياجات النشر العلمى باللغة العربية والتى أصبحت تلمس الحاجة إليها لنشر التعليم المهني والهندسي اكتسابا للتقدم التكنولوجي المطاوب . ولقد ساعدت هذه الحركة فى إغناء الكلمات العربية بالمعاني العلمية الجديدة حتى أصبحت اللغة العربية



إلى غير ذلك من بقية الأمثلة الثمانية عشر ،
باعتبار أنواع الضمائر مع التذكير والتأنيث ،
ومع الإفراد والتثنية والجمع .

والنقاد في هذا يذهبون إلى أن هاء التنبيه
تدخل على الضمير ، بشرط أن يكون مخبرا
عنه باسم الإشارة .

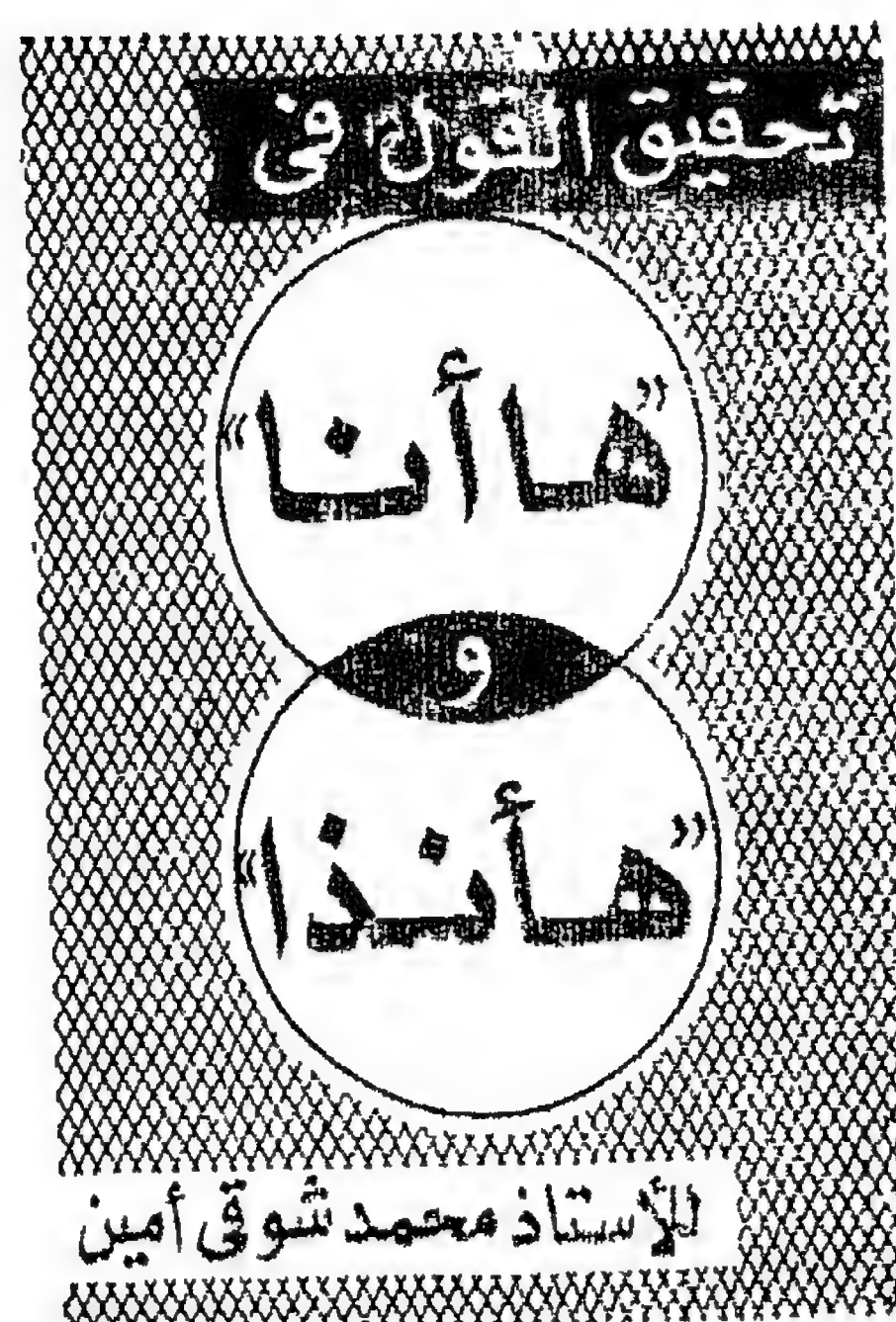
وما جرت به أقلام الكتاب المعاصرين
في هذا التعبير جرى مثله من قديم
وما انتبه إليه النقاد المعاصرون فيه سبقهم
إليه النقاد الأقدمون !

* * *

ونحن إذا استظهرنا ما قاله النحاة واللغويون
في هذا ، ألفينا جمهورهم ينصون على أن
الإخبار عن الضمير في مثل ذلك التعبير بغير
اسم الإشارة لا يكاد يقال ، أو أنه شاذ .

ولكننا إذا تفحصنا ما استعمله الفصحاء
في عصور العربية من مبتدئها إلى يوم الناس
هذا ، صادفتنا أمثلة تجرى على الوجه الذي
يتوجه عليه النقد ، وهي كثيرة كاثرة في الشعر
والنثر ، ومن بينها ما ينسب إلى العصر الجاهلي
وما تلاه .

ومن طريف هذه الأمثلة ما استعمله ناقد
لغوى هو الحريري ، ومؤلف معجمي ،
هو الفيروز آبادي ، وعالم نحوي ، هو ابن
هشام . وثلاثهم من الناعين عليه ، أو
القائنين بشذوذه !



أو : جواز الإخبار بغير اسم الإشارة
عن الضمير المسبوق بأداة التنبيه

على أقلام الكاتبين من
المعاصرين مثل قولهم :

ها أنا قائل ما أعتقد

وها هما يفعلان ما يشاءان

وها نحن نرى ذلك الرأي .

وقد ينصب لهم نقاد اللغة من معاصريهم
ينعون عليهم هذا التعبير ، ويريدونهم على
أن يقولوا :

هأنذا

وها هما ذان

وها هم أولاء

وإليك — أولا — طرفا من أقوال النحاة واللغويين .

و ثانيا — أربعين من الشواهد مناصفة بين الشعر والنثر .

و ثالثا — ما يهدي إليه البحث والنظر من الحكم بإجازة التعبير المنقود .

* * *

فأما « أولا » فقد جاء في مبحث حروف التنبيه من « شرح المفصل » :

« المبهم من الأسماء ما افتقر إلى غيره في البيان عن معناه ، فتقول : ها أنا ذا ، فهي داخلة عند سيبويه على المضمر الذي هو أنا لشبهه بالمبهم ، وعند الخليل أنه داخل على المبهم تقديرا . والتقدير هذا أنا ، فأوقعوا أنا بين التنبيه والمبهم ، وكذلك ها هوذا ، فسيبويه يرى أن دخولها على المضمر كدخولها على المبهم ، والخليل يعتقد دخولها على المبهم ، وإنما قدموا التنبيه ، والتقدير هذا هو ، ونحوه : ها أنت ذا ، وها هي ذه . . . »

وجاء في مبحث « ها » من مغني اللبيب :

« تكون للتنبيه ، فتدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة ، نحو ها أنتم أولاء ، وقيل إنما كانت داخلة على الإشارة فقدمت ، فرد بنحو : ها أنتم هؤلاء ، فأجيب بأنها أعيدت توكيدا . . . »

وجاء في مبحث اسم الإشارة من شرح الأشموني :

« يفضل بين ها التنبيه وبين اسم الإشارة بضمير المشار إليه ، نحو : ها أنا ذا . . . وبغيره قليلا . »

وفي تعليق الصبان « على هذا يقول : « أفهم كلام الشارح منع إدخال ها التنبيه على الضمير المنفصل الذي ليس خبره اسم الإشارة ، وبه صرح اللامعني نقلا عن ابن هشام ، فإنه قال في حاشيته على المغني : وقع للمصنف إدخال ها التنبيه على ضمير الرفع المنفصل ، مع أن خبره ليس اسم إشارة كقوله في ديباجة الكتاب : « وها أنا بائع بما أسرته » . وقد صرح المصنف في حاشيته على التسهيل بشذوذ ذلك ، مشيرا إلى أن قول صاحب التسهيل : وأكثر استعمال ها مع ضمير رفع منفصل أو اسم إشارة ، معترض بأن ظاهره أن الإخبار عن الضمير المذكور باسم الإشارة غير شرط ، وليس كذلك ، فإن تخلفه إنما يقع شاذا . »

وجاء في « لسان العرب » في مبحث « ذا » :

« قال الفراء : العزب إذا جاءت إلى اسم مكنى قد وصف بهذا فارقوا بين ها وذا ، وجعلوا المكنى بينهما ، وذلك في جهة التقريب لا في غيرها . يقولون : أين أنت ؟ فيقول القائل : هأنذا ، فلا يكادون يقولون : ها أنا ، وكذلك التنبيه في الجمع . . . »

وجاء في مبحث « ها » من « لسان العرب » :

« وقالوا : ها أنت تفعل كذا ، وهأنت مقصور . . . »

ومعجم ياقوت — (الجزء السادس عشر —
الصفحة ١٤١) :

ولوعا . فشطت غربة دار زينب
فها أنا أبكى والفؤاد قريح

٢ — قالت « قتيلة » على عهد النبوة
(كما في رواية كتاب العمدة « لابن رشيق ،
ص ٣١) :

أحمد ها أنت نجل نجبية
من قومها والفحل فحل معرق

٣ — وفي رسالة الغفران ص ٢٦ من
الطبعة الأولى يسوق « المعري » شاهدا على
تصيير الهمزة ألفا خالصة ، هو قول الشاعر :

يتماون مهلا ليس للشيخ عيل
فها أنا قد أعيلت وان رقوب

٤ — ومن شعر العباس بن الأحنف :
وها أنا من بعدكم لم أزل
في دولة الأحران والوجد

٥ — ولإبراهيم الصولي قوله (كما ورد
في معجم ياقوت ، جزئه الأول) :
وكنك أعدك للنائبات
فها أنا أطلب منك الأمانا

٦ — وللحسن بن وهب قوله (كما في
كتاب « الطرائف الأدبية » لراجكوتى) :
تأ نحن وفيناك أربعة
والأربعون لديك منتظرة

وجاء في « درة الغواص » للحريري :

« ويقولون : هوذا يفعل ، وهو خطأ
فأحش : والصواب : ها هوذا يفعل ، وكأن
الأصل : هو هذا يفعل . ففصل حرف
التنبيه من الإشارة . وصدر به الكلام ،
وأقحم الضمير ، ويسمى هذا تقريبا . »

وجاء في « كشف الطرة » للألوسي :

« إذا اجتمع اسم الإشارة وغيره يجعل اسم
الإشارة مبتدأ ، وغيره خبره ، لأن العرب
اعتنت بمكان التنبيه والإشارة ، فقدمته ،
ولا يجوز أن يجعل خبرا إلا مع المضمير .
فإن الألفصح فيه أن يقدم فيقال : ها أنا
ذا . . . »

وعرض الأستاذ عبد الحميد حسن في
بحث المرونة في اللغة المقدم إلى مؤتمر « مجمع
اللغة العربية » في دورته التاسعة والعشرين
لقول الكتاب : ها نحن من غير اسم إشارة
وأن اللغويين يمنعون ذلك . وقال :

« إننا أوراينا أن استعمال كلمة « ها »
التي للتنبيه جائز في مواطن أخرى لأجزنا
هذا التعبير . »

* * *

وأما « ثانيا » ، فننتزئ بأربعين من
النصوص الشعرية والنثرية .

وهذه عشرون من شواهد الشعر :

١ — قال « أبو كبير الهذلي » وهو شاعر
جاهلي أدرك الإسلام « كما في ديوان الهذليين

٧ - وللبحتري قوله :

ها هو الشيب لا تما فأفيتي

٨ - وللمتنبي قوله :

فها أنا قد ضربت وما أحاسكا

وقوله :

فها أنا في السماح له عدول

وقوله :

فها أنا في محفل من قروء

٩ - ولأبي فراس الحمداني قوله :

وها أنا قد حلّى الزمان مفارقي

وتوجني بالشيب تاجا مرصعا

١٠ - وللمعري قوله :

فإن قعدت عنه الحوادث حقبة

فها هي فيما لا يشاء قيام

وله :

كأني حيث ينشا الدجن تحي

فها أنا لا أطل ولا أجاد

١١ - ولأبي بكر الخوارزمي قوله :

بأمل مولدى وبنو جرير

فأنحوالى ويحكى المرء نخاله

فها أنا رافضى عن تراث

وغيرى رافضى عن كلاله

١٢ - وللحريري قوله في المقامات :

وها أنا الآن على ما يرى

منى ومن حرفتى المكديّة

١٣ - وفي ذيل الأملالي يروى :

فها أنا للعشاق يا عزز قائم

وبى تضرب الأمثال فى الشرق والغرب

١٤ - ولعبد الله بن عبد الرحمن الدينورى :

(كما فى الجزء الرابع من اليتيمة ، ص

١٢٨) :

مضى الإخوان وانقرضوا .

فها أنا للردى غرض

١٥ - ولأبي بكر محمد بن عبد الله القرطبي :

أيا قاسم والمسوى جنة

وها أنا من مسها لم أفق

١٦ - ولأريق القرواني (كما فى معجم

ياقوت جزئه الأول ، ص ٢١٧) :

فها أنا تائب منها

فسزرنى تبصر العجبا

١٧ - ولأبن نباته المصرى :

فها أنا فى الدنيا قتيل مصبر

١٨ - وللتعاويذى كما فى الجزء الثانى من

شرح ديوان ابن الرومى (٢٢ من التعليقات) :

وها أنا لاقبى يراع لفات

فيأسى ولا يلهيه حظ فيفرح

١٩ - ولأبارودى :

فإن أكن عشت فردا بين أصرتى

فها أنا اليوم فرد بين أندادى

٧- وفي مروج الذهب للمسعودي ،
(الجزء الثاني ، صفحة ٢٦٦) :

«وها أنا يا أمير المؤمنين»

وفي صفحة ٣٣٧ ، على لسان المنصور :
«وها أنت ترجع : . .»

٨- وفي حديث من عهد المنصور (كما
في صفحة ١١٣ من كتاب «الوزراء والكتاب»
للجهشياري) :

«وها هو اليوم يقبل رأس كاتبى»

٩- ومن رسالة أبي حيان التوحيدي .
في مثالب الوزيرين (كما في معجم ياقوت
الجزء الثاني ص ٢٩٧ من الطبعة الأولى) :

«فها أنا أصدق عن نفسى ، وأقول ما عندى»

١٠- وفي كلام للهمذاني (كما في زهر
الآداب ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٠٧) :

«فها هي : . .»

١١- وفي تاريخ بغداد ، (الجزء ١٣ ،
صفحة ٢٤٨) :

« فقال : ها أنت حرة لوجه الله »

١٢- وفي القاموس المحيط للفيروزابادى
(الجزء الرابع ، صفحة ٢٥٢) :

« تقول : «وها هو عرض عين ، أى قريب»

٢٠- وأولى الدين يكن :

وكانت صبوة ونزعت عنها
فها أنا لا أدين ولا أدان

* * *

وتلك عشرون من شواهد النثر :

١- ينسب إلى خالد بن الوليد قوله
(كما في ص ١٦٥ من الجزء الأول من
عيون الأخبار)

« ثم ها أنا أموت على فراشى »

٢- ينسب إلى المستورد بن علفة الخارجي
قوله (كما في ص ١٤٨ من الجزء الثاني
من كامل المبرد) :

«وها أنتم تعلمون ما حدث»

٣- وفي رسالة من سفيان بن أبي العالية
إلى الحجاج ، (كما في ص ٢٢٥ من الجزء
السابع من تاريخ الطبرى) :

«فها أنا بهما . . .»

٤- وفي «كليلة ودمنة» لابن المقفع
(كما في ص ٢١٤ من طبعة مطبعة المعارف) :

«وها أنا قائم بين يديك»

٥- وفي كتاب أخبار القضاة لوكيع ،
(صفحة ٣٤٢ من الجزء الثاني) :

«ها هو الآن أقر . . .»

٦- وفي الكامل للمبرد ، (صفحة ٧١
من الجزء الأول من طبعة مصر) :

« قال : ها هي عندي . . .»

١٣ - وفي « ذيل طبقات الحنابلة » :

صفحة ١٣٤ : « وها هو قائم »

صفحة ١٣٦ : « ها هو ورأى »

صفحة ٢٣٣ : « وها أنا قد جاوزت التسعين »

١٤ - وفي مقدمة الحريري لكتابه « درة الغواص » :

« وها أنا قد أودعته من النخب كل لباب ، ومن النكت ما لا يوجد منتظما في كتاب » .

وفي مقامات الحريري - جاء في المقامة الحلاونية :
« وها أنا . . . »

وفي مقامة الألباز النحوية :

« فها أنا . . . »

وفي صفحة ٤٣٩ : « ها نحن قد تساعينا » .

وفي صفحة ٤٨١ : « ها هو من المبصرين »

وقد اطلعت على نسخة من المقامات خاصة بالمرحوم الشيخ حسين والي ، فألقيت على ورقة غلافية فيها أرقام صفحات ورد فيها مثل هذا التعبير .

وفي رسالة انتقاد « ابن الحشاش » للمقامات قال : « إن الحريري استعمل هذه الكلمة ، وقد نهي عنها في درة الغواص ، فلعله عرف خطأها بعد وضع المقامات ، أو شبيه بحاله هذا ما تم في كتب العلماء باللغة من النهي

عن استعمال ما . ثم يستعملونه في خطب كتبه ، لغاية العادة ، هذا ابن قتيبة الخ » .

١٥ - وفي مقدمة القاموس المحيط للفيروزابادي ، قال : « ها أنا : . »
فانتقدها الشارح ، لأن صاحب القاموس اشترط أن يقال : هأنذا ، في مبحث ها .
وقد عاود الكلام في ذلك صاحب كتاب « الجاسوس على القاموس » في الصفحة ١٢٢ ونص ما في القاموس في فصل الماء من الحروف اللينة . وهو :

« ها : تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة ، نحو : ها أنتم أولاء » .

١٦ - وفي مقدمة « معاهد التنصيص » للعباسي :
« وها هو في ظل عزه ، دعي البال ، متميز الحال » .

١٧ - وللزويري ، في نهاية الأرب ، (الجزء الخامس ، الصفحة ١٨٨) :

« وها نحن نذكرها . . . »

١٨ - وللحجاج البلوي ، في معجم ألفباء (الجزء الأول ، الصفحة ١٠٤) :

« وها أنا أصنع بعمر و ما صنعت بزيد »

١٩ - وللشهاب الخنجاوي في شرح الدرر الصفحة الرابعة : « وها هو لديه مبتسم »
وفي صفحة ٦٨ : « وها أنا أبين لك . . . »

٢٠ - وللسيد محمود الألوسي في «كشف
الطيرة» ، الصفحة السادسة : «وها أنا ،
أقول . . .»

* * *

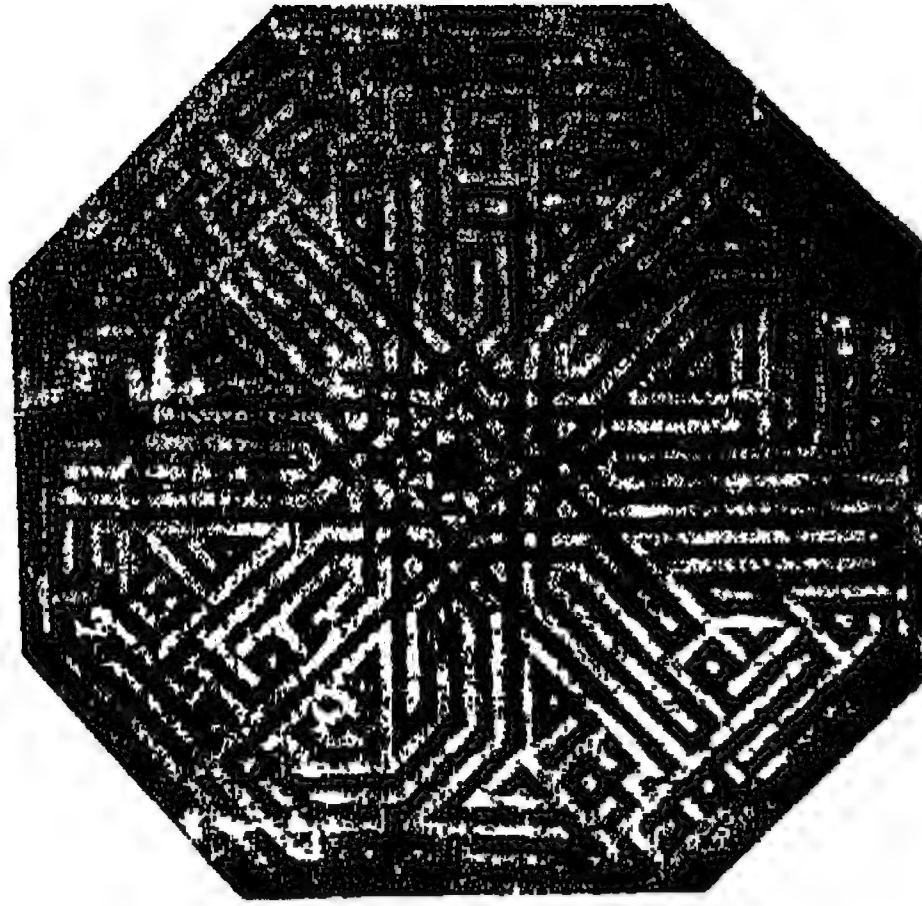
وأما «ثالثا» فيتبين مما تقدم أن الإخبار
عن الضمير المسبوق بأداة التنبيه بغير اسم
الإشارة تعرض له النحاة واللغويون فقها
ودراية ، فمن النحاة من قال بأن العرب
لا يكادون يقولون : ها أنا ، وذلك قول
«الفراء» ، ومنهم من قال بأن الأكثر
استعمال أداة التنبيه مع الضمير أو اسم الإشارة
وتلك مقولة صاحب التمهيد ، ومنهم من
قال بشذوذ : ها أنا ، وذلك هو «ابن
هشام» . ومن اللغويين من أثبت أنهم

قالوا : ها أنت تفعل كذا ، كما نقله
صاحب «اللسان» .

ولكن إجازة هذا الاستعمال تستند - سماعا
ورواية - إلى ما التقطناه من الأبيات الشعرية
والفقرات النثرية ، وهي نصوص تشهد
بأن الإخبار عن الضمير المسبوق بأداة التنبيه
بغير اسم الإشارة جرى في العصور الأولى
والعصور التوالى على ألسنة الفصحاء من فقهاء
اللغة ، وأعيان الشعراء ، وخاصة الأدباء ، على
السواء .

ورعينا لهذا لاسبيل على كاتب أن يكتب :
ها أنا ، وها أنت ، وها هو ، وما يناظر
ذلك من سائر أمثلة الضمائر :

محمد شوقي أمين



عن الأساليب التعبيرية

كان + الماضي بدون - قد - .. هذه هي مشار البحث

للدكتور حسن عون

ميادين الدرس اللغوي :

ثمة مجهوده ولا يهني من وراء ذلك سوى
الحيرة والبلبله والإخفاق .

الميدان الأول: هو درس الأساليب التعبيرية
أي الطرق المألوفة في الأداء اللغوي ؛ فإذا
كان المتكلم مخبرا لجأ إلى الأساليب
الإخبارية ، وإذا كان مستفهما لجأ إلى
الأساليب الاستفهامية ؛ وإذا كان راجيا
أو متمنيا أو آمرا لجأ إلى أساليب الرجاء
أو التمني أو الطلب ؛ إذ لكل واحد من
هؤلاء الأساليب طرقه الخاصة ومقاييسه
المرسومة التي تؤدي الفكرة بدقة كما
يريدها المتكلم أو الكاتب ، وكما ينتظرها
السامع أو القارئ وكما ألفتها اللغة
نفسها .

والملاحظ هنا أن مهمة الدارس مهمة
تقليدية بحتة ؛ فهو لا يتصرف بتغيير

لكي يكون الدرس اللغوي مفيدا في أية
لغة ينبغي أن يتناول ثلاثة ميادين مختلفة ،
ولكنها تلتقي في النهاية جميعا لخدمة هدف
واحد : هو تعلم اللغة ، والإلمام بها أوبجانب
كبير منها ، واستخدامها كأداة طيبة
لشرح الأفكار والآراء والعواطف بالطرق
السليمة المألوفة في اللغة ، دون نبو ولا نشاز
حتى فيما يجد على اللغة أو على المجتمع اللغوي
من أمور وأفكار وصور لم يكن للغة عهد بها
من قبل .

يتناول الدرس اللغوي هذه الميادين
الثلاثة بترتيب خاص لكيلا تضطرب النتائج
المرجوة منه ، ولكيلا يكون حظ الدارس
منها كحظ من يدخل حلبة السباق من غير
خطة مدروسة ولا طريق مرسوم فتضيع عليه

أو تعديل ولا بابتكار أو إبداع ؛ ولكنه يرصد ويختزن ويحاكي ما يراه ويقرأه من أساليب تعبيرية مختلفة باختلاف المعاني والأغراض .

الميدان الثاني : هو درس نظم هذه الطرق أو الأساليب ، كما تمثلها وأصبح في مقدوره محاكاتها ، بما في ذلك أدوات الربط بين أجزاء الجملة والصلات الشكلية والمعنوية بين تلك الأجزاء . تكفل بهذا الدرس ما هو معروف لدينا بعلم النحو ، من حيث تمييز كل جزء من أجزاء التركيب اللغوي بشكل خاص يخضع لنوع الوظيفة التي يؤديها هذا الجزء أو ذاك من الجملة . ولسنا في حل هنا من الخوض في تفصيل محتويات الدرس النحوي وما أداه من خدمات للدرس اللغوي ، أو ما تطرق إليه من تعثر وانحراف جعلاه يتجنب الصواب أحيانا ويضيف إلى القواعد النحوية ما ليس منها أحيانا أخرى .

الميدان الثالث : هو درس الأساليب البيانية ، الذي ربما اعتبره بعض الدارسين نوعا من الترف اللغوي ؛ لكننا لا نفهم ذلك ولا نتصوره ؛ فدور الكلمة أو التركيب

اللغوي لا ينبغي أن يتمحور على مهمة شرح الفكرة وإيصالها إلى السامع ؛ وإنما ينبغي أن يتناول بجانب ذلك تأثير هذه الكلمة أو ذلك التركيب على نفس السامع وحسه وعقله بحيث تستطيع الفكرة المشروحة أن تجد من السامع سندا مؤمنا بها وداعيا لها ومدافعا عنها ؛ ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق الصور البيانية والقوالب البلاغية والكلمات الموحية والسبك الجيد والاستهلال البارع والجودة في الاختيار والمفاضلة في مجال الأناقة والنبل بين المفردات والتعابير وطرق الأداء ؛ ولولا ذلك لغدت اللغة مجرد وسيلة لمجرد التفاهم بين الأفراد ؛ وهي غاية لا تستحق ما يبذل من جهد ومعاناة في الدرس اللغوي .

لقد تكفل بهذا الدرس ما هو معروف لدينا بعلوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع خدمت هذه العلوم كثيرا في اللغات التي قدر لها أن تكون لغات ثقافة وحضارة كال يونانية واللاتينية ؛ ولم تقصر العربية في هذا المجال ، بل سائرت زميلاتها في الفطرة إلى أهمية الأساليب البيانية في العمل على تبيين علوم البلاغة وتطويرها ، بل ربما تكون العربية متفوقة عليهما في ذلك سعيا وراء إظهار ما في القرآن من إعجاز

بلاعى ؛ ومما يذكر لها أنها قطعت فى هذا المجال شوطا لا يجارى . وهنا نقول أيضا إننا لسنا فى حل من الخوض فى تفصيل محتويات درس الأساليب البيانية والحديث عن المكانة العظيمة التى بلغها بين الدراسات اللغوية الأخرى .

أهم هذه الميادين هو الميدان الأول - الأساليب التعبيرية أو القوالب اللغوية التى تكاد تكون مفصلة على قدر المعانى . ويعتبر هذا الميدان بمثابة الدرجة الأولى من سلم تعليم اللغة ؛ كما يعتبر الميدان الثانى بمثابة الدرجة الثانية ، والثالث بمثابة الدرجة الثالثة ؛ وليس من المعقول أن يقفز الدارس إلى الدرجة الثانية مهملا الدرجة الأولى دون أن يتعرض فى سيره إلى بعض المزالق والمخاطر .

لقد كان هذا هو منهج القدماء - أصحاب اللغات الحضارية - فى تعليم اللغة : يبدأون بالأساليب التعبيرية ، ثم بقواعد النظم ، ثم بالأساليب البيانية لا يختلفون إلا فى التفاصيل .

كان الإغريق يتخيرون للدرس اللغوى فى مرحلته الأولى بعض النصوص من شعر

هوميروس فى الإلياذة والأوديسة أو من خطب ديموستين أو من مسرحيات هذا أو ذاك من كبار المؤلفين فى المسرح ، أمثال سوفوكل ، أوربيد ، أريستوفان .

وكان اللاتينيون يتخيرون بعض النصوص من شعر فيرجيل فى الإنيادة أو من دفاعات وخطب سيسيرون أو من الخطب السياسية لكبار الساسة أمثال قيصر وأنطونيو وبومبي وأوكتاف . وكان الجميع من إغريق ولا تينيين يؤمنون بسلامة الصعود على درج هذا السلم التعليمى بذلك النظام : الأساليب التعبيرية أو القوالب اللغوية المعبرة بدقة عن الأفكار والمعانى ؛ ثم النظام المتبع فى هذه الأساليب أو القوالب مع الاهتمام بوظائف الكلمات وأدوات الربط ، ثم الأساليب البيانية التى تأخذ فى اعتبارها الأمور المتصلة بالحس والوجدان والمشاعر فتعززها وتثيرها وتسخرها لما يراد منها ؛ وقد يصل التأثير إلى درجة الافتتان فيقف السامع أمام التعبير البيانى مشدوها ، قد ذابت شخصيته فى بوتقة هذا البيان الساحر فلا يملك إلا أن يذعن ويستسلم وينقاد إلى حيث يراد منه وينفذ طواعية ما يطلب إليه .

لها بمجموعة كبيرة من النصوص اللغوية ، بعضها مأخوذ من كلام العرب شعرا ونثرا ، وبعضها مأخوذ من الآيات القرآنية ، وبعضها مصطنع أو تقليد للقوالب اللغوية المألوفة المأثورة ؛ والقارى الواعى لهذه النصوص يحس أن سيبويه يريد أن يلتقى فى روعة أن فكرة كذا يعبر عنها بكذا .

ثم من خلال هذه النصوص يلحظ سيبويه ما يوجد بين أجزاءها من صلات وروابط ووظائف تدل عليها الأنظمة التركيبية والأدوات اللغوية والأشكال الإعرابية ؛ وهذا يمهّد إلى استنتاج الظاهرة اللغوية وصياغة القاعدة النحوية .

سار الدرس اللغوى - أثناء حياته الطويلة بين الدارسين العرب ولأَسباب لا مجال لتفصيلها هنا - فى مناهات مترامية ؛ فلم يسر على هدى من سيبويه ؛ وأصبح النحو وظواهره مجموعة من القواعد التجريدية ، وانفصل عن النص اللغوى كما تنفصل الروح عن الجسد ؛ وبذلك آل أمر الدرس اللغوى إلى حالة أهملنا فيها إلى درجة كبيرة العناية بالأَساليب التعبيرية أو القوالب اللغوية، وأصبحنا نتخبط فى

على هذا النمط من السلم التعليمى سار أئمة اللغة لدى العرب ؛ وأول كتاب فى اللغة والنحو عندهم يصور هذا المنهج التعليمى فى اللغة ؛ وهو كتاب سيبويه ، الذى يسلك مسلك الإغريق واللاتينيين ولا يختلف عنهم إلا فى بعض الظواهر الضرورية بالنسبة للبيئة والمجتمع .

غير أننا - لسوء الحظ - لم نعن بهذا الكتاب العناية اللازمة ، ولم نقف أمام نصوصه ومنهجه الوقفة المتأنية ، ولم نوجه إليه النظرة الشاملة ، ولم نتعمقه ونفحصه ونحلله التحليل الواعى العميق . درسه القدماء من وجهة نظرهم ووفقا لمقتضيات ظروفهم الاجتماعية والثقافية ؛ ودرسه المحدثون فى ضوء ما قيل عنه وعن محتوياته . وهذا - فيما نعتقد - تقصير لا مبرر له ؛ ومن أجل ذلك جاءت الأحكام عن هذا الكتاب سطحية باهتة فجّة .

تعرض سيبويه للدرجة الأولى والثانية من سلم التعليم اللغوى بشكل واضح ومفصل ؛ وأشار بطرق مختلفة ، من حيث الوضوح والغموض ، إلى الدرجة الثالثة . فهو حين يعرض لظاهرة لغوية أو لقاعدة نحوية يقدم

مأْن التعبيرات العربية : أيها صحيح ؟
وأيها غير صحيح ؟ أيها ورد عن العرب ؟
وأيها لم يرد عنهم ؟

وهنا بيت القصيد بالنسبة لهذا البحث :
كان + الماضي ؛ ألابد من - قد - أمام
الماضي أم يسوغ التعبير بدون - قد - ؟

لقد ثار في هذه الأيام جدل طويل حول
هذا التركيب اللغوي ؛ واستقر رأى عدد
غير قليل من اللغويين على أن التركيب -
كان قد فعل - هو الصحيح ، وأن - كان
فعل - لم يرد عن العرب .

هذا الموقف شد انتباهنا بقوة إلى ملاحظة
التركيب اللغوية المتصلة به فأخذنا نعى
به ونتمثله دائماً في قراءاتنا المتنوعة ؛ وحرصنا
على أن نسجل ما نراه منه في الكتب والمراجع
المختلفة لكي يكون الحكم على هذا التركيب
واضحاً لا غشوض فيه .

لا نريد أن نتعجل النتيجة قبل عرض
النصوص : ونكتفى الآن بالقول فقط إنها
جاءت مدهشة وعلى غير ما كان ينتظر
أولئك الذين يزعمون أن التركيب - كان
+ الماضي بدون « قد » - غير وارد في
اللغة .

موقف القرآن من هذا التركيب -
كان + الماضي بدون « قد » - الذي
لا يتصور المعارضون وجوده في اللغة : ورد
هذا التركيب في الآيات القرآنية بصور
مختلفة ؛ فمرة يعيُّ الفعل - كان -
متلوّاً بالماضي دون أن يكون بينهما فاصل
مثل :

وإن كان كبر عليك إعراضهم (الأزمام
٣٥) .

وإن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى
بآيات الله (يونس ٧١) .

تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر
(القمر ١٤) .

ومرة يعيُّ نفس التركيب مع وجود
فاصل بين الفعلين بالضمير أو بغيره مثل :
وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى
أُرسلت به (الأعراف ٨٧) .

إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو
من الكاذبين (يوسف ٢٦) .

وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو
من الصادقين (يوسف ٢٧) .

فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها
(يونس ٩٨) .

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون
الأدبار (الأحزاب ١٥) .

ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن
كنت قلته فقد علمته (المائدة ١١٦) .

قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن
كنت من الصادقين (الأعراف ١٠٦) .

... ولذي القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا
على عبدنا (الأنفال ٤١) .

وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله
فعليه توكلوا (يونس ٨٤) .

إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء
مرضاتي تسرون إليهم بالمودة (المستحذة
١) .

ومرة يجي فعل الكينونة بصيغة المضارع
لفظاً والماضى معنى، ثم يجي الماضى للفعل
الآخر بدون - قد - سواء أكان فعل
الكينونة متصلاً بشئ غير متصل
مثل :

يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع
نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل

(الأنعام ١٥٨) .

من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن
لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم
(النساء ٢٣) .

أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم
من زوال (إبراهيم ٤٤) .

موقف اللعويين من نفس التركيب :

يقول سيبويه في كتابه : وإذا قلت :
كان رجل ذاهباً فليس في هذا شيء تُعلمه
كان جهله (ج ١ ص ٢٦)

وفي كتاب فتوح البلدان للبلاذري
يوجد هذا النص : وكان أصابه سهم
بعين التدر فاستشهد (ص ٢٥٧)

وفي كتاب طبقات النحويين واللعويين
لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي توجد
هذه النصوص :

ص ١٠٢ : وروى عن أبي عثمان
الخزاعي أنه كان قال لأبي حاتم . . .
ص ١٠٤ : حدثنا أبو زيد عن شعبة :
قال : كان سهاك بن حرب يقول ... وكان
أبو حاتم رأى أنه واجد عليه . . .

ص ١٠٥ : فإنه حين احتل إلى «سر»
من رأى ، وكان احتل لقضاء البصرة .

ص ١٧١ : كان (ابن كيسان)

كوفيا يحفظ القولين ويمرّف المذهبين
وكان أخذ عن ثعلب والمبرد

ص ١٧٩ : وكان خلفه (الأحمر)

شاعر ، وكان وضع على عبد العيس شعرا
مصنوعا .

ص ٢٥٠ : فلما دخلت المشروحات

نظر طلبة العربية والنحو فيها ، وفيما كانوا
رووا عنه منها . وفي نفس ص ٢٥٠ : . .
وكان لقي جماعة من العلماء بالعربية
والمعروفين بالرواية .

ص ٢٦٠ : كان (علي بن الحضرمي)

نحويا شاعرا أديبا ، وكان ربما علم .

ص ٢٦٤ : وكان اتهم (الطلّاء

المنجم بعمل الدنانير والدراهم)

ويقول ابن جنّي في مقدمة كتابه
— الخصائص — : عليّ أنّ أبا الحسن
(الأنخفش) قد كان صنف في شيء من
المقاييس كتيباً

وفي الخصائص أيضا ج ١ . ص ٢٤ :

وقد كان أبو العباس احتج بشيء من
من تعرّح حبيب بن أوس الطائي . . .

ص ١١٠ : وأخرجت (الحديث

للمبرد) فلم أصل إلى الموضع الذي
كنت أنزلته

ص ١٢٢ : حدثني بعض أصحابنا أنّ

الزجاج النحوي قال : لازمت خدمة
عبيد الله بن سليمان الوزير ملازمة قطعتي
عن أبي العباس المبرد وعن وعن إجماعي
عليه ما كان تعودني مني

ص ١٣٥ : وكان (أبو جعفر الرّوآسيّ)

أستاذ أهل الكوفة في النحو ، وكان أخذ
عن عيسى بن عمر

ص ١٣٦ : وكان أبو مسلم جلس إلى

معاذ بن مسلم الهراء النحوي .

ص ١٣٩ : وكان حمزة أخذ

أكثر من ثلاثين آية

ص ١٥٠ : وكان أحمد بن يحيى

سمعه (معاني القرآن للفراء) من سلمة
ابن عاصم عن الفراء

ص ١٦٠ : وكان محمد

ابن عيسى وصفه له

ص ١٦٧ : وكان خلف أحدا

وعشرين ألف درهم وألف دينار ..

على المؤلفات النحوية ، ويذكر شاهدا على
تقدم معمول خبر كان :

قنافذ هداجون حول بيوتهم
بما كان إياهم عطية عودا
ويروى أبو زيد في كتابه النوادر
- ص ٣٦ - :

وقد كان مات الأقرعان كلاهما .
ويذكر الباحث في قصيدة مدح بها
المتوكل :

يا باني المجد الذي
قد كان قوض فانهدم

في ضوء هذه النصوص المتقدمة من
القرآن ومن النثر ومن الشعر يمكن أن
نستنتج :

أولا- أن التركيب - كان فعل -
سائغ في اللغة وموجود بكثرة في نصوصها
على السنة أئمة بارزين في الميدان اللغوي
ومتقدمين في العصور التاريخية ؛ وقد
ورد هذا التركيب في صور مختلفة - كما
أشرنا إلى ذلك منذ قليل - ولكنها جميعا
تندرج تحت مبدأ واحد ؛ هو جواز التعبير
بالماضى بعد - كان - دون أن يسبق هذا الماضى
بالحرف - قد - .

ويقول الجاحظ في كتابه - الحيوان -
ج ٤ . ص ٥٦ : كنت بعجت بطن
عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيه أكثر
من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو
أرزة .

ويقول كذلك في نفس الكتاب ج ٥ .
ص ٢ : وقد كان حر النار هيج تلك
الحرارة .

وفي شرح المعلقات السبع للزوزنى توجد
هذه النصوص :

ص ١١ : يا فاطمة دعي بعض دلالك
وإن كنت وطنتي نفسك على فراقى
فأجمل

١٦ : فلما كان كذا وكذا تنعمت
وتمتعت بها . . .

ص ٤٢ : وكان طرفه هجا قبل ذلك
عمرو بن هند . . .

ص ٤٣ : . . . فقال طرفه لئن كان
اجترأ عليك ما كان بالذى يجترئ على . .
ص ٤٣ كذلك : . . ويستقونه الخمر
حتى قتل وقد كان قال في ذلك قصيدته . . .
موقف الشعر من هذا التركيب :

هناك بيت من الشعر مشهور في كتب
النحو لا يكاد يخفى على من له فضل اطلاع

فما اطلعنا عليه منها ؛ وذلك لأننا لم نحاول عمل إحصائية كاملة على نمط ما صنعناه في آيات القرآن الكريم ؛ فذلك يحتاج إلى وقت طويل ، ومجهود كبير من كثيرين ومع ذلك فالقيام بمثل هذا يكاد يكون واحدا من المستحيلات .

وهذا يفتح الباب أمام سؤالين :

أحدهما : كيف غاب هذا الوضع عن أولئك الذين يزعمون أنه لا يمكن أن^{٣٣} يجرى الماضى بدون - قد - بعد الفعل^{٣٤} - كان - ؟ .

والثاني : كيف يتحاشى القرآن هذا التركيب اللغوى مع ما يبدو عليه من أنه مستساغ مقبول من الناحية العقلية والدوقية ومن ناحية المنطق اللغوى ؟

يمكن أن يجاب عن السؤال الأول بأن أولئك الذين يلزمون اقتران الماضى بـ - قد - بعد - كان - متأثرون بصيغة أو بتركيب لغوى شاع فيما ، بيننا وكثر تداوله في اللغة الحديثة ؛ ولكنه نُقل إلينا من النصوص الأجنبية التي كثرت ترجمتها إلى اللغة العربية ؛ ولعل مصدر النقل الأول هو اللغة الفرنسية ؛ وصيغته في

ثانيا - أن التركيب - كان قد فعل - لم نجده مرة واحدة فيما اطلعنا عليه - وهو كثير - بآية صورة من الصور المختلفة كما عرضناها في التركيب السابق .

أما القرآن فنستطيع أن نؤكد أنه لم يستعمل هذا التركيب أبدا ؛ وذلك بعد الإحصائية الدقيقة التي قمنا بها في آياته وراجعناها أكثر من مرة ؛ صحيح ورد الماضى مقرونا بـ - قد - مرة واحدة في القرآن بعد فعل الكينونة ؛ غير أن فعل الكينونة في هذه المرة جاء بصيغة المضارع لا بصيغة الماضى ؛ وذلك في الآية : وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم (الأعراف ١٨٥)

ولقد كان هذا في الواقع موضوع دهشة من جانبنا وفتح أمامنا آفاقاً واسعة للتفكير في الأساليب اللغوية التي حرص القرآن على استعمالها ، والأساليب اللغوية الأخرى التي تحاشاها في استعمالاته .

وأما النصوص اللغوية الأخرى - شعرا ونثرا - فلا نستطيع أن نؤكد عدم احتوائها جميعا على هذا التركيب - كان قد فعل - رغم عدم رؤيته مرة واحدة

في العصر الحديث نتيحة الاحتكاك اللغوي
والاختلاط الثقافي .

هذه الظروف - في نظرنا - هي التي
أملت على هذا الفريق من اللغويين المعاصرين
أن يفرضوا تلازما بين - قد - والفعل
الماضي بعد - كان - ظنا منهم ، لشيوعه
وكثرة دورانه ، أنه هو الاستعمال الصحيح
المستساغ ، وأن غيره محكوم عليه
بالفساد . إننا نوافقهم في الشق الأول
لأن من حق اللغة ، بل من واجبها - لضمان
حيويتها وتطورها واستمرارها - أن تتبنى
صيغا جديدة وتراكيب جديدة ما دام
ذلك يخضع للمنطق اللغوي وللقوانين
العامة فيها ؛ ولكننا نخالفهم بالنسبة
للشق الثاني ؛ إذ الحكم بالمنع أو عدم
الصحة يحتاج إلى درس أعمق وتحليل
أدق وليس من السهل إصداره .

وأما السؤال الثاني فليس من الميسور
أن يجاب عنه الآن ؛ إذ أنه يتصل بفلسفة
اللغة ومنطقها في خلق صيغ زمنية تؤدي
ما يطلب منها .

وذلك موضوع لبحث آخر .

حسن عون

الفرنسية هي - passé antérieur - ؛
وهي إحدى صيغ الماضي التي تشرح
حدوث أمر ما قبل حدوث أمر آخر في
الماضي أيضا دون أن يكون بين الأمرين
مهلة في الزمن مثل : غادرت المنزل أمس
بعد أن كنت قد أكلت .

ويبدو أننا في ترجمتنا لهذه الصيغة
الزمنية الفرنسية بذلك التركيب اللغوي
العربي - كان قد فعل - لم نراع
الدقة التامة من حيث وجود حدثين
مرتبطان في الماضي ، أحدهما وقع بعد الثاني
مباشرة دون أن يكون بينهما فاصل زمني
كبير ؛ ولكننا اصطالحنا على أن ننقل
هذه الصيغة الفرنسية بهذا التركيب
اللغوي العربي ، لنفرق بينه وبين تركيب
لغوي آخر هو - كان فعل - الذي
اصطلحنا على أن ننقل به إلى العربية
صيغة زمنية فرنسية أخرى هي plus-que
parfait ، ورغم ذلك فقد كثر استعمال
هذه الصيغة - كان قد فعل - واستغنيناها
لدرجة كبيرة وأصبحنا نرى فيها نموذجا
من الصيغ العربية المألوفة دون أن نعني
بأصلها ولا بتاريخ استعمالها ، ودون
أن نهتم بمراجعة الأساليب التعبيرية القديمة
في لغتنا حتى نستطيع التمييز بين ما كان
مستعملا قديما وما استحدثنا استعماله

أسس وقواعد الكتابة السهلة الممتعة

دراسة لغوية نفسية إحصائية

للدكتور فؤاد البهي السيد

مقدمة :

يختلف مستوى الكتابة تبعاً لاختلاف مستوى الكاتب والقارئ ، والموضوع . فالكتابة العلمية تعتمد في قوتها على الإيجاز ، والتحديد ، والدقة البالغة ، وذلك لأن الموضوعات العلمية هي في جوهرها تسجيل للظاهرة وتفسير لها . فكتابها وقارئها يلتقيان فكرياً في مجال معين تحدده مصطلحات متفق عليها وأسايب خاصة في التفكير . وهكذا نرى أن الصلة بين الكاتب والقارئ في هذه الحالة صلة وثيقة . فالكاتب عالم ، والقارئ أيضاً -- في الأغلب والأعم -- أحد المشتغلين بالعلم .

لكن الكتابة السهلة التي تخاطب آلاف الناس ، الكتابة التي تقرأها الجماهير تعتمد

على قدرة الكاتب في تبسيطه للمادة المكتوبة وهو يعرضها في أسلوب شيق ممتع : هذه البساطة هي التي تجذب أنظار الناس لكاتب معين ، يقرأون له ، ويتحدثون عنه ، ولن تقوم الصلة الوثيقة بين الكاتب وقرائه إلا عندما يدرك الكاتب المستوى القرائي الذي يكتب له ، وإلا عندما يصل ببساطة لغته وبراعة أسلوبه ، إلى عقول القراء .

وقد اهتم العلماء منذ سنين مضت وما زالوا يهتمون ببحث العوامل التي تؤثر في مستوى سهولة الكتابة أو صعوبتها في اللغات المختلفة وانتهت بهم نتائج تلك الأبحاث إلى تحديد أهم العوامل المشتركة في : الكلمة ، والجملة ، والفقرة ، والفكرة ، والأسلوب والموضوع ، والصور ، والرسوم التوضيحية وطريقة الطباعة .

غير الشائعة ، أى غير الموجودة بالقائمة وقسمة الناتج على المجموع الكلى لكلمات القطعة ثم ضرب الناتج فى ١٠٠ وبذلك نحدد مستوى سهولة أو صعوبة أى مادة قرائية أى أن .

$$\text{النسبة المئوية للكلمات الصعبة} = \frac{\text{الكلمات غير الشائعة}}{\text{مجموع الكلمات}} \times 100$$

ونستطيع ترتيب كلمات المواد القرائية بالنسبة لسهولة أو صعوبتها بحيث يساير هذا الترتيب المستويات القرائية .

وهكذا تجد الكلمات الشائعة السهلة ، وتحدد الكلمات غير الشائعة الصعوبة وتحدد النسبة القائمة بين الكلمات الشائعة وغير الشائعة المستويات المتدرجة للسهولة والصعوبة

٢ - الكلمات القصيرة أسهل من الكلمات الطويلة : تدل أغلب الأبحاث العلمية على أن صعوبة الكلمة تزداد تبعاً لزيادة عدد حروفها وبذلك تصبح الكلمة القصيرة أسهل من الكلمة الطويلة . ويمكن أن نستنتج من ذلك أن كلمة دار أسهل من كلمة منزل لأن الكلمة الأولى مكونة من ثلاثة حروف . والكلمة الثانية من أربعة حروف .

هذا ويزداد شيوع الكلمة تبعاً لنقصان حروفها لأن الكلمة الطويلة ثقيلة فى النطق والهجاء والاستعمال . ولذا شاعت الكلمات القصيرة وازدادت سهولتها تبعاً لزيادة شيوعها . وكثيراً ما تعتمد اللهجة الدارجة على

هذا وسنلخص فيما يلى المظاهر الرئيسية لكل عامل من تلك العوامل .

أولاً - الكلمات

تتأثر سهولة المواد القرائية تأثيراً مباشراً بمدى سهولة الكلمات التى تشتمل عليها .

وتقاس سهولة الكلمة بموازين مختلفة نلخصها فيما يلى :

١ - مدى شيوع الكلمة فى المواد القرائية إذا تكررت كلمة (رجل) ٥٠٠ مرة فى إحدى المواد القرائية ، وتكررت كلمة (زميل) ١٠٠ مرة ، عدت كلمة رجل أسهل من كلمة زميل .

هذا وقد اهتم الباحثون بهذا التكرار لأهميته فى تحديد مستوى سهولة الكلمات : وأدى هذا الاهتمام إلى ظهور قوائم الكلمات الشائعة التى ترصد وتسجل عدد مرات تكرار الكلمات فى المواد القرائية ، ومن أهم هذه القوائم فى اللغة العربية قائمة « بريل » التى ظهرت سنة ١٩٤٠ ، وقائمة « لطنى » سنة ١٩٤٨ ، وقائمة « عاقل » سنة ١٩٥٣ ، وقائمة « خاطر » سنة ١٩٥٨ ، وقائمة « بهى » التى ظهرت بالمغرب العربى سنة ١٩٦١ ، والكلمات الأساسية ل« بهى » التى ظهرت بالمغرب العربى ١٩٦٢

وتصلح قوائم الكلمات الشائعة والأساسية لحساب النسبة المئوية للكلمات الصعبة فى أى مادة قرائية ، وذلك عن طريق عد الكلمات

شخصياتهم وعواطفهم وآلامهم وآلامهم .
والقصة الناجحة هي التي تمس أعماق النفس
فتثير الانفعال والإعجاب .

٥ - الكلمات الغريبة في رسمها أو معناها :
يتأثر مستوى سهولة المواد القرائية بنسبة
الكلمات الشاذة الغريبة التي تحتوي عليها تلك
المواد : وذلك لأن هذه الكلمات تعوق الفهم
وتحول بين الفرد وبين التعرف الصحيح على
الكلمة لغرابية رسمها أو لغموض معناها
أو لهما معا .

ولذا يجب تجنب استخدام الأوزان غير
الشائعة لبعض الأفعال مثل 'يشس' و'بطن' .
وتجنب الألفاظ النابية مثل استوثق واستنهل .
والمصطلحات الدقيقة مثل المصادق . والكلمات
التي يحتمل تأويلها بأكثر من معنى مثل عين
بمعنى جهاز الإبصار أو بئر المساء أو بمعنى
جاسوس . والكلمات التي يحتمل نطقها في
أكثر من صورة مثل حسب بمعنى عد
وحسب بمعنى ظن : ويجب أيضا تجنب
استخدام الأسماء المقصورة مثل صرعى
لاختلاف نطقها عن رسمها .

٦ - معنى الكلمة يحدد مستوى سهولتها :
أسماء الذات أسهل من أسماء المعنى فمثلا كلمة
قلم أسهل في إدراكها من كلمة فكر . وهكذا
يحدد مفهوم الكلمة مدى شيوعها ومستوى
سهولتها .

٧ - عدد الكلمات المختلفة ومستوى
القراءة : يعتمد الفرد إلى حد كبير على
محصوله اللفظي في قراءته وفهمه . ولذا يجب

هذه القاعدة في ألفاظها . وهي غالبا ما تنقص
حروف الكلمات العربية الطويلة لتنطقها
قصيرة في أسلوبها الدارج العامي . ويلجأ
الطفل أيضا إلى هذه الوسيلة في بدء تعلمه
اللغوي . فيعبر عن الجملة بكلمة . ويعبر عن
الكلمة ببعض حروفها .

٣ - نوع الكلمة يحدد مستوى سهولتها :
أكثر الكلمات تكرارا هي الأسماء تليها
الأفعال كما تدل على ذلك قوائم الكلمات
الشائعة والأساسية . والأسماء أقرب إلى الواقع
من الأفعال لأنها تدل على وجود ذاتي
أو معنوي . والأفعال أحداث في زمن ،
والزمن أكثر تجريداً من معنوية الأسماء .

٤ - الضمائر الشخصية تحدد مستوى
سهولة الكلمة : الحديث عن النفس حديث
ممتع جذاب ولذا تؤثر الضمائر الشخصية في
مدى قابلية الكلمة للقراءة والفهم المباشر .
وعندما تحدث إنسانا عن نفسه فإنه يهتم
بحديثك أكثر من اهتمامه بحديثك عن شخص
آخر أو موضوع غير شخصي . ولذا تكثر
الضمائر الشخصية في حوار الناس مثل أنت
وأنا وغير ذلك مما يثير مباشرة إلى الفرد .
ومن الظواهر العلمية المعروفة كثرة تكرار
كلمة أنا في أحاديث الأطفال وخاصة في بدء
تعليمهم اللغوي .

ولعل هذا هو أحد الأسباب التي تجعل
الناس يميلون إلى قراءة القصص والروايات
لأنها تعبر بطريق مباشر أو غير مباشر عن

ثانياً - الجملة

الجملة المناسبة تؤثر على بساطة الأسلوب وسرعة فهم الفكرة . ولذا يجب أن تخضع الجملة في فكرتها وصورتها وبنائها إلى قواعد الكتابة الواضحة حتى تؤدي هدفها في تيسير القراءة وسلاسة التعبير . وتقاس سهولة الجملة بموازين مختلفة نلخصها فيما يلي :

١ - البساطة الفكرية للجملة : الجملة الكامنة تؤدي معنى . ويختلف مستوى صعوبة الجملة أو سهولتها تبعاً لعدد الأفكار التي تشتمل عليها . ولذا يجب أن تحتوي الجملة على جزء محدود من الفكرة التي تقوم عليها الفقرة . فعلاقة الفقرة بالجملة هي علاقة الفكرة بأجزائها . ولذا يجب ألا تختلط هذه الأجزاء بل تتابع في انتظام ونسق واضح بحيث تؤدي فكرة أية جملة إلى فكرة الجملة التي تليها .

وهكذا تتحقق البساطة الفكرية للجملة . وتصبح قراءتها سهلة ويصبح فهمها ميسوراً .

٢ - طول الجملة يؤثر في سهولتها : الجملة القصيرة جداً تؤدي إلى الإيجاز ، والإيجاز يعوق فهم المعنى . والجملة الطويلة جداً تؤدي إلى الأطناب ، والأطناب الكثير يؤدي إلى الكلال وتشتت الانتباه نتيجة للاستهتار بالمسادة المقروءة . وقد يؤدي أحياناً إلى اختلاط الجملة بالفقرة . ولذا يجب أن يكون طول الجملة مناسباً لمستوى القارئ .

أن تبدأ المستويات الأولى للقراءة الميسرة بعدد محدود من الكلمات المختلفة مثل ٢٠٠ كلمة مختلفة في المستوى الأول لتلك القراءة ، ثم يتطور هذا العدد إلى ٣٠٠ كلمة مختلفة في المستوى الثاني وإلى ٤٠٠ كلمة مختلفة في المستوى الثالث وهكذا يتطور العدد تبعاً لتطور المستوى :

وهكذا يساير عدد الكلمات المختلفة نمو المحصول اللفظي للقارئ ويناسب مستوياته القرائية المتدرجة .

٨ - مدى تكرار الكلمة يؤثر على مستوى تعلمها : عدد الكلمات المختلفة التي يلمحها الفرد تكون في جوهرها محصوله اللفظي كما سبق أن بينا ذلك . ولذا يجب على الكاتب أن ينسج هذا المحصول بأن يضيف إليه كلمات أخرى جديدة تبعاً لزيادة مستوى القارئ . وتعتمد هذه العملية على إعادة كتابة الكلمات الجديدة عدداً من المرات حتى تثبت في ذهن القارئ . وتدل الأبحاث العلمية على أن أقل عدد مناسب لهذا التكرار هو خمس مرات .

هذا ويجب أن تتقارب مرات ظهور الكلمات الجديدة في أول كتابتها ثم تتباعد مرات تكرارها بعد ذلك . وذلك لأن النسيان يكون كثيراً في أوائل عملية التعلم ثم تخف حدته ويضعف أثره بعد ذلك . لذا كان علينا أن نقارب بين عدد مرات ظهور الكلمة الجديدة في أوائل كتابتها حتى تغلب على أثر هذا النسيان .

أو بين الشرط وجوابه حتى لا يتعقد المعنى .
فالجملية السهلة تستقيم مكوناتها في وضوح
وتقارب . وهذا التقارب القائم شرط أساسي
لتيسير القراءة .

وبالمثل فإن إبعاد الضمير عن الاسم الذي
يعود إليه يعقد المعنى . وكثرة الحمل
الاعتراضية تحول دون الفهم المباشر السريع
للجمل المختلفة .

لذا يجب أن تقارب ما بين المكونات
المختلفة للجمل حتى يستقيم التركيب اللغوي .
وحتى تيسر عمالية القراءة السريعة .

٦ - حذف أحد مكونات الجملة يزيد
في صعوبتها : تحتوي الجملة في صورتها
الأصلية على مكوناتها دون حذف أو تقدير .
وبذلك يظهر المبتدأ والخبر في الجملة الاسمية
ويظهر الفعل والفاعل في الجملة الفعلية وعندما
يختفي أحد هذه المكونات فإن المعنى يصبح
غامضاً لأنه يحتاج إلى جهد عقلي معين
لإدراكه .

لذا يجب علينا أن نتجنب الحذف والتقدير
في بنائنا اللغوي للجمل .

٧ - المبني للمعلوم أسهل من المبني
للمجهول : بناء الجملة للمعلوم يوضح الفعل
والفاعل . ولذا فهو أيسر فهما وأقرب مالا
من البناء للمجهول الذي يغير صورة الفعل
ويحذف الفاعل . وهكذا نرى ضرورة
الاعتماد على المبني للمعلوم في التكوين اللغوي
للجملة وخاصة في عملية إنتاج المواد القرائية
السهلة .

والتحديد المقترح لطول الجملة هو ألا
يقل عدد كلماتها عن ٥ ولا يزيد على ١٥
وذلك نتيجة لتحليل الموضوعات القرائية .
هذا ويجب أن يخضع هذا التحديد بعد
ذلك للتجربة للكشف عن طول الجملة المناسب
لكل مستوى من المستويات التصاعدي للقراءة .

٣ - نوع الجملة يؤثر في سهولتها : إذا
جاز لنا أن نفترض أن الحمل الاسمية أبسط
وأسهل من الحمل الفعلية لأنها تبدأ بالاسم
الذي هو في الأغلب والأعم أسهل من الفعل .
لذا يجب أن نعتمد على الحمل الإسمية في
إنتاج مواد القراءة السهلة الميسورة . هذا
ويمكن أن يخضع هذا الفرض للتجربة للتحقق
من صلاحيته وللكشف عن العلاقة القائمة بين
نسب الحمل الاسمية والفعلية والمستوى القرائي .

٤ - التقديم والتأخير يزيد في صعوبة
الجملة : يقدم المبتدأ على الخبر في الصورة
الأصلية للجملة الاسمية . وعندما يتقدم الخبر
على المبتدأ كما في حالة الجار والمجرور مثل :
« في البيت رجل » يزاد تعقيد الجملة لأنها
تخرج بذلك عن الصورة المألوفة لها . لذا
يجب أن نراعى الصورة المألوفة للجملة
الاسمية وخاصة بالنسبة للمستويات الأولى
القرائية .

٥ - تباعد مكونات الجملة يزيد في
صعوبتها : يجب أن نتجنب التباعد الكبير بين
الفعل والفاعل . أو بين المبتدأ والخبر . أو
بين اسم إن وخبرها ، أو اسم كان وخبرها .

٨ - الانتقال السريع في زمان الفعل يعقد المعنى : الانتقال السريع من الماضي إلى الحاضر أو من الماضي إلى المستقبل أو في الزمن عامة مهما كانت صورته قد يكون جميلا في البناء اللغوي الناضج لأنه يتطلب تركيز الانتباه ويضفي على الصورة اللغوية جمال الحركة والمرونة . لذا يجب أن نراعي الوحدة الزمنية للجملة فلا نضمها أكثر من صورة زمنية واحدة للفعل ويجب أيضا أن نراعي - إلى حد ما - هذا التناسق الزمني في الحمل المتعاقبة حتى لا نفاجئ القارئ بالصورة الزمنية المختلفة : الماضية والحاضرة والمستقبلية بل نسير معه وفق سرعته الفعلية ومستواه القرائي .

ثالثا - الفقرات

دلت نتائج تحليل المحتوى الذي أجراه البهي على موضوعات جريدة « منار المغرب » على أن الفقرة هي أهم المكونات تأثيرا في البناء اللغوي والفكري للموضوع . وذلك لأن الفقرة تصنف الموضوع إلى أقسامه وأجزائه الرئيسية . وتشتمل على الجملة والكلمة والفكرة . ولذا كان الاهتمام بالفقرات والضبط العلمي لها عملية رئيسية في تيسير القراءة وتوضيح المعنى .

هذا وتقاس سهولة الفقرات بموازين مختلفة نلخصها فيما يلي :

١ - التكوين الفكري للفقرة : التقسيم الفكري للموضوع يقتضي بناء لغويا يوضحه ويؤكد أقسامه . فاذا انقسم الموضوع مثلا

إلى خمس أفكار رئيسية فيجب أن ينقسم التنظيم اللغوي إلى خمس فقرات أيضا بحيث تعبر كل فقرة عن فكرة رئيسية واحدة . ولا تتعداها إلى غيرها .

ولذا يجب أن نراعي التطابق التام بين أفكار الموضوع وفقراته حتى نحقق الانتقال العقلي المناسب من فكرة إلى أخرى دون غموض أو لبهام . وبذلك يسهل على القارئ إدراك الأفكار الرئيسية للموضوع بسهولة وسرعة .

٢ - ترتيب فقرات الموضوع : عندما تطابق فقرات الموضوع أفكاره فإن ترتيب الأفكار يتطلب خضوع الفقرات لنفس ذلك الترتيب . ولذا يجب أن تمهد الفقرة الأولى للموضوع وتشوق القارئ إلى قراءته وتبين بناءه العام . ثم تحلل الفقرات الوسطى عناصر الموضوع . وتلخص الفقرة الأخيرة جميع أفكاره وبذلك تسهل عملية القراءة على الفرد ويتضح معنى المسادة المقروءة نتيجة لانتظام أفكارها وفقراتها .

٣ - ترتيب جمل الفقرة : يجب أن يخضع ترتيب جمل الفقرة لنفس التنظيم الذي خضع له ترتيب الفقرات . حتى يستقيم التنسيق الجزئي والكلّي للموضوع . وبذلك تمهد الجملة الأولى للفكرة التي تعرضها تلك الفقرة ، وتدل الحمل الوسطى على تحليل أجزاء الفكرة وتوضح الجملة الأخيرة ملخصها العام .

وهكذا يتضح التنسيق ويستقيم التنظيم وتسهل عملية القراءة .

رابعاً - الأفكار

يعتمد الجوهر الرئيسى للموضوع على أفكاره . ولذا يجب أن نراعى البساطة والدقة والتنظيم في عرض أفكار الموضوع .

هذا وتقاس صلاحية الأفكار بموازين مختلفة نلخصها فيما يلى :

١ - بساطة الفكرة : الأفكار المعقدة لا تصاح للقراءة السهلة . ولذا يجب أن نراعى البساطة القصوى في إنتاج المواد القرائية وخاصة في مستوياتها الأولى . ويجب أيضا ألا تركز الفكرة في عدد قليل من الكلمات وألا تختلط أجزاؤها وفروعها وأقسامها بحيث يصعب على الفرد معرفة معالمها الرئيسية .

وقد دلت نتائج الأبحاث على أنه كلما كثر عدد كلمات الفكرة وضح معناها . وتتلخص نتائج إحدى هذه التجارب في التعبير عن بعض الأفكار بـ ٣٠٠ كلمة ثم زيادة عدد كلمات تلك الأفكار إلى ٦٠٠ كلمة ثم زيادتها بعد ذلك إلى ١٢٠٠ كلمة . وقد دلت النتائج على زيادة وضوح الأفكار ووصلت إلى نهايتها العظمى عندما زاد عدد الكلمات من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ كلمة .

واستمرت زيادة الوضوح الفكرى من ٦٠٠ إلى ١٢٠٠ . لكن الفرق في الوضوح الفكرى بين ٣٠٠ كلمة و ٦٠٠ كلمة كان أكثر من الفرق في الوضوح الفكرى

بين ٦٠٠ كلمة و ١٢٠٠ كلمة . وهكذا نستطيع أن نقرر هذه الحقائق التالية :

(أ) يزداد الوضوح تبعا لزيادة عدد الكلمات .

(ب) يتأثر عدد الكلمات اللازمة لتوضيح أفكار معينة بعدد الأفكار ونوعها . ولذا يجب أن تخضع هذه الظاهرة للتجربة للكشف عن العدد المناسب من الكلمات لكل نوع معين من الأفكار . ولإلى أن تجرى مثل هذه التجارب يجب أن نتجنب تركيز الفكرة في عدد قليل من الألفاظ .

(ج) ويمكن أن نقيس مدى التركيز اللفظى للفكرة وذلك بأن نسجل عدد الكلمات التى تدل على عدد معين من الأفكار : ثم نقسم عدد الكلمات على عدد الأفكار لنستنتج من ذلك عدد كلمات كل فكرة . ولنعلم من ذلك الحمل اللفظى للفكرة . وبذلك نستطيع أن نتدرج بالقارئ من البساطة إلى التركيز تبعا لتدرج مستوياته القرائية .

وهكذا يصل بنا التحليل إلى ضرورة ملاحظة عدد كلمات كل فكرة نكتبها . وأن نراعى البساطة الفكرية فيما نكتب . وألا نبخل على القارئ بالكلمات الكثيرة التى تزيد في وضوح الفكرة وسهولة القراءة .

٢ - صحة الأفكار ودقة المعلومات : عندما يشك القارئ في صحة الأفكار أو دقة المعلومات التي يقرأها فإنه ينفر من القراءة لاستهانته بما يقرأ . ولذا يجب علينا أن نتأكد من صحة الأفكار ودقة المعلومات .

والطريقة العلمية المتبعة في جمع الأفكار والمعلومات هي الرجوع بها إلى مصادرها الرئيسية . ولذا فمن الأفضل أن نرجع إلى الطبيب في كتابتنا عن الأمراض : وهكذا بالنسبة للموضوعات الأخرى . ويجب أن تكون الأفكار والمعلومات التي تتضمنها كتابتنا ذات قيمة مباشرة للقارئ لندفعه إلى قراءتها .

٣ - ملخص الأفكار : عندما ينتهي الفرد من الموضوع الذي يقرأه فإنه يحتاج إلى تلخيص واضح لتلك الأفكار حتى يدرك تماما الحصيلة الفكرية التي استفادها وانتهى إليها من قراءته .

خامسا - الأسلوب

يتأثر مستوى الفهم تأثرا كبيرا بأسلوب الكاتب . فقد يعالج كاتب ما فكرة معينة بأسلوب شيق سهل . فيفهمه القارئ . وقد يعالج كاتب آخر نفس الفكرة بأسلوب ممل معقد فلا يفهمه القارئ العادي . ولذا كان للأسلوب أهميته القصوى في تحديد المستوى القرائي المناسب .

هذا وتقاس صلاحية الأسلوب بموازين مختلفة نلخص أهمها فيما يلي :

١ - بساطة الأسلوب : عندما يعالج الأسلوب الكتابي الأشياء المألوفة في حياة الناس فإنه يصبح شيقا ممتعا لأنه عندئذ يستعين بالمعلوم ليوضح المجهول :

ويمكن تحقيق هذه الفكرة بالاكثار من التشبيهات والأمثلة الواقعية والاستعانة بالأسماء المعروفة للأمكنة والأفراد والحيوانات .

٢ - أساليب الخطاب : الأسلوب المباشر الإيجابي هو الذي يخاطب القارئ نفسه ، ولا يخاطب العالم كله . وهو بذلك يقيم صلة وثيقة بين المؤلف والقارئ . لأن المؤلف يخاطبه ويناجيه ، ويحاوره في صراحة وبساطة ووضوح :

وعندما يضع الكاتب نفسه في مكان القارئ ويحاول أن يتخيل أثر كتابته على القارئ فإنه يستطيع أن يعدل ويغير من أسلوب خطابه حتى يتناسب مع مفاهيم القراء . وعندئذ يدرك تماما مدى نجاح أسلوبه في عرض الفكرة القائمة عرضا شخصيا إيجابيا مباشرا :

٣ - نوع الأسلوب : يختلف نوع الأسلوب تبعاً لاختلاف طبيعة المادة المكتوبة وتبعاً لتباين مستوى القارئ . ويمكن أن نلخص الأنواع الرئيسية للأساليب الكتابية في الحوار والقصص والوصف . والحوار أسهل هذه الأنواع وأقربها إلى لغة التخاطب والحديث والكلام العادي . والقصص مزيج من الحوار غير المباشر والترتيب الزمني

وأيا كان الرأي في المفاضلة بين الموضوعات المختلفة فهناك أمور يجب أن يراعيها الكاتب بادئ ذي بدء حتى يصبح موضوعه صالحا ومناسبا للقراءة السهلة .

ومن أهم هذه النواحي ضرورة مراعاة ميل القارئ . وفي وسع الكاتب أن يختار الموضوعات التي يراها شيقة ممتعة بالنسبة للقراء مثل الفكاهة والقصة ، والموضوعات المهنية التي من شأنها أن تزيد من الدخل المالى للقارئ . أو الهوايات التي يمارسها الأفراد ويودون أن يعلموا أشياء أخرى عنها مثل وسائلها الحديثة ، وتاريخها ومميزاتها وكل ما يتصل بها .

هذا ويستطيع الكاتب أن يحكم - إلى حد ما - على صلاحية الموضوع بالمعايير التالية :

(أ) هل هذا هو الموضوع الذى يريد الناس معرفته ؟

(ب) هل يصلح هذا الموضوع لكل الأفراد أم لطائفة معينة من الأفراد ؟

(ج) وإذا كان الموضوع يصلح لطائفة معينة ، فهل هو يابى حاجات تلك الطائفة ؟

(د) ما هو أثر هذا الموضوع على تغيير اتجاهات وأفكار وسلوك الناس ؟

(هـ) ما هو مدى معرفة الناس لهذا الموضوع قبل قراءته ؟

(و) ما هو أكثر العناوين تشويقا لهذا الموضوع ؟

للأحداث مع وصف الأمكنة والأشخاص والحالات الاجتماعية والطبيعية التي تمر بشخصيات القصة . والوصف الصريح يتجرد إلى حد كبير من النواحي الشخصية وهو لذلك أكثر الأساليب بعدا عن المستويات الأولى للسهولة :

لذا ، فمن الأفضل أن نعتمد على حد كبير على أسلوب الحوار والأسلوب القصصى فى إنتاج المواد القرائية السهلة . وأن نتخفف إلى حد كبير من استعمال الأسلوب الوصفى وخاصة فى المستويات الأولى لهذه القراءة .

سادسا - الموضوع

يجب أن يخضع اختيار الموضوع الصالح للتجربة التي تحدد نوعه ومحتوياته وطوله وتوقيته . ويقاس نجاح هذا الاختيار بمدى اقبال الناس على قراءة الموضوع أو بمدى عزوفهم عنه ورفضهم إياه :

هذا وتقاس صلاحية الموضوع بموازين مختلفة نلخص أهمها فيما يلى :

١ - اختيار الموضوع : تعتمد عملية اختيار الموضوعات على استفتاء القراء أنفسهم فيما يصلح وما لا يصلح من الموضوعات .

وهكذا نرى أن عملية اختيار الموضوع بهذه الطريقة تشبع لدى القارئ ميوله ، وتسائر اتجاهاته ، وتشوقه للقراءة ، وأن هذا الاختيار يخضع للتجريب خضوعا علميا يحقق هدفه ويسير به إلى غايته :

وهكذا تقرر مثل هذه الأسس الصلاحية الأولية التمهيدية للموضوع وتساعد الكاتب على اختيار الموضوع ريثما تقرر نتائج التجارب مدى دقة هذا الاختيار .

٢ - محتويات الموضوع : يجب أن تكون محتويات الموضوع قريبة الصلة بحياة الناس ومشكلاتهم اليومية حتى يجد فيها القارئ صدى لآماله ورغباته وأفكاره . : وكلما اقتربت هذه المحتويات من ألوان الحياة الشعبية في مظهرها البدوي والحضري زاد تبعاً لذلك ميل الناس لها .

٣ - حيوية الموضوع : الموضوعات الحيوية هي التي تمتلئ بالحركة والحوادث والمفاجأة ، لأنها بهذا الوضع تثير انتباه الناس ، وتحفز نشاطهم العقلي لمتابعة عملية القراءة . أما الموضوعات الهادئة البطيئة فهي مملة لا تساعد على عملية الاستمرار في القراءة . وقدما قال العرب الحركة ولود والسكون عاقر .

ولذا يجب أن نوفر للقارئ هذا الجو الممتع لنُدفعه إلى القراءة .

٤ - طول الموضوع : يتأثر مستوى الفهم بطول الموضوع . فالموضوعات الواضحة القصيرة ذات الأفكار القليلة المحدودة تساعد على تركيز الانتباه وتسائر المستويات الأولى للقراءة . وكلما زاد المستوى القرائي للفرد زاد تبعاً لذلك المدى القرائي الذي يمكن أن يستوعبه دون مشقة أو تعب .

ولذا يجب أن تكون موضوعات المستويات القرائية الأولى قصيرة قليلة في أفكارها . ثم يزداد طولها وتزداد أفكارها تبعاً لزيادة المستوى القرائي .

٥ - التوقيت : الموضوعات الحيوية هي التي يطالعها الناس في أبنائها وحينها أي هي التي تسير تطور الأحداث الجارية .

وتعتمد عمالة اختيار الموضوعات المناسبة على معرفة تامة بميول القراء واتجاهاتهم القرائية . وعلى معرفة أصيلة بأهم الأحداث العالمية والقومية .

ولذا يجب أن نراعى التوقيت الصحيح في كل ما نخرج من مواد قرائية حتى تجد هذه المطبوعات الاستجابة الصحيحة الضرورية لها .

سابعاً - الصور والرسوم التوضيحية تعتمد الكتب السهلة اعتماداً كبيراً على الرسوم التوضيحية لتقرب المعنى للأذهان ، ولتشوق الفرد إلى عملية القراءة ولتثير انتباهه ولتحفز ميله ، ولتدفعه إلى ممارسة مهارة القراءة وارتداد الآفاق المجهولة التي تغريه على الاطلاع المتصل المستمر .

هذا وتقاس صلاحية الصور والرسوم التوضيحية بمقاييس مختلفة نلخص أهمها فيما يلي :

١ - المساحة النسبية للصور : تختلف المساحة تبعاً لاختلاف مستوى القراءة ونوع

ولذا يجب أن تخضع الصور والرسوم التوضيحية للتجربة كلما أمكن، وذلك بأن نعرض على الفرد مجموعة من الصور التي تمثل فكرة ما ليختار منها أوضحها تعبيراً عن تلك الفكرة .

هذا ويمكن أن نبدأ عملية التوضيح باختيار الصور البسيطة القوية الواضحة ثم نخضعها بعد ذلك للتجريب كلما أمكن ذلك .

٣ - الألوان : الألوان من أهم عناصر التشويق للصور والترغيب فيها . وهي تساعد على إمعان النظر في المرئيات والاستمتاع الفني بها . والألوان المتباينة الصارخة تفاجئ الإنسان وتجذب انتباهه ولذا فهي قد تصلح للمستويات القرائية الأولى . والألوان المتناسقة الهادئة تريح النفس وتشيع في الفرد المتعة الفنية العميقة .

لذا يجب أن ندرس الذوق الفني الخاص بالألوان وتوزيعها وعددها ومساحتها وتباينها وتناسقها عند القراء حتى تخضع عملية إنتاج المواد المبسطة في صورها ورسومها التوضيحية لخواص ومميزات الذوق الفني .

هذا وكثرة الألوان المتباينة تبهير عين القارئ . لكن هذه الكثرة تتطلب نفقات كثيرة في الطباعة ولذا فمن الأفضل دراسة الامكانيات المالية للطباعة في إطار الحاجيات القرائية للفرد .

الموضوع . فالمستويات الأولى تحتاج إلى مشوقات كثيرة لمتابعة عمالية القراءة - كما تحتاج أيضا إلى توضيح كبير لتيسير الفهم وتبسيط المادة المقررة .

هذا ويمكن إخضاع المساحة النسبية للصور للتجربة والكشف عن العدد المناسب من الصور لكل كتاب وفي كل مستوى . وبما أن التحقيق التجريبي لهذه الفكرة يحتاج إلى جهد ومال ووقت طويل . إذن نستطيع أن نكتفي مبدئياً بالاكثار من الصور في المستويات الأولى للقراءة . وأن يقل عدد ومساحة هذه الصور كلما زاد المستوى . فإذا اصطالحنا مثلاً على أن يكون عدد صفحات أى كتاب من الكتب المبسطة ١٦ صفحة فنستطيع أن نحدد ٨ صفحات للصور في المستوى الأول و ٤ صفحات للصور في المستوى الثاني و ٢ في المستوى الثالث . وبذلك تتطور نسبة وجود الصور في المستويات المتتالية . ويمكن أن نعدل هذه النسبة بعد ذلك في إطار الملاحظات العلمية والتجربة المضبوطة التي تهدف إلى قياس العلاقة القائمة بين نسبة الصور ونسبة الوضوح .

٢ - بساطة الصور ووضوحها : الصور البسيطة الواضحة أقرب إلى مستوى القارئ العادي من الصور المعقدة الغامضة . وتتطلب هذه البساطة تأكيد المظاهر الرئيسية للصورة وتجنب التفاصيل الكثيرة الدقيقة التي تشتت انتباه القارئ وتحول بينه وبين الإدراك الواضح لفكرة الصورة .

حجم الحروف المكتوبة ومدى تقاربها أو بعدها والمساحات البيضاء المحيطة بها . ثم تتحرك العين في قفزة أخرى لتقرأ عددا آخر من الكلمات وهكذا تستمر عملية القراءة في قفزات متصلة وانتقال في حركة العين من أقصى اليسار إلى أول اليمين لكل سطر يقرأ .

هذه العادة تنمو مع نمو المستوى القرائي للفرد . ويزداد عدد كلمات الوقفة البصرية الواحدة تبعا لزيادة ذلك المستوى . ولذا فعندما يصبح حجم الكلمات صغيرا فان الفرد يقرأ في الوقفة البصرية الواحدة عددا كبيرا من الكلمات . وعندما يصبح حجم الحروف كبيرا فان الفرد يقرأ في الوقفة البصرية الواحدة عددا قليلا من الكلمات .

ولذا يجب أن يساير حجم الحروف الطباعية مستويات القراءة . ويستحسن أن يكون حجم حروف المستوى الأول ٤٨ وأن يكون حجم حروف المستوى الثاني ٣٦ ، ٣٤ ، وأن يكون حجم حروف المستوى الثالث ٢٤ ، ١٨

ويجب أيضا أن نخضع هذه العملية للتجربة كلما أتاحت الفرصة لتحديد تماما تلك الأحجام .

٢ - الأسطر : بما أن عدد الأسطر في الصفحة المكتوبة يتأثر بحجم الحروف ، وبما أن حجم الحروف يساير مستوى القراءة ، إذن فعدد أسطر الصفحة في المستويات القرائية الأولى يجب أن يصبح قليلا نسبيا لأن حجم

ويستحسن أن تحتوى كتب المستوى الأول للقراءة المبسطة على ثلاثة ألوان وأن تحتوى كتب المرحلة الثانية على لونين ، وكتب المرحلة الثالثة على لون واحد .

ومن الأفضل أيضا أن يكون الغلاف دائما غنيا بالوانه وصوره بحيث يغري الفرد على تناول الكتاب وقراءته .

ثامنا - العوامل الطباعية

للعوامل الطباعية الخاصة بالحروف والأسطر والصفحات والورق والحبر علاقة كبيرة بالعادات والمستويات القرائية ، وبالتحديد تكلفة الكتب المبسطة . ولهذا النواحي كلها أهميتها القصوى في تيسير عملية القراءة لأنها تساهل نمو القارئ في تطوره نحو المستويات الصحيحة للقراءة .

هذا وتقاس صلاحية العوامل الطباعية بمقاييس مختلفة نلخص أهمها فيما يلي :

١ - العادات القرائية وحجم الحروف : تتحرك العين من اليمين إلى اليسار أثناء قراءة اللغة العربية وعندما ينتهى السطر تنتقل العين في حركتها من اليسار إلى اليمين لتبدأ حركتها في قراءة السطر التالى وتدل نتائج الأبحاث العلمية في القراءة على أن العين تتحرك في قفزات . فهي تنظر إلى الجزء الأول من السطر لتقرأ في هذه الوقفة من الكلمات عددا قد يبلغ كلمتين أو ثلاث أو أربع حسب مستوى اجادة مهارة القراءة وحسب

٤- الورق : الورق المصقول اللامع يعكس الضوء ويرهق العين أثناء القراءة ولذا فمن الأفضل أن يكون الورق من النوع الذى لا يعكس الضوء أى غير تام الصقل :

٥- الحبر : الحروف الغليظة السوداء تبدو قوية . ولذا فمن الأفضل أن يكون سواد الحروف متبايناً مع بياض الورقة حتى يجذب الانتباه ويلفت النظر بهذا التباين الشديد . ويمكن أن نستخدم الألوان المتباينة فى عملية الطباعة لنحقق ذلك الهدف وعليها أن نتخفف بعد ذلك من هذه الطريقة فى المستويات النهائية لمهارة القراءة لنعد الفرد لمطالعة الكتب العادية .

تاسعا - الخطوط القياسية للسهولة يمكن اخضاع بعض عوامل السهولة للتحليل الرياضى . وبذلك تحدد العلاقة بين النسبة المئوية للسهولة وبين عاملها الرئيسيين : عدد مقاطع الكلمة ومتوسط طول الجملة . وتحولت هذه العلاقة إلى خطوط قياسية شأنها فى ذلك شأن الخطوط التى نستخدمها فى المسطرة الحاسبة .

والشكل (١) يبين نتائج إحدى هذه المحاولات حيث يدل العمود الأيمن على الخط القياسى للمقاطع ، ويدل العمود الأيسر على الخط القياسى لطول الجملة ، ويدل العمود الأوسط على أثر العامل الأول والعامل الثانى على النسبة المئوية للسهولة .

فمثلاً إذا تصورنا أننا حسبنا عدد مقاطع ١٠٠ كلمة فوجدناه مساوياً لـ ١٥٠ كلمة وحسبنا متوسط طول الجملة ووجدناه ١٠

حروف هذا المستوى يصبح كبيراً . ثم يقل بعد ذلك حجم الحروف ويزداد تبعاً لذلك عدد السطور .

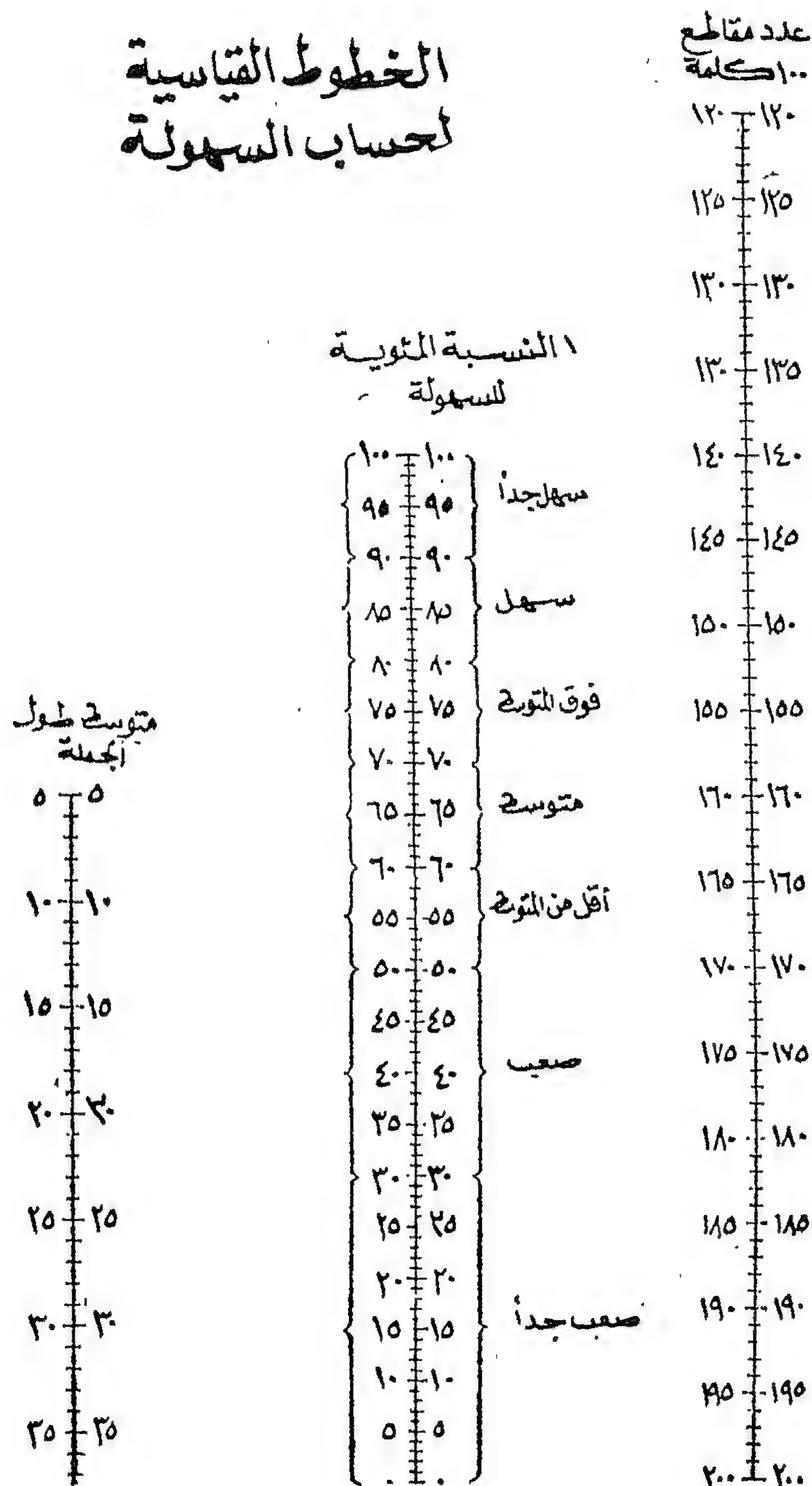
ولذا يجب أن نتدرج بعدد سطور كل صفحة من القلة إلى أن نساير بذلك خصائص المستويات القرائية التصاعدية .

هذا وعندما يتحدد حجم الحروف ، وعدد السطور ، تتحدد أيضاً المساحات السوداء والبيضاء فى كل صفحة ، ولكل مستوى من مستويات القراءة .

٣- الصفحات : تتأثر العادات القرائية— وخاصة فى المستويات الأولى بعدد صفحات المواد القرائية وبمساحة كل منها . فالمجلدات الضخمة توحى إلى الفرد بالصعوبة وتجعل القارئ الحديد يخشى الاقتراب منها . والصفحات القليلة توحى إليه بسهولة المادة المقروءة . ولذا يجب أن يكون عدد صفحات الكتب المبسطة مناسباً لمستوى القراء . ومن الأفضل أن تبدأ هذه الكتب بعدد من الصفحات يساوى ١٦ صفحة لأن هذا العدد يمثل الوحدات الأولى التى يتألف منها الكتاب الكبير ومن الأفضل أيضاً أن يكون طول الصفحة ٢٤ سم وعرضها ١٧ سم لأن هذه المساحة من أكثر المساحات شيوعاً فى الكتب العادية . وبذلك ندرب القارئ على وحدات الكتاب العادى ومساحته . ونساير بذلك تكوين العادات القرائية المناسبة لتلك الكتب .

فان الخط المائل الذى يصل نقطة ١٥٠ فى عمود المقاطع بنقطة ١٠ فى عمود طول الجملة يقطع خط النسبة المئوية للسهولة عند ٧٠ .
وبذلك نستطيع أن نحكم على مستوى السهولة بأنه فى الحد الأعلى للمتوسط والحد الأدنى لفوق المتوسط .

الخطوط القياسية لحساب السهولة



وتحسب النسبة المئوية للميل بنفس الطريقة
التي حسبت بها النسبة المئوية للسهولة .
والقاعدة المتبعة في عد الكلمات الشخصية
هى عد أسماء الناس ، والضمائر ، والمهن
والوظائف ، على أنها كلمات شخصية .
والقاعدة المتبعة في عد الجمل الشخصية
هى عد جمل الحوار ، والعبارات الموجهة
للقارئ ، والأسئلة التي يطرحها الكاتب على
القارئ ، على أنها جمل شخصية .

فؤاد البهى السيد

عاشرا — الخطوط القياسية للميل

أمكن أيضا اخضاع الميل القرائى للتحليل
الرياضى ، وبذلك تحددت العلاقة بين عامليه
الرئيسيين : الكلمات الشخصية ، والجمل
الشخصية .

وتحولت هذه العلاقة إلى خطوط قياسية
كما يبين ذلك شكل (٢) .

النسبة المئوية
للصفات الشخصية

٢٥-٢٥
٢٤-٢٤
٢٣-٢٣
٢٢-٢٢
٢١-٢١
٢٠-٢٠
١٩-١٩
١٨-١٨
١٧-١٧
١٦-١٦
١٥-١٥
١٤-١٤
١٣-١٣
١٢-١٢
١١-١١
١٠-١٠
٩-٩
٨-٨
٧-٧
٦-٦
٥-٥
٤-٤
٣-٣
٢-٢
١-١
٠-٠

الخطوط القياسية لحساب الميل

النسبة المئوية
للميل

ممتاز
فوق المتوسط
متوسط
أقل من المتوسط
ممل

النسبة المئوية
للميل الشخصية

١٠٠-١٠٠
٩٠-٩٠
٨٠-٨٠
٧٠-٧٠
٦٠-٦٠
٥٠-٥٠
٤٠-٤٠
٣٠-٣٠
٢٠-٢٠
١٠-١٠
٠-٠

المراجع

- ١- الدكتور محمود رشدي خاطر : قائمة المفردات الشائعة في اللغة العربية
سرس الليان ١٩٥٨
- ٢- الدكتور فؤاد البهي السيد : القائمة المغربية للكلمات الشائعة
المغرب العربي ١٩٦١
- ٣- : الكلمات الأساسية
المغرب العربي ١٩٦٢
- ٤- : اللغة الأساسية
مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٧١
- ٥- : تحليل المحتوى - دراسة احصائية نفسية
لصحافة العربية المتخصصة - القاهرة ١٩٦٥
- ٦- : استفتاء الميول القرائية الصحفية - المغرب
العربي ١٩٦١
- ٧- : استفتاء الميول القرائية الفلاحية - المغرب
العربي ١٩٦١

8—Flesch, R. The Art of Plain Talk : Harber and Brothers, 1946

9—Flesch, R., and Lass, A.H. The Way to Write ; New york :
Harper and Brothers, 1947

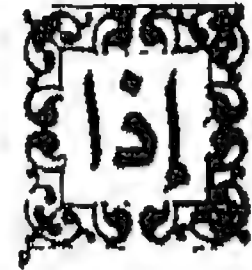
10—Flesch, R. The art of Readable Writing. New York : Harper
and Brothers, 1949.

11—Gray, W.S., and Leary, B.E. What Makes a book Readable.
Chicago : University of Chicago Press, 1935.

12—Large, I. "Predicting Readability." Teachers Collego Record,
1944, V. 45, PP. 404-419.

نقد النقد

للأستاذ محمود غنيم



كان الشعر ليس خالصا

كله ، بل فيه كثير من

الزائف الذى يحتاج إلى نقد وتمحيص

فإن النقد كذلك ليس خالصا كله ،

بل فيه كثير يحتاج إلى نقد وتمحيص .

ولعل ما يحتاج إليه من نقد النقد أكثر

مما يحتاج إليه من نقد الشعر . ذلك لأن

كثيراً من النقاد غرّوا قديماً وحديثاً بتعقب

الشعراء بحق أو بغير حق لأهواء في

صدورهم ، أو أوهام في عقولهم ، وما

أقل النقد الذى يسلم من هذين : الهوى

والوهم . ولا يفوتنا أن النقد كان قديماً

وحديثاً مطية ذلولا لطلاب المجد ، ولا سيما

إذا كان المنقود من ذوى نباهة الشأن ،

الذين يشار إليهم بالبنان ، وأذكر أننى

سمعت أول ما سمعت باسمى المازنى والعقاد

عندما عرضا لشوقى بالا نتقاد .

ولقد عرضت في مقال سابق ، نشر

بمجلة المجمع لبعض أهواء النقاد وأوهامهم ،

غير أن هذا المقال لم يتناول إلا قضايا

عامة تدور في هذا الفلك ، وأريد الآن

أن أضع بعض النقاط على الحروف بذكر

أمثلة تلقى أضواء كاشفة على ما أشرت

إليه ، ومعاذ الله قبل البدء بإيراد هذه

الأمثلة أن أزعّم أن النقد كاه غير سليم

من دواعى الصدور ، أو خطأ القرائح ؛

فتمة - ولا شك - ما ينفذ منه إلى

الصميم ، فيكون جديراً بتقدير المنقودين

أنفسهم ، بله عامة الأدباء والمثّاديين ،

كما أن هناك ما سببه اختلاف زوايا

وجهات النظر بين النقاد والشعراء .

ولعل ما أعرضه في هذا المقال كله أو جله

من هذا الطراز الذى لم تتحقق له سلامة

الأهداف ، ولم يهجنه الهوى والا نحراف .

(١) بين الشاعرين الكبيرين على

الجندي وحافظ إبراهيم :

لأنظن أن المرحوم حافظ إبراهيم كان -

لو كان حيا - يقف مكتوف اليدين

مطبق الشفتين أمام تجريح شاعرنا

الكبير على الجندي له في كتاب « الشعراء

وإنشاد الشعر » وخاصة ماورد في هذا

الكتاب من نقد لاذع لبيت حافظ .

الذى تضمنته مرثيته للمرحوم سعد زغلول .
ونص البيت :

حملوه على المدافع لما
أعجز الهام حملهُ والرقابا
قال سيادته صفحة ١٤ - من الكتاب
مانصه بتصرف :
« بيت زائف » .

« وقد جاء في هذه القصيدة بيت مُبَكِّ
مضحك والبيت هو : « حملوه
على المدافع . . الخ » « وهذا البيت غاية
في الهجنة ، ونهاية في السخف ، وهو ذم
صريح للزعيم المرثى ، فهو « لا يصور
أعمال « سعد » و مآثره ، ولا نواحيه
الوطنية الخالدة ، ولا مواهبه المعنوية
المرموقة وإنما يمتله جسداً ضخماً
طوالاً هائلاً كجسد « عُوج بن عُوق »
كما تتحدث عنه الأساطير » .

وفي صفحة ١٧ من الكتاب يقول في
الموضوع نفسه مانصه :

« حافظ والعقاد وغنيم »

« ونعود إلى بيت حافظ المتقدم ،
فنقول : نحسبه نظر فيه إلى قول
القائل :

« وليس صرير النعش ما تسمعونه
ولكنه أعناق قوم تقصّف »

« وليس فتيق المسك ما تجدونه
ولكنه دالك الثناء المخلف »
ثم يوازن بين بيت حافظ وقول
العقاد في هذا المعنى في رثاء سعد
نفسه :

خرج المدفع يطوى مدفعا
الأساطيل اتقته والحصون
ساكنا بين يديهم بعدما
زلزل الشرق على المغتصبين
ثم يوازن أيضاً بين هذا البيت
وقول محمود غنيم في رثاء المرحوم
محمد محمود :

سار بين الدموع والزفرات
خير نعش يُقل خير رُفاتِ
مدفع خامد على مدفع سا

ر من الوجد وارى الجمراتِ
ويخرج من الموازنة بأن كلا الشاعرين
العقاد وغنيم لم ينزلق إلى ما انزلق إليه
حافظ ، ولا يسعنا إلا شكر شاعرنا الكبير
على حسن ظنه بنا ، ولكننا نقول له :
إننا نحب الحق ، ونحب قيصر ، بيد
أن الحق أحب إلينا من قيصر .

فهل كان حافظاً حقاً يعنى المعنى
الذى ذهب إليه الناقد فى تخريجه ؟
إن صح هذا فليس حافظ جديراً بالنقد
والتجريح فقط ، بل إن هذا البيت
وحده كفى بمحتو اسمه من سجل عامة
الشعراء ، بله كبارهم المعدودين .

أترانا حين نقول لشاعرنا الكبير :
«إنه كبير القلب ، أو واسع الصدر »
نقصد كبر كتلة القلب ، وما يشغله
من حيز ، ونقصد سعة الصدر المادية
التي تشبى بالشبر ، وتذرع بالذراع ؟
الجواب : « كلا ثم كلا » وإنما نقصد
بكبر القلب ما يفيض به من عواطف
وأحاسيس نبيلة ، وما ينطوى عليه
من حسن النيات وكرم الصفات
كما نقصد بسعة الصدر السعة المعنوية
التي تندرج تحتها الأريحية ، والصبر
عند البأساء ، والحلم على سفه السفهاء ،
إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وإذا قال
المتنبى فى رثاء محمد بن إسحاق التنوخى :
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى

رضوى على أيدي الجبال تسيير
فهل يقصد ضخامة الجثة التي يحتويها
النعش ، وما تتمتع به من ثقل تنوء به
أعناق الرجال ، فيشبه هذه وتلك بما

يمتاز به الجبل من ضخامة وثقل ؟
الجواب « : كلا وألف كلا » وإنما
قصد تشبيه المرثى بالجبل فى رزاقته
ووقاره ومناعته ، ثم جسم هذه الصفات
المعنوية تجسيماً مادياً ، ومن هنا تسنى له
أن يعجب من حمل نعش المرثى على
أيدي الرجال .

ثم نعود إلى بيت حافظ ، فنقول :
ليس من الإنصاف أن يقرأ هذا البيت
منفصلاً عما قبله ، فهو أتبع له من
الظلال للأجرام ، والبيتان هما :

خرجت أمة تشيع نعشا
قد حوى أمة وبعراً عبا

حملوه على المدافع لما
أعجز الهام حمله والرقابا
فمنحن نرى أن حافظاً فى البيت الأول
شبه المرثى بالأمة على حد قوله تعالى : « إن
إبراهيم كان أمة قانتاً لله » وعلى حد قول
أبي نواس :

قولا لهارون إمام الهدى
عند اجتماع المجلس الحاشد

أنت على مابك من قدرة
فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

كما شبهه في البيت نفسه بالبحر
على حد قول الشاعر في ابن الحسين :

عجبت لحراقة ابن الحسيد
ن - لا غرقت - كيف لا تغرق ؟

وبحران من تحتها واحد
ومن فوقها واحد مطبق ؟

ومن البداة يمكن أن كلا التشبيهين
لا يعنى وصف المشبه بالكثافة ، وغزارة

الشحم واللحم ، وضخامة المفاصل
والعظام ، وإنما يرمى إلى ما يتمتع به

من عزائم ومكارم ومناقب ومواهب .
ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن تعجزا الرقاب

والهام عن حمل نعش يُقلّ أمة وبحرا
بالمعنى المتقدم ، فإنه لما كان الكلام

جاريا مجرى الاستعارة التصريحية
في البيت الأول أتبعها بالترشيح في

البيت الثانى ونعنى به إعطاء المشبه
ماللمشبه به من صفات - وهو هنا

الكثافة ولثقل - والترشيح من محسنات
الاستعارة ، كما يعلم شاعرنا الكبير

صاحب الكتاب القيم في « التشبيه »
- وما أكثر مؤلفاته القيمة - وليس الترشيح

مقصورا على الليت ذى البلد الذى لم
تقلّم المفاره . على أن الجديد في هذا المعنى

هو مسألة الالتجاء إلى المدافع عند عجز

الرجال عن حمل هذه الأثقال ، ويمكن
أن يعد هذا من قبيل حسن التعليل ،

أما وصف المرثى بالعظم والضخامة ،
وإنزال صفاته المعنوية منازل المواد الحسية

فقديم مألوف كما سبقت الإشارة إليه
في بيت المتنبي ، ويمكن أن يعد منه قول

الشاعر في رثاء معن :
فياقبر معن كيف وارىت جوده

وقد كان منه البر والبحر مترعا ؟
بلى قد وسعت الجود والجود ميت

ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
كما يمكن أن يعد منه قول أبى الحسن

الأنبارى في رثاء أبى طاهر بن بقية :
ولما ضاق بطن الأرض عن أن

يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا

عن الأكفان توب السافيات
فالمعالي صفات معنوية لا تشغل حيزا

من الفراغ ، فضلا عن أن يضيق بها
بطن الأرض ، ولكن لما جعلها من الوفرة

والكثرة بحيث تشبه التلال أو الجبال
ونحوهما خلعت عليها صفات المشبه به ،

فضاق بها بطن الغبراء ، ولم يتسع لها
إلا فسيح الفضاء

٢- بين الشاعرين الكبيرين : شوقي
وعلى الجارم :

وكنا في مجلس يضم نخبة من الأدباء
على رأسه المرحوم الجارم بك ، وجعلنا
نتنقل في رياض الأدب من فنن إلى فنن ،
حتى عرض بعضنا لمطلع قصيدة شوقي
في الأزهر :

قم في فم الدنيا وحي الأزهر
وانثر على سمع الزمان الجوهرا

وحينئذ انبرى المرحوم الجارم بك
قائلا : ألا تستقبحون هذه الصورة ؟
قلنا : أية صورة ؟ قال : صورة الدنيا
في شكل إنسان أو حيوان فاغر فاه ،
وشوقي بين فكيها ، قدمه على الفك
الأسفل ، ورأسه تحت أنياب الفك
الأعلى ، وهو في الوقت نفسه يصيح
بتحية الأزهر الشريف . قلت له :
كأنك تفترض أن شوقي مجرد من نفسه
شخصا يخاطبه ، قال : ومن يخاطب
إذن ؟ قلت : إن الشاعر حر في اختيار
من يفترض خطابه ، فهو تارة يخاطب
ذاته ، كما في قول الشاعر :

أتصحو أم فؤادك غير صاح
عشية هم صبحك بالرواح ؟

وتارة يخاطب اثنين ، كما في قول
الشاعر مثلا :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا
فما لكما في اللوم خير ولا ليا
وتارة يخاطب امرأة - زوجة كانت
أو غير زوجة - كما في قول الشاعر .
ذريتي للغنى أسعى فإني
وجدت الناس شرهم الفقير

وتارة يخاطب نفسه ، كما في قول
الشاعر :

أقول لها وقد طارت شعاعا
من الأبطال : ويحك لن تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم
على الأجل الذي لك لن تطاعى
وتارة يخاطب عينه ، كما في قول الشاعر :
كفكفى الدمع عند هول المصاب
أو ففيض دما على الأحباب
أما شوقي فهو هنا لا يخاطب نفسه ،
حتى تتمثل تلك الصورة المستهجنة ،
وإنما يخاطب شعره طالبا إليه أن يخرج من
فم الدنيا ، حتى يسمع أبنائها جميعا
تحيته للأزهر . وأشهد أن الجارم بك
تلقى هذا التخريج بالقبول الحسن ، وكان
رحمه الله ممن ينصاعون للحق إذا
اتضحت معاله .

٣- بين الشعارين الكبيرين عباس
العقاد وعلى الجارم :

وكنا في ندوة المرحوم العقاد ذات
يوم ، وإذا بجرس المسرة يدق ، وكان
المتكلم إحدى المغنيات تطلب إليه
أن ينتقى لها من بعض دواوينه قطعة
تلحنها وتؤديها ، وأشهد أنه جعل يتصفح
ويقلب ، حتى تفصد جبينه عرقا ،
ثم أرجأ البحث إلى وقت آخر ، فقلت له :
أليس في هذا المحصول الضخم من شعرك
قصيدة تحاكي قصيدة الجارم :

مالى فتنت بلحظك الفتاك

وسلوت كل مليحة إلالك ؟

فقال ساخراً : وهل يعجبك هذا
المطلع ؟ قلت : ولم لا ؟ قال : ماوجه
التعجب هنا ؟ إن اللحظ إذا كان فتانا
فقط لم يكن ثمة وجه للتعجب من الافتنان
به ، فالشيء من معدنه لا يستغرب ،
فما باللك إذا لم يكن هذا اللحظ فتانا
فقط ، بل كان فتاكاً ؟ إن الافتنان به
حينئذ يكون أقرب ، وبالتالي يكون
التعجب منه أوغل في البعد . وكاد
العقاد ببلاغته وتدقيقه في عرض قضاياه
المنطقية يلبس بيت الجارم التهمة ،

ولكننى بعد أن استعدت إدراكى مالبثت
أن قلت له : إن للتعجب هنا وجهها ،
بل وجهها ويدين ولساناً وشفيتين ،
قال : كيف ؟ قلت : مقتضى كون
اللحظ فتاكاً أن يبتعد الإنسان عنه
خوفاً على حياته ، لا أن يحوم حوله
كما تحوم الفراشة على النيران ، فإذا
افتتن الإنسان باللحظ الفتاك كان
افتتانه مدعاة للعجب كل العجب ،
أترى الإنسان يفتتن بناب الأفعى ،
أو بمخالب السبع ، أو بجراثيم التيفوس
والتيفود ؟

على أن المرحوم العقاد لم يكن ممن
يسلمون بسهولة ، فظل يتكلم ، ويتكلم ،
ولكن دفاعى عن بيت الجارم ظل قائماً
لم يجد ماينال منه .
٤- بين الشعارين الكبيرين شوقي
والعقاد :

وأذكر أننا كنا أيضاً في ندوة المرحوم
العقاد ، وكنت إذ ذاك طالبا ، وكان
تمثال نهضة مصر في ذلك الوقت حديث
العامة والخاصة ، وطلعت علينا جريدة
الأهرام بلامية شوقي في ذلك التمثال ،
تلك اللامية التي يقول فيها متحدثنا عن
التمثال مختار :

تعالوا نرى كيف سوى الصفاة

فتاة تلملم أذيالها

ثم يستطرد في قصيدته إلى ذكر
محمد على وكيفية استيلائه على مصر ،
فيقول :

وليس اللآئى ملك البحار

ولكنها ملك من نالها

فلما بلغ العقاد ذلك البيت وجدته
ينتفض كمن لدغته عقرب ، ويضرب
كفا بكف ، وهو يصيح قائلاً : لقد
سجل تنوق بهذا البيت الاحتلال البريطاني
على مصر .

والحق أن النقد في الصميم ، فلم
يسع إلا التسليم ، ولم ينبس أحدا
ببنت شفة .

٥- بين العقاد وتناعر ناشئ :

وكان المرحوم العقاد دائم الزايرة
بما يطلق عليه أصحابه اسم «الشعر الحر»
وأذكر أن أحد الدعاة لهذا النوع من
الكلام - ولا أقول الشعر - تناول
الأستاذ العقاد على صفحات الجرائد
بأبيات هجاء ، ورد فيها هذا المصراع :

«تعيش في عصرنا ضيفا ونشتمنا ؟»
قلما قرأه المرحوم العقاد قال : أينما
الضيف ، وأينما صاحب الدار ؟ إننى
جئت إلى الدنيا قبله بعشرات السنين ،
فمن منا الأصيل ، ومن الطارئ الدخيل ؟
وليس من شك في أن هذه وجهة نظر
لايسع المنصف إلا التسليم بها ، وإن كان
صاحبنا ينظر من وجهة أخرى : إنه
يعتبر أن المستقبل له ، وأن العقاد
وأمثاله ممن بلغوا سن الهرم والشيخوخة
هامة اليوم أو غد ؛ فهم أشبه بالضيوف
الذين لا يطول مكثهم ، بل هم على وشك
الرحيل ، وإن كان في هذا التخريج
مافيه من إساءة أدب ، ويذكرنى هذا
بقصة ذلك الشاب الغرير الذى رأى
شيخا مخنى القامة ، فقال له متندراً :
بكم اشتريت هذه القوس ؟ ، فأجابه
الشيخ : إن عشت يابنى أخذت مثلها
بلاثمن .

٦- بين وبين عمدة أديب :

وعلى ذكر أستاذنا المرحوم العقاد
أذكر أنى رثيته بقصيدة عينية نشرت
بمجلة الرسالة ، وكان مطلعها :

جزع الشرق وأجرى أدمعه

سألوه أى خطب روعة

بل قد يمتطوى التشبيه على ما يستحيل
تصوره ، كقول أبي الحسن التهامي :
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في المساء جذوة نار
كذلك قد يكون المشبه به صورة
لا وجود لها إلا في الخيال كقول الشاعر :
وكان محمراً الشقيـ
ق إذا تصوّب أو تصعد
أعلام يا قوت نُشر
ن على رماح من زبرجد

ولعل تصور الضفادع تنق على ساحل
البحر المالح أقرب من تحقق صورة رماح
زبرجدية ترف عليها أعلام يا قوتية .

(ب) النقطة الثانية أن معاجم اللغة
تفسر الخضم بالبحر الواسع ،
وتفسر البحر بالماء الكثير ملحا كان أو
عذبا . ويبدو أن تخصيص
البحر بالماء المالح ، وتخصيص
النهر بالماء العذب اصطلاح جغرافي
لا أكثر ، وما لنا نذهب بعيدا ،
وقد ورد في التنزيل الحكيم مانصه
« وهو الذي مرج البحرين هذا
عذب فرات وهذا ملح أجاج » ؟
قد يقول قائل : إن البحرين هنا

لا تلووه على فرط الأسى
فيلسوف الشرق خلى موضعه
كفنوا العقاد في أسفاره
وادفنوا المرقم والطرس معه
واسترسلت في بناء القصيدة ، حتى
وصلت إلى خصوم العقاد من الأقزام
الذين كانوا ينالون منه ليرتقوا على
حسابه ، فقلت :
نخلة دبّت عليها نخلة
ونخضم فيه نقت ضفدعة

فأرسل إلى عمدة أدب تعود أن
يحاورني في مسائل الأدب وقضاياها قائلا :
إن الضفادع لاتعيش ، ولاتنق في الماء
المالح . وهو اعتراض - كما ترى - له
وجاهته ، جدير بالرد . والحق أني لم أكن
أعرف هذه الظاهرة . على أنني بعد التأمل
وجدت هذا الاعتراض لاينال من بناء
التشبيه ، ولا يغض من قيمة البيت ،
وكان ردى عليه يتبلور في نقطتين .

(أ) النقطة الأولى أن المشبه به لا يشترط
فيه أن يكون ممكن الحدوث ،
فنحن نشبه بالغول وبالعنقاء ،
والأول حيوان تخيلته العرب ،
والثاني طائر لا وجود له أيضا .

من باب التخليب ، كما في قولهم : العُمَرَيْنِ لأبي بكر وعمر ، والمشرَقيْن للمشرق والمغرب ، ولكن ما الداعي إلى هذا التخريج ما دامت اللغة لا تفرضه ، ولا تأبى المعنى الأصلي ؟

(٧) بينى وبين أستاذ جامعى :

ونعنى به الدكتور أحمد كمال زكى الكاتب المعروف ، وهو مولع بنقد الشعر ، كثير التجنى على الشعراء ، وأكثرهم مظاهر هذا التجنى إنما ينجم عن تطبيق المقاييس العلمية على الصور الشعرية . وعلى سبيل المثال أذكر ملخص نقده للبيتين الآتيين من قصيدة لى فى جمال الربيع .

قالوا الربيع فقلت العدل شيمته
لا فى النهار ولا فى الليل طغيانُ
تعاذل الليل فيه والنهار معا
كأنما هو للأيام ميسزانُ

يقول سيادته : إن الفكرة فى البيتين غير صحيحة لسبب علمى هو أن الربيع لا يعتدل فيه الليل والنهار إلا فى أول يوم من أيامه ، وسبب ذلك ميل الأرض على مستوى فلكها بمقدار ٢٣.٥ درجة تقريبا ، وهذا الميل يجعل أشعة الشمس عمودية على خط الاستواء . . إلى آخر ما ذكره مما هو إلى المحاضرات العلمية أقرب منه إلى نقد الأبيات الشعرية .

ولم يسعنى إلا التسليم بالحقيقة العلمية التى ذكرها ، ثم أردفت هذا التسليم بأننا حين نتكلم عن الربيع نعنى مقدمه ، فهو الذى يشيع البهجة ، ويهز الشاعر ، وفى مقدمة هذا الفصل يتعاذل الليل والنهار ثم يكونان أقرب إلى التعادل ، وهذا يكفى لتحقيق سلامة البيتين من الوجهة الشعرية . وينبغى أن يدخل فى الحسبان أن نظرة الشاعر إلى الربيع غير نظرة العالم الفلكى إليه ، بل ينبغى أن يفرق الناقد بين نظرة العالم - بصفة عامة - إلى الشيء ونظرة الشاعر إليه ، فإذا شاء مزيدا من التفصيل فى هذه المسألة الهامة قلنا له ما يلى :

(أ) إن الشعر يتغنى مثلا بجمال الربيع ، ولكن العالم الفلكى قد يجرده من كل جمال ، ويعتبره أقصى فصول العام بالنسبة للأصقاع الواقعة فى منطقة خط الاستواء ، حيث تتعامد الشمس على تلك البقاع عند حلول الربيع ، فتصلبها حرا يذيب دماغ الضرب ، فهل من أجل ذلك ينبغى علينا أن نستنهجن كل ما قيل من الشعر العربى والشعر الغربى فى التغنى بجمال الربيع ؟

(ب) إن الشعر يتغنى بجمال الزهر في الربيع نفسه ، ولكن علم التاريخ الطبيعي يحذرك من الزهر كما يحذرك من الأفاعى والصلال ؛ فهو في أثناء الليل يمتص الأكسوجين من الهواء ، وينفث ثاني أكسيد الكربون الذي يفسده ، ومن هنا كان النوم في الحقائق مظنة الاختناق ، وإلى ذلك يشير شوقي في قصيدة نهج البردة بقوله محدثا نفسه عن الدنيا :

لا تحفلى بجناها أو جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

(ج) إن الشعر يتغنى بقبلة من خد الحبيب ، أو رشفة من فيه ، ولكن الطب يحذرك من الأولى لأنها تنقل العدوى ، ويحذرك من الثانية لأن رضاب الحبيب تفرزه غدد خاصة ، لا ليمتص رحيقه ، بل ليسهل عملية ازدراد الطعام ، ويحيل ما فيه من نشويات إلى مواد سكرية . ثم هو لا يفرق بين رضاب الكاعب الحسناء ، ولعاب الحيزبون الشوهاء ، على حين يجد الشاعر الأول سلافا ، والثاني سمازعا .

(د) يتغنى الشعر مثلا بجمال الماس وأشعة القمر على حين أن العلم لا يرى في الأول أكثر من حجر يتكوّن في باطن الأرض بنفس الطريقة التي يتكون بها الفحم ، ولا يرى في الثاني - ولا سيما بعد الوصول إليه - أكثر من جسم معتم يتكون من صحارى شوهاء جرداء لا تنبض بالحياة .

(هـ) يتسع الشعر مثلا لقول الشاعر :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قومٌ لقليل أقعدوا يا آل عبّاس

على حين يقول لك العالم الفلكي : إن بيننا وبين الشمس ٩٣ مليون ميل ، فكيف يتسنى الصعود ؟ ولو تسنى الصعود فكيف يتسنى القعود ؟ إن الشمس كتلة غازية ملتهبة ، يتحول الصاعد إليها قبل أن يصلها إلى كتلة من الفحم ؛ فالشعر يرى هذا البيت من قبيل الإغراق في المديح ، والعلم يرى فيه إلقاء الممدوح بين أحضان الجحيم

وفي هذا القدر كفاية ، فلنجتزئ به والله أعلم بالصواب ، وهو ولي التوفيق
محمود غنيم

معاجمنا اللغوية

بين الإحياء والتجديد

للاستاذ حسن كامل الصيرفي

مشدوهاً لا يستطيع أن يبحث فيها عن شيء ، وكأنه أمام الغاز معقدة .

ذلك كان عهداً عرف للغة الفصحى التي ننتسب إليها قدرها ، ولم يضمن بمال أو جهد في سبيل نشر المعاجم التي وضعها علماء اللغة ، وتوزيعها على طالبي العلم على أوسع مدى .

وكانت لاتخلو مكتبة من مكتبات الدور الحكومية من نسخة من أكبر المعاجم الموضوعة في العربية وهو « لسان العرب » بأجزائه العشرين . ومازلت أذكر أني حين التحقت بوظيفة في وزارة الزراعة وجدت في مكتبة تلك الوزارة نسخة من « لسان العرب » ، ونسخة من « المخصص » ، ثم وجدت

أذكر بالتقدير والثناء تلك اليد الكريمة التي



كانت تقدمها إلينا الوزارة المشرفة على التعليم ونحن في المراحل الأولى من دراساتنا حين كانت توزع علينا في مدارسنا المعجم الصغير « مختار الصحاح » ثم من بعده « المصباح المنير » ، ثم « القاموس المحيط » . لتتعرف منذ نعومة أظفارنا على أصول هذه اللغة التي نتلقى بها دراساتنا في كل فروع المعرفة ، ونمارس البحث في هذه المعاجم على ما نريد . على حين أذكر الآن بالأسى والرثاء عدول تلك الوزارة منذ سنوات عن تقديم مثل هذه المعاجم ، فلا يعرف أبناؤنا شيئاً عنها ، ولاتقع أبصارهم عليها ؛ حتى إذا قُدر لواحد منهم أن يطلع على معجم منها وقف حائراً

على أن هذا التنكّر لمعاجمنا اللغوية ،
صغيرها وكبيرها ، لم يثن عزم القائمين
بالذود عن لغتنا الخالدة - لغة كتابنا
الخالد - عن المضي في هذا السبيل على
الرغم من كل مشقة . فنهض فريق
بتحقيق بعضها وإحيائه ، ونهض فريق
آخر بتجديده وإنشائه . وجمع بين هذين
العملين الجليلين : مجمع اللغة العربية
في القاهرة .

فقد حرص هذا المجمع منذ إنشائه على
وضع معجمين : وسيط وكبير إلى جانب
عمله في وضع مصطلحات حديثة في كل
باب من أبواب المعرفة . وأخرج منذ
سنوات « المعجم الوسيط » ليسد به
ثلمة كبيرة لأن المعاجم الحديثة التي
سبقته لم تستطع أن تتخلص من قيود
الماضي ، فهو كما يقول الأستاذ الدكتور
إبراهيم مدكور : « أوضح ، وأدق ،
وأضبط ، وأحكم منهجاً ، وأحدث
طريقة » وهو فوق هذا مجدد ومُعاصِر ،
يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب
ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويهدم
الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت
خطأً بين عصور اللغة المختلفة . ويثبت

هذين الكتابين في مكتبتى مجلس الشيوخ
ومجلس النواب عندما انتقلت إلى البرلمان.
بل حدثنى صديق أبيب كبير تشغل
منصباً في مصلحة البريد فقال إنه عجب
حين وجد في تلك المصلحة نسخة من
لسان العرب .

ثم مضى الزمن ، وانصرفت مدارسنا
ومعاهدنا عن توزيع المعاجم اللغوية على
تلامذتها وطلابها فانقطع طبع هذه المعاجم
الصغيرة ونادر وجودها ، وارتفع ثمن لسان
العرب ارتفاعاً فاحشاً تعذر معه على الكثرة
الساحقة من الأدباء أن يقتنوه . وكما
انصرفت المدارس والمعاهد عن تزويد
أبنائها بهذه المعاجم فقد انصرفت أيضاً
دور الحكومة عن تزويد مكاتبها بواحد
منها .

وإني لأذكر أنى زرت منذ أعوام مكتبة
إحدى المدارس فلم أجدها إلا نسخة واحدة
من « المنجد » محفوظة في حُرْز مكين لم
تَمَسَّسْهَا منذ أَقْتُنِيَتْ يدُ بخيرٍ أو شرٍ ،
لا من دارسٍ . ولا من مدرّس !

لتلحق بهما أجزاء الأربعة الباقية في تحقيق دقيق وإخراج أنيق .

وقد علمنا أن في نية المجمع نشر معجم « الصحاح » للجوهري على النهج الذي أخرج به تكملته . وهو عمل جليل ، ويد كريمة يسديها أساتذتنا الأجلاء أعضاء المجمع الموقر تشكرها لهم الأجيال المتعاقبة .

* * *

وأمام هذا التفكير العلمي الجليل ، نرجو ملحقين - مادام لم تقف ظهور طبعات سابقة لبعض المعاجم حائلاً بين نهوض المجمع بإعادة نشرها - أن يولي هذا المجمع معجم « تهذيب اللغة » للأزهري عناية ورعاية ، فيعيد نشره من جديد ، وأن يقصر أمر تحقيقه على عدد قليل من العلماء الذين تفرسوا بالتحقيق والتدقيق في التراث العربي ، وعرفوا بالتقليب والتنقيب في معاجم اللغة ، وقضوا زهرة شبابه وما زالوا على الرغم من أكاليل الشيب التي تتوج رؤوسهم مكبّين على أمهات الكتب في اللغة والأدب ، فتعهد إليهم بتحقيق « التهذيب » من جديد ، فهو أحد مصادر « لسان العرب » .

أن في العربية وحدة تضم أطرافها ، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها وتصوغه في قالبها ؛ فيه ألفاظ حديثة ، ومصطلحات علمية لم يرص المجمع الفرنسي أن يدخلها في معجمه إلا بعد مضي مائة سنة تقريباً من نشره ، وفي الطبعة الرابعة ؛ . ويقول إنه « رسم منهجاً جديداً في فنّ المعاجم العربي » .

ثم أخرج المجمع منذ عام الجزء الأول من « المعجم الكبير » الذي وقع في ٧٠٠ صفحة وكُسر على حرف الهمزة . وهو بحق كما ذكر السيد الدكتور الأمين العام للمجمع : « لونٌ جديد في عالم المعجمات العربية ، فيه تأصيل وتحقيق ، وجمع واستيعاب ، ورجوع إلى المصادر الأولى ، وتعويل ما أمكن على النصوص الثابتة » .

* * *

ثم ولى المجمع وجهة شطر التراث العربي في هذا الباب ، فكوّن لجنة لنشر معجم الصغاني « التكملة والذيل والصلة » لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية الذي استدرك فيه ما فات الجوهري في « الصحاح » وخرج إلى الوجود من هذا المعجم جزءان

ما نقوم بتحقيقه من دواوين الشعر الجاهلي
أن في الطبعة التي بين أيدينا نقصاً تكرر
في كثير من المواضع ، بل تبين لنا سقوط
مَوَادِّ بأكملها ، وتحريف في بعض العبارات ،
وزاد الطين بلة سوء الطباعة وعدم الدقة
في التصحيح .

ونحن نعلم أن ابن منظور كان شديد
التوقّي فيما ينقل عن المصادر التي بين
يديه فهو حين ينقل عن الجوهري في
الصحاح ينقل كلام الجوهري بنصّه ،
وكذلك يفعل حين ينقل عن الأزهري
في التهذيب ، وأ ينقل عن ابن الأثير
في النهاية ، ويصنع هذا الصنيع في كل
ما يعتمد عليه من المصادر ؛ ناسياً كل
نصّ إلى صاحبه في أمانة . والدليل على
أمانته وصدقه ودقته أنه في مادة « شقف »
قال : « أهمله التهذيب » ، وهذا
صحيح .

ومن الأمثلة التي نذكرها على سبيل
المثال لا الحصر لتكون حجة تؤيد
رجاءنا :

وأن يوكل إلى هذا العدد القليل من العلماء
الذين سيقومون بالتحقيق أمر المشاركة
في مراجعة ما يتم تحقيقه ليكون بين
الأجزاء جميعها ترابط وألفة ، فتضبط
الأعلام التي تتكرر ضبطاً واحداً ، فلقد
وجدنا في أحد الأجزاء اسم « ابن شميل »
مضبوطاً « ابن شميل » ولا نعلم أن في
هذا الاسم قولين على حد هذا التعبير ،
وليتنسب الشواهد إلى أصحابها فلانجدها
كما هي في الطبعة الحالية منسوبة في جزء ،
وغير منسوبة في آخر ، أو مروية على وجه في
موضع ، وعلى رواية أخرى في موضع .

ثم يوضع المجمع إلى جانب هؤلاء العلماء
طائفة أخرى تقوم بتخريج ما نقل عن
الأزهري في المعجم أو كتب اللغة وأدب
وال تفسير والحديث لتكون إلى جانب
مخطوطات هذا المعجم سنداً يرجع إليه
في مقابلة النص .

وليس هذا الرجاء طعناً في كل ماخرج
من أجزاء هذا المعجم ، ولكن الحقيقة
التي يللمسها كل من يطلع عليه هي أن تحقيق
بعض الأجزاء لم يرتفع إلى مستوى بعض
أجزائه الأخرى التي حققت بدقّة . وقد
ظهر لنا خلال الرجوع إليه في بعض

● وجدنا ونسحن نحقق « ديوان المتلمس
الضبيعي » ابن منظور وهو يروى في اللسان
(٤ : ١٠٤ « جمد ») بيت المتلمس :

جَمَادٍ لَهَا جَمَادٍ ! وَلَا تَقُولَنَّ
لَهَا أَبَدًا إِذَا ذُكِرَتْ : حَمَادٍ

يقول : « وفي نسخة من التهذيب :

حَمَادٍ لَهَا حَمَادٍ : وَلَا تَقُولِي
طَوَالَ الدَّهْرِ مَا ذُكِرَتْ : جَمَادٍ

وفسر فقال : أَحْمَدُهَا وَلَا تَذْهَبْهَا .

فهذا النص لم يرد في طبعة التهذيب
في مادة « جمد » أو في مادة « حمد » .

● وخلال تحقيقنا لـديوان الحارث بن
حِلْزَة حيث يقول في إحدى قصائده :

وَتَنَى لَهُ تَحْتَ الْغُبَارِ يَجْرُهُ
جَرَّ الْمُفَاشِغِ هَمَّ بِالْإِرْآمِ

وجدنا ابن منظور يروى في اللسان
(١٠ - ٣٣١ « فشغ ») نصين عن
الأزهري :

الأول : « وروى ابن برى عن
الأزهري أن الفُشَاغَ يثقل ويخفف » .
الثاني : « المفاشغة : أن يُجَرَّ وَلَدُ
الذاقة من تحتها فيُنَحَرَ وتُعْطَفَ على ولد

آخر يُجَرُّ إليها فيُلْقَى تحتها فترأّمه .
يقال : فاشغ بينهما . وقد فُوشِغَ بها .
وقال ابن حِلْزَة :

بَطَلٌ يُجَرُّهُ وَلَا يَرْتِي لَهُ
جَرَّ الْمُفَاشِغِ هَمَّ بِالْإِرْآمِ

وقد نقل الفيروزابادي في القاموس
المحيط نص عبارة الأزهري ، ونقلها
الزبيدي مع بيت الحارث في التاج
برواية « بطلا » على النصب نقلاً عن
الأزهري . فرجعنا إلى التهذيب فلم نجد
فيه مادة « فشغ » ، فأردنا أن نقطع
الشك باليقين فانتقلنا إلى مادة « شغف »
لعلنا نجد هذه المادة فلم نجدها أيضاً ،
على حين وجدنا ابن منظور قد نقل في
اللسان (١١ : ٨٠ « شغف ») نصين
كذلك من التهذيب ، ولكنهما ضاعا منه
بضياع المادة من النسخة المطبوعة

الأول : « الشُّغَاف : مَوْلِجُ البلغم .
ويقال بل هو غشاء القلب » .

الثاني : « وروى الأزهري عن الحسن
في قوله « قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » (الآية ٣٠ يوسف)
قال : الشُّغَفُ أَنْ يَكُوِيَ بطنها حُبُّهُ .
هذه أمثلة من سقوط مواد بأكملها .

أما الأمثلة على النقص فهي :

● قال ابن منظور في اللسان (٥ : ١٠٦)
« بحر » (في السطور ٦ - ٩ : « وحكى
الأزهرى عن ابن عرفة : البحيرة :
الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، والخامس
ذكر نحره فأكله الرجال والنساء ،
وإن كان الخامس أنثى بحروا أذننها أى
شقوها فكانت حراماً على النساء لحمها
ولبنها وركوبها ، فإذا ماتت حلت
للنساء » .

وقد سقط ذلك من الجزء الخامس
صفحة ٣٨ من التهذيب .

● وذكر ابن منظور في اللسان (١٠ :
١٣٢ « بصر ») عند الكلام على الآية
الكريمة « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ .
وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » (١٥ : القيامة) :
« قال الأزهرى : يقول بل الإنسان
يوم القيامة على نفسه جوارحه بصيرة بما
جنى عليها وهو قوله « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
أَلْسِنَتُهُمْ » (٢٤ : النور) . قال : ومعنى
قوله « بَصِيرَةٌ » عليه بما جنى عليها « وَلَوْ أَلْقَى
مَعَاذِيرَهُ » أى ولو أدلى بكل حجة . وقيل :
ولو ألقى معاذيره : سُتُورِهِ وَالْمِعْدَارُ :
السُّتُر » .

وهذه العبارة ساقطة من آخر النهر
الثانى فى الصفحة ١٧٤ من التهذيب .
وقد جاء بعد الآية فى التهذيب كلام
الفراء ، وكان ابن منظور قد نقل أيضاً
كلام الفراء وذلك بعد العبارة التى أدخلت
بها طبعة التهذيب ، وهذه العبارة رواها
أيضاً عن الأزهرى أبو عبيد الهروى أحمد
ابن محمد فى كتاب « الغريبين » (١ :
١٧٣) .

وأما أمثلة التحريف فعديدة لانستطيع
حصرها . ولكن ظهر لنا كما قلنا ونحن
نحقق ديوان الحارث بن حلزة أن ابن
منظور نقل فى اللسان (٧ : ٢٠٤ « حلز »)
كلاماً للأزهرى فى الصحاح ، وكلاماً
للأزهرى فى التهذيب فوجدناه ينقل
كلامهما ، ولكنه فى عبارة التهذيب حين
عقب الأزهرى على قول لقطرب وأنه ليس
من الثقات ، وهو « وله فى اشتقاق الأسماء
حروف منكرة » جاءت هذه الكلمة
فى التهذيب المطبوع « حروف مفردة »
ونص اللسان هو الأصح .
ونرجو أن توضع له فهرس متعددة
وافية حين يعاد طبعه .

* * *

ولنا لنأمل أن تهيب الأيام للمعجم العربي الضخم « لسان العرب » نشرة محققة مصححة منسوبة الشواهد ، مختومة بفهارس تكشف عما في هذا المعجم من معارف وتيسر للباحثين الطريق إليها ، وتكشف لنا عن شعراء زخر بهم هذا الكتاب لم يرد لهم ذكر في غيره .

وكان المرحوم العلامة أحمد تيمور قد عني بتصحيح بعض أخطاء وقع بصره عليها في هذا المعجم ، ثم عني أخيراً الأستاذ عبدالسلام محمد هارون بتعقيب أجزائه واحداً بعد آخر فنشر سلسلة من التصويرات لعلها تجمع في كتاب ليكون في متناول المتفاعلين بهذا المعجم ، وليكون عوناً للمحققين إذا هيات الظروف لهذا المعجم أن يأخذ حظه من النشر العلمي الجدير به .

ونحب أن نشير هنا إلى أن طبعة حديثة من اللسان ظهرت أخيراً في بيروت في ثلاثة أجزاء قام بإعدادها وتصنيفها الأستاذان يوسف خياط ونديم مرعشلي ؛ أعاداً فيها ترتيب مواده على أوائل الحروف لا على أواخرها ، وألحقا به معجماً ضم كل ما أقرته المجامع اللغوية

في القاهرة ودمشق وبغداد من مصطلحات . وقد قال عنه العالم الجليل الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق أن المصنفين لهذا المعجم « بلغ توخيها الكمال في إخراجها للناس حداً يثير الإعجاب الشديد بجلدهما ، والتقدير الخالص لتضحيتهما ، ويدل على ما بلغه فن إخراج المعاجم من إتقان وجمال » .

* * *

وقد نشط أخيراً معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية فدفع بالأجزاء الباقية من معجم « المحكم والمحيط الأعظم في اللغة » لابن سيده إلى المطبعة بعد أن توقف نشره منذ سنوات عند الجزء الثالث ، فخرج للناس الجزء الرابع ، وأوشك أن يطلع عليهم الجزء الخامس ، لتلحق بهما بقية أجزائه .

* * *

وكانت حكومة دولة الكويت قد نهضت في السنوات الأخيرة بعزيمة كبيرة في نشر معجم الزبيدي « تاج العروس » وعهدت إلى طائفة من الأساتذة المحققين القيام بتحقيق أجزائه ، ونشرت على

بقي معجمان جديران بإعادة نشرهما
بتحقيق وافٍ : هما « الجمهرة في
اللغة » لابن دريد ، و « المعيار »
للشيرازي . ولعل مجامعنا اللغوية
الموقرة تنقسم العمل على إظهارهما مع
غيرهما من المعاجم التي لم يقدر لها حتى
الآن أن تخدم خدمة علمية صحيحة .

* * *

ولنا رجاء أخير يتصل بالمعجم الكبير
الذي يخرج مجمع القاهرة الموقر هو أن
يضم الألفاظ التي وردت في الشعر
العربي ولم ترد في المعاجم القديمة . وإلى
لأذكر على سبيل المثال بعض ألفاظ
عرضت لي في شعر المثلث عند تحقيق
ديوانه مثل : « جيش طُوس » ،
« مَلَزَق » بمعنى ملجأ ، « ترامقه » بمعنى
تغلغه .

وفي شعر المثقب العبدى : « قُشارى »
جمع قِشر ، « المُعين » بمعنى الأجير ،
« لُطَم » .

وكان الأستاذان أحمد محمد شاكر
وعبد السلام محمد هارون قد أشارا في

الناس ثمانية أجزاء منه ، ونأمل أن
تتقدم خطوات النشر ليكون هذا المعجم
بين أيدي الناس في وقت قريب . وهو
جهد تشكر عليه هذه الدولة العربية
الناهضة ، وعمل من أعمال وزارة الإعلام
هناك يسجل لها بالشكر والتقدير .

* * *

وثمة معجم آخر كان المجمع العلمى
في العراق قد عاون على إخراجه فصدر
منه الجزء الأول ؛ ذلك هو كتاب
« العين » للخليل بن أحمد بتحقيق
الدكتور عبد الله درويش . وما زلنا
نترقب ظهور بقية الأجزاء .

* * *

وفي القاهرة أعيد نشر معجم « مقاييس
اللغة » لابن فارس الذى حققه الأستاذ
عبد السلام هارون في طبعة جديدة بعد
أن نفدت طبعته الأولى .

ولعل الأستاذ محمد محي الدين
عبد الحميد يكمل نشر معجم ابن فارس
« المجمل » الذى نشر منه جزءا منذ
سنوات .

* * *

« المفضليات » وفي « الأصمعيات » إلى طائفة من الألفاظ التي لم ترد في المعاجم .

ونرجو أيضاً أن يضمَّ « المعجم الكبير » المصطلحات الخاصة بعلوم البحار - كما أشرت في مقالتي الذي نشر في الجزء الرابع والعشرين من مجلة المجمع حيث ذكرت طائفة مما جاء في تآليف ابن ماجد . كذلك ماورد في مفاتيح العلوم للخوارزمي .

ومع تقديرنا للجهد الذي بُذل في إخراج « المعجم الكبير » فلن لنا رأياً في بعض مانشر فيه من خارطات كخريطة أمريكا التي شغلت الصفحة ٤٧٥ ، وخريطة انجلترا التي شغلت أيضاً الصفحة ٥٣٤ وغيرهما من خارطات لا محلَّ لها في هذا المعجم ، ومن الممكن أن تصغر رسومها ما أمكن لأننا لا نتصور أن أحداً سيرجع إليها في المعجم اللغوي وبين يديه العديد من المصورات الجغرافية قديمها وحديثها .

والذي أراه حرياً بأن يشغل بعض صفحات هذا المعجم هو خرائط يحدد

فيها بقدر الإمكان مواضع البلدان التي ذكرها جغرافيو العرب في مؤلفاتهم ، والتي تردد ذكرها في الشعر وفي كتب التاريخ والفتوح .

* * *

كما نرجو - وقد أخذ المجمع الآن في إعادة طبع « المعجم الوسيط » بعد أن نفذت طبعته الأولى - أن يكون قد أخذَ بالآراء التي أبديت من طائفة من مقدري هذا العمل الجليل ، كما تكون الطبعة الجديدة قد روعي فيها النظرات الصائبة والتعقيبات الموفقة التي نشرها في سلسلة من المقالات في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب .

* * *

أمّا المعاجم المتخصصة مثل المعاجم الزراعية والنباتية والطبية والفلكية والحيوانية التي نهض بها أفراد من علمائنا الأجلاء ، فإننا لنرجو إحياء هذه المعاجم ، والتوسع في هذه الأبواب .

حسن كامل الصيرفي

النشاط المعجمى العربى :

أصيل أم دخيل؟

لدكتور محمد سالم الجرح

فى اللغة العربية بجامعة الأزهر ، أو
بكاية دار العلوم ، أو بأقسام اللغة
العربية المتعددة ، فيتقدم للعمل به جمع
غفير ، لا تلبث إدارة المجمع حين
تختبرهم أن تكتشف جهلهم الفاضح
بكيفية استعمال أمّهات المعاجم العربية
فى الكشف عن ألفاظ لغتهم القومية ،
التي قضوا للتخصّص فى دراستها كل
حياتهم الجامعية ، ثم يزيد هذا الجهل
بشاعة عدم إلمام هؤلاء الخريجين بتاريخ
المعجم العربى نفسه ، وهو مجال هام
من مجالات التراث الفكرى والعلمى ،
تعزّز اللغة العربية بحصيلاتها الضخمة
فيه ، وثروتها الوفيرة منه .

والحق أن الذى يقارن الدارس
المتخصص للغة العربية من أبناء الوطن
العربى فى هذا الصدد ، بأشباه المعلمين

- ١- جامعاتنا والوعى المعجمى .
- ٢- دوافع التأليف المعجمى عند
العرب .
- ٣- ماهو المعجم ؟
- ٤- النشاط المعجمى عند الأمم
القديمة :
- (أ) عند المصريين والساميين .
- (ب) عند الصينيين .
- (ج) عند الهنود واليونانيين .
- ٥- مدى تأثير العرب بغيرهم فى
نشاطهم المعجمى .

(١)

كثيراً ما يعلن المجمع اللغوى عن حاجته
إلى محررين يعملون به ممن تخصصوا

وأنصافهم من أبناء اللغات الأوربية يعود بالكثير من الحسرة والألم ، لأن الناشئ من أبناء أى لغة أوربية ذات أدب وحضارة كاللغة الانجليزية مثلا ، يكون ذا وعى معجمى قوى ، لا يسمح له أن يكتفى في فهمه للجديد عليه من ألفاظ لغته بالاستنتاج المتسرع الذى قد يوحي به السياق - ولكنه معرض للخطأ - أو بالمعنى المشوش الذى قد تؤدي إليه مقارنة الكلمة بأشبهاتها في النطق أو الكتابة ، بل إنه لا يثق في حسه اللغوى في ضبط الكيفية التي تنطق بها هذه الكلمة الجديدة عليه . ولهذا كله يرجع إلى المعجم فيحصل منه على الوصف الدقيق لكيفية نطق الكلمة ، والتحديد الواضح لمعناها أو معانيها ، والبيان الوافي لاستعمالاتها ، ولدراسات كثيرة أخرى ذات طبيعة لغوية وأدبية وتاريخية واجتماعية تتصل بهذا اللفظ الجديد عليه . وهكذا تنمو الثروة اللفظية عند الناشئين من أبناء هذه اللغات نمواً سليماً ، خالياً من اللحن أو التحريف في اللفظ ، بريئاً من اللبس والغموض أو الاهتزاز والتشوش في المعنى ، مما يساعد اللغة

على القيام بدورها لأمتها خير قيام .

فاذا قارنا هذا الوضع بما يحدث للمتخصصين من أبناء العرب في اللغة العربية وآدابها - بله غيرهم من ذوى التخصصات الأخرى ، أو صغار الناشئة أو عامة الناس - فإن الحسرة تتعمق في نفوسنا ، لأن هؤلاء يتمون تعليمهم الجامعى دون أن يتعودوا استعمال معجم ، أو يألّفوا الرجوع إلى قاموس ، مع أن دواعى ذلك بالنسبة للغة العربية ، أشد منها وأقوى بالنسبة للغة كاللغة الانجليزية ، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة ، منها :

(أ) أن التفاوت بين لغتي التخاطب والأدب أوسع في العربية منه في الانجليزية .

(ب) أن لأدب اللغة العربية من القداسة التي يضيفها القرآن الكريم ما لا يوجد نظيره في الانجليزية .

(ج) أن حرص الناطقين بالعربية على وحدتهم الثقافية وتجاذبهم الفكرى يفوق - أو ينبغى أن يفوق - حرص الناطقين بالانجليزية على ذلك .

لهذا كله تتحتم علينا العناية بالجانب المعجمي من تراثنا اللغوي ، وفاءً لهذا التراث المجيد من ناحية ، وتنمية للوعي المعجمي عند أبناء العربية ومتعلميها من الناحية الأخرى ، فليس هناك شك في أنه كلما استحكم ربط الاستعمال اللغوي بالمعجم ، كانت اللغة أقل تعرضاً للتفتت اللهجي ، والتحريف اللفظي والتفاوت أو الغموض المعنوي ، وبذلك تظل اللغة أكثر ارتباطاً بتراثها الأدبي ، وأقدر على التمسك بوحدها ، ووحدة الناطقين بها ، وعلى الحرص على المستوى المشترك بين مستعمليها . إن ربط اللغة بنشاط معجمي موفق ، وتعميم الوعي المعجمي عند الناطقين بها ، لا يحرم اللغة في أي مستوى من مستوياتها من التطور الطبيعي ، الهادئ ، المرغوب ، وإنما يعصمها من الفساد السريع ، والتحلل الطفري ، الذي لو تم لجعل من المتعذر على الأجيال اللاحقة الاستفادة من النتاج الأدبي والفكري للأجيال السابقة ، بل إنه ربما جعل من المتعذر على مستعملي اللغة في بقعة جغرافية أن يفهموا فهمها

وعلى الرغم من ذلك كله فإنه يبدو أن شبابنا المثقف يعاني كسلاً ذهنياً عجباً ، بحيث يرضى بالفهم الناقص للنص الأدبي الذي يحتوي مفردات لغوية جديدة عليه ، أو يقنع بما يوحيه السياق من معنى مهتز أو مخطئ لهذه الألفاظ أو - وهذه هي الطامة الكبرى - يردد الألفاظ ترديداً ببغاوياً دون الإحساس بالحاجة إلى فهم ماتعنيه هذه الألفاظ ، بل لعلهم لا يحسنون ترديد هذه الألفاظ فيخطئون حتى في مجرد نطقها وهم لا يشعرون أنهم مخطئون .

وسبب ذلك في رأيي ، هو أن وعينا المعجمي - إن كان عند شبابنا المثقف وعي معجمي على الإطلاق - أدنى بكثير من المستوى الذي ينبغي أن يكون عليه الوعي المعجمي لأبناء أمة كالأمة العربية ، تتمتع لغتها بتاريخ أدبي طويل ، وتدخر كنوزاً ثقافية ثمينة ، وتتطلع إلى مستقبل مستنير كريم . وإذا كان هذا الانحطاط في الوعي المعجمي يشين غير المتخصصين من أبناء الأمة العربية ، فإن عاره على المتخصصين في اللغة العربية أنفسهم يكون أشد وأنكى .

كاملا سليما ما ينتججه أبناء أمتهم في جيلهم نفسه لكن في بقعة جغرافية أخرى .

وهذا كله يحتم علينا نحن أبناء لغة الضاد إذا كنا حريصين على أن نستعمل في وطننا الفسيح مستوى لغويا مشتركا (Astandard linguistio génre) أن ندرك الدور الخطير الذي يلعبه المعجم اللغوي ، والوعى المعجمي في تحقيق ذلك المستوى المنشود .

وأول خطوة في هذا الإدراك ، أن نشدّرس تاريخ المعجم العربي ، وأن نضع النشاط المعجمي العربي في مكانه الصحيح^٩ من تاريخ^{١٠} فن المعجزة العالمي .

(٢)

لم يكد الإسلام ينتشر ، ويدخل فيه أفواج من أمم غير عربية ، حتى اشتدت الحاجة إلى دراسة منظمة للغة العربية لكي يستطيع المسلمون جميعا قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة ، وفهم نصوصه فهما سليما (فقد كان المسلمون - ولا

يزالون - يعتبرون أيّ لحن في قراءة القرآن إثما عظيما) ، ولكي يتيسر على غير العرب من المسلمين أن يتعلموا اللغة العربية ، ويندمجوا تمام الاندماج في الأمة الإسلامية . وقد ظهر من علماء المسلمين من كرموا جهودهم للوفاء هذه الحاجة فقاموا بملاحظة الظواهر اللغوية في اللغة العربية على مختلف مستوياتها وملاحظة علمية ، كما قاموا بجمع موادها ، وتدوينها في مؤلفات حفظ الزمان لنا منها الكنوز الثمينة ، على الرغم من الكثير الذي أباده منها وأضاعه .

ويقرر العلامة العربيّ المغربيّ عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته^(١) ، أن اللغة العربية التي أنزل بها القرآن تعرضت لشوعين من الفساد السريع نتيجة لدخول غير العرب في الإسلام ، ومحاولتهم استعمال اللغة العربية .

١ - فساد في اللفظ ، يتمثل في الخطأ في النطق ، وقد عولج هذا الفساد بظهور علم النحو .

(١) انظر مقدمة ابن خلدون كما ترجمها روزنثال إلى الإنجليزية ج ٣ ص ٣٣٨ ، وأيضا ص ٤٤٦ - وما بعدها .

٢- فساد في معنى اللفظ ، يتمثل في استعمال اللفظ في غير مجاله المعنوي ، وقد عولج هذا الفساد بظهور المعاجم .

وهكذا ظهر الفرعان التوأمان للبحث اللغوي في تاريخ اللغة العربية . والذي يعنينا الآن هو التأريخ لفن تأليف المعاجم (أو فن المَعْجَمَة) العربية الذي قدر له أن ينمو سريعا حتى يصبح عملاقا ، قلما تستطيع أن تباهى بمثله لغة إنسانية أخرى .

ولحسن الحظ أن التاريخ قد حفظ لنا كثيرا من ملاحم المعاناة التي صاحبت مولد هذا العملاق ، وهيأت له ، وأتاحته له أن ينمو ويتطور حتى يبلغ الذروة في قاموس جامع شامل أقرب إلى موسوعة لغوية منه إلى معجم ألفاظ ، ذلك هو « لسان العرب » لابن منظور . ولكن ظهور مثل هذا المعجم الموسوع الشامل ، الدقيق الترتيب ، الجامع لصنوف البحث اللغوي المتعلقة بكل لفظ قد جعل اللغة العربية ، مكانة فريدة بين سائر اللغات في ميدان النشاط المعجمي . فلقد ظلت اللغة العربية منفردة بمثل هذا المعجم الضخم بين لغات الإنسان جميعا

في القديم والحديث ، حتى القرن التاسع عشر الميلادي حين بدأ يظهر على رفوف المكتبات في أوروبا معاجم لبعض اللغات الأوروبية كالإنجليزية والألمانية تضارع المعجم العربي الأسبق « لسان العرب » في الإحاطة والاتساع .

وهذا التفرد الذي ظلت تتمتع به العربية دون سائر لغات الإنسان في ميدان النشاط المعجمي فترة طويلة ، قد أوحى إلى كثير من الناس :

(أ) بأن هذا النشاط المعجمي الجبار تجربة عربية بحتة ، هيأت الظروف التاريخية المحلية لميلادها واتخذت بعد الميلاد خطها الطبيعي في التطور والنمو ، دون أي مؤثر خارجي ، أو تقليد لأي إنتاج أجنبي^(١) .

(ب) وبأن النشاط المعجمي الذي صاحب النهضة الحديثة في أوروبا متأثر بما سبقه في اللغة العربية في هذا الميدان . فقد كتب المستشرق الإنجليزي جون هاي وود مقالا

(١) انظر مثلا « المعجم العربي نشأته وتطوره » للدكتور حسيب نصار ج ١ ص ٢٠١ .

هل تأثر العرب قليلاً أو كثيراً بما سبق إليه
غيرهم من الأمم في ميدان التأليف المعجمي ؟

(٣)

وللإجابة الواضحة عن السؤال الأول
وجدنا مساقين إلى محاولة تعريف كلمة
« معجم » . والعنق أننا هنا نواجه مشكلة
غير يسيرة ، فكلمة معجم (ونظائرها
في اللغات الأوربية كالكلمة الإنجليزية
Dictionary التي ترد إلى أصل لاتيني ،
والكلمة الإنجليزية Lexicon التي ترد
إلى أصل يوناني) مهما صرفنا النظر عن
اشتقاقها ، وظروف استعمالها في اللغة
العربية ، إما أن تعتبر مصطلحا خاصا ،
وعندئذ فتحدد معناها هنا متروك للاصطلاح
ويمكن أن يُوسَّع معناها الاصطلاحي أو
يُضيق طبقا لرغبة المصطلحين ، وإما أن
يُعتمد في تحديد معناها على الاستعمال
اللغوي العام ، حيث لا يضيق المعنى رغبات
خاصة أو اعتبارات اصطلاحية .

أما إذا اتجهنا إلى التعريف الاصطلاحي
فلإننا طبعا - نستطيع أن نصطلح على

في مجلة جامعة دارهام (في ديسمبر
١٩٥٧) قرر فيه تأثر النشاط
المعجمي الأوربي بسابقه العربي .

ونحن لا يعني أن نتتبع مدى تأثر
النشاط المعجمي الحديث في أوربا بالتأليف
المعجمي عند العرب ، ففضل العرب على
النهضة الأدبية الحديثة كلها واضح ،
مقرر يعترف به العلماء في أوربا نفسها ،
وإذا لم يثبت للمعجم العربي تأثير مباشر
على المعجم الأوربي - وهذه نقطة لا تزال
تحتاج بحثا موضوعيا منصفيا - فإن
التأثير غير المباشر لا يمكن أن ينكر !

ولكننا نرى من الإنصاف للبحث العلمي
والحقيقة التاريخية أن نتساءل : هل
سبق العرب إلى ميدان التأليف المعجمي على
الإطلاق ؟ أي هل كانت هناك شعوب وأمم
أخرى قبل الأمة العربية جمعت ألفاظ
لغتها في معجم أو معاجم ، وإن لم تبلغ من
الضخامة والإحاطة ما بلغه معجم عربي كلسان
العرب ؟ وإذا كان الجواب على هذا السؤال
« نعم » ، فإن هذا يقودنا إلى سؤال آخر

(١) عاد هذا المؤلف فقرر في كتابه الذي نشره عام ١٩٦٠ عن المعاجم العربية أنه بالغ في تصويره لهذا التأثير .
أنظر ص ١ من كتابه هذا .

نص ما ، لتشرحها وتوضح معناها ، تعتبر نشاطا معجميا ، وقوائم الألفاظ التي نعملها للمتأدب ، والناشئ ، والأجنبي ، ليستعملها في أداء معنى بعينه تعتبر نشاطا معجميا ، والأب أو المدرس حين يفسر لابنه أو تلميذه ما يستعصى عليه فهمه من الكلمات في أى موقف يقوم من حيث لا يدري بنشاط معجمي .

وقد يكون من الطريف أن نتتبع خطوات اشتقاق هذا اللفظ «معجم» حتى نتبين كيف تطور حتى أصبح يؤدي هذا المعنى ، والحق أن خطواتنا في هذا الصدد ليست يقينية على الإطلاق ، فلسنا نعرف يقينا كيف ولا متى تم استعمال هذه الكلمة في هذا المعنى - ولا يزال ذلك يحتاج بحثا دقيقا مستقصيا - ولكننا نستطيع من التفسير السريع لبعض مشتقات مادة «ع ج م» أن نستنبط الخطوات التي مر بها هذا اللفظ حتى أصبح يؤدي ذلك المعنى .

فمن المعاني الأساسية لهذه المادة «الغموض والخفاء ، والانبهام ، والعجز عن الإفصاح أو الإبانة» ، ومن مفرداتها في المعنى الأخير «الأعجم والعجماء» للحيوان الذي

تعريف المعجم تعريفا لا يكاد يصدق إلا على ماظهر في العربية من نشاط معجمي ، ثم نقول إن المعجم بهذا التحديد لم يعرف عند غير العرب ، ومن ثم فالعرب هم مخترعوه ورواده الأول ، ولكن هذا يكون عنتا لا يفيد منه البحث العلمي قليلا أو كثيرا . ولهذا فإن الأولى بنا أن نحاول تعريف «المعجم» تعريفا عاما ، يصدق على كل محاولة في ميدان البحث اللغوي تهدف إلى ربط اللفظ المنطوق بالمجال المعنوي الذي يستعمل هذا اللفظ للتعبير عنه - وهذا يتفق مع الاشتقاق اللغوي للفظ «معجم» في اللغة العربية ، فهو من «أعجم الشيء» إذا أزال غموضه ، وأوضح مدلوله .

المعجم - إذا ودون كثير عنت أو حذقة - كل قائمة تجمع كلمات من لغة ما ، على نسق منطقي ما ، وتهدف إلى ربط كل كلمة منها بمعناها ، وإيضاح علاقتها بمدلولها .

وهذا فهم عام لكلمة معجم يغطي كثيرا من ألوان النشاط المعجمي ، ويصدق عليها ، فالرسائل الصغيرة التي تجمع الألفاظ الغربية أو النادرة في موضوع ما ، أو في

ولا شك أن ذلك الاستعمال مستحدث في العربية ، جاء لاحقا في الزمن للدخول النقطة على حروف هجاءها^(١) . ثم سمي ترتيب أى مادة لغوية ترتيبا يراعى حروف الهجاء «معجما» نظرا لخضوعه لترتيب حروف المعجم ، ويقال إن أول كتاب أطلق عليه اسم المعجم، هو «معجم الصحابة» لأحمد بن علي بن المثنى التميمي (٢١٠ - ٣٠٧ هـ) كما ألف بعده أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز البغوي المحدث (٣١٤ - ٣١٥) كتابين في أسماء الصحابة سماهما «المعجم الكبير» و «المعجم الصغير» وعن مثل هؤلاء أخذ اللغويون لفظ «معجم»^(٢) ليطلقوه على ما يؤلفون من كتب تشرح ألفاظ اللغة وتحدد مجالها المعنوي .

وقد يعنى هذا التطور الاشتقاقى ربط المعجم اللغوى بالترتيب الهجائى ، فما سمى «المعجم» معجما إلا لترتيبه على حروف المعجم (أى على الهجائية العربية)

لا ينطق ، وبه شبه غير العربى - لأنه يُصدر أصواتا غير مفهومة كجعجعة الحيوان ، فسمى أعجميا . وقد تعلم العرب الأميون الكتابة من إخوانهم من أبناء الشعوب السامية ، حيث اقتبسوا حروف الهجاء ، أو الأبجدية ، ولكنهم وجدوا أن عددا من هذه الحروف يلتبس رسمه ، فابتدعوا تمييزه بطريقة النقطة ، ولذا فإن الخط العربى يستعمل من النقط عددا لا يستعمله أى خط سامى آخر ، وقد سمي العرب عملية نقط الحروف لإزالة لبسها وإبهامها «إعجاما» من قولهم «أعجمت الشئ» إذا أزلت عجمته أى غموضه وخفاه . وسميت حروف الخط العربى بعد ذلك «حروف المعجم» أى حروف الخط الذى أعجم ونقط فزال منه اللبس والغموض . فقولنا : «حروف المعجم» يجب أن يفهم على تقدير مضاف ، والأصل «حروف الخط المعجم» الذى يطلق على الخط العربى دون سائر الخطوط السامية الأخرى .

(١) لعل ما يستحق الذكر هنا أن الخليل يقول فى مقدمة كتابه «العين» : «إننى بجمته على حروف ، الف باء ، تاء . . . ولو كان مصطلح «حروف المعجم» شائعا فى الاستعمال لكان أخصر وأدق من تعبير الخليل . وهذا نفسه يرجح عدم ظهور استعمال «حروف المعجم» على عهد الخليل . ويجملنا بالتالى نشك فى القصة التى رويت عن عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ) أنه سأل جاساه يوما «أيكم يأتي بى بحروف المعجم فى جسده ؟» أنظر جورجى زيدان ج ٣ ص ١١٩

(٢) أنظر أحمد عبد الغفور العطار «الصباح ومدارس المعجمات» ١٢ ص ٥٣ .

ولكن هذا أمر عرضي بحث ، فالصفة
المميزة للمعجم اللغوي هي ربطه الألفاظ
بمعانيها ، وإيضاح علاقتها بمدلولاتها ،
كأننا ما كان الترتيب الذي تخضع له هذه
الألفاظ داخل المعجم !

(٤)

فإذا عدنا بهذا الفهم الراسع العام لكلمة
« معجم » نحاول الإجابة عن تساؤلنا عما
إذا كان هناك شعوب سبقت العرب في
ميدان النشاط المعجمي فإننا سنجد الإجابة
عن ذلك بالإيجاب .

إن النشاط المعجمي بهذا المعنى الواسع
يكاد يكون تلقائيا يمارسه بأي لغة أي أب
يشرح لابنه الكلمات الجديدة عليه ، أو أي
مدرس يفسر لتلاميذه نصا صعبا أو أي
مواطن يرشد أجنبيا إلى معاني ما يطرق أذنه
أثناء سياحته من ألفاظ غريبة . ولكننا
لا نعني النشاط المعجمي التلقائي ، وإنما
نعني النشاط المعجمي المنظم . فهل سبق
تأليف المعاجم العربية بأي نشاط معجمي
منظم عند غيرهم من الأمم ؟ والجواب هنا
بالإيجاب أيضا .

فلا شك أن الظروف التاريخية التي
اجتمعت للأمة العربية وانتهت إلى دفعها

إلى تأليف معاجم للغتها فوقع ، وتكررت
عند أمم أخرى أقدم من العرب . فالبحث
اللغوي عموما ، والتأليف المعجمي بصفة
خاصة ، يقدر له النشوء والازدهار تحت
ظروف تاريخية خاصة ، أفقية أو رأسية ،
يمكن أن تتوفر لأي أمة ؛ ويحدث ذلك
بصفة خاصة :

(١) إذا قدر للهجة أو لغة ما أن تسود
على لهجات أو لغات أخرى ،
بحيث يصبح من المحتم أو المرغوب
فيه على الأقل أن يعجيد أبناء
اللهجات أو اللغات الأخرى تلك
اللهجة أو اللغة السائدة ، التي
ليست أصلا لهجتهم أو لغتهم .
فحرصا على اللهجة أو اللغة السائدة
وتيسيرا المهمة الراغبين في إجادتها
ينشط البحث اللغوي في وصف
ظواهرها ، كما ينشط في جمع ترويتها
اللفظية ، وتحديدتها بالمجالات
المعنوية التي تستعمل للتعبير عنها
(وهذا هو المستوى الأفقي للظروف
التاريخية المواتية) .

(ب) إذا قدر للغة ما أن تحظى في فترة من فترات تاريخها بإنتاج أدبي ممتاز ، يحتل مركز القداسة والإجلال عند أبناء هذه اللغة ، ويصبح بالنسبة إليهم تراثا عزيزا ينبغي الاستمسك به ، والرجوع الدائم إليه ، ومقاومة تيار التطور اللغوي ما أمكن حتى لا يصبح هذا التراث العزيز نتاجا غريبا على الأجيال اللاحقة من أبناء الناطقين بهذه اللغة ، يسيثون فهمه وتدوقه ، أولا يستطيعون ذلك على الإطلاق . فحينذاك ينشط البحث اللغوي ، والتأليف المعجمي ، ليقيد اللغة ما أمكن عند تلك المرحلة من التطور التي ظهر خلالها هذا التراث الأدبي المقدس ليتيسر فهمه على الأجيال اللاحقة من الناطقين باللغة (وهذا هو المستوى الرأسي للظروف التاريخية المواتية) .

وقد توفر هذان معا للغة العربية بظهور الإسلام ، ونزول القرآن ، وجمع الحديث النبوي ، ودخول الأعراب من غير قريش في الإسلام ، ودخول غير العرب من أمم الأعاجم فيه أيضا ، وتقديسهم

جميعا للقرآن والحديث ، مما جعل اللغة العربية الفصحى لغة سائدة ينبغي على من لا يجيدها من أبناء العرب أن يجيدها وعلى من لا يعرفها من المسلمين أن يتعلمها ، وهكذا توفرت الظروف التاريخية المواتية على المستوى الأفقي لينشط البحث اللغوي والتأليف المعجمي .

ولقد ربطت قداسة القرآن الكريم اللغة العربية عند تلك المرحلة من مراحل تطورها ، التي نزل القرآن بها ، وهكذا صار للغة العربية تراث مقدس ، وحرص العرب والمسلمون على أن يدوم للقرآن يسر تلاوته ، ووضوح معناه عند الأجيال اللاحقة من أبنائهم ، مهما بَعُدَ بهم الزمان ، وتتابعت الأجيال ، فنشط البحث اللغوي والتأليف المعجمي لأن الظروف التاريخية على المستوى الرأسي كانت مواتية أيضا .

وكما توفر الأمران للغة العربية ، فقد توفرا ، أو توفر أحدهما ، للغات أخرى قبل توفرهما للغة العربية إذ أن الحضارة التي أنتجتها الأمة العربية في ظلال الإسلام كانت الحضارة الوسيطة تاريخيا ، لأنها تقع بين الحضارات القديمة ، والنهضة الحديثة ، وجغرافياً لأنها تقع في الوسط

تماما بين حضارتى الشرق والغرب . فما توفر للأمة العربية من ظروف تاريخية يمكن أن يكون قد توفر لمن سبقها من الأمم في نفس المنطقة ، ولمن سبقها أو عاصرها في مناطق أخرى ، ومن ثم فلا عجب أن نجد في عدد من اللغات الأخرى قبل العربية ومعها نشاطا معجميا مقصودا ، منظما ، وإن لم يبلغ ذلك النشاط نفس الدرجة من الخصوبة والإنتاج التى بلغها فى العربية^(١)

(١) فلقد كشف لنا النشاط الحفرى الجبار الذى تم خلال القرن الماضى عن حضارات أسلافنا الأقدمين فى هذه المنطقة من الدنيا التى كانت مهد الحضارة ، وموطن الثقافات ، ومهبط الوحى ، ومربع الأنبياء ، فعرفنا أن أجدادنا المصريين فى وادى النيل ، وأن أجدادنا الساميين فى وادى دجلة والفرات كانت لهم حضارة ، وثقافة وأدب ، واقتضى ذلك أن يعرفوا البحث اللغوى ، وأن يكون لهم نشاط معجمى ، فالذى

يحاول أن يتعلم الهيروغليفية - وهى اللغة المقدسة عند المصريين القدماء - لا بد أن تُقدّم له ألفاظها مرتبة مترتبا منطقيا على نسق ما ، وتُشرّح شرحا ييسر على الناشئ فهم معناها ، وكذلك كان الحال بالنسبة للأكادية ، وربما زاد من النشاط اللغوى والتأليف المعجمى عند الأكاديين ، أنهم - وهم ساميون - قاموا على أنقاض حضارة غير سامية ، هى الحضارة السومرية ، وأنهم اتخذوا لغتهم السامية الأكادية نفس الخط المسارى الذى كان يستعمله أسلافهم السومريون ، فكتبوا به لغتهم غير السامية ، وكان هذا الخط «صوريا» (يرمز بالصورة الواضحة لدلولها كاملا) ، ولم يكن مقطعا كما صارت الأكادية ، ومن ثم فقد وجد الأكاديون أنفسهم مضطرين إلى جمع الرموز السومرية فى قوائم ، وإردافها

(١) أنظر كتاب المستشرق الانجليزى جون هاى وود عن « فن المعجمة العربية : تاريخه ومكائنه فى التاريخ العام لفن المعجمة » اكسفورد ١٩٦٠ الفصل الأول .

وادی النهرين في منتصف الألف
الرابعة قبل الميلاد) قد عرف النشاط
المعجمي المنظم قبل ميلاد السيد
المسيح عليه السلام بما قد يزيد
على ألف عام^(١).

ولكن الحضارات القديمة في
وادی النيل ، أو النهرين ، كانت
قد ماتت قبل أن تظهر الحضارة
العربية الإسلامية بقرون ، ومن
ثم فليس هناك أى احتمال أن
يكون للنشاط المعجمي في هذه
الحضارات تأثير مباشر على
النشاط المعجمي عند العرب .

(ب) وهناك شعب آخر قديم كان له
نشاط معجمي ، ولكنه لم يكن
بعيدا عن العرب تاريخيا فحسب ،
ولنما كان بعيدا عنهم جغرافيا
أيضا ، فليس ثمة أى احتمال
لوجود أى علاقة للنشاط المعجمي
عنده بالنشاط المعجمي عند العرب
ولكننا نشير إليه هنا استكمالا
للفائدة العلمية واستيفاء للمقارنة ،
وذلك هو الشعب الصيني .

بما يوضح قيمتها الصوتية
وبدلولاتها بالأكدية ، وقد عُثر
فعلا في مكتبة الملك الأشوري
(والأشورية فرع من مجموعة
اللهجات السامية الأكدية)
أشوربانيبال (٦٨٨-٦٢٥ ق م)
على عدد من الألواح يضم بعضها
قوائم بالأسماء ، وبعضها الآخر
قوائم بالأفعال التي تدل على المهن
والحرف ، كما وجدت في
بعض الألواح قوائم بتحديد
القربات العائلية ، . . . وهكذا ،
أى أنهم كانوا يرتبون «المفردات»
اللغوية حسب الموضوعات التي
ترتبط بها . وإذا عرفنا أن مكتبة
الملك أشوربانيبال كانت تحوى
كثيرا من صنوف الإنتاج اللغوي
والأدبي والقانوني والديني ، الذي
أُلف قبله بمئات السنين ، عرفنا
أن شعبا ساميا قديما (أو قل
شعبا عربيا نازحا - فليس
الأكاديون إلا شقا من العرب
غادر وطنه في الجزيرة العربية إلى

(١) أنظر مقالة كتاب فون سوردن عن النحو الأكدي .

إن الصينيين أنفسهم يرمون
بأن حضارتهم كانت قائمة منذ
الأزل ، ولكننا على أى حال
لا نعثر على معاجم للغتهم تسبق المائة
الثانية قبل الميلاد ، حيث نجد
معجم اره يا (Erh Ya) الذى
يعتبر مجموعة من الألفاظ مقسمة
حسب الموضوعات إلى ثلاثة عشر
بابا - أحدها للعلاقات العائلية ،
والثانى للأدوات والآلات ، والثالث
للطيور ، وهكذا . وخلال القرن
الأول للميلاد نجد معجما صينيا
أكمل وأوفى هو معجم شوون
(Shou Wen) الذى يضم من
المفردات ١٠٦٠٠ لفظا ، ومع
ذلك فهو غير مستوعب ، ولا يزال
موجودا فى المكتبات الصينية إلى
الآن . ويقرر مؤلفوه أن هدفهم
هو « شرح مفردات النصوص
المقدسة » ، مما يقرب بين -
الظروف التاريخية لظهوره ،
وظروف ظهور النشاط المعجمى
عند العرب ! وما يذكر أن الكتابة
الصينية كانت - ولا تزال -
صورية ، فكلّ مفرد فى اللغة

الصينية له جوانب ثلاثة : رمز
مرسوم ، قيمة صوتية منطوقة ،
معنى مدرك . ولأن كتابتنا صوتية
فإننا لا ندرك خلافا كبيرا بين
الرسم والنطق ، أما فى الصينية
- وكل الخطوط الصورية -
فإن الرمز المكتوب الذى هو صورة
أصلا ، قد يعطى العديد من القيم
الصوتية المختلفة . ويدور ترتيب
المعجم الصينى المذكور على الجانب
الأول وهو طبيعة الصورة ، أو الرمز
المكتوب ، فيقسم المفردات التى
يشرحها إلى ما يقرب من ستمائة
باب ، يجمع كل باب طائفة
متشابهة من الصور المرسومة التى
تأخذ كل منها من الشرح
ما يوضح كيف تنطق ، وماذا تعنى .
وأول معجم صينى يرتب المفردات
طبقا لنطقها لا لرسمها هم معجم
هوفايين (Hu Fa Yen)
الذى ألف فيما بين عامى ٥٨١ -
٦٠١ ميلادية . ويبدو أن الصين
كانوا قد تأثروا فيه بالدراسة
الصوتية فى اللغة السنسكريتية -
وهى اللغة المقدسة عند الهنود

القدماء - وأن الاهتمام بالجانب الصوتي كان قد انتقل من الهند إلى الصين مع الرهبان البوذيين . وسوف نرى أن هناك قدرا من الاحتمال أن العرب قد استنشقوا بعض نسائم البحث اللغوي القادمة من الهند ، فإذا صبح ذلك يكون كل من الصينيين والعرب - على الرغم من انقطاع العلاقة المباشرة بينهما في هذا الأمر - قد أفاد من مصدر واحد ، ذلك هو البحث اللغوي في السنسكريتية^(١) ولا شك أن هناك شيئا بين أمتي الصين والعرب في اهتمام كل منهما بلغتها ، وبالتراث الديني الذي كتب بها ، وفي المنهج العلمي الذي اتبعته كل منهما منذ عهد بعيد في دراسة لغتها ، وفي المعاجم العديدة التي ألفتها كل منهما ، لتجميع ألفاظ لغتها وتشرحها . ولكن اختلاف طبيعة النظام الكتابي في اللغتين اختلافا كاملا ، جعل طبيعة المشاكل التي تعترض

التأليف المعجمي فيهما ، والحلول التي تقدم لها مختلفة تماما .

(ج) وقبيل مولد المسيح كان الفرعان التوأمان للبحث اللغوي (التقعيد والمعجمة) قد نضجا ، واحتلا مكانا بارزا ، في كل من - السنسكريتية واليونانية . وهذا يعني عند التأيخ للتأليف المعجمي عند العرب ، لأننا نعلم علم اليقين أن العرب قد تأثروا بكلتا الحضارتين في مجالات أخرى من مجالات حضارتهم ، فقد تأثر العرب باليونان في الفلسفة والعلوم ، وبالهنود في القصص والحكايات والموسيقى والرياضيات ، ولذلك فإن تأثر العرب بهما أو باحدهما في ميدان البحث اللغوي يجب أن يكون موضع التحري والتساؤل. ولنرجئ هذا التساؤل الآن لنلقى نظرة عابرة على البحث اللغوي والنشاط المعجمي في اللغتين .

(١) أنظر مقالة (Dictionary) في كل من دائرتي المعارف البريطانية واليهودية ، وراجع أيضا كتاب جون هاي ود عن فن المعجمة العربية ص ٦ ، وكتاب عبد الغفور العطار ص ٥٦ .

يرتكز على الترتيب المعنوي ، فيرتب الألفاظ طبقا لمعانيها ، وهو اتجاه يغاير الاتجاه الرئيسي في النشاط المعجمي عند العرب. والحق كذلك أن المعاجم السنسكريتية الضخمة لم تظهر وتنتشر إلا بعد القرن الثاني عشر الميلادي ، حين كان التراث المعجمي للعربية قد اكتمل له إنتاج رائع جبار . ولم تنته المعاجم السنسكريتية حتى الآن إلى نمط مثالي في ترتيب مادتها اللغوية ، كذلك النمط المثالي في الترتيب الهجائي الذي انتهت إليه المعاجم العربية منذ عصر الزمخشري^(١) .

وأما في اليونانية فقد بدأ البحث اللغوي كذلك بالتقعيد ، ثم ثنى بالمعجمة فمئذ القرن الثاني قبل الميلاد عرف نحاة اليونانية كثيرا من فنون البحث اللغوي وقسموا الكلمة مثلا إلى ثمانية أنواع ، وهو نفس العدد الذي تقسم إليه الكلمة في النحو الإنجليزي المعاصر ، ولكن الفلسفة طغت على البحث اللغوي عند اليونانيين ، وانتقل الصراع بين مذهبي الفلاسفة من قياسيين ،

أما في السنسكريتية فقد نشط التقعيد فيها قبل المعجمة ، فقد ألف كتاب بابيني (Panini) في قواعد السنسكريتية حوالي عام ٣٠٠ ق م وقد عرف الهنود قبل أرسطو مثلا أنواع الكلمة ، وإمكان اشتقاق كلمات كثيرة من « جذر » فعلى واحد .

الخ ، واندفع الهنود القدماء إلى عمل المعاجم لشرح ألفاظ نصوصهم الدينية والمحافظة على إمكان تلاوتها ، وفهمها ، كما حاولوا أن يجمعوا « غريب » اللغة ليعينوا شعراءهم على استعمال ما يريدون منه ، بل إنهم كى ييسروا حفظ هذا « الغريب » ضمنوه مؤلفات منظومة ! ومن المؤسف أن كثيرا من نتائج النشاط المعجمي القديم في السنسكريتية قد ضاع . وأقدم معجم سنسكريتي موجود هو - الأماراكوفا (The Amarakoṣa) التي ترجع إلى القرن الخامس الميلادي ، وهو معجم مترادفات ، وله ملحقات بالمشارك اللفظي وآخر بالمفردات غير المتصرفة . والحق أن معظم النشاط المعجمي عند الهنود كان

(١) يعتبر الترتيب الأبجدي لمادة المعجم الذي طبقة الزمخشري في كتابه « أساس البلاغة » أكل ترتيب أبجدي عرفه تاريخ المعاجم حتى عصر الزمخشري في العربية وغيرها ، أنظر بحثنا الذي نشر بالانجليزية عن : « دور الزمخشري في تطور المعجم العربي » في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - مجلد ٢٤ جزء أول .

يحتّمون فرض القياس على الشواذ ،
واستقرائيين يقرّون كل مثال مهما كان
شاذاً - إلى علماء البحث اللغوى ، ولعل
هذا مما انعكس على البحث اللغوى عند
العرب أيضاً ، حيث نجد مدرسة البصرة
أميل إلى احترام القياس ، ومدرسة الكوفة
تصر على احترام الشواذ .

وأقدم معجم يونانى جاءتنا أخباره هو
معجم أبوقراط (Hippocrates Lexikon)
الذى ألفه جلاوكوس Glaucous عام ١٨٠
ق م .

وفى عهد الإمبراطور أغسطس ، الذى
ولد فيه السيد المسيح ، وضع فاليريوس
(Valerius) معجماً ترجمة عنوانه
هى : « فى معانى الألفاظ » شبيهاً بمعجمنا
العصرية تماماً . ولكن العصر الذهبى للتأليف
المعجمى عند اليونان كان فى القرون الأولى
بعد ميلاد المسيح ، وبخاصة فى ثغرنا المجيد
الاسكندرية . . ولا يعنينا كثيراً سرد
الأسماء الغريبة للمعاجم ومؤلفيها عند
اليونان ، خاصة وأنها كثيرة متعددة ،
وحسبنا أن نؤكد أن اليونانية حظيت
بنشاط معجمى شمل فروع التأليف المعجمى
كلها أو كاد ، فقد عرفوا الترتيب المعنوى

للثروة اللفظية مثلاً فى معجم يوليوس -
بولوكس (Yulius Pollux) الذى
ظهر فى القرن الرابع الميلادى ويشبه إلى حد
بعيد مخصص ابن سيدة - كما خلّفت
مدرسة الاسكندرية فى القرن الرابع والخامس
عددًا من المؤلفات المعجمية المختلفة منها :
« ما اتفق لفظه . واختلف معناه » لأمونيوس
Ammonius ومعجم « اللهجات والسمات
المحلية » لهزيشيوس Hesychius ومعجم
« الاشتقاق » لأوريون الطيبى (المنسوب
إلى طيبة فى مصر) .

ومن الواضح أنه لم يكن لليونان تأثير
مباشر على العرب فى ميدان التأليف
المعجمى ، وإلا لاهتدى العرب منذ البداية
إلى الترتيب الهجائى الحديث الذى استعمله
اليونانيون منذ عصر ميلاد المسيح عليه
السلام ، دون أن يعمروا بمراحله طويلاً
مختلفة من التجارب المضنية .

(٥)

وإذا كنا قد المحنا حتى الآن إلى
الاتجاهات الرئيسية فى التأليف المعجمى

عند عدد من الأمم المتحضرة التي سبقت العرب إلى الظهور على مسرح التاريخ ، فإنه قد حان لنا أن نتساءل : هل كان لهذا النشاط أو بعضه فضل على النشاط المعجمي عند العرب ؟ ولعل القارئ قد أحس أننا ، عن طريق الاستئصال ، قد استبعدنا تأثير العرب المباشر في ميدان التأليف المعجمي بالمصريين القدماء ، أو الأكاديين أو الصينيين ، أو اليونانيين ، ولم يبق أمامنا إلا التساؤل عن احتمال تأثير العرب بالنشاط اللغوي والتأليف المعجمي في اللغة السنسكريتية . وهنا يجد المرء المنصف نفسه في حيرة يدعو إليها اصطدام الشواهد والقرائن .

فمن الواضح أن ظروفًا تاريخية مواتية (أفقية ورأسية^(١)) قد اقتضت ظهور هذا اللون من النشاط المعجمي في العربية ، ومن الواضح كذلك أن التجربة المعجمية قد مدت على التربة العربية بكل مراحل نموها وتطورها ، ولم تُنقل جاهزة ناضجة من أي بيئة أخرى ، فقد بدأت المحاولات

الأولى في النشاط المعجمي بشرح غريب القرآن ، ثم شرح غريب الحديث النبوي ، ثم بدأت الشروح المختلفة للتراث الشعري أيضًا تظهر إلى حيز الوجود . وجمهرة التعريفات التي تضمنتها المعاجم اللغوية فيما بعد مستمدة من هذه الشروح الأولية لغريب القرآن والحديث والشعر ، ثم بدئ التأليف الفعلي للمعاجم برسائل صغيرة تجمع النادر والغريب ، أو تضم الألفاظ التي تتداعى في موضوع واحد ، كل هذا قبل أن يتم التفكير في تأليف معجم شامل مستوعب . وحين اتجه التفكير إلى تأليف مثل هذا المعجم ، فقد مرت مشا كل جمع مادته اللغوية ، وترتيبها ، وطريقة تعريفها بالكثير من التجارب قبل أن تبلغ ذلك المستوى من الكمال الذي بلغته والذي لا يقنعنا ولا يرضينا ، لأننا كنا نرجو لها أن تفوقه ، وما زلنا نتوقع أن تفوقه في جهودها المقبلة في التأليف المعجمي .

كل هذا يؤكد أن التجربة المعجمية في اللغة العربية إنما هي عربية أصيلة من

(١) أنظر الفقرة الرابعة من هذا البحث .

بدايتها إلى نهايتها ، وأنها انعكاس صادق للظروف والملايسات والإمكانات العربية البحتة .

وكل ما يعكر صفو هذا الاستنتاج هو ما ينوه إليه المستشرقون^(١) من أننا نحسن بشئ من الطفرة في ظهور معجم العين للخليل ، بفكرته المعقدة ، ومنهجته العلمي الدقيق وترتيبه الصوتي ، وهدفه الطموح إلى الاستيعاب والشمول . فلا يمكن أن يكون ذلك نموا طبيعيا لرسائل الغريب والنادر ، أو المفردات الدالة على الزرع والمطر . وهذه الطفرة في ظهور العين ، بالإضافة إلى ظروف حياة الرائد الخليل نفسه - وأنه عاش في خراسان قريبا من الهند ، وتأثر بالثقافة الهندية في نواحي أخرى من جهوده العقلية^(٢) - كل هذا يوحى بالشك في احتمال تأثر الخليل بالسنسكريتية .

ويتحمس مؤرخو المعاجم العربية من المعاصرين كالكتور عبد الله درويش ، والكتور حسين نصار قبله^(٣) ، لدحض هذه الشبهة ، ويؤكدون أن الخليل قد « اخترع » هذا النظام بعقليته الفذة ، دون أى تأثر أجنبي .

والحق أننا لو استبدلنا كلمة « اخترع » بكلمة « اقتبس » ما ناك ذلك من فضل الخليل ولا من مجد العرب شيئا ، فإن الإنسان العبقري الفذ - في نظرنا - هو الذى يتمثل ما حوله من ثقافات ، ويفيد بها ، ويتفاعل معها ويخرج منها بنمط جديد يغيرها ، ويضاف إليها ، ويزيد عليها دون أن يقلدها تقليدا أعمى . ولم يقل أحد إن العبقرية هي أن يخلق المراء الفذ على نفسه جدرانا أربعة محكمة ، يعيش فيها ، لا يدرى ما أنتجت الإنسانية قبله ، ولا كيف يفكر معاصروه

(١) من أمثال جون هاى وود : أنظر كتابه عن فن المعجمة العربية ص ٨ .

(٢) أنظر : الدكتور عبد الله درويش « المعاجم العربية » .

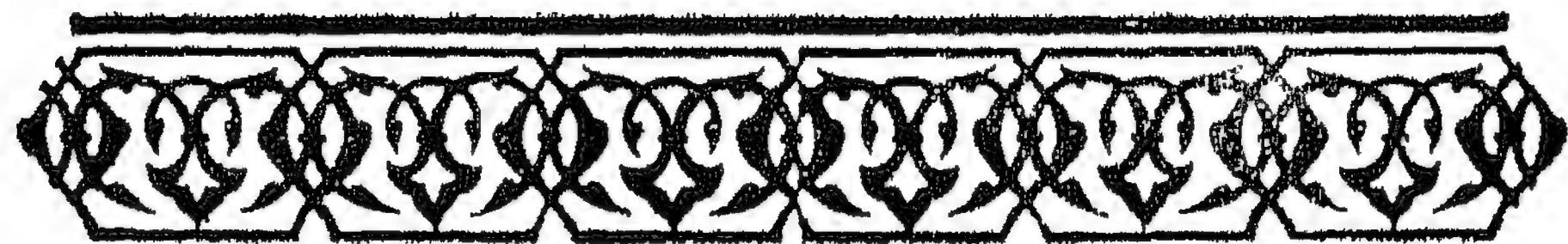
(٣) اقرأ هذه الفقرة من كتاب الدكتور حسين نصار ج ١ ص ٢٠١ : « ولكننا نرى أن الهنود إذا كانوا قد توصوا إلى نظام الخارج بفضل ترتيبهم للفيدا المقدسة كما يقولون ، فليس ما يمنع أن العرب قد وصلوا إليه بفضل ترتيبهم القرآن الكريم » .

بالهندية ، وثبت هذا الاحتمال ، فان ذلك
لا يُخرج التجربة العربية - التي عانت
فنَّ المعجزة من البداية إلى النهاية معاناة
كاملة ، وأثبتت فيه عبقريتها وثرائها ،
وفضلها على غيرها من الشعوب - عن
مكانة الأصالة ، أو يحرمها من فضل
السبق ، أو ينتقص منها ميزة الامتياز !

محمد سالم الجرح

ثم يأتى بعد ذلك من تلافيف مخه وحدها
ما لم يأت بمثله أحد .

فالنظرة الواقعية المنصرفة إلى مشكلة
تأثير الخليل - رائد المعجم العربى -
بالسنسكريتية تحتم علينا أن نشير إلى
احتمال قيام هذا التأثير ، دون أن نرتفع
بهذا الاحتمال إلى درجة الثبوت والتأكد ،
أو نهبط به إلى مستوى الرفض والاستبعاد .
وحتى لو صدق الشك فى تأثير الخليل



في الجانِب

الإحصائي اللغوي

للدكتور أحمد علم الدين الحنّدي

مقدمة :

قدمت في مقال سابق^(١) (لكتب اللغات)^(٢) بمدخل تاريخي للعصر وللمؤلفين ، ثم درست هناك هذه المصادر الأولى (للغات) في ضوء المنهج الوصفي ، مقدما نماذج من نصوصها ، وشواهد من رواياتها وأسانيدها .

وفي هذا المقال أعرض دراسة جديدة حول هذه الآثار في ضوء المنهج الإحصائي معتمدا على نشر لوحات إحصائية (لأول مرة) في مؤلفات من عزيت لهم كتب لغات مفقودة ، وهذه المؤلفات الموجودة قد تأثرت إلى حد كبير بكتب (اللغات المفقودة) بعد أن نضح على هذه المؤلفات صور وملامح من كتب (اللغات) فهي تمثلها وتصورها ، بل تعطينا إلى حد ما (عينة) صادقة مما كانت تشتمل عليه هذه الكتب المفقودة من لهجات القبائل العربية كيفا وكما . وهذه اللوحات الإحصائية لبعض الآثار التي وصلتنا من مؤلفات يونس بن حبيب البصري ١٨٢ هـ ، والفراء ٢٠٧ هـ ، وأبي عبيدة سمر بن المثنى ٢١٠ هـ ، وأبي زيد الأنصاري ٢١٥ هـ ، والأصمعي ٢١٦ هـ ، وابن دريد ٣٢١ هـ ، وجميع هؤلاء الأعلام ألفوا في (كتب اللغات المفقودة) .

ثم ثنيت بتقديم لوحات إحصائية أخرى في المصادر المختلفة التي يمكن أن تكون قد تأثرت بكتب (اللغات المفقودة) . ثم ثلثت بلوحات إحصائية أيضا عن مدى رواية العلماء - الذين لهم كتب لغات مفقودة - اللهجات القبائل العربية في كتابي (المخصص لابن سيده ، وجمع الهوامع لجلال الدين السيوطي) وذلك لننتقل من المعلوم إلى المجهول الذي نسعى في كشفه وإزاحة الستار عنه . وقدمت تعقيبا ونقدا على هذه اللوحات الإحصائية . ثم تحدثت عن تفرد من ألف في (كتب اللغات) بعزو بعض الصيغ اللهجية ، ثم موقف المصادر الثانوية من الروايات الأولى المسندة إلى من ألف في (كتب اللغات) ، والأحكام التي صدرت على اللهجات مادحة وقادحة ، ثم أخيرا عرضت لروايات مسندة إلى من ألف في (كتب اللغات) المفقودة ظهر منها مدى التناقض والاضطراب .

أولا :

الجانب الإحصائي للهجات القبائل في تأليف من عزيت لهم كتب لغات مفقودة .

(١) كتاب « النوادر » لأبي عبد الرحمن يونس بن حبيب البصري ١٨٢ هـ .

والكتاب مفقود ، وقد سجل السيوطي في مزهره^(١) اقتباسات منه :

لهجة : الحجاز تميم

عدد ورودها : ٢٧ مرة ٢٧ مرة

وأغلب هذه المقابلات بين اللهجتين التميمية والحجازية تدور حول :

(١) المستوى الصوتي . (ب) المستوى الصرفي .

ولم يتعرض يونس للمستوى الدلالي ، كما لم يستشهد على صيغ اللهجات بشواهد شعرية ، ولم يتناول الظواهر اللهجية في القبائل العربية الأخرى في غير تميم والحجاز، ولعل هذا الاختصار كان من عمل السيوطي نفسه لا من يونس بن حبيب .

(١) ٢ - ٢٧٥ فا بعدها .

(ب) « ما تفرد به أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصرى » .

وهو النوع الثانى من كتاب (الشوارد فى اللغات ^(١)) .

لهجة : تميم هذيل العالية نجد بنى يربوع

عدد ورودها : ١ ١ ١ ١ ١ ١

(ج) كتاب المذكر والمؤنث ، لأبى زكريا الفراء ٢٧٠ هـ . (المطبعة العلمية بحلب

١٣٤٥ هـ) .

لهجة : الحجاز أسد نجد عكل قيس اليمن ذبئر تميم عامر باهلة

عدد ورودها : ٧ ٦ ٤ ١ ١ ١ ١ ١ ١

(د) كتاب الأيام والليالى والشهور للفراء ^(٢) ط الأميرية .

لهجة : أسد كلب ربيعة

عدد ورودها : ١ ١ ١

(هـ) كتاب مجاز القرآن صنعة أبى عبيدة معمر بن المثنى التميمى ^(٣) ٢١٠ هـ .

وميدان الإحصائية فيه من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الزمر .

لهجة : نجد تميم الحجاز العالية كنانة بعض المكيين لغة أكلونى البراغيث

عدد ورودها : ٢ ١ ١ ١ ١ ١ ١

(١) بغية الوعاة : ٢٢٧ والكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤١٨ لغة ، ومعنون باسم (ما تفرد به بعض أئمة اللغة) وهو نفسه كتاب (الشوارد فى اللغات) للحسن الصغافى ٦٥٠ هـ . وأنظر أعلام العرب ٧٥ - الفصل الأول . تأليف د . حسين نصار .

(٢) كرر الفراء النقل عن العرب فى هذا الكتاب أكثر من عشرين مرة حيث يقول (ومن العرب) كما استعمل الفراء فى هذا الكتاب ألفاظا عدة فانت المعاجم وكتب العربية : ص ١٠ ، ص ٢٩ ، ص ٥٦ ، ص ٦٣ وأنظر : أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة ص ٤٩٧ د . أحمد مكى الأنصارى .

(٣) حققه د . محمد فؤاد سزكين . ط أولى . الخانجى بالقاهرة .

(و) النوادر في اللغة ، لأبي زيد الأنصاري ٢١٥ هـ . (ط ، بيروت ، ١٨٩٤ م) .

لهجة : طي^٤ تميم كلاب قيس عقيل ضبة عكل بلحارث بن كعب
عدد ورودها : ٥ ٤ ٣ ٣ ٢ ٢ ١
أحمد اليهود حمير بكر بن وائل قشير العالية ثُمير مضر
١ ١ ١ ١ ١ ١ ١
بنى كعب بن عبد الله بن أبي بكر كُايب بلعنبر قريش .
١ ١ ١ ١

(ز) كتاب المطر لأبي زيد الأنصاري :

لهجة : كلاب قيس
عدد ورودها : ٢ ١

(ج) كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري^(١) (ط ، بيروت) .

لهجة : تميم قيس الحجاز الثُشَيْريين بنى الحرّماز
عدد ورودها : ٣ ٣ ١ ١ ١

(ط) كتاب الإبل للأصمعي ٢١٦ هـ .

لهجة : الحجاز تميم قيس
عدد ورودها : ١ ١ ١

(ي) كتاب خلق الإنسان للأصمعي :

لهجة : « لغة » العجاج

عدد ورودها : ١

(١) رواية الشيخ أبي الفضل عمر بن عبيد الله بن البقال .

(ك) كتاب النخل للأصمعي : ضمن كتاب البلغة في شذور اللغة . المطبعة الكا وليكية ط . بيروت ^(١) ١٩٠٨ م .

لهجة : الحجاز نجد المدينة بلعارت بن كعب اليمامة
عدد ورودها : ٤ ٤ ٢ ٢ ١

(ل) كتاب الكرم* للأصمعي (ضمن كتاب البلغة في شذور اللغة) .

لهجة : الطائف غير الطائفين آخرين من الطائفين
عدد ورودها : ٢ ١ ١

(م) كتاب الوحوش للأصمعي (نشره الدكتور Rudolf Geyer ^(٢))

لهجة : هذيل اليمن الحجاز العالية
عدد ورودها : ٢ ٢ ١ ١

(ز) كتاب** الأضداد للأصمعي (نشره الدكتور أوجست هفنز ^(٣))

لهجة : الحجاز هذيل طي العراق نجد نمير تميم قيس عقيل
عدد ورودها : ٣ ٢ ٢ ١ ١ ١ ١ ١
هلال حمير
١ ١

(١) نشرها د. أوجست هفنز والأب لن اليسوعي . (٢) فينا ١٨٨٨ م .

(٣) مع كتاب الأضداد لابن السكيت والسجستاني والصغاني . ط بيروت ١٩١٢ م .

* حدث شك حول نسبة هذا الكتاب للأصمعي ، ومن المحتمل أن يكون لأبي عبيد معاصر الأصمعي ، أو لأبي حاتم السجستاني تلميذ الأصمعي (مقدمة كتاب النخل والكرم ص ٦٣) .

** رابني في أول الأمر ظل من الشك حول نسبة هذا الكتاب للأصمعي والسبب في ذلك : أن كتاب الأضداد لابن السكيت قد عزافه لعشر قبائل ، وكتاب الأضداد للأصمعي هذا عزافه إلى إحدى عشرة قبيلة فلا تفاق واضح ، كما أن التشابه في مادة الكتابين ملحوظ ، ولفتني إلى هذا الشك أيضا د. رمضان عبد التواب حيث يرى أن الأصمعي في كتابه يروي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وبينهما من العدا والمعاصرة مالا يسمح بالرواية ، كما أنه روى فيه عن (الأثر م) ت ٢٣٢ هـ وهو من تلاميذ الأصمعي فكتاب الأضداد للأصمعي ليس له . وإنما هو رواية أخرى لأضداد ابن السكيت .

(س) كتاب اشتقاق الأسماء للأصمعي^(١) (مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٣٢ لغة

تيمور ضمن مجموعة) .

لهجة : الحجاز .

عدد ورودها : ١

(ع) كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي ٣٢١ هـ Göttingen

لهجة : اليمن الحجاز تميم حمير ربيعة نجد طيئ الأزدي

عدد ورودها : ٦ ٣ ٢ ٢ ١ ١ ١ ١

زهران الشري .

١ ١ ١

ثانياً :

الجانب الإحصائي للهجات القبائل في المصادر المختلفة التي تأثرت بكتب اللغات

المفقودة :

وقد اخترت من هذه المصنفات ما يمثل العلوم والفنون المختلفة ، فاخترت من كتب النحو والصرف : كتاب سيبويه ، وتسهيل ابن مالك ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وشرح الشافية للمحقق رضى الدين .

من كتب النحو والصرف :

(١) كتاب سيبويه ١٨٨ هـ .

لهجة : تميم الحجاز أسد قيس بكر بن وائل طيئ هذيل ربيعة

عدد ورودها : ٢٧ ٢٦ ٥ ٥ ٣ ٣ ٣ ١

بنى سعد فزارة بنى عدى كعب سليم غنى العلويون

١ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١

(١) وأحياناً يعزو الأصمعي في هذا الكتاب إلى (بعض العرب) كقوله : جحاش من المجاشة ، يجاش

الرجل الرجل فيجش وجهه إذا كدحه ، وبعض العرب يقول « جحاش - بالسين » .

وقد عزا فيه إلى خمس عشرة قبيلة ، على حين بلغت لهجات القبائل في شرح
السيرافي على سيبويه خمسا وعشرين ، وقد زاد اللهجات الآتية عن كتاب سيبويه :
لهجة : العراق النضير تغلب البصرة الموصل خثعم المدينة
مكة خيبر بغداد الكوفة أزد الشّراة

(ب) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك (٦٧٢ هـ)^(١) .

لهجة : تميم الحجاز سليم عقيل أسد كنانة قيس هذيل
عدد ورودها : ٢١ ١٨ ٤ ٣ ٣ ٢ ٢ ٢

طيّ بلحارث كلاب همدان فقّس خزاعة عكل
٢ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١

بلعنبر اليمامة فزارة يتعاقبون نجد قضاعة

١ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١

ربيعة لخم بكر كلب

١ ١ ١ ١

(ج) شرح شافية ابن الحاجب للمحقق رضى الدين الاسترأبادى ت ٦٨٨ هـ .

لهجة : تميم الحجاز طيّ قيس عامر أسد هذيل غنى

عدد ورودها : ٢٢ ١٥ ٦ ٣ ٢ ٢ ١ ١

كعب بكر بن وائل ربيعة أزد السّراة فزارة كلب سليم

١ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١

بنى عدى نجد مكة حمير

١ ١ ١ ١

(١) تحقيق الدكتور محمد كامل بركات ، ط الكاتب العربى .

(د) شرح المفصل لابن يعيش ت ٦٤٣ هـ

لهجة : تميم الحجاز طيء أسد هذيل قريش قيس سليم بلحارث بن كعب
عدد ورودها : ٣١ ٢٤ ٧ ٣ ٣ ٢ ٢ ٢
تهامة حنظلة بلعنبر الأنصار عقيل اليمن فزارة
١ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١
بنى سعد قضاة أزد السراة بطون من ربيعة
١ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١

ومن المعاجم :

(هـ) لسان^(١) العرب لابن منظور ت (٧١١ هـ)

لهجة : تميم الحجاز هذيل أسد طيء قيس نجد حمير كلاب
عدد ورودها : ١١٨ ١١٠ ٨٣ ٥٣ ٤٧ ٤١ ٢٤ ٢٢ ١٩
سليم عقيل سعد العالية قضاة المدينة ربيعة
١٧ ١٦ ١٣ ١٠ ١٠ ١٠ ١٠ ١٠ ١٠
قريش بلحارث بن كعب عامر مكة كلب الأزد هوازن
٩ ٩ ٩ ٨ ٨ ٦ ٥ ٥ ٥
عكل ضبة بكر بن وائل فزارة عبد القيس حنظلة
٥ ٥ ٥ ٤ ٣ ٣ ٣ ٣ ٣
باهلة أزد شنوءة الأنصار بلعنبر كنانة العراق
٣ ٣ ٣ ٣ ٣ ٣ ٢ ٢ ٢
فقعس الغور خيبر الشحر تهامة أشجع
٢ ٢ ٢ ٢ ٢ ٢ ٢ ٢ ٢

(١) فاقت لهجة اليمن في اللسان إحصائيا غيرها من اللهجات المرصودة ، ولم أهتم بإحصائها بدقة ؛ لأن ابن منظور خلط بين اللهجة اليمنية والحبيرية ، وذلك لا يتفق والبحث العلمي الحديث .

عليا مضر سفلى مضر عوف بن سعد بهراء اليمامة خثعم
 ١ ١ ١ ١ ١ ١
 نمير خزاعة سعد بن بكر بنى عبيد جديلة تغلب
 ١ ١ ١ ١ ١ ١
 وهبيل غنم الطائف الرباب بشينة جهينة
 ١ ١ ١ ١ ١ ١
 تيم بن ثعلبة أزد السراة غنى عجلان بنى عدى تيم الرباب
 ١ ١ ١ ١ ١ ١
 بنى سلامة ثقيف مجاشع معد همدان
 ١ ١ ١ ١ ١ ١

ومن كتب اللغة العامة :

(و) المزهري في علوم اللغة للسيوطي ت ٩١١ هـ .

لهجة تميم الحجاز طيء هذيل اليمن قيس نجد حمير أزد شنوءة
 عدد ورودها : ٥٨ ٤٩ ٦ ٤ ٤ ٣ ٢ ٢
 قريش أسد عامر سليم البحرين قضاعة نزار عبد القيس
 ٢ ٢ ٢ ١ ١ ١ ١ ١
 كلاب العالية هوازن ضبه الأنصار مكة عقيل
 ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١ ١

ومن كتب اللغة الخاصة :

(ز) الإبدال لأبي الطيب^(١) اللغوي ت ٣٥١ هـ .

لهجة تميم طيء أسد الحجاز بنى دبير كلاب قريش هذيل
 عدد ورودها : ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ١ ١
 العالية أزد شنوءة
 ١ ١

(١) ط دمشق ١٩٦٠ - الجزء الأول تحقيق الأستاذ عز الدين التنوخى ، وكذلك الجزء الثانى : دمشق

(ح) كتاب (ليس في كلام العرب) للحسين بن أحمد بن خالويه ت ٣٧٠ هـ ، ويشمل هذا الإحصاء القسم الأول من الكتاب المطبوع بتحقيق الشنقيطي ، كما يشمل القسم الخامس من الكتاب وهو قرابة ١٨٠ ورقة من القطع المتوسط والمصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٢٢٢ ميكروفيلم عن نسخة فريدة مخطوطة بالأستانة بمكتبة شهيد على رقم (٢١٤٣) .

لهجة : تميم أسد عقيل اليمن عبد القيس بلحارث بن كعب
عدد ورودها : ٢ ٢ ٢ ٢ ٢ ١

مكة شامية أهل البحرين
١ ١ ١

ومن كتب شروح الأشعار :

(ط) ^(١) شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ٤٢١ هـ .

لهجة : طي تميم الحجاز هذيل اليمن قيس .
عدد ورودها : ٥ ٤ ٢ ٢ ١ ١

^(٢) ومن كتب اللغة : مفردات لغوية خاصة تدور في فلك واحد وهي كتب التضاد الجنسي

(ي) ما يذكر ويؤنث من الإنسان ومن اللباس لأبي موسى ^(٣) الحامض ت ٢٥٢ هـ

لهجة :

عدددها : لم يعز فيه المؤلف إلى قبيلة ما .

(١) ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) يعني : المذكر والمؤنث

(٣) حققه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب .

(ك) كتاب التذكير والتذكير لآبي حاتم السجستاني^(١) ت ٢٥٥ هـ .

لهجة :	تميم	الحجاز	قيس	أسد	نجد
عددها :	٢	٢	١	١	١

(ل) كتاب المذكر والمؤنث^(٢) لآبي العباس محمد بن زيد المبرد ت ٢٨٥ هـ

لهجة : لم يعز فيه المبرد إلى قبيلة ما .

(م) كتاب المذكر^(٣) والمؤنث لابن جني ت ٢٩٢ هـ

لهجة :	أسد	نجد	الحجاز
عددها :	١	١	١

(ن) المذكر والمؤنث^(٤) لآبي الحسين سعيد بن إبراهيم التستري (أواسط القرن

الرابع الهجري) .

لهجة : الحجاز أهل نجد بعض بني أسد غير الحجاز أسد بعض عكل

عددها :	٥	٣	٢	٢	٢	١
---------	---	---	---	---	---	---

غير نجد	بعض قيس
---------	---------

١	١
---	---

(١) مخطوط بالتيهوية رقم ٢٦٤ لغة .

(٢) مخطوط بالتيهوية رقم ٤٠١ لغة ، وهو برواية أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار عن أبي بكر محمد بن السري السراج عن المبرد .

(٣) مخطوط بالتيهوية رقم ٣٨٨ لغة .

(٤) مخطوط بدار الكتب ٣٤٣ لغة ويقع الكتاب في ذيل كتاب مجهول المؤلف والاسم جيمما وهو مرتب على نسق حروف المعجم ، والنسخة بها سقط بقية حرف (ص) إلى بقية حرف (ع) .

(س) مختصر في المؤنث^(١) والمذكر لأبي الحسين أحمد بن فارس ت ٣٩٥ هـ

لهجة : تميم .

عددتها : ١

(ع) الباقة في الفرق^(٢) بين المذكر والمؤنث لأبي البركات بن الأنباري (٥١٣ هـ -

٥٧٧ هـ)

لهجة : لم يعز فيه المؤلف إلى قبيلة ما .

(ف) قصيدة ابن الحاجب^(٣) ت ٦٤٦ هـ في الأسماء المذكرة والمؤنثة .

لهجة : لم يعز فيه المؤلف إلى قبيلة ما .

(ص) عقد الجوهرة في الأسماء المؤنثة والمذكرة ، نظم الإمام عبد الرحمن بن الحسن^(٤)

لهجة : أسد الحجاز نجد

عددتها : ١ ١ ١

(ق) فتح الرحمن^(٥) بشرح ما يذكر ويؤنث من أعضاء الإنسان، لأحمد بن أحمد

ابن محمد السجاعي ت (١١٩٧ هـ) .

لهجة : طيء تميم .

عددتها : ١ ١

(١) مخطوط بالتيمورية ٢٦٥ لغة .

(٢) حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب .

(٣) مخطوط بالتيمورية في مجموعة لغوية ٣٢٧ لغة .

(٤) مخطوط بالتيمورية رقم ٣٢٧ لغة في مجموعة .

(٥) مخطوط رقم ٢٦٩ لغة تيمور ، والكتاب شرح منظومته في الأعضاء التي يجوز التذكير والتأنيث وكتبها

محمد في إبراهيم ثلاث خلعت من شعبان ١٣٠٥ هـ .

(ر) رسالة في المؤنثات السماعية^(١) لنور الدين الجزائري .

لهجة : لم يعز فيها المؤلف إلى قبيلة ما .

(ش) نبذة في المؤنثات السماعية (لم يعرف مؤلفها^(٢)) .

لهجة : لم يعز فيها المؤلف إلى قبيلة ما .

(ت) الإمتاع^(٣) بما يتوقف تأنيثه على السماع للأستاذ الأكبر محمد الخضر

حسين^(٤) .

لهجة :	تميم	أسد	الحجاز
عددها	٢	٢	٣

ثالثاً

لوحة إحصائية عن مدى رواية العلماء - الذين لهم كتب لغات مفقودة - اللهجات

القبائل العربية في كتابي (المخصص : لابن سيده ، والهمع للسيوطي) :

(١) إحصائية ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) في المخصص

ابن دريد (بصري لغوي)	٣٩ مرة
أبوزيد الأنصاري (بصري نحوي)	١٣ مرة
يونس بن حبيب (بصري نحوي)	٦ مرات
الأصمعي (بصري لغوي)	٤ مرات
أبو عبيدة معمر بن المثنى (بصري لغوي)	٣ مرات
الفراء (كوفي نحوي)	٣ مرات

(١) ط بيروت ١٩٠٨ م .

(٢) مخطوط بالتيمورية ٣٢٧ لغة ضمن مجموعة .

(٣) ط مكتبة دار الفتح بدمشق .

(٤) ولد الأستاذ الأكبر في (١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م) (وتوفي سنة ١٩٥٨ م وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٩٥٢ م وكان عضواً في مجمع اللغة العربية) .

(ب) إحصائية السيوطى ت ٩١١ هـ فى الهمع :

- الفراء (كوفى نحوى) ٦ مرات ^(١) .
 أبوزيد الأنصارى (بصرى نحوى) ٢ مرتان ^(٢) .
 أبو عبيدة معمر بن المثنى (بصرى لغوى) ١ واحدة ^(٣) .

تعقيب ونقد

أولا : يلاحظ على منهج سيبويه فى إيراده لهجات القبائل من خلال كتابه :

أنه تارة يحكى اللهجات عن العرب بواسطة أبى الخطاب ^(٤) ، ويونس ^(٥) والخليل ^(٦) ،
 وكثيرا ما يقول (وجميع ما وصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب ^(٧))
 وتارة أخرى يسمعه بنفسه ^(٨) ويحكىها ، أو يوجه السؤال عنها إلى العرب فيقول :
 (سألنا العلويين والتميميين . . . ^(٩)) كما كان يصدر أحكاما منهجية عن اللهجة
 كقوله (استوت اللغتان فسارت على أقيس الوجهين ^(١٠)) أو يصف لهجة الحجاز بقوله
 (وهى عربية جائزة ^(١١)) أو بقوله (وهى اللغة العربية القديمة الجيدة ^(١٢)) أو بقوله
 «والحجازية هى اللغة الأولى القدمى ^(١٣)» .

-
- (١) الهمع ١ - ٤١ ، ٢ - ٣٤ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ٣٣ - ١ ، ١٣٤
 (٢) الهمع ١ - ١١٢ ، ٢ - ٣٣ .
 (٣) الهمع ٢ - ٣
 (٤) الكتاب ٢ - ٢٨٧ ، ٤٠٨
 (٥) الكتاب ١ - ٢٤٨ ، ٣١٧ ، ٢ - ١٦٠
 (٦) الكتاب ١ - ٣١٧ ، ٢ - ١٦٠ ، ٢٨٧
 (٧) الكتاب ١ - ٣١٨
 (٨) شرح المفصل لابن يعيش ٩ - ٧٢ ، ٧٧ ، ١١٨ ، ١٠ - ١٤١
 (٩) الكتاب ٢ - ٤٧
 (١٠) الكتاب ١ - ٢٩ ، ٣٦٢
 (١١) ٢ - ٤١٦
 (١٢) ٢ - ٤٢٤
 (١٣) ٢ - ٤١

وقد يستعمل أسلوب المعلم في عرض اللهجة مثل «إعلم أن بني تميم يقولون في موضع الرفع : ذهب أمس بما فيه^(١) . . . » وقوله (واعلم أن الهمزة التي يحقق أمثالها أهل التحقيق من بني تميم وأهل الحجاز ، وتجعل في لغة أهل التخفيف بين بين تبدل مكانها الألف إذا كان ما قبلها مفتوحا ، والياء إذا ما كان ما قبلها مكسورا ، والواو إذا كان ما قبلها مضموما وليس ذا بقياس^(٢) » وقوله «واعلم أن قوما من ربيعة . . .^(٣) » وأحيانا أخرى يؤكد الخبر كقوله في إجراء القول مجرى الظن مطلقا عند بني سليم «وسألت أبا الخطاب عنه غير مرة^(٤) » أو يحدد معالم اللهجة اتساعا وانكماشاً كقوله «وزعم لي بعض العرب أن ياهذا زيد كثير في كلام طيء^(٥) » وكقوله «فأما ناس كثير من تميم وناس من أسد^(٦) . . . » أو «سمعنا بعض بني تميم من بني عدى . . .^(٧) » .

وأحيانا تضطرب عنده الحدود بين الضرورة واللهجة فيجئ إلى القول بالضرورة ، فقد رأى في تسكين الياء في المنصوب الناقص ضرورة ، على حين أجاز ذلك أبو حاتم السجستاني في الاختيار ، وقال إنه لغة فصيحة ، وخرج عليه قوله تعالى (من أوسط ما تطعمون أهاليكم) بسكون الياء^(٨) ، كما حكم المبرد بجواز ذلك في سعة الكلام^(٩) .

أما منهج سيبويه في سند اللهجة : فكان لا يلتزم طريقا واحدا كقوله «وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون : نبيٌّ وبريئةٌ وذلك قليل ردىء^(١٠) » أو يقول «سمعنا ناسا من العرب كثيرا يقولون^(١١) . . . » أو «وقد سمعنا من العرب من يشمه الرفع^(١٢) . . . » أو «سمعنا ذلك من تميم وأسد^(١٣) » أو «وسمعنا عربيا وثوقا بعربيته يقول . . .^(١٤) » أو يروى اللهجة عن سمعها من العرب كقوله «حدثنا

(١) ٤٣ - ٢	(٢) ١٦٩ - ١٢
(٣) ٢٩٤ - ٢	(٤) ٦٣ - ١
(٥) ٣٠٨ - ١	(٦) ٢٩٩ ، ٢٩٥ - ٢
(٧) ٢٨٧ - ٢	(٨) الجمع ٥٣ - ١
(٩) شرح ابن عقيل ١ - ٧٣ حاشية	(١٠) الكتاب ١٧٠ - ٢
(١١) الكتاب ١٦٦ - ١	(١٢) المصدر السابق ١ - ٤٥٠
(١٣) السابق ٢ - ٢٨٥	(١٤) السابق ١ - ٤١٥

يونس. أن بعض العرب . . .^(١) «أو» حدثنا الخليل وأبو الخطاب أنها لغة لفزارة وناس من قيس^(٢) «وأحيانا يأتي بالسمع عاما فلا يحدد قبيلة من العرب كقوله - «وسمعناهم»^(٣) يقولون : هو يضر بها^(٤)». وإنما استعمل سيبويه سلاسل الإسناد ليحيط اللهجة بالثبوت والضبط ، وذلك أقرب إلى منهج المحدثين .

وسقنا هذا الحديث عن كتاب سيبويه ، لأنه كثيرا ما يروى اللهجات عن أستاذه . يونس البصري كما سبق ، ويونس صاحب «كتاب اللغات» المفقود ، وما في كتاب سيبويه من إشارات لهجية عن يونس تعطي صورة ما عن مؤلفه المفقود في اللغات - عن طريق غير مباشر - والذي نحاول أن نلمس شبعه من المصادر التي تكون ربما نقلت عنه .

ثانيا : بمقارنة كتب المذكر والمؤنث السابقة بكتاب الفراء في المذكر والمؤنث - نرى
أن كتاب الفراء يفوقهم جميعا في العزو إلى لهجات القبائل ، وذلك يرجع فيما أظن إلى أن الفراء - وقد ألف كتابا - لا يزال مفقودا - في اللغات - استفاد منه ، ونقل عنه فيما يختص بلهجات القبائل ، بل ربما استفاد منه غيره أيضا من ألف في هذا الفن كأبي الحسين سعيد بن إبراهيم التستري في كتابه المذكر والمؤنث حيث كان أكثر ما ينقله من لهجات معزوة إلى القبائل العربية في ظاهرة التذكير والتأنيث - كان مردها إلى الفراء^(٤) .

ثالثا : كشفت لنا اللوحات الإحصائية عن تفاوت العلماء في العزو إلى القبائل
قلة وكثرة مع اتحادهم في نوع التأليف . قارن اللوحتين الإحصائيتين لكتابي الاشتقاق للأصمعي وابن دريد . . .

رابعا : كما أبرزت لوحة إحصائية عن كتاب «ليس في كلام العرب» لابن
خالويه ؛ لأنه نقل فيه نصوصا من كتاب اللغات لأبي زيد من ذلك قوله «ليس في كلام العرب نسوة» بمعنى النسيان إلا في كتاب اللغات : نسيت الشيء أنساه نسيانا ونسيانا

(١) السابق ١ - ٣١٧

(٢) السابق ٢ - ٢٨٧

(٣) السابق ٢ - ٢٨٥

(٤) ص ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ من المخطوطة ٢٤٣ لغة بدار الكتب

وَنَسَاوَةٌ وَنِسْوَةٌ . قال : وكتبيت امرأة إلى زوجها : فوالله ما أدري أهبرت أم ملئت أم نسيت ؟ فكتب لها .

فلستُ بصراً ولا ذى ملالة ولا نِسْوَةٌ للعهد يا أم جعفر^(١)

وأرجح أن ابن خالويه كان يعبّ من كتاب اللغات لأبي زيد مباشرة ، أو أنه نقل عنه بواسطة أبي بكر بن دريد ، يؤكد ذلك أنه ورد في كتب الطبقات أن ابن خالويه أخذ عن ابن دريد^(٢) وابن دريد نقل في جمهرته من كتاب اللغات لأبي زيد^(٣) . وكان ابن خالويه كما جاء عن ابن الأنباري^(٤) يميل إلى تسجيل اللغات المختلفة .

خامساً : كما أشارت اللوحات الإحصائية إلى ارتفاع تسجيل اللهجات في الجانب الشرقي عنه في الجانب الغربي في الجزيرة العربية ، ولعل السرّ في ذلك يرجع إلى أن الجانب الشرقي كان على صلة دائمة بالآراميين والفرس والأسواق الأدبية الشرقية فتأثر بها ، وسجل حياته اللغوية ، ونشاطه الشعري ، حتى إذا أشرق فجر الإسلام وضعت رحل إليهم الرواة واللغويون فسجلوا ، اسمعوه منهم ، بعكس الجانب الغربي حيث ضمن البيزنطيون بتشجيع عرب الغرب على تسجيل تراثه وأدبه ، إذ كانت سياستهم مادية نفعية^(٥) .

سادساً : أن المفردات اللغوية الخاصة التي تدور في فلك واحد ككتب التضاد الجنسي تصور منهجا للتفكير اللغوي ، وذلك من خلال الأحكام التي كان يصدرها الرواة كقول أبي الحسين معيد التستري في كتابه المذكر والمؤنث في تعليقه على بعض الصيغ المذكرة والمؤنثة « وهو شاذ غير مختار ولا معمول عليه البتة^(٦) » وقوله « وأهل نجد يقولون زوجة

(١) في كتاب « ليس في كلام العرب » ١١٠ دار مصر . أو ملئت - وصححته كما في الجوهرة ٣ - ٤٨٥ « أم ملئت » ولمقارنة النص أنظر : الجوهرة ٣ - ٤٨٥ ، وليس في كلام العرب ١٠٩ - ١١٠ واللسان : فما ٢٠ - ١٩٣

(٢) نزعة الألباء ٣١١ نهضة مصر

(٣) الجوهرة ٣ - ٤٧٢ ، ٤٨٤

(٤) نزعة الألباء ٣١٢

(٥) الأمثال في النثر العربي القديم د . عبد المجيد هابدين

(٦) ص ٩

لأنني وهو أكثر من زوج ، وزوج أفصح من زوجة^(١) » كما أنه يحدد أبعاد اللهجة كما وكيفاً مثل « وبعض أسد وبعض عكل وبعض قيس » ، كما نرى هذه المفردات تصوريضيق الأصمعي في تقبل اللهجات ومثاله ما جاء في البلغة في الفرق بين المذكور والمؤنث لأبي البركات الأنباري « وأنكر الأصمعي فيها التذكير^(٢) » أي القفا ، وقول الأصمعي عن العنق « لا أعرف فيه التأنيث^(٣) » . كما تتكرر عبارة « ولم يعرفه الأصمعي^(٤) » في كتب التذكير والتأنيث كثيراً .

سابعاً : في إحصاء المزه للسيوطي - يلاحظ أنه نقل ٢٧ لهجة لكل من الحجاز وتميم وذلك عن يونس بن حبيب في كتابه النوادر ، كما نقل ١٦ لهجة لكل من الحجاز وتميم أيضاً عن اليزيدي في كتابه النوادر ، ومعنى هذا أن كتب « النوادر » وكتب « اللغات » كانت تدور في فلك واحد تقريباً ، يؤكد ذلك أن كتب النوادر تكثر فيها لهجات القبائل ، وذلك يقوى التقارب بينهما شكلاً وموضوعاً .

ثامناً : إن المصنفات السابقة عزت لهجات القبائل إلى بيئات جغرافية شاسعة : كاليمن والحجاز واليمامة ونجد والعالية ، وأحياناً كانت تنكش الرقعة الجغرافية حتى تبرز معالمها : كالعزو إلى عالية تميم^(٥) ، وسفلى قيس^(٦) ، أو عليا مضر^(٧) وسفلاها ، أو لغة أهل الغور^(٨) ، أو لغة أهل الجوف^(٩) . كما تعزوها حيناً إلى مجموعات قبلية وأحلاف مثل : الرباب - فقد كونوا حلفاً اشتمل على خمس قبائل وهي : ضبة وثور وعكل وتميم

(١) ص ٧ (٢) ص ٧٢ (٣) ص ٧٢

(٤) أنظر فتح الرحمن بشرح ما يذكر ويؤنث من أعضاء الإنسان : لأحمد السجاعي مخطوط رقم ٢٦٩ لغة تيمور ، والمذكر والمؤنث للتستري : ص ٢ ، ١١ مخطوط بدار الكتب ٣٤٣ لغة ، وكتاب التذكير والتأنيث للسجستاني ص ٢ ، ١٨ مخطوط بالتيبورية ٢٦٤ لغة

(٥) هو بنو عمرو بن نعيم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن : اللسان ١٩ - ٣٢٦

(٦) هم يطلونها المتفرعة منها والتي تسكن نجداً مجاورة لقيم كمقيل ونجى .

(٧) عليا مضر - هي القبائل التي تقارب المدينة وماحولها ودنا منها ، وسفلاها : هي القبائل التي تقارب نجداً .

(٨) الفائق للزغشري ٣ - ١٩٨ فإ يملها . (٩) الجهرة ٢ - ٣٠٢

وعديّ - وسموا جميعا باسم الرباب^(١) ؛ لأنهم أدخلوا أيديهم في ربّ وتحالفوا عليه^(٢) ،
ومثل الرباب - هوازن^(٣) التي يرجح أنها كانت في الأصل حلفا ضم جملة قبائل ، ومثلهما
في ذلك خثعم* - وقد ذهب (ليني ديلا فيدا) في المعلقة الإسلامية إلى أن خثعما ليست
قبيلة في الأصل ، وإنما هي حلف تألف من قبائل متعددة تجمعها مصالح مشتركة^(٤) .
كما كان العزو يشمل حيناً آخر أكبر وحدة سياسية في اصطلاح النسابين كالعزو إلى
إلى مضر وعدنان ، أو يشمل أصغر وحدة سياسية كالعزو إلى لهجات البطون والفروع
والأحياء : كلهجات بني الهُجيم^(٥) ، وزبيد^(٦) . وحيدان ، وكتب^(٧) وهما بطنان
من قضاة ، ونبهان وهي بطن من طيء ، وكعب بن ربعة وهي بطن من عامر بن صعصعة .
كما وجدت بعض مصادر الإحصاء تعزو لهجات القبائل إلى الحواضر : كلهجة مكة
والمدينة والطائف وخيبر والعراق . كما يلاحظ أن عدد اللهجات تكثر كثرة غامرة - إذا
عزيت إلى القبائل المشهورة : كتميم والحجاز على حين تخبو وتضعف إذا عزيت إلى
القبائل المغمورة . على أن الرقعة الجغرافية والمناخ الفكري كثيرا ما يحددان اللهجات كما
وكيفا ، ومن ذلك أن بعض أجزاء الجزيرة العربية كان مستودعا لنشر لهجات من نوع
خاص ، ويظهر ذلك في كثرة ما جاء عن أهل المدينة والطائف من مفردات لهجية وافرة
اختصت بها النخل والكرم ؛ لاشتهار هذين المكانين بهذين النوعين ، ومن هنا يمكن أن
نعلل وجود صورة النخلة على عملتهم النقدية^(٨) ، كما سجل القرآن الكريم ذلك في قوله

(١) نهاية الأرب للقلقشندي ١٣٣ ومعهجم كحالة ٢ - ١٥٤ وفي نسب عدنان وقحطان ص ٦ أنها أربع قبائل .

(٢) اللسان ٣٨٨/١

(٣) تاريخ العرب : ٤ - ٣٢١ جواد على * وهي بطن من أراش من القحطانية : نهاية الأرب ٢٤٣ .

(٤) تاريخ العرب ٤ - ٢٦٣ جواد على .

(٥) بطن من تميم من العدنانية . نهاية الأرب للقلقشندي ٧٨ .

(٦) بطن من سعد العشيرة من القحطانية . نهاية الأرب ٢٦٨ .

(٧) وكانت ديارها تتاخم ديار جذام من الشمال ، وتنسب إلى كتب بن زبرة ، وكانت تنزل ديار الشام
عند ظهور الإسلام .

(٨) تاريخ العرب ٨ - ١٦٥ د. جواد على

« ما قطعتم من لينة : الحشر آية ٥ » وهي النخلة بلغة الأوس^(١) ، كما لوحظ أيضا أن هذه المفردات القبلية لما هاجرت من أماكنها الأصلية - أصابها في تطوافتها وهجراتها انحراف صوتي ودلالي ؛ لأنها انتقلت إلى بيئة جديدة^(٢) .

كما يلاحظ على اللوحة الإحصائية لديوان الحماسة شرح المرزوقي أن لهجات طيء قد زادت عن غيرها من اللهجات ، بل فاقت لهجة تميم والحجاز ، وهما يتصدران ذروة الإحصاء بين القبائل ، وعلمت تفوق طيء عليهما في هذه اللوحة بأن أباتمام قد اختار أكثر شعراء الحماسة من قبيلة طيء . وما قيل عن أبي تمام يمكن أن يقال عن ابن دريد في كتابه (الاشتقاق) حيث برزت في المقدمة - لهجة اليمن ، وذلك في اللوحة الإحصائية السابقة ، وتعليل ذلك يسير ؛ إذ أن ابن دريد ينفى ، فهو متأثر بالعاطفة القبلية .

رابعاً

تفرد بعض من ألف في « كتب اللغات » بعزو بعض الصيغ .

تفرد المؤلفون في كتب (لغات القبائل) المفقودة - بعزو سجلته لهم المصادر الثانوية ولم نسمعه من غيرهم .

(١) فالفراء ٢٠٧ هـ يذكر أن « الهون^(٣) في لغة قريش : الهوان ، وبعض تميم يجعل الهون مصدرا للشيء الهين . . . إلى أن قال : سمعت الهوان في مثل هذا المعنى من بني إنسان^(٤) . قال (الفراء) قال (العربي) ليعير له : ما به بأس غير هوازه^(٥) . كما يتفرد الفراء بحكاية لهجة (القناني) . جاء في إصلاح المنطق^(٦) « ويقال : مخ رير ورار ، وهو الرقيق يدق عند الهزال كالماء . وزعم الفراء قال : لغة القناني^(٧) رير بفتح الراء وأنشد : « والساق منى بارادات الرير »

(١) كتاب اللغات في القرآن ٤٨ .

(٢) أنظر كتاب النخل للأصمعي ٦٥ - ٧١ وكتاب الكرم له أيضا ٧٥ - ٧٦ وأنظر اللسان ١٩ - ٩٨ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢ - ١٠٦ فما بعدها

(٤) هي اسم قبيلة عربية : أنظر نهاية الأرب للقلقشندي ٨٨ .

(٥) يعني : أنه هين خفيف الثمن . (٦) ص ٨٩

(٧) ينسب إلى قنان بطن من بلحارث بن كعب : اللسان ١٧ - ٢٢٩ . .

وفي لهجة القناني هذه كما رواها القراء تحولت الحركة البسيطة i أو e إلى أخرى مركبة ai وهي التي تسمى بـ Diphthong . وأرجح أن لهجة القناني أعرق في القدم من غيرها . . .

(ب) وأبو عبيدة معمر بن المثنى ت ٢١٠ هـ يتفرد بعزو ورد في تركيب غريب ، فقد جاء في الخزانة ^(١) عن عمر بن الخطاب « كذب عليكم الحج ، كذب عليكم العمرة ، كذب عليكم الجهاد ، ثلاثة أسفار كاذبين عليكم » كما ورد شاهد شعري لهذا التركيب في قول الشاعر :

وذبيانية أوصت بنيتها بأن كذب القراطف والقروف ^(٢)

وقد وردت الروايات برفع الاسم تارة ، وبنصبه أخرى أي : الحج والحج ، وفي المسائل القصريات « كذب عليكم الحج - أنه كلامان كأنه قال : كذب يعني رجلا ذم إليه الحج ، ثم هيّج المخاطب على الحج ، فقال : عليك الحج ^(٣) » وفي حجة الفارسي ^(٤) ، ومخصص ابن سيدة ^(٥) : أن مضر تنصب به ، وأن اليمن ترفع به . لكن وردت رواية في كتاب النوادر لأبي مسحل الأعرابي ^(٦) عن أبي عبيدة معمر بن المثنى في حديث عمر السابق « كذب عليكم الحج . . . أنه سمعها من العرب يرفعون بها ^(٧) في معنى الإغراء ، قال أبو عبيدة : ما خلا

(١) خزانة الأدب ٣ - ٩ لما بعدها

(٢) الخزانة ٢ - ٢٨٩ والقراطف جمع قراطف وهو القطيفة . والقروف : وعاء من الجلد يدبغ بالقرفة ويجعل فيه الخلع ويطنخ بتوابل .

(٣) الفائق في غريب الحديث ٢ - ٤٠٢ للزمخشري .

(٤) ١ - ٢١٠ مخطوط بدار الكتب

(٥) ٣ - ٨٦

(٦) ١ - ١١٤ لما بعدها ط دمشق تحقيق د : عزرة حسن .

(٧) أي يقرءون الاسم الواقع بمد كذب مرفوعا على أنه فاعل كذب .

أعرابيا من غنى^(١) - وكان فصيحاً - فإِنَّه نصب^(٢) ، وذلك أَنه دخل منزلي
فرأى شويهة مضرورة فقال : ما بال هذه على ما أرى ؟ فقلتُ : إنا لنعلقها .
قال : كذب عليك البزُر والنوى . فأتيت به يونس بن حبيب فكتبها عنه .

ويستنتج من النص السابق أن أبا عبيدة - وقد ألف كتاباً في اللغات ،
ولا يزال مفقوداً - أتى بجديد حيث أضاف (غنياً) إلى قائمة القبائل الناطقة
بالنصب ، ثم وثق هذه اللهجة بأن ساقها في جوها وبيتها ، فهي ملاحظة
مباشرة ، كما أنه أتى بالراوى إلى يونس بن حبيب - وهو من ألف في كتب
اللغات أيضاً ولا يزال كتابه مفقوداً - ليلاحظ هذا الأعرابي في لهجته ويسمع
منه ؛ ولهذا تلقف يونس اللهجة وسجلها إيماناً بأن اللهجات المخالفة يجب
أن تعيش وتبقى ، ويظهر أن أصحاب كتب اللغات المفقودة - كانوا يسجلون
موادهم عن القبائل تسجيلاً موثقاً مباشراً كما رأيت .

(ج) كما تفرد أبو زيد في نوادره^(٣) بصيغة عزاها لغة لبنى كعب بن عبد الله بن أبي
بكر حيث يقولون على التحويل « رفئت الثوب أرفيه رفاً ، والعرب تقول
« رفأت الثوب أرفؤه رفاً »

(د) وتفرد ابن دريد بذكر لغة زهران^(٤) ، ولغة الثرى^(٥) .

ويظهر أن غيرهم من العلماء الذين لم يؤلفوا في لغات القبائل - كانوا يتفردون
أحياناً بعزو بعض الصيغ القبلية كالخليل : حيث ذكر لهجة الخفاجيين^(٦) ، والليث :
فقد تفرد بذكر لهجة أهل بئنة^(٧) .

(١) قبيلة من قيس عيلان وديارها بنجد بجوار طى* وعند حمى ضرية .

(٢) أى نصب الاسم الواقع بعد كذب على الإغراء . (٣) ١٩٣

(٤) وهم بطن من شنوءة : الاشتقاق ٢٩٧ وستنقله .

(٥) الاشتقاق ٢٩٩ وهم بطن من زهران بن كعب .

(٦) العين ١١٦ ط بغداد (٧) اللسان ١٨ - ٣١٨

ويمكن أن نشير هنا سؤالا مؤداه هل كانت (كتب اللغات) تعالج وضع اللهجة في مستويات اجتماعية خاصة ؟ لا نستطيع الإجابة الآن لفقد (كتب اللغات) إلا أنني أستطيع أن أذكر أن المصادر الثانوية ورد بها عزو لطبقة اجتماعية خاصة ، ففي اللسان ج ٨ ص ٢٥٩ قال أبو عدنان : سمعت التميميات يقلن : الهوش والبوش كثرة الناس والدواب . ولا أستطيع الحزم إن كان اللسان يمثل لهجة نساء تميم عن كتب اللغات أو عن غيرها لاسيما أن الذي رواها أبو عدنان ، وليس هو من أئمة في (كتب اللغات) .

خامسا

موقف المصادر الثانوية من بعض الروايات اللهجية المسندة إلى من ألف في كتب اللغات :

كثيرا ما تنقل لنا بعض المصادر الثانوية لهجات مصدرها بعض العلماء الذين ألفوا في (كتب اللغات) ، إلا أن هذه اللهجات نقلت مبتورة أو ناقصة ، ويظن الباحث أن هذا النقص كان من المصدر الاصلى ، وبالبحث وجدت أن هذا التشويه والمسح كان غالبا من المصادر الثانوية التي نقلت عن المصادر الأولى ، ولناخذ أمثلة يسيرة توضح هذا الجانب :

(١) فقد نقل اللسان^(١) حكاية عن الفراء (وله كتاب لغات مفقود) مفادها : أن قوما من العرب يخفضون (بلعل) . فالفراء في هذه الرواية لم يحدد أى هذه القبائل التي تخفض بلعل ، وكأن إهمال العزو من الفراء نفسه ، ولكن الهمع^(٢) ينقل أن الجربها لغة عقيلية - حكاها الفراء وأبو زيد والأخفش . فالفراء وأبو زيد - وكلاهما ألف في لغات القبائل - لم يهمل العزو كما تشير إليه رواية اللسان السابقة .

(ب) وحكى ابن يعيش^(٣) عن الفراء أن بعض العرب يفتح لام الأمر ، فالرواية لم تحدد من بعض العرب ؟ وتوهم أن الفراء كان مقصرا في هذا ، ولكن السيوطي يبطل هذا الوهم حيث حكى عن الفراء أن فتح لام الأمر لغة سليم^(٤) إن لم تقع بعد الواو أو الفاء أو ثم .

(١) ٢٤ - ١٦ (٢) ٣٢ - ٢ (٣) ٢٤ - ٩ (٤) الهمع : ٢ - ٥٥

(ج) كما نقل ابن دريد عن أبي زيد - وله مؤلف في اللغات مفقود - «هداوى وهدايا»^(١) مهمة العزو كماترى ، لكن رواية اللسان عن أبي زيد هي «الهدية جمعها هدايا ، وهداوى - وهى لغة أهل المدينة ، وعن أبي زيد : الهداوى لغة عليا معد ، وسفلاها : الهدايا»^(٢) . وأرجح أن ابن دريد هو الذى اختصر العزو السابق وحذف منه النسبة إلى القبائل ؛ بدليل أن اللسان قد ساق العزو كاملا عن أبي زيد ، مشيرا إلى عزوه للقبائل .

سادسا

أحكام صدرت على لهجات القبائل مادحة حيناً ، وقادحة أخرى .

من العجيب عندما نتصفح أحد المعاجم الكبرى للغتنا العربية ، نصطدم بأوصاف وأحكام مختلفة لللهجات قبلية ونعرض الآن نموذجا من هذه الأوصاف وتلك الأحكام .

١ - صفات للهجات غير منسوبة ولا تأثير لها : كقولهم : هي لغة^(٣) ، أو لغة معروفة^(٤) مشهورة ، أو فى بعض اللغات^(٥) ، أو لغة قوم^(٦) ، أو لغة بعضهم^(٧) ، أو لغة قليلة^(٨) .

٢ - أحكام تتضمن خلع صفات لها تأثير على لهجات غير منسوبة : كقولهم - لغة رديئة^(٩) أو رديئة ، أو ضعيفة ورديئة^(١٠) أو شنعاء^(١١) أو لغة علياء^(١٢) أو اللغة العالية^(١٣)

(٢) اللسان ٢٠ - ٢٣٣

(١) الجهرة ٣ - ٤٧٢

(٣) حماسة المرزوقى ٣ - ١٣٥٩ ، ١٤٣٨ ، المخصص ٤ - ١٣٣

(٥) الجهرة ٣ - ١٩

(٤) المخصص ١٧ - ١٩

(٦) نوادر اللغة لأبي زيد ٤٠ ، الكامل للبرد ١ - ١٨٦ ط التجارية

(٧) أمالى الشجرى ٢ - ٣٤ والمخصص ١٤ - ١٤ (٨) منيبويه ٢ - ٢٩٦

(٩) أمالى الشجرى ٢ - ٣٤ ، ١ - ٣٨١

(١١) اللسان ٣ - ١٤٩ ، ٤ - ٢٢٧

(١٠) اللسان ٢٠ - ١٣٩

(١٣) المصباح ٥٧١

(١٢) أمالى الشجرى ٢ - ٧٩

أو خبيثة^(١٣) أو شرّ اللغات^(١٤) أو لغة سوء^(١٥) أو لغة لا خير فيها^(١٦) أو لا يعبأ بها ، أو لغة الخطيئة من أحياء العرب^(١٧) .

٣ - أحكام منهجية تتضمن مدحا للهجات قبلية منسوبة :

(أ) كقولهم عن لهجة الحجاز : والإدغام أحسن ، والبيان عربي حجازي^(١٨) أو عربي حسن^(١٩) ، أو (وهي الحجازية الجيدة)^(٢٠) أو (اللغة الحجازية هي اللغة الأولى القلبي^(٢١)) كما نسمع مدحا وإطراء للهجة الحجاز ولكن من نوع آخر مثل «العرب الذين ترضى عربيتهم» أو : الموثوق بعربيتهم ، أو فصحاء العرب^(٢٢) .

(ب) كما نسمع مدحا لمعسكر آخر يمثل الكتلة التميمية ، ومن ذلك : ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه ورد عليه الوفود ، فأقرأ الأخماس^(٢٣) كل خممس على لغته فكان أعرب القوم تميم . ويقول أبو عمرو بن العلاء - أفصح الناس عليا تميم . . . وفي رواية سنن تميم^(٢٤) .

(ج) بعض القبائل الأخرى : كقبيلة (جرم) قال الأصمعي : وجرم فصحاء العرب^(٢٥) ، وقال الخليل : أفصح العرب : نصر قعين ، أو قعين نصر^(٢٦) .

(١٤) الخزائن ١ - ٢٣٥	(١٣) الشافية ٢ - ٢٤٧
(١٦) المرجع السابق	(١٥) المزهري ١ - ٢٢٥
(١٨) الكتاب ٢ - ٤٠٧	(١٧) اللسان ٥ - ٤٧
(٢٠) السابق ٢ - ٤٢٩	(١٩) المرجع السابق ٢ - ٤١٢
(٢٢) العربية يوهان فلك ٥١	(٢١) اللسان ٥ - ٢٧٦

(٢٣) الفاضل للمبرد ١١٣ ، والمراد بالأخماس : أخماس البصرة وهي : العالية . بكر بن وائل . تميم . هيد القيس . الأزدي .

(٢٤) المزهري ٢ - ٤٨٣ والصاحبي ٢٨ وعليها تميم هو : بنو عمرو بن تميم - وهم بنو المهجم والعنبر ومازن .

(٢٥) الفائق للزحشرى ٢ - ٤٥٩ ، وجرم : بطن من طيء من القحطانية ٢٠٩ نهاية الأرب للقلقشندي

(٢٦) كتاب العين ٨٨ فصلة مطبوعة في بغداد ، ١٩٣ تحقيق الدكتور عبد الله عبد الفتاح درويش ،

وهم بنو نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان من أسد . نهاية الأرب للقلقشندي ٤٣٠

ويرى المقدسى^(١) أن أفصح لغات العرب هذيل ، كما يصف ابن منظور في اللسان^(٢) الخزاعيين بأنهم من (من أعرب الناس) ، وأن ثقيفا أفصح العرب . كما روى : أفصح العرب أبرهم^(٣)

وهذه الأحكام التي صدرت على لهجات القبائل أقف منها موقف الشك ؛ لأن الدافع لها إما : دبنى أو سياسى أو قبلى ، فمثلا (جرم) والحكم عليها بأنها أفصح أو من فصحاء العرب ، جاءت في حوار لمعاوية يوما عندما سأل عن أفصح الناس ؟ فقام رجل من السباط^(٤) فقال : قوم تباعدوا عن فرائية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة نعيم وتياسروا عن كسكسة بكر فقال له معاوية : من أولئك ؟ فقال : تومى يا أمير المؤمنين : فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا رجل من (جرم)^(٥) . وما يدعو إلى العجب أن رواية أخرى جاءت في خزنة البعدادى^(٦) والدرّة^(٧) وفيها بعد بيان ما سبق : مَنْ أولئك ؟ (أى : أفصح الناس) فقال : قومك يا أمير المؤمنين .

والسؤال لا تعدو في نظرى لتخريج هاتين الروايتين المتضاربتين أن معاوية إن منح برّه ، فاضعم الطعام ، وأنفق الأموال فأفصح القبائل : قبيلة أمير المؤمنين . وإن بخل الأمير ، فممنع برّه ، أو ضعفت سطوته (فجرم) أفصح العرب . هذا عن جرم !! أما أن (ثقيفا) هى الأخرى أفصح العرب ، فلا بأس من أن تكون كذلك ، ولكن يجب أن يكون ذلك في عهد الحجاج الثقفى وحده ، صاحب السيف المبلل بالدم القاتى ، الذى أذل به الأمة العربية ، وحطم عزتها به وكراستها ، فإذا بها تقر له ولقبيلته (ثقيف) بكل ما يهوى ويثمنى ، ومن السهل أن ننقد كثيرا من الروايات في ضوء السياسة حيننا ، والدين والعصبية حيننا آخر .

(١) أحسن التقاسيم ١ - ٩٧ ط ٢ نشره Degoeje (٢) ١٢ - ١٠٤

(٣) معناه أبعدهم في البر والبدو دارا (مقدمة معجم فيشر ص ١٣) .

(٤) وزان كتاب وهو الجانب أو الصف من الناس . (٥) الكادل ١ - ٣٧١ والمفصل للزنجشرى ٣٣٣

(٦) ٤ - ٥٩٥ فا بعدها ط بولا ق . (٧) ١١٤ ط أولى

على أن الكمال اللغوى فى الفصاحة فى ضوء ما طالعنا به الرواية السابقة - أمر يسيطر عليه الذوق الشخصى وتنقصه البراهين العلمية الأضيلة ، إذ لم تحدد هذه الروايات نوع الفصاحة أو الأصوات أو التراكيب النحوية أو النظام الصرفى أو الدلالى ، ثم إننا لا نعلم شيئاً ذا بال عن مستوى بعض هذه القبائل فى مجتسما مثل : جرم أو نصر قعين . وقعين نصر ؛ لأن اللغة فى مراحل حيانها لا تنفصل عن النفس البشرية والمجتمع والتاريخ ، فإذا أضفت إلى ذلك أن ما جمعه من اللوحات الإحصائية لجميع لهجات القبائل ، لا ترى فى (جرم) ولا فى (نصر قعين) ما يراه الخليل من أنهم يمثلون الفصاحة فضلاً عن أنهم « أفصح العرب » .

٤ - أحكام منهجية تتضمن قدحا للهجات قبلية منسوبة :

! عرضنا فيما تقدم أحكاماً منهجية تتضمن قوافل المادحين للهجات بعض القبائل وعقبت على ذلك بما أراه ، وسنعرض الآن مواكب القادحين كذلك ، معقبا فى ذلك كله بما أراد أيضا . فقد عثرت على أحكام من نوع آخر غير ما سبق تتشمل فى مصادرة اللهجة ومقاومتها أو معارضتها من ذلك مثلا :

(١) موقف الأنخس ٢٢١ هـ حين عقب على قراءة قرآنية صورت لهجة عربية وهى لهجة بنى يربوع بقوله « ما سمعت هذا من أحد من العرب »^(١) ولا من النحويين « وأنكرها كذلك أبو حاتم ت ٢٥٥ هـ^(٢) : وأما موقف أبى العباس المبرد ت ٢٨٥ هـ منها فكان صارما عنيفا صارخا ، يصور غضبه هذا وثورته ما جاء فى تفسير القرطبي^(٣) على لسان المبرد من قوله « لو صليت خلف إمام يقرأ (بمصرخى) »^(٤) بالكسر لأخذت نعلى وفضيت « فانظر كيف بهتج الرجل على سماعه لهجة عربية تواكبها قراءة قرآنية - بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامتهم ! . وقد نعتها الزجاج ت ٣١١ هـ بأنها « عند جميع النحويين رديئة »

(١) البحر المحيط ٥ - ٤١٩ ، وأنظر الخزانة ٢ - ٢٥٨

(٢) الدر اللقيط ٥ - ٤١٩

(٣) ٥ - ٣

(٤) سورة إبراهيم من الآية ٢٢

مرذولة^(١) « !! أما الزمخشري ت ٥٣٨ هـ فاكتفى بأن رماها بالضعف^(٢)
أما المعري ت ٤٤٩ هـ فيرى (إجماع أصحاب العربية على كراهة هذه
القراءة^(٣)) كما يرى أن أبا عمرو ما أجاز هذه القراءة إلا متهزئا^(٤) .
وإذا كان جميع ما تقدم من العلماء - القادحين من البصريين ، فإننا
لا نعجب لموقفهم وإنكارهم لهجة عربية صحت سماعا ، كما أنها صحت
قياسا ؛ إذ الياء كسرت اتباعا للكسرة التي بعدها في (بمصرخى^(٥) لني)
واللسان فيها يعمل من موضع واحد ، ووجه واحد ، ففيها الانسجام
وتقريب الأصوات بعضها من بعض ، وتلك شريعة العربية وسنة فيها
متبعة ، وإنما العجيب أن ينكرها شيخ من علماء الكوفة ، ويرمى
قارئها بالوهم^(٥) ذلكم هو أبو زكريا الفراء .

(ب) وفي شرح التصريح^(٦) في مبحث ما لا ينصرف « وأما ما نقل عن بني
أسد أنهم يقولون : « سكرانة » ويصرفون « سكران » فقال الزبيدي :
« ذكر يعقوب أن ذلك ضعيف رديء » . ثم قال : وقال أبو حاتم :
لبني أسد منا كبير لا يؤخذ بها « وكتب الشيخ « يس » على قوله : وقال
أبو حاتم : « لبني أسد منا كبير . . . » قال : وجه كونها منا كبير
أنها مخالفة للغات الفصيحة^(٧) .

(ج) فإذا أسرع بنا عجلة التاريخ وجدنا الهمداني ت ٣٣٤ هـ يصف بعض
اللهجات - عند حديثه عن العلاقات اللغوية في جنوب الجزيرة العربية -

(١) إبراز الماني ٣٦٩ لأبي شامة . (٢) خزائن الأدب للبندادي ٢ / ٢٥٩

(٣) التصريح ٦٠ / ٢ (٤) الغفران المعري ٢٣٩ فما بعدها .

(٥) قرأها الأعمش ويحيى بن وثاب ، كما قرأ بها حزة أحد القراء السبعة .

(٦) ٢ / ٢١٣ وأنظر النص في كتاب لحن العوام للزبيدي ص ١٦٢ تحقيق د . رمضان عبد التواب وفيه
(ولبنى أسد لغات يرغب عنها) .

(٧) حاشية « يس » على التصريح ٢ / ٢١٣

كلهجة عدن - بأنّها « مولدة رديئة » وفي بعضهم « نوك وحمافة »^(١)
وبعضهم « غتم »^(٢) كما يصف بعض لهجاتهم بأن فيها « قحّة
متعقدة »^(٣) كما أنكر الأزهرى (٢٨٢ - ٣٧٠ هـ) لهجة هذلية معتمدا
في ذلك على الطعن في نصر بن سيار^(٤) ، ووسمه بأنّه ليس بحجة
لأنه رواها^(٥) ، وهنا يعتمد الأزهرى في غمز اللهجة على الطعن في
سندها .

ويصف المقدسى ٣٧٥ هـ لسان الأحقاف بأنّه « وحش »^(٦) أو أن لسان
هراة - لا يصلح إلا للكنيف^(٧) . ويصف اللهجة بأن فيها « انغلاقا »^(٨)
أو لسانهم فيه حلاوة أو عجلة^(٩) ، أو في كلامهم طنين^(١٠) ، وأخيرا
يسم عربية العراق بأنّها « حسنة فاسدة »^(١١) ويرى الدكتور إبراهيم أنيس :
أن المقدسى لم يكن فيما يبدو أكثر من رحالة أو عابر سبيل يصف ما يقع
له وصفا سريعا دون دراسة قائمة على أسس علمية فلم يكن متخصصا
في دراسة اللهجات^(١٢) .

ويصف ابن جنى (٣٩٢ هـ) لهجة عربية بأنّها لغة مرذولة^(١٣) . كما نرى

(١) صفة جزيرة العرب : ١٣٤ للهمداني تحقيق بليهد النجدي .

(٢) السابق ١٣٥

(٣) السابق ١٣٥

(٤) السماع والقياس ٤٣ تيمور

(٥) اللسان ١ - ٤٠٠

(٦) أحسن التقاسيم ٩٧ .

(٧) السابق ٢ - ٣٣٥ والكنيف في الأصل : السائر ، وقيل للمرحاض كنيف ؛ لأنه يستر قاضى الحاجة .

(٨) السابق ٣٦٨

(٩) السابق

(١٠) السابق ١٢٨

(١١) السابق ٢ - ٤١٨

(١٢) مستقبل اللغة العربية المشتركة ٣٥ فا بعدها للدكتور إبراهيم أنيس .

(١٣) المحاسب ١ - ١١٠ مخطوط بالتميمورية .

أحمد بن فارس ت (٣٩٥ هـ) وهو كوفي ^(١) أو من خلط المذهبين ^(٢) -

قد ظهرت معارضته للهجاء القبائل في صور منها :

(أ) الشك في كثير منها ^(٣)

(ب) رمية ابن دريد بالتدليس عندما يعزو لليمن ^(٤)

(ج) غمزه لبعض اللهجات ^(٥) ، وصخريته منها ^(٦) .

وكذلك الحريري (٥١٦ هـ) يسم أسلوبا يمثل لهجة عربية بقوله « وهو

ملا يعبأ نولا يقاس عليه ^(٧) » كما حكم على صيغة (أرياح) بالخطأ ،

وصوابها عنده « هبت الأرواح » . مع أنها لغة لبني أسد ^(٨) . وعلى سنته

نسمع أبا شامة (٦٦٥ هـ) يعقب على إحدى اللهجات بقوله « ولا تعجبني

تلك اللغة ؛ لأنها ليست لغة أهل الحجاز ^(٩) » كما يصف بعض العلماء

لهجة يمنية بقوله « وهذه لغة لا ينبغي أن يلتفت إليها ، فإن اللغة اليمنية

فيها أشياء منكورة خارجة عن المقاييس ^(١٠) » .

ويمكن أن نلمح أوصافا عدة ، وأحكاما كثيرة على لغات : أهل مكة والمدينة

والبصرة والكوفة وغيرها ^(١١) .

ولعل سبب هذه الأحكام القاسية التي رأينا طرفا يسيرا منها أنها صدرت عن دوائر

اللمحاة : كالأنفوش والفراء والمبرد والزجاج والمعري والزمخشري وأحزابهم ، أو من

لغويين متزمطين ككاتب حاتم والحريري والأزهري وابن فارس ، وهؤلاء جميعا أصحاب

(١) إنهاء الرواة ١ - ٩٤ والبغية ١ - ٣٥٢

(٢) الفهرست ١٢٥ (٣) المقاييس ٢ - ٢٨٥

(٤) المقاييس ٤ - ٣٠٧ (٥) المقاييس ٤ - ٢٩

(٦) المقاييس ٤ - ٣٧٨ (٧) الدرة : ٣٥

(٨) شرح الدرة ٢٦ وحكاها الحياني (٩) إبراز المعاني لأبي شامة ٤٨٨

(١٠) ما تلحن فيه العامة للكسائي : ٣٥ هامش

(١١) البيان والتبيين الجاحظ : ١ - ١٨ فما بعدها ، ص ٤٦ .

ومعايير موضوعية ، ومقاييس مصنوعة ، ونظم ضاعطة آسرة^(١) ، فحاولوا إخضاع اللهجات لها مع اختلاف مشاربها ومنازعتها ، ولما فلتت هذه اللهجات من أحكامهم وموازينهم وتقنينهم رموها بما سبق من : رداثة وسوء ، وقحة وشناعة ، وخبث وشر ! وخطيئة وحماقة ، وفساد وانغلاق .

والمفروض أن أصحاب كل لهجة عربية كانوا يراعون مستوى صوابيا اجتماعيا عندما يتكلمون وعلى أساس هذا المستوى يكون الحكم بالصحة والخطأ ، والمجتمع وحده - لا النحاة ولا اللغويون - هو الذي يصدر مثل هذه الأحكام ، أو يخلق هذه الصفات ، وهذا المستوى الصوابي كما يراه الدكتور تمام^(٢) : فكرة لا تتصل باللغة فحبيب ، وإنما تتناول كل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي ، وتوجد في كل شعب الثقافة بالمعنى الأعم ، أي بالمعنى الأنثروبولوجي الذي يشمل العادات والتقاليد واللغة والدين وغيرها .

سابعاً

مدى التناقض في الروايات المسندة إلى من ألف في « كتب اللغات » :

ورد في المصادر العربية روايات كثيرة حملت بذورا للهجات القبائل ، رواها أو سمعها من العرب العلماء الذين ألفوا (كتب اللغات) التي تحدثنا عنها ، وقد اشتملت هذه الروايات على اضطراب وتناقض في عزو لهجات القبائل العربية ، وهذه نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر لاحظت أن يكون الراوى لها أو أحد روايتها من الذين ألفوا في (كتب اللغات) المفقودة :

(أ) عن ابن دريد (وقد ألف كتاباً في اللغات) : الرُمخة : والجمع الرُمخ

(١) انظر مثلاً من دوائر النحاة قول ابن مالك في (اشتغال العامل عن المعمول)
(فما أبيع أفعل ودع مالم يبيع) . وتستطيع أن تسمع في هذا الشطر دكتاتورية النحاة الصارمة ، وكأنهم قادة حرب في ميدان حرب يأمرون وينهون .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ٥٧ ، ٦٧ دكتور تمام حسبان ١٩٥٨ م .

وقالوا : الرِّمَج وهو البَلَح لغة يمانية ^(١) ، وفي نسخة أخرى من الجُمهرة قال : بأنَّها لغة طائية ^(٢) .

كما ورد في الجُمهرة عن ابن دريد مادة (جَبَى) : الجَبَى : ما حول البئر لغة يمانية ، وفي نسخة أخرى من الجُمهرة لغة تميمية ^(٣) .

وفي الجُمهرة عن ابن دريد مادة (حَفَو) والحوَف : في لغة مهرة بن حيدان : الثوب ، وفي نسخة أخرى من الجُمهرة في : لغة هذيل ^(٤) .

كما روى عن ابن دريد أيضا في مادة (السرح) وأهل الحجاز يسمون الأسد : سرحانا ، وفي نسخة أخرى من الجُمهرة : وأهل اليمن ^(٥) .

(ب) استشهد اللغويون بقول أبي ذؤيب الهذلي :

على أَطَرَقًا بالياتُ الخيما م إلا الثمامُ وإلا العصى ^(٦)

ويروى : (علا أَطَرَقًا) من العلو - فعلا ماضيا . وأطرقا - بضم الراء - جمع طريق في لغة هذيل ، فمن أنث الطريق جمعه على أَطَرَق مثل : عناق وأعناق ، ومن ذكر جمعه على أَطَرَقاء : كصديق وأصدقاء فيكون قد قصره ضرورة ^(٧) . وأرجح أن (أطرقا) ليس جمع طريق على لغة هذيل ؛ لأنني وجدت هذليا آخر استعمل (أطرقا) ^(٨) و (أطرقى) ^(٩) فهي اسم مكان أو موضع بالحجاز بدليل تغيير صيغته ، وكثيرا ما تخضع أسماء المكان والبلدان لمثل هذا التحريف . والذي دفعني إلى الحديث عن ذلك أن الأصمعي وهو ممن ألف في اللغات - لم يسر في ركاب من جعله جمع طريق على لغة هذيل بل ذهب في هذا : أن ثلاثة نفر

(١) الجُمهرة ٢ / ٢١٤ (٢) المرجع السابق .

(٣) الجُمهرة ٣ / ٢٠٠ (٤) السابق ٢ / ١٧٩

(٥) السابق ٢ / ١٣٢ (٦) ديوان الهزليين ١ / ٦٥

(٧) معجم البلدان ١ / ٢٨٦ ط السعادة (٨) معجم ما استعجم ١ / ١٦٧ فا يمدّها تحقيق السقا

(٩) رواية أخرى لشاهد أبي ذؤيب : معجم البلدان ١ / ٢٨٦

كانوا بهذا المكان فسمعوا أصواتا فقال أحدهم لصاحبيه (أطرقا) فسسى بذلك.
وما يؤكد ذلك ما جاء في معجم البلدان^(١) من قول عبد الله بن أمية المخزومي :

إني زعيم أن تسيروا وتهربوا وأن تتركوا الزهران تعوى ثعالبه
وأن تتركوا ماء بجزعة أطرقا وأن تسلكوا أي الأراك أطايبه
فالظهران والأراك : اسما مكان ، واقتران (أطرقا) بهما يؤكد أنها اسم مكان أيضا .

كما ورد في اللسان شاهد منسوب إلى قيس بن العيزار الهذلي :
بما هي مقناة أنيق ثباتها مرب فتهاوا المخاض النوازع^(٢)

فمقناة - بالقاف معناها موافقة لكل من نزلها من قومه ، مقناة البياض بصفرة ؛
أي يوافق بياضها صفرتها . لكن ورد عن الأصمعي : أن (مقناة) بالفاء
لغة هذيل^(٣) فما ورد عن الأصمعي مقناة - بالفاء وهي لهجة هذيل يعارضه ما عزي
إلى قيس بن عيزارة - وهو من هذيل ، وجاء بها بالقاف في ديوان قبيلته^(٤) ، ولهذا
أرجح أن التصحيف لعب دوره في هذه الكلمة ، فجاءت على هذين الشكلين ،
وما أكثر ما يفعل التصحيف ! والدليل على أن الكلمة مصحفة - أننا لم نجد
إلا شاهدا (لمقناة) بالقاف دون الفاء .

وإذا كان الأصمعي قد خانه التوفيق في هذه المرة ، فقد واتاه ووا كبه عندما ساق
السيوطي أمثلة لتعاقب الفاء مع القاف في قولهم : العقار - بالقاف : إصلاح النخل
وتلقيحها ، كما أوردها (العفار) بالفاء - بهذا المعنى^(٥) وأرى أنه تصحيف من
السيوطي بدليل ما جاء في كتاب (النخل) للأصمعي من قول أهل المدينة « كنا في العفار -
بالفاء : أي إصلاح النخل وتأبيره^(٦) » كما أن السيوطي قد خانه التوفيق حين ساق

(١) ٢٨٦ / ١ (٢) اللسان ٢٠ / ٢٦ وفي ديوان الهذليين : ٧٩ / ٣ قيس بن عيزارة .

(٣) اللسان ٢٠ / ٢٦ (٤) ديوان الهذليين ٧٩ / ٣ (٥) المزهر ١ / ٥٥٥

(٦) كتاب النخل للأصمعي ٦٩ ضمن مجموعة باسم (البلغة في شذور اللغة) ط الكائنوليكية .

هذا على سبيل الإبدال والتعاقب بين الحرفين . ولا أرى ذلك ؛ إلا إذا كانت هناك علاقة مخرجية أو وصفية بين البدل والمبدل منه تسمح بانتقال أحد الصوتين إلى الآخر ، ولا علاقة بين القاف والفاء .

(ج) ورد في ديوان الهذليين^(١) قول أبي دويب :

تدلى عليها بين سبّ وخيطة بجرءاء مثل الوكف يكبو غرابها

يشير إلى أن الخيطة : الوند بلغة هذيل ، والسبّ بلغة هذيل : الحبل .

لكن ذكر أبو عبيدة (وهو ممن ألف كتابا في اللغات) ما يخالف هذا في بيت الهذلي ، وفسّر الخيطة بالحبل ، والسبّ بالوند^(٢) .

(د) روى أبو عبيد في الغريب المصنف^(٣) أنه سمع من أبي زيد الأنصاري (وهو ممن

ألف كتابا في اللغات) قوله : السدفة في لغة تميم : الظلمة ، والسدفة في لغة

قيس : الضوء . وقد وردت روايتان مماثلتان لما تقدم عن أبي زيد ، أولاهما

في كتاب الأضداد للأصمعي^(٤) وثانيتهما في اللسان^(٥) . لكن العجيب أن ترد رواية

رابعة في مخصص بن سيده^(٦) تفيد عكس ما تقدم حيث أن : السدفة في لغة تميم :

الضوء ، وعند قيس : الظلمة^(٧)

(هـ) ورد في لسان العرب^(٨) : الوديلة - هي المرأة : طائفة . قال أبو عمرو

الشيبياني ، وهو ممن ألف (في كتب اللغات) قال الهذلي : الوديلة : المرأة

(٢) الجوهرة ١ / ٣٢

(١) ٧٩ / ١

(٤) ص ٣٥

(٣) أنظر المزهر ١ / ٣٩٠ ، ٤٠١

(٦) ٤١ / ٩

(٥) ٤٧ / ١١ نابعها

(٧) لعل اختصاص كل قبيلة بمعنى جاء متأخرا ، والمعنى العام : أن السدفة كانت تعبر عن حالة بين الظلمة

والنور ، ثم تحدد معناها عند القبائل فأدى إلى التضاد (في اللهجات العربية ٢١٢ ط ٣ دكتور أنيس) . وذلك معنى ماجاء في المخصص ٩ / ٤١ : وبعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة جميعا كوقت ما بين صلاة الفجر إلى الإسفار .

(٨) ٢٤٩ / ١٤

في لغتنا ، ثم ساق ابن منظور شاهدا على ذلك من قول أبي كبير الهذلي :
وبياض وجه لم تحل أسرارُه مثل الوديلة أو كَشَنَفُ الأَنْضُرِ^(١)

كما فسّر الزمخشري (الوذائل) في شعر الطرمّاح بأنّها جمع وذيلة وهي
المرآة بلغة هذيل^(٢).

فالوذيلة - كما ترى مرة : هي المرآة في لغة طيء ، ومرة أخرى هي المرآة
في لغة هذيل ! ! والعجيب أنها فسّرت في شعر الطرمّاح على أنها لغة هذيل ،
والطرمّاح من طيء ! !

(و) ولنستمع إلى جحفة من الروايات المختلفة المتناقضة في مادة واحدة حيث شارك
في روايتها ابن دريد وغيره .

١ - يقول الخليل في العين بتحقيق الكرمل : تقول هذيل : عَنَج على
شَنَج . « بفتح النون فيهما » أي رجل على جمل^(٣) ، وفي تحقيق
الدكتور عبد الله درويش * « عَنَج على شَنَج » . بسكون النون فيهما .

٢ - الشنَج والغنَج : الشيخ الكبير . فأمّا العنج - بالعين غير المعجمة :
البعير لغة هذلية . يقال : رأيت شيخا على عنج أي شيخا مسنّا على
بعير^(٤) .

٣ - تقول هذيل : شَنَج على عَنَج . أي : شيخ على بعير ثقیل^(٥) .

٤ - الشَّنَج : الشيخ في بعض اللغات . ومن أمثالهم : شَنَج على عَنَج : أي
شيخ على بعير ثقیل ، والعنج : الشيخ في بعض اللغات^(٦) .

(١) وفي ديوان الهذليين ١٠٢/٢ « كسيف » . (٢) اللسان (وذل) .

(٣) كتاب العين ١٣٦ ط بغداد تحقيق الكرمل .

* كتاب العين للخليل : ١ / ٢٦٦ تحقيق الدكتور عبد الله عبد الفتاح درويش . « ويقال بالعين » .

(٤) إبدال أبي الطيب ٢ / ٢٢٦ فإيهامها ط دمشق .

(٥) الجهرة ٢ / ٩٧ (٦) المحقق ١ / ٤٤

- ٥ - هذيل تقول : غنج على شنج . الغنج : الشيخ . والشنج : الجمل^(١) .
 - ٦ - الشنج : الشيخ هذلية . يقولون : شنج على غنج . أى شيخ على جمل^(٢)
 - ٧ - الغنج : الشيخ . وهذيل تقول : غنج على شنج . يريدون بالغنج :
الشيخ ، وبالشيخ : الجمل^(٣) .
 - ٨ - الغنج - محركة : الشيخ هذلية لغة فى المهمله ، والشنج محركة -
الجمل^(٤) .
 - ٩ - هذيل تقول : غنج على شنج . الغنج : الرجل ، وقيل : الغنج - الشيخ
فى لغة هذيل ، والشنج : الجمل الثقيل^(٥) .
 - ١٠ - هذيل تقول : غنج على شنج . أى : رجل على جمل . فالغنج هو
الرجل ، والشنج هو الجمل^(٦) .
 - ١١ - شيخ على غنج : أى شيخ هرم على جمل ثقيل ، والغنج بلغة هذيل : الرجل ،
وقيل ، هو بالغين معجمة . قال الأزهري : ولم أسمعه بالعين^(٧) من
أحد يُرجع إلى علمه ، ولا أدري ما صحته^(٨) ؟
- فانظر إلى التشويش والخلط ، والتصحيح والتحرير ، حيث جعلوا
(العنج) بالغين مرة ، وبالعين أخرى ثم هما بفتح النون (عنج ، شنج)
فى رواية وبسكونهما فى أخرى ، كما اختلفوا فى دلالة (عنج) فجعلوه مرة

(١) المحكم : الغين المعجمة والجيم والنون . نقلا من إبدال أبى الطيب ٢ - ٢٢٧ تحقيق .
(٢) المحكم حرف الشين والجيم والنون نقلا من إبدال أبى الطيب ٢ - ٢٢٧
(٣) جامع القزاز : أنظر إبدال أبى الطيب ٢ - ٢٢٧
(٤) القاموس : (الغنج ، والشنج) (٥) لسان العرب ٣ - ١٦٢
(٦) لسان العرب ٣ - ١٣٤ (٧) صحتها (بالغين) المعجمة كما فى التاج (عنج) .
(٨) اللسان ٣ - ١٥٤ .
* قارن كتاب العين للخليل ١٣٦ تحقيق الكرمل ، بالكتاب نفسه ١ - ٢٦٦ تحقيق الدكتور عبد الله هبى الفتاح
درويش .

(الشيخ) ومرة (الرجل) ، ثم نرى : الغنج أو العنج مكان الشيخ ، أو بمعنى الجمل والبعر ، ثم أخيراً نرى (الشنج) بمعنى الشيخ ، أو الشنج بمعنى الجمل - كل هذا عند قبيلة واحدة في مكان واحد ، وزمان واحد !
وقد طلبتُ استشارة واحد من هذيل وهو ساعدة بن جويّة فأجابني من شعره المسجل في ديوان قبيلته^(١) .

فناشوا بأرسان الجياد وقربوا عذاجيجهم مجنوبة بالرواحل
(فالعناجيج) كما ترى : بالعين المهملة لا المعجمة ، ومعناها : الإبل الطويلة الأعناق ، وبهذا وحده ينكشف النقاب عن وجه الصواب . وربما يرجع هذا الخلط إلى أن المادة اللهجية للقبيلة - حين عبرت التاريخ الطويل على أيدي الرواة - لم يكن السبيل إلى نقلها التلق والمشافهة ، بل كان السبيل وحده هو التخمين والاجتهاد وتفاوت الذوق بين الرواة في فهم المادة اللهجية ؛ ولهذا أصيبت بالمسخ والخلط ، كما أصيبت الدلالة بما هو أقسى ، حتى أن ديوان القبيلة - وهو الأثر الباقي من دواوين القبائل - لم يسلم من هذا العبث . يوضح هذا المعنى الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه^(٢) حيث يرى : «أن شراح ديوان هذيل حين كان يعيهم تفسير كلمة من الكلمات أو تبرير صيغتها كانوا يعمدون إلى القول بأنها لهجة هذيل ، فليس ما ورد بالديوان مما يسمى بلغة هذيل إلا نوعاً من مماحكات المفسرين والشرح » بل إن أكثر هؤلاء الرواة كانوا لا صلة لهم بهذيل ؛ ولهذا لم يستشيروا الهذليين في معنى أشعارهم وألفاظهم ، ومن هنا يجب أن نتقبل نقل هؤلاء الرواة بحذر شديد ، وحيطة بالغة . وروية وأناة .

(ز) روايات متضاربة في مادة واحدة شارك في روايتها عن العرب : الفراء ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد ، والأصمعي . وجميعهم ألفوا كتباً في (اللغات) .

(١) ديوان الهذليين ٢ - ٢١٩ وانظر شرح أشعار الهذليين ٣ - ١٠٢٥ ، ١١٨٣ .
(٢) في اللهجات العربية ٤٤ ط ٣ وانظر نماذج نقدية أخرى في لغة الديوان ص ٤٤ - ٤٥

١ - رواية أبي زيد الأنصاري ورد في نوادر اللغة لأبي زيد^(١) « ويقال : فاضت نفسه : لغة ضبة ، قال دكين « فُقيئت عين وفاضت نفس^(٢) » .

وفي الجمهرة^(٣) عن أبي حاتم قال : « سمعت أبا زيد يقول : بنو ضبة وحدهم يقولون : فاظت نفسه » وفي اللسان^(٤) عن أبي حاتم : سمعت أبا زيد يقول : « بنو ضبة وحدهم يقولون : فاضت نفسه » وكذلك حكى المازني عن أبي زيد . وفي كامل المبرد^(٥) عن أبي زيد قال : « كل العرب يقولون : فاضت نفسه إلا بني ضبة ، فإنهم يقولون : فاظت نفسه » .

٢ - رواية أبي عبيدة . قال المبرد : أخبرني التوزي عن أبي عبيدة قال : كل العرب تقول : فاضت نفسه بالضاد - إلا بني ضبة^(٦) فإنهم يقولون : فاظت نفسه بالظاء^(٧) . وفي اللسان^(٨) عن أبي عبيدة قال : فاظت نفسه بالظاء لغة قيس ، وبالضاد لغة تميم .

٣ - رواية الفراء . ورد في اللسان^(٩) عن الفراء : أهل الحجاز وطبيء يقولون : فاظت نفسه ، وقضاة و تميم وقيس يقولون : فاضت نفسه . وفي مكان آخر من اللسان^(١٠) عند الفراء أيضا أنه عزا صيغة الضاد إلى تميم و كلب .

٤ - رواية الأصمعي . روى عنه أبو القاسم الزجاجي أنه : كان لا يجمع بين الظاء والنفس^(١١) - أي أن الأصمعي لا يجيز : فاظت نفسه - بل يقول : فاضت نفسه . على حين أجاز ذلك أبو زيد « فاضت نفسه وفاظت نفسه^(١٢) » كما وردت الشواهد على ذلك من لغة العرب مما يقف في وجه الأصمعي^(١٣) . ويظهر أن الأصمعي وقع في حيرة من أمر

(١) ٢٤٠ (٢) الصواب : ففقيئت : أنظر لإصلاح المنطق ٢٨٦ .
(٣) ١٢٣ - ٣ (٤) ٧٧ - ٩ (٥) ١٥٧ - ١
(٦) وهي من طائفة من العدنانية - أخت تميم : نهاية الأرب للقلقشندي ٣١٨ ، قبائل العرب ٢ - ٦٦١ كماله .
(٧) المزهر ١ - ٥٦٢ (٨) ٧٧ - ٩
(٩) ٣٣٤ - ٩ (١٠) ٣٢٣ - ٩
(١١) اللسان ٩ - ٣٣٤ (١٢) الجمهرة ٣ - ١٢٢
(١٣) شرح ابن عقيل ١ - ٢٨٣ واللسان ٩ - ٣٣٤

هذين الحرفين حين قال : تتبعت لغات العرب كلها فلم أجدها فيها أشكل من الفرق بين الضاد والظاء^(١) . والصاحب بن عباد ت ٣٨٥ هـ يرى أن هذين الحرفين « قد اعتاص معرفتهما على عامة الكتاب ، لتقارب أجناسهما في السماع ، واشكال أصل تأسيس كل واحد منهما ، والتباس حقيقة كتابتهما »^(٢) والقاضي محمد بن نشوان الحميري ت ٦١٠ هـ يرى أن الذي لا يستطيع أن يفرق بين هذين الحرفين : يهمل في هوى المهالك ويكتب الضاد بصورة الظاء والظاء بصورة الضاد ، ويكون إصلاحه كالإفساد ، وعلى هذا أكثر كتاب هذا الزمن^(٣) .

والذي يهمني أن أقرر أن هذه الروايات السابقة ، وجميعها لعلماء ألفوا في (كتب اللغات) - تتناكر ولا تتلاقى حتى عند الراوى الواحد ، وهى فى النهاية تؤكد صلتها بـ (كتب اللغات) بل هى لحمتها وسداها . وما عبر عنه الأصمعى : بأنه لم يجد أشكل من الفرق بين الضاد والظاء ، يؤكد ما روى من أن رجلاً قال لعمر « يا أمير المؤمنين : أظننى بضبي ؟ قال وما عليك وقلت : أضحى بضبي ؟ قال إنها لغة . قال : انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش »^(٤) ، وفى رواية أخرى أنه كسر لام لغة ، فكان عجبهم من كسره لام لغة أشد من عجبهم من قلب الضاد ظاء ، والظاء ضادا^(٥) . ولهذا حذر ابن الجزرى فى النشر^(٦) من الخلط بينهما لاسيما فى القرآن ، لأنه قد يؤدى إلى حرج دينى ولبس فى المعنى يقول : « فليحذر من قلبه » أى صوت الضاد إلى الظاء لاسيما فيما يشبهه بلفظه نحو : ضل من تدعون إلا إياه « يشبهه بقوله « ظل » أى : بقى من تدعون ، وشتان بين المعنيين .

ويظهر أن الضاد التى وصفت فى كتب القدماء قد مرت بسطوار تاريخية حتى وصلت إلى ما هى عليه فى لهجاتنا الحديثة ، وكانت فى تطورها تنطق أحيانا : كالظاء وأحيانا : كالزاي وأخرى : كالصاد - ولهذا كانت الضاد العربية تقابل صاداً فى اللغات الأكدية

(١) البيان والتبيين ٢ - ٢١٥

(٢) الفرق بين الضاد والظاء : ص ٣ للصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد . بغداد ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

(٣) مختصر فى الفرق بين الضاد والظاء : ص ٤ للقاضي محمد بن نشوان . بغداد ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

(٤) المزمهر ١ - ٥٦٣ (٥) السابق ١ - ٥٦٣

(٦) ١ - ٢١٩ فاعدهما

والعبرية ، كما تقابل ظاءاً أو صاداً في اللغة الأوجريزية ، كما كانت تكتب صاداً في الكتابات النبطية وتنطق صاداً ، وهذا مهد للخلط الذي ذاع وانتشر في العصور المتأخرة في العراق والأردن وليبيا والمغرب وغيرها ، كما وجد هذا الخلط بينهما في بقاع بعيدة كصقلية^(١) والأندلس^(٢) .

وفي النهاية : لقد اغتالت يد الضياع ثروة لغوية عزيزة ، حين فقدت الكتب التي ألفت في (اللغات) إذ كانت تصور جانباً لغوياً شعبياً بعد أن انقطع دورانه على الألسنة فشمرت لجمعها بآسانيدها على طريقة المحدثين من خلال المصادر العربية على اختلاف نحلها ، وتعقببتها جرداً وبحثاً فرصدت الروايات والسماعات والنقول الخارجية المبتوثة في كتب علوم القرآن واللغة والشعر والنحو والأمثال والغريب والنوادر والمفردات التي سبقت المعاجم ، والتي كان مصدرها هؤلاء الأعلام الذين ألفوا (كتب اللغات) .

ولقد لمحت في هذا العمل بذورا هامة للعربية في تاريخها الطويل على المستويات الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية - بعد أن ضمن التاريخ في فجره وضحاها بتسجيله فلم يفتح قلبه ليسطر لهجات هذه القبائل ؛ لأنه رأى في بعثها قطع روابط شعوب الأمة العربية ، وتأكيدها لظهور العصبية ، ولو كان قد سجلها التاريخ - حفاظاً على مجد أمة ، وتاريخ شعب ، ومستودع حضارة - لأمكننا قبل الآن أن نكتب مولفاً في تاريخ لهجات القبائل العربية وأدوارها الاجتماعية ، وأن نسد رقعة في هذا العمل قد اتسعت اليوم على الراقع .

(١) يؤيد هذا ما يقوله ابن مكي الصقلي ت ٥٠١ هـ «فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرقون بينهما في كتاب ولا قرآن» تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص ٩١ تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر .

(٢) يؤكد هذا أن أبا بكر الزبيدي الأندلسي ت ٣٧١ هـ - ورد له خطاب من الوزير أبي الحسن المصمعي جاءت فيه كلمة (فاضت نفسه) بالضاد فجأبه الزبيدي بمنظوم بين له فيه الخطأ دون تصريح :

قل للوزير السني محته
لى ذمة منك أنت حافظها

.....

لا قدمن حاجتي مطرحة فإن نفسي قد فاظ فائظها

— معجم الأدباء ١٨٢ - ١٨٢

كما قدمت في هذا العمل لغة إحصائية^(١) شاملة (لأول مرة) - ولغة الإحصاء - هي المنهج العمل الذي يعتمد عليه في إظهار الحقائق وتقويمها ، وحسبى أن مثل هذا العمل بعث إلى الحياة تراثاً عزيزاً قد اختفى ، ونورا وهاجاً قد خبا ، وأثارة من علم الأولين كانت مطويةً فنُشرت ، ومخبوطة في ضمير النسيان فكُشفت .

احمد علم الدين الجندي



== ففطن المصحف إلى خطئه ، وطلب الإيضاح بالشاهد في قوله :
فقد أتتني فديت شاعلةً لنفس أن قلت فاط فائظها - فأجابه الزبيدي شعراً - محتجاً لما يقول :
أتاني كتاب من كريم مكرم فنفس عن نفس تكاد تفيظ
وباحث عن (فاطت) وقيل قالها رجال لديهم في المعلوم حظوظ
روى ذلك عن كيسان سهل وأنشدوا مقال أبي الفياض وهو منفيظ
إلى أن قال :

فلا حفظ الرحمن روحك حية ولا هي في الأرواح حين تفيظ
معجم الأدباء ١٨ - ١٨٣ وانظر : مقدمة كتاب لحن العوام ص ٢٠ للزبيدي ، تحقيق د. رمضان عبد الشوام
(دار العروبة) وانظر : بحثاً مبتكراً للدكتور إبراهيم أنيس (معنى القول المأثور « لغة الضاد ») دورة ٣٣
للمجمع اللغوي بالقاهرة وانظر كذلك بحثاً قيماً للدكتور خليل ناي مجلة كلية الآداب ج ٢١ العدد الأول مايو ١٩٥٩
(١) انظر اللوحات الإحصائية السابقة في هذا المقال ، وكذلك في مقالين سابقين لنا بمجلة مجمع اللغة العربية
بالقاهرة عدد ٢٥ ، ٢٦

المثل

بين الفصيح والعامية

للأستاذ محمد قنديل البقل

فيما نعرف هو خلاصة تجربة من التجارب يعبر به الإنسان عن تلك التجربة وما أفاد منها وما قر في نفسه من حكم عليها .

والتجارب تعرض للناس كافة يستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم ، ونتيجة لتلك المشاركة الواسعة في التجارب تختلف الأحكام أو تختلف الكلمات المعبرة عن تلك التجارب ، فالحكم على التجربة لاشك متأثر متأثرا خاصا بالحكم عليها ، فما تشير التجربة في نفس إنسان يختلف شيئا عما تشير في نفس إنسان آخر ، ثم إن صاحب التجربة الذي هو بصدد الحكم عليها يختلف قدرة وأداءً وشعورا وإحساسا .

وما من شك في أن أحكاما كثيرة صدرت عن أناس كثيرين كانت لهم تجارب كثيرة ، ولكن هذه الأحكام منها ما يبلغ أن يؤثر ، ومنها ما لا يبلغ أن يؤثر ، فكان ثمة أحكام مأثورة لها قوتها في الدلالة ولها قوتها في الشمول ، ولها عمقها ، ولها أثرها في النفوس . وهذه الأحكام التي توفرت لها هذه الصفات وغيرها أقبل الناس عليها حفظا ، وأقبلوا عليها تمثلا بها ، وهي التي أصبحنا نسميها الأمثال ، وجمعناها وشرحنا ملامساتها ليعيش عليها الناس يتمثلونها فيما يعن لهم من تجارب مشابهة .

أمانتك الأحكام التي لم ترزق قوة تعبير ولاسعة شمول ولا عمق تفكير فأهملت ، ولم تجد من يعنى بها حفظا ، ولا من يعنى بها تدوينا .

فالإنسان ما يفرغ حياته يجرب ، وما يفرغ حياته كلها يحكم على تجاربه ، ولكن هذه الأحكام ما يبلغ أن يروى ، كما قدمنا ، ومنها ما لا يبلغ أن يروى ، وهذا القسم الذى حظى بأن يروى هو ما نأثره عن السلف نحتذيه ونمعن النظر فيه . أما ذلك القسم الآخر فهو على الرغم من وجوده زمنا ما إلا أنه سرعان ما فنى وذهب ، ولم يعد من مرويات الناس .

وما أنت ترى أن المثل فى مقدور صاحب التجربة ما دام يملك قدرة التعبير ، وما دام يملك نفسا متأثرة بالتجربة متأثرا يعخرجها من الصمت إلى الكلام . وحين كانت اللغة العربية تسود الناس سيادة كاملة أو شبه كاملة ، أعنى فى عصرها الأول ، كانت الأمثال كلها تكاد تنبع من معين واحد هو الفصحى ، أما حين أخذت اللغة الفصحى تنقلص سيادتها شيئا ونشأت إلى جانب اللغة الفصحى لهجات عامية ، أخذ معين الأمثال يختلف شيئا ، فكان ثمة أمثال تؤدى فصيحة ، وأمثال تؤدى عامية . والعامية ، كما نعرف ، تختلف فى بيئة عنها فى بيئة أخرى . من أجل ذلك ، كان ذلك الاختلاف فى لفظ ذلك المثل الواحد الذى يرد فى العامية .

ونحن بين تراث من الأمثال الفصيحة يكاد يرتد إلى عصور بذاتها لا يعدوها إلى تلك العصور التى انتهى عندها المثل الفصيح ، ولم نعد نظفر بأمثلة أخرى لغير تلك العصور ، وما نظن أن العلة فى ذلك أن تجارب الناس انتهت عند تلك العصور أو أن الناس فقدوا الحكم على ما يعنى لهم من تجارب ، أو أنهم فقدوا القدرة على التعبير عما يحسون ، وأرجح الظن فى تعليل ذلك أن وسائل الرواية التى تهيأت للأقدمين لم تعد مهياً لمن جاء بعدهم . وقد كان من الممكن أن تقوم الكتابة مكان الرواية ، ولكن الذى نظنه أن الناس لم تعد لهم العناية بالمثل قولاً وحفظاً كما كانت تلك العناية للأقدمين .

والغريب أن هذا الركن الذى فقدناه فى الفصحى لم نفقده فى العامية . ونحن لم نفقد العناية بالمثل وحده فى الفصحى ، بل فقدنا العناية بالخطبة أيضا ، وغيرها من أساليب القول النثرية كالآوامر والتوقيعات ، وما إلى ذلك مما جرى هذا المجرى ، فلم تعد لنا عناية بتدوين هذا أو روايته إلا فى القليل ، مع أن الأزمان المختلفة لم تحرم مثل هذا ، وما نشك أن ثمة أفرادا جاءوا على توالى الأزمان ، وكانت لهم فى تلك الميادين من القول جولات .

وهكذا نرى أنفسنا فى ميدان الأمثلة التى جاءت فى الفصحى بين يدي جملة خاصة بقرون سلفت ووقفت عندها . أما عن الأمثال التى جاءت فى العامية فما نظنها وقفت عند عصر بعينه ، بل سائرت الأزمان المختلفة ، ونكاد نخالها على لسان كل عصر ، بل منها ما يكاد يولد إلى اليوم .

والعلة فى تجديد المثل العامى وبقائه حيا دون المثل الفصيح هى فيما نظن أن المثل العامى لاسيما فى تلك العصور التى انزوت فيها الفصحى وأصبحت فيها اللغة الرسمية له وجوده على ألسنة الكثرة ، فهو أدبهم الذى لا أدب لهم غيره ، فما هم برواة شعر ولا برواة نثر ، ولكنهم على الأمثال يحيون أولا ، إذ فيها نوادرهم وطرائفهم ، وهذه النوادر والطرائف بعيد أن تعجمد ، وبعيد على أذهان العامة أن تخمد هى الأخرى . من أجل ذلك كان المثل حيا متجددا على ألسنة العامة ، على حين انقطع على ألسنة الخاصة أو قل لم يجد من ينقله من لسان الخواص ، على حين وجد من ينقله من لسان العوام .

والمتتبع للأمثلة العربية فى العصور المختلفة للغة العربية يجد أن ثمة ظواهر ثلاث :

١ - ظاهرة تشير إلى سيادة المثل الفصيح سيادة كاملة وذلك إبان كانت الفصحى هى اللغة التى لا تزاحمها لهجات عامية .

٢ - ظاهرة شاركت العامية فيها الفصحى ، وذلك خلال تلك العصور التى لم تكن للفصحى السيادة الكاملة .

٣ - ظاهرة اختفى فيها المثل الفصيح وانتعش فيها المثل العامى ، وذلك فى العصور التى تخلفت فيها اللغة الفصحى .

أما عن الظاهرة الأولى وهى تلك التى ساد فيها المثل العربى أيام سيادة الفصحى فحسبنا تلك الجهود التى بدأت فيما نطن مع منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا ، وكان أول من وضع فيها كتابا هو الضبى المفضل بن محمد بن يعلى المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ثم تلاه فيما نعلم يونس النحوى المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، ثم تتالت الجهود من بعد يونس تباعا فرأينا مثل ذلك الجهد لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، ثم لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، ثم لابن الأعرابى محمد بن زياد المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، ثم لابن حبيب أبى محمد جعفر بن محمد المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، ثم لشعلب أبى العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، ثم لابن الأنبارى أبى بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم للخال الحسين بن محمد المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ، ثم للعسكرى أبى هلال الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

وكان ثمة نفر غير هؤلاء كانت لهم أيضا جهود فى الأمثال منهم الأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد وحمزة بن حسن إلى كثير غيرهم بلغت مؤلفاتهم الخمسين ، وظلت هذه الجهود الكثيرة مفرقة تترقب من يتصدى لها جمعا وتبويبها إلى أن أتبع لها الميدانى أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، فجمع فيها كتابا تربي أمثاله على ستة آلاف ، وكان ذلك فيما يقول الميدانى فى مقدمته بتكليف من ضياء الدولة صنى الملوك أبى على محمد بن أرسلان .

وهذا الجمع الواسع الذى كان منهج الميدانى حمله على ألا يفرق بين الغث والسمين ولكنه على كل حال جاء كتابا مجزئا فى بابيه ، لم يفت الميدانى فيه الرجوع إلى جميع المؤلفات التى سبقته وقد عقب على الأمثال بشروح كثيرة وقصص طويلة نقله عن سبقوه فى ذلك الميدان من الذين ألفوا فى الأمثال أو من الذين كانت لهم تواليف فى القصص والأمثال من أمثال عبيد بن شريه وعطاء بن مصعب والشرقى بن القطامى .

وقد أفادنا الميدانى فى كتابه فائدة فهو قد يكون المؤرخ الأول لظهور المثل المولد ، فقد أعقب كل باب من أبواب الأمثال الصحيحة بباب يجمع أمثال المولدين . والميدانى كما نعلم من تاريخ وفاته كان يعاصر تلك الحقبة الزمنية التى كانت اللغة قد تخلفت فيها شيئا وظهرت اللغة المولدة ، وبالتالي المثل المولد .

ومن بعد الميداني جاء الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فآلف كتابه المستقصى في الأمثال ، ولم يكن قد وقع له كتاب مجمع الأمثال للميداني قبل شروعه في مؤلفه هذا ، ويقال إنه بعد أن أطال النظر في كتاب الأمثال ندم على تأليفه كتابه المستقصى لأنه جاء دون جهد سابقه .

* * *

هذا عن الظاهرة الأولى ظاهرة شيوخ المثل الفصيح لشيوخ العربية الفصحى ، وقد رأينا أن الأمثال كانت عربية فصيحة حين كانت اللغة العربية لم يعتورها وهن ، ثم لم يكن بد من أن تكون تلك الأمثال فصيحة إذ هي كانت تحكى جاهلية الناطق فيها عربى فصح ، ثم تحكى حقبة إسلامية لم تتخلف فيها العربية ، فكان من المستبعد أو من المستحيل أن تكون ثمة أمثال بغير العربية .

ولقد ترجم العرب لآشك عن الفارسية وعن غيرها من اليونانية ، وهم لآشك أيضا أنهم قد ترجموا بعض الحكم التي هي تجرى مجرى الأمثال من الآداب الفارسية ومن الآداب اليونانية ، وعصر الترجمة ، هذا كما نعلم ، يكاد يكون ساير عصور ازدهار اللغة ووقتها من أجل ذلك كان التعبير المترجم لتلك الحكم المنقولة عن الفارسية واليونانية هو الآخر عربيا فصيحاً ، وكان من مجموع ما دون من أمثال العرب جاهلية وإسلاماً ، ومن ذلك الذى ترجم عن الفارسية واليونانية ما يمثل تلك الظاهرة الأولى ، وهى ظاهرة شيوخ المثل الفصيح لشيوخ العربية الفصحى وتمكنها على الألسنة .

* * *

أما عن الظاهرة الثانية وهى تلك الظاهرة التى يساير فيها المثل العربى مثل عامى ، فتلك ظاهرة تحليلها يسير ، وقد يكون الأمر فى ذلك مرده إلى أمور منها .

(١) تناول المثل العربى بشيء من التعبير العامى يختلف باختلاف المتحدث ، وهذا المتحدث يختلف أيضا باختلاف البيئات ، وهذا النوع من التحريف الذى

دخل على المثل العربى ونتج عنه تلك الأمثلة التى تبدو عربية فى مبنائها وفى الكثير من مظاهرها كتب لأمثاله البقاء إلى جانب تلك الأمثال العربية المناظرة ، فاذا ما روى المثل العربى فى بيئة من البيئات العربية ، روى إلى جانبه ذلك المثل الذى دخله شئ من التحوير . والشئ الملاحظ أن هذا التحوير لم يتكرر ، واكتفت تلك البيئات الشعبية بالتحوير الأول وعدته من موروثها الذى لا تبدل فيه تماما ، كما عد المثل العربى المناظر له ، وأصبح لذلك المثل العامى المحوّر قدسية ذلك المثل العربى الأصلى . وكما يرد المخطئ فى هذا كذلك يرد فى ذاك ، وعلى الرغم من أنه ليس ثمة كثرة كثيرة من تلك الأمثال العربية المحوّرة ، وأعنى الأمثال ذات المظهر العامى والدلالة العربية ، فما نشك فى أن تلك الأمثال العربية كلها يسرت وسهلت وتناولها العامة بألسنتهم فحرفوا فيها وببدلوا ، اللهم إلا ما كان منها سهلا ، فلم يجد العامة فيه مدخلا يدخلون منه إليه تبدل أو تحوير .

ومن أمثلة تلك الطائفة :

- ١ - يقول المثل العربى : إن للحيطان آذانا .
ويقول المثل العامى المصرى : الحيطان لها ودان^(١) .
ويقول المثل العامى الموصلى : الحائط لو آذان .
- ٢ - يقول المثل العربى : أحب أهل الكلب إليه خانقه .
ويقول المثل العامى المصرى : القط ما يحب إلا خانقه^(٢) ويقول المثل العامى الجزائرى : الكلب ما يحب إلا خانقه .

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ص ١٤٨ - الأنجلو ١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١

٣ - يقول المثل العربى : الشعير يؤكل ويندم .

ويقول المثل العامى : ديش الشعير يتاكل وينزم^(١) والمثل فى نجد :
الشعير المأكول المذموم .

٤ - يقول المثل العربى : الشيعان يفت للجوعان فتا بطيئا .

ويقول المثل العامى المصرى : الشيعان يفت للجوعان فت بَطِيئ^(٢) ويقول
أهل الموصل : الشيعان ما يعرف يدرد الجوعان .

(ب) ثم إذا بعض الأمثال تعيىء فى العامية بمثابة الشرح للمثل العربى ، فإذا هذا
المثل العامى هو هو فى العربية غير أنه فى العامية يكاد يكون شرحا
لنظيره فى العربية ومن أمثلة تلك الطائفة :

١ - يقول المثل العربى : إذا ضربت فأوجع فإن الملامة واحدة .

ويقول المثل العامى فى مصر : إن طعمت أشبع وإن ضربت أوجع^(٣) .

وهذا المثل فى الجزائر : إذا ضربت أوجع وإذا أطعمت شبع .

وفى الموصل : إذا أطعمت أشبع وإذا ضربت أوجع .

٢ - يقول المثل العربى : شبر فى ألية خير من ذراع فى رية .

ويقول المثل العامى المصرى : قيراط فى اللية ولا فدان فى الكروش^(٤) .

والمثل العامى فى نجد : شبر من ذنب الخروف ولا بوع من ذنب البقره .

٣ - يقول المثل العربى : شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه .

ويقول المثل العامى المصرى : الشهر اللى ما هو لك ما تعد أيامه^(٥) .

ويقول المثل العامى الشامى : الشهر اللى ما بيعجيك منه ماهيه ماتعد أيامه .

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ص ٥٥

(٢) المصدر السابق ص ٥٩

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٦

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٤١

ويقول المثل العامي السوداني : شهراً مالك فيه نفقه ما تعد أيامه .

ويقول المثل العامي في الجزائر والمغرب : الشهر إلى ما يدخلك كراه
ما تحسسه شيء .

٤ - يقول المثل العربي : صاححت عصافير بطنه .

ويقول المثل العامي : عصافير بطنه زقزفت .

٥ - يقول المثل العربي : إن الحديد بالحديد يفلح .

ويقول المثل العامي : زى الحديد يقطع بعضه^(١) .

٦ - يقول المثل العربي : لبنك لبن بوحك .

ويقول المثل العامي : لبنك إلى من صلبك .

(ج) ونحن لا ننسى أن الفكر الذي يملكه الرجل الفصيح قد لا يبعد كثيراً عن الفكر
الذي يملكه الرجل العامي ، وأن ذلك الحدث الذي أُملي ذلك المثل العربي على
عربي فصيح من الممكن أن يوجد مثله فيملي مثلاً على لسان رجل عامي ، وإذا
حقيقة المثلين واحدة وإذا أداؤهما يكاد يكون واحداً لا يختلفان إلا في أن
أولهما يؤدي بعبارة عربية فصيحة ، وثانيهما يؤدي بعبارة عامية شعبية ،
وهذا أمر تقع أشباهه لنا في حياتنا عامة فقد يجتمع اثنان على منظر واحد ويكون
تأثيرهما واحداً ، كما يكون تعبيرهما عن ذلك التأثير واحداً أيضاً في مبناد
لا يختلف إلا في الأداء ، فما من شك أن من الأمثال العامية التي سايرت الأمثال
الدرية طائفة لم تنشأ عن تحريف وتبديل ، وإنما نشأت عن اتحاد في
الحديث والتفكير والتأثير .

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية ص ٢٦٧

ومن أمثلة هذا :

- ١ - يقول المثل العربي : إذا ذكرت الذئب فأعد له العصا .
ويقول المثل العامي المصري : أذكر الديب وهي له القضيب^(١) .
ويقول المثل العامي الموصل : تذكر الكلب فحضر العصا .
ويقول المثل العامي في نجد : إلى أطريت الكلب فولم العصا .
- ٢ - يقول المثل العربي : أبرد من عضرس (عضرس : الماء الجامد) .
ويقول المثل العامي المصري : أبرد من مية طوبة^(٢) .
ويقول المثل العامي في العراق : أبرد من هوا عنتر .
ويقول المثل العامي الجزائري : أبرد من الثلج .
ويقول المثل العامي المغربي : أبرد من سيكوك في الليالي (وسيكوك هو طعام الكسكسي حينما يضاف إليه المخيض العماض من اللبن وهو من أطعمة فصل الصيف لبرودته ولا يؤكل في الشتاء) .
- ٣ - يقول المثل العربي : تغذ بالجدى قبل أن يتعشى بك .
ويقول المثل العامي المصري : اتغذى بالديب قبل ما يتعشى بك^(٣) .
ويقول المثل العامي الموصل : تغذى بينو قبل ما يتعشى ببك .
- ٤ - يقول المثل العربي : الدينار القصير يسوى دراهم كثيرة .
ويقول المثل العامي المصري : القرش الابيض ينفع في اليوم الامود^(٤) .
ويقول المثل العامي في الموصل : اغفع القرش الابيض لليوم الاسود .
ويقول المثل العامي الشامي : القرش الابيض لليوم الاسود .

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية ص ١٠٣ (٢) المصدر السابق ص ١٠٣
(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ (٤) المصدر السابق ص ٢٤٠

وبقول المثل العامي في بغداد : قرش الابيض ينفع بيوم الأسود وأيضا المثل :
احفظ الفلس يحفظك الدينار .

٥ - يقول المثل العربي : السلف تلف .

ويقول المثل العامي المصري : السلف تلف والرد خسارة^(١) .

ويقول المثل العامي في نجد وفي حاضرة العرب : السلف تلف .

ويقول المثل العامي في الجزائر وفي المغرب : السلف يربى العداوة .

٦ - يقول المثل العربي : بيتي أستر لعورائي .

ويقول المثل العامي المصري : ياداري يا ستر عاري^(٢) .

ويقول المثل العامي في الموصل : بيتي يستر عيي .

هذه طائفة من أمثال تلك الظاهرة الثانية وهي كما ترى تنحصر تحت أسباب ثلاثة ،
هي كما قلنا :

(أ) إما تحريف المثل العربي على ألوان من التحريف يختلف باختلاف المتحدث
وباختلاف البيئة .

(ب) وإما مجيء المثل العامي شرحا للمثل العربي وهذا أيضا يختلف باختلاف
الشارح وباختلاف البيئة .

(ج) وإما أمثلة مبتدعة في العامية كما ابتدعت في العربية أمثلتها الظروف والأحداث
متفقة في الحالين . والملاحظ أن الكثير من الأمثلة التي اتفقت عربية وعامية
كثرتها من الضربين الأولين ، أعني من الضرب الذي جاء محرفا ومن الضرب
الذي جاء شارحا وقلتها من الضرب الذي جاء ابتداءا . وليس معنى هذا أن
العوام لم يقولوا ابتداءا كما قال النصحاء بل إن مرجع تلك القلة فيما يبدو

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية ص ٢٢٦ (٢) المصدر السابق ص ١٩٤

إلى أن القلة في الأمثلة العامية المبتدعة لم تقف للأمثلة العربية التي من بابيتها وكانت الغلبة للمثل العربي . من أجل ذلك لم يعش منها إلا القليل على حين عاشت من الأمثلة المحرفة والشارحة كثرة كثيرة لأنها هي في الواقع ترديد للمثل العربي على صورة غير عربية .

* * *

أما عن الظاهرة الثالثة وهي تلك الأمثال العامية التي وردت على غير غرار لها في العربية ، أعني تلك الأمثال التي جاءت مبادعة للأمثال العربية ، وهذا التباعد :

١ - إما تباعد في اللفظ مع اتفاق في المعنى .

٢ - وإما تباعد لفظا ومعنى .

وهذه الظاهرة بشقيها تكاد تتصل بالضرب الثالث من الظاهرة الثانية ، أعني ذلك الضرب الذي جاء نتيجة اتفاق الفكرة ، غير أن الأمر هناك مقصور على تلك الأمثال العامية التي جاءت موأمة للأمثال العربية في مساقها ، والفرق بين الأمرين هنا وهناك أنها هناك مايرت المثل العربي أو قاربت أن تسايره حتى أنك لتكاد تحس أن المثل العامي صورة من المثل العربي تكاد تحمل على التحريف أو الشرح ، أعني الضربين الأول والثاني من تلك الظاهرة الثانية لولا أن ثمة ملامح من الفكر المستقل تشير إلى أن المثل العامي وإن بدا قريبا من المثل العربي إلا أنه يحمل طابع الإبداع في الفكرة . والأمر هنا في تلك الظاهرة الثالثة وإن كان متصلا بما سبق لسبب ما غير أنه قوى الانفصال ، فالمثل العامي هنا ضربيه في هذه الظاهرة مستقل تماما يشعرنا بأنّه جاء إبداعا لا اتباعا ، وهذا ما يؤكد ما قلنا من قبل أن الفكر الموحى بالمثل ليس مقصورا على الرجل الفصيح وحده بل يشاركه الرجل العامي ، وأنه ما دامت هناك عامية فثمة أمثال عامية ، منها تلك التي جاءت تحريفا أو شرحا للأمثلة العربية ، ومنها التي جاءت إبداعا ، وقد قلنا إن هذه التي جاءت إبداعا في العامية لا سيما حين تنتعش العربية وتنقشع العامية ، فالمثل العامي لا يقف للمثل العربي

إلا في ظروف محددة وبيئات بعينها ، تكون العربية قد أصيبت هنا وهناك بالوهن ، وهذا ما كان من تلك الأمثال العامية التي ضربنا بها المثل عند الحديث عن الضرب الثالث من الظاهرة الثانية .

ولكن تلك الأمثال العامية التي تجيء ابتداءً أيضا ولا تساير المثل العربي ولا تكون صورة منه لفظا ، أو تلك التي تغاير المثل العربي معنى ولفظا وهما هذان الشقان من تلك الظاهرة ، فهذه الأمثال العامية لا شك قوية على أن تصمد ، تختلف درجة صمودها بانتعاش العربية وهمودها ، ولكنها لا شك باقية بقاء ثابتا غير بقاء أمثلة الضرب الثالث من الظاهرة الثانية ، إذ هي فيها إبداع وفيها فكرة مستقلة إلى جانب ذلك الإبداع ، ولكنها على ذلك تختلف ، فما كان منها متفقا مع المثل العربي في معناه دون لفظه كان موضع موازنة ، فإن كان أدأوه أيسر وأسلس وأصق بالنفوس كان أقوى على مغالبة ومقارعة المثل العربي يؤخذ بهذا حيننا ويؤخذ بذلك حيننا وقد يؤخذ بهما معا .

أما تلك الأمثال العامية التي جاءت ولا وجود لها في العربية لفظا ولا معنى فهي لا شك أخلد وأبقى من أمثلة الضرب الأول من هذه الظاهرة .

وما من شك أن انكماش العربية في عصورها وانحصارها في بيئات محدودة ضيقة كان له أثران :

الأثر الأول : فقداننا ذلك الرجل الناطق بالفصحى يعطينا المثل ويعطينا الحكمة ، فلم نعد نظفر بنظراء هؤلاء السلف الذين تركوا لنا تلك الأمثلة العربية الفصيحة ، يستملونها من الأحداث والوقائع .

الأثر الثاني : نهوض رجال من الشعب لغتهم العامية مقام هؤلاء الرجال الذين فقدناهم يستلهمون الأحداث والوقائع يعطوننا أمثلة تعوضنا عن تلك الأمثلة العربية وتكاد تكون في قوتها فكرة وإيجازا ورمزا وإشارة ودلالة على حوادث مفصلة تنطوي تحت أجنحتها .

وأمثلة هذه الظاهرة بشقيها من القوة بمكان لأنها ليست اتباعاً بل هي إبداعاً تحوى
الفكرة الأصيلة وتحوى الاستقراء العميق وتدل على مكانة مبدعيها .

وإليك أمثلة من الشق الأول ، أعني من تلك التي اتفقت معنى ولم تتفق لفظاً وستسرس
معنى فيها جوانب القوة والحق اللذين ضمنا لهما البقاء على الرغم من أنه ليس ثمة تدوين
يحفظ لها بقاءها وهي على الرغم من فقدانها ذلك التدوين فهي تعيش على الألسنة يتناقلها
جيل بعد جيل ، ولكنها لا شك بعد أن يكتب للفصحى أن تسود سيكتب لها ما كتب
للأمثلة العربية من تحول على ألسنة العوام ، وما نستبعد أن تصبح تلك الأمثلة العامية
أمثلة فصحي بعد أن تتناولها ألسنة الفصحاء بالصقل والإعراب .

وما سيحدث لهذا الضرب الأول سيحدث للضرب الثاني أيضاً من تلك الظاهرة ،
أعني تلك الأمثلة العامية التي لا وجود لها في العربية لفظاً ومعنى . وها هي ذى أمثلة ذلك
الشق الأول :

المثل العربي

– إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال

– إذا ترابك الشر فاقعد به

– إن البغاث بارضنا يستنسر

– إن الحماة أولعت بالكنة

– إذا جاء الحين حارت العين

– أنفك منك وإن كان أذن

– آكل لحمي ولا أدعه لآكل

المثل العامي

– الغنى غنوا له والفقير إليه يعملوا له

– أبعد عن الشر وعني له

– القوالب نامت والانصاض قامت

– قالوا يا حمّا ما كنتيش كنه قالت

كنت ونسيت

– إذا وقع القدر عمى البصر

– محدّش يقطع مناخيرهُ من وشهُ

– أنا واخويا على ابن عمي وانا وابن عمي

على الغريب

المثل العامي	المثل العربي
- قَابِلُوهُمْ بِالصُّوْتِ لَيَغْلِبُوكُمْ	- إِبْدَأْهُمْ بِالصَّرَاخِ يَفْرُوا
- لَا جُلَّ الْوَرْدِ يَنْسَقِي الْعُلْيَقِ	- بَعْلَةُ الزَّرْعِ يَسْقِي الْقَرْعِ
- مَالُ الْكُنْزَى لِلنُّزْهَى	- بَشْرُ مَالِ الشَّحِيحِ بِحَادِثٍ أَوْ وَارِثِ
- ضَرَبْتُ وَبَكَى وَسَبَقَ وَاشْتَكَى	- تَلَدَغَ الْعَقْرَبُ وَتَصَبَّىءَ
- اللى فى الدُّسْتُ تَطْلَعُهُ الْمَغْرَفَةُ	- تَخْرُجُ الْمَقْدَحَةُ مَا فِى قَعْرِ الْهَرْمَةِ
- إِنْ كَانَ لَكَ صَاحِبٌ لَا تَعَامَلْهُ وَلَا تَنَاسِبْهُ	- تَعَاشَرُوا كَالْإِخْوَانِ وَتَعَامَلُوا كَالْأَجَانِبِ
- خُذْ مِنْ دَقْنِ الْقِرْدِ يَغْرُهُ	- دَمْعَةٌ مِنْ عَوْرَةِ غَنِيمَةٍ
- أَبُو جُعْرَانَ فِى بَيْتِهِ سُلْطَانُ	- الذِّبْخُ فِى خَلْوَتِهِ مِثْلُ الْأَسَدِ
- اللى أَوَّلُهُ يَمُرُّ آخِرُهُ نُورُ	- الشَّرْطُ أَمْلَكَ عَلَيْكَ أَمْ لَكَ
- صَامٌ صَامٌ وَفِطْرٌ عَلَى بَصَلِهِ	- صَامٌ حَوْلًا ثُمَّ شَرِبَ بُولًا
- لِسَانُكَ حُصَانُكَ إِنْ صُنَّتْهُ صَانُكَ	- عَثْرَةُ الْقَدَمِ أَسْلَمَ مِنْ عَثْرَةِ اللِّسَانِ
- الْإِيْدُ الْبَطَّالَةُ نَجِيسَةٌ	- غِبَارُ الْعَمَلِ خَيْرٌ مِنْ زَعْفَرَانِ الْعَطْلَةِ

وبعد أمثلة هذا الشق الأول نسوق إليك جملة من أمثلة الشق الثانى التى انفردت بها العامية لفظا ومعنى ، ولم نجد لها مع طول الاستقصاء نظائر فى العربية فيما نعلم :

أمثلة عامية :

- ابن آدم الله أَخَذَهُ اللهُ وَابْنُ الْكُتْبَةِ طَلَعَ الْقُبَّةَ
- اجأ للعميان ولد قَلَعُوا عَيْنُهُ مِنَ التَّحْسِيسِ
- اصْبِرْ مَا فِى الْجَيْبِ يَا تُيُوكَ مَا فِى الْغَيْبِ

- الطَّحَّانُ يَأْخُذُ حِفَّانَ بِحُفَّانٍ وَرَبَّنَا يَا خُدَّ حَصَانٍ بِحَصَانٍ
- تَجْرِي يَا ابْنَ آدَمَ جَرَى الْوَحْشِ وَغَيْرَ رِزْقِكَ مَا تُحْشِ
- يُرْزَقُ الْهَاجِعُ وَالنَّاجِعُ وَاللِّي نَائِمٌ عَلَى سِنَاخٍ وَذَنُ
- ابْنِ آدَمَ يَتَرَبِّطُ مِنْ لِسَانِهِ وَالْبَهِيمُ مِنْ وَدَانِهِ
- اقْطَعْ وَدْنَ الْكَلْبِ وَدَلِّيْهَا وَاللِّي فِيهِ خَصْلَةٌ مَا يُخَلِّيْهَا
- الَّلِي يَغْمِلُ ضَمْرُهُ قَنْطَرَةً يَسْتَحْمِلُ الدُّوْشَ
- حِيلَةُ الْعَاجِزِ دَمُوعُهُ
- زَيْ الْإِبْرَةِ تَكْسِي النَّاسَ وَهِيَ عَرِيَانُهُ
- زَيْ الْقُرَادِ مَا يَرْكَبُ إِلَّا الْجِثَّةَ الضَّعِيفَةَ
- الضُّحْكُ عَ الشَّفَاتِيْرِ وَالْقَلْبُ يَسْبُغُ مَنَادِيلَ
- الْعَاقِلُ مِنْ غَمَزِهِ وَالْجَاهِلُ مِنْ رَفْصِهِ
- عَيْبَتُ الْقَيْدَرِ عَ الْمَغْرَفَةِ قَالَتْ لَهَا يَا سُودَهُ وَمَحْرَفَهُ
- الْفَشْرُ وَالنَّشْرُ وَالْعَشَا نُخْبِيْرُهُ
- فِي الْوِشِّ مَرَايَهُ وَفِي الْقَفَا سِلَآئِيهِ
- كُبُرُ الْبَصْلِ وَادْوَرُّ وَنِسَى حَالُهُ الْأَوَّلُ
- كَثَرُ مِنَ الْفَضَائِيْحِ إِلَّا أَنَا رَآيِحُ
- كُلُّ رَأْسٍ مِطَاطِيٍّ تَحْتِهَا أَلْفُ بَلِيٍّ
- الْكَلْبُ مَا يُعْضُّشُ فِي وَدْنِ أَخُوهِ
- كُلُّوا الْهَلِيْبِيَّةَ وَكَسَرُوا الزُّبْدِيَّةَ
- لَوْلَاكَ يَا لِسَانِي مَا انْسَكَّيْتُ يَا قَفَايَهُ
- لَوْ بَصُ الْجَمَلِ لَصَنَمَهُ لَقَطَمَهُ

- ما تَقِيرُ بخيرى الا لما تُشوفُ غيرى
- واحد شَايِلْ دَقْنُه والثَّانِي تَعْبَان ليه
- جُرْحُ السِّلَاحِ يَبْرَا وَجُرْحُ اللِّسَانِ مَا يَبْرَا

هذه كلمة موجزة عن الصلة بين الأمثلة العربية والأمثلة العامية ، وما نعلم أن المثل العامي انطلقت الألسنة بالتعبير به إلا حين فقدت التعبير عنه بالفصحى ، وكما وجد المثل العامي على أنقاض المثل العربي فسوف يعود الأمر إلى المثل العربي ليعيش على أنقاض المثل العامي ، وهذا رهن بانتعاش الفصحى وسيادتها ، فما أحرص كل متكلم بالفصحى على أن يجرى لسانه بالفصيح ، وعهدنا بالناس حين تفصح ألسنتهم أن يتجنبوا أن ترد على ألسنتهم أمثلة عامية ، وذلك أملنا في أن تتطور تلك الأمثلة العامية إلى أخرى فصيحة وأن نجد بيننا من الفصحاء من يصلوا إبداع الأمثال فلا ينقطع هذا الخلق حتى يستمر حبل الأمثال موصولا ولا تنفرد العامية دون العربية .

محمد قنديل البقلى



من التراث اللغوي

اللهجة العامية المصرية في القرن الحادى عشر الهجرى

تأليف الدكتور رمضان عبد التواب

المؤلف ، انتهى منها فى منتصف جمادى الأولى سنة ١٠١٥ هـ ، أى قبل وفاته بأربع سنوات ، ثم انتقلت بعد ذلك بمدة إلى أبى عبد الله محمد شمس الدين بن أحمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ ، والذي اختصرها فى كتابه الذى سماه : « القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب »^(٢) . ثم انتقلت المخطوطة بعد ذلك إلى يوسف الملوى ، الشهير بابن الوكيل ، الذى نسخ مختصر ابن أبى السرور السابق^(٣) ، وانتقلت بعد ذلك إلى الشيخ محمد عياد

يوسف المغربى هو أبو المحاسن يوسف جمال الدين بن زكريا بن حرب المغربى المصرى الأزهرى^(١) ، تنحدر أسرته من أصل مغربى ، وقد ولد هو بالقاهرة فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، وتوفى بها فى سنة ١٠١٩ هـ .

وكتابه : « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » وثيقة لغوية مهمة ، سجل فيه صاحبه كثيراً من ظواهر العامية المصرية فى القرن الحادى عشر الهجرى . وقد وصل إلينا فى نسخة مكتوبة بخط.

(١) انظر ترجمته فى ربحانة الألبا للخفاجى ٣٢ / ٢ وخلاصة الأثر للمعجى ٤ / ٥٠١ وهدية العارفين ٢ / ٥٦٦ وبروكلمان S II 394 ; GAL II 285

(٢) حققه السيد إبراهيم سالم ، وطبعته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، فى سلسلة « تراثنا » بالقاهرة ١٩٦٢ وانظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ص ٣٠٤

(٣) انظر مقدمة المقتضب ص ٢ - ٧

الطنطاوى المعلم الأول للغة العربية في روسيا ، وبعد وفاته في ١٢٧٨ هـ ، دخلت المخطوطة في حوزة الكلية الشرقية بجامعة بطرسبرج - ليننجراد ، ولا تزال هناك وتحمل رقم Ms, O, 778

وقد ظهر الكتاب مصوراً عن هذه النسخة في عام ١٩٦٨ بموسكو في سلسلة آثار الآداب الشرقية ، وذلك بعناية الدكتور عبد السلام أحمد عواد ، الذى قدم له ببحث عن المؤلف بالعربية والروسية ، وذيله بفهارس كثيرة متنوعة نافعة .

ومخطوطة الكتاب ليست كاملة ، بل تنقص إحدى عشرة كراسة ، ويبدأ النقص من أول الكراسة الثالثة ، أى في باب الباء فصل القاف (مادة : قطرب) ، حتى نهاية الكراسة الثالثة عشرة ، أى إلى باب الفاء فصل الراء (مادة : ردف) ، وإذا كان عدد أوراق الكراسة عشر ورقات ، فالناقص ١١٠ ورقات تقريباً . وقد حدث هذا النقص بعد اختصار ابن أبي السرور للمخطوطة ، وبعد نسخ ابن الوكيل لهذا المختصر ؛ لأن نسختي المختصر كاملتان .

وهذه المخطوطة هي مسودة المؤلف ، ففيها تغييرات وإضافات وتنقيحات بخطه ، مثلما وقع في صفحة (١٣/ب/١٠) عند قوله : « ويقولون : لبن رايب ، ولم أر في اللغة ما يناسبه ، لافى رأب المهموز ، ولا فى راب بالألف اللينة » ، فقد ضرب المؤلف على عبارة : « ولم أر في اللغة . . . بالألف اللينة » وكتب على الهامش : « وهو صحيح . قال المجدى : راب اللب زوبا خثر ، ولبن رايب ، أو هو مايمخض ويخرج زبده . وروبه وأرابه » . كما قال في آخره (١٣٣ أ/٢١) : « وكتبه مؤلفه الفقير يوسف المغربي عني عنه والمسلمين آمين » .

وقد بدأ المؤلف بالعمل فيه في منتصف شوال سنة ١٠١٤ هـ وانتهى منه في ليلة النصف من جمادى الأولى سنة ١٠١٥ هـ ، فقد ورد في آخره قوله (١٣٣ أ/٢) : « فإن هذا الكتاب حصل في مدة يسيرة ، يسر الله عسيره ، فإن مافيه من المنظوم نظم حال الكتابة مع جريان القلم ، وكأنه نقل من نسخة ثم . وكانت البداية فيه في نصف شوال عام أربعة

في قوله (٣ / أ / ١٨) : « وهو على حروف الهجاء كالقاموس مع تسامح في الأصل والزائد » .

ومع ذلك فإنه لم يسلم من التصحيف والتحريف في نص القاموس ، مثال ذلك قوله (٥٩ ب / ٨) : « يقولون : فلان زعلوك ، يعنون أنه فقير . وكثيرا مايقع هذا من المغاربة ، يقولون على الفقراء الحجاج منهم زعاليك والذي في القاموس : زعلوك كعصفور : السمين من الإبل ، والقصير اللثيم ، جمعه زعالك وزعاليك » .

والذي في القاموس : « الزعلوك » بكافين في باب الكاف فصل الزاي (٣ / ٣٠٥) ولم يرد فيه : « زعلوك »^[١] بتاتا . ويظهر أن النسخة التي كانت بيده من القاموس كانت قد أهملت وضع شرطة الكاف الأولى ، على عادة كثير من المخطوطات القديمة ، فاشتبهت لذلك باللام ، مع أن وضع الكلمة في باب الكاف كان من الممكن أن يجنبه الوقوع في هذا التحريف .

عشر وألف ، والختم ليلة النصف من جمادى الأولى عام خمسة عشر وألف ، مع الاشتغال بسواه من أمور المعاش والمعاد ، والقيام بأمور العيال والأولاد » وقد سمي المغربي كتابه في البداية : « الفضل العام وقاموس العوام » فقال في مقدمته (٢ / أ / ٧) : « فقصد الفقير يوسف المغربي أدخله الله في شفاعته النبي العربي أن يرتب هذا الكتاب على أبجج ترتيب ، ويهذب مايقع من عوام أهل مصر بأن يرجعه للمصواب ، وهذا هو التعريب . مغترفا من القاموس والعباب ، مبينا لما حكم بخطئه أنه صواب . وسميته : الفضل العام وقاموس العوام » .

ثم تردد بعد هذا في تسميته بتسميات أخرى ، إلى أن استقر على تسمية : « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » ، وانظر في ذلك مقدمة الناشر ص ١١ - ١٢ .

وقد عين المغربي في النص السابق مراجعه ، فحصرها في القاموس والعباب ، وإن كان اعتماده على القاموس أكثر من اعتماده على العباب ، وقد تأثر به في ترتيب مادة كتابه ونبه على ذلك

وقد أشار المغربي إلى هذه الكلمة مرة أخرى في صفحة (٦١ أ / ١) فقال : « الصعلوك كعصفور : الفقير ، وتصعلك : افتقر . وهذا الذى تقول (العامة) فيه زعلوك . وقد تبدل الزاى صادا ، فلا يكون لحنا . ولكن لم ينص عليه فى القاموس » . فهو هنا يصير مرة أخرى على ورود كلمة « زعلوك » فى القاموس بغير هذا المعنى ، وإن كان قد فطن هنا إلى العلاقة بينها وبين كلمة : « صعلوك » ؛ فقد رقت الصاد ، وجهرت لتأثرها بالعين المجهورة ، فصارت زايا ، غير أنه عكس الكلام فقال : « وقد تبدل الزاى صادا ، فلا يكون لحنا » .

ويحكى المغربي فى كتابه كثيرا عن نفسه ، ويروى لنا بعض ما أصابه فى مراحل حياته المختلفة ، فهو يقول مثلا (٥١ أ / ١١) : « قلت : قد مرضت بهذا المرض ، أى الفواق ، حتى التبس على بعض من عادنى بالفواق عند النزاع ، فظن أنى أفوق بنفسى ، أى أجود بها ، وهى على الخروج ، فذهب من وقته لقاضى البلد ، يسأله

فى وظيفة لى . وقال : قد مات يوسف المغربى الآن ، وبذل فيها دنيا ، وكتبت الحجة ، فكان الشفاء فى ذلك اليوم ، ففى عقبه عادنى الأخ الأكرم سيدى محمد أبو الصواب ، ويسر الأمر ووصف لى المصطكى والعود الماوردى ، فاستعملته فبرأت ، ثم اتفق أنى سرت فى جنازة بنت من سعى على ، ومشيت بالعسر ؛ لأنه لم تتكلم صحى ، فقال لى بعض الأصحاب : عجبت منك ! هو يشيع موتك ، ويأخذ وظيفتك ، وأنت تمشى فى جنازة بنته القصة ، فتعجبت وقلت : أنا لا أتشوش منه ؛ لأنى بعد الفقد لا أبالى بمن تكون فى يده ، بل كونها مع بعض الأصحاب أولى من الأجنبى ، ولم أعاتبه ، وقطعت حجته ، وذهبت رشوته » .

كما يروى قصة أخرى طريفة فى سبب تعلمه النحو وصيرورته من العلماء فيقول (٧٠ أ / ٢) : « قال الفقير مصنف الكتاب : إن من التحدث بالنعمة ماسأقوله ، وهو أننى كنت أصنع حمائل السيف فى حال الصغر وذلك بعد موت الوالد ، ودفن فى البقيع

واتفق أن ساعدني جمع من الناس على أنهم
يتركونني بمصرأشتغل بالعلم ، وكان خالي
يوسف رحمه الله يحب لي ذلك فقام على
أخيه إبراهيم فاحتج بكوني صغير السن ،
وكيف نتركه وحده إلى أن سمحوا لي بالجلوس
في دكان لهم ملانة بالقماش من سائر الأنواع ،
وأن أبيع فيها وأصرف الفائدة على
زوجاتهم وعيالهم إلى أن يحضروا ،
فوافقت على ذلك ظاهراً ، ثم بعد مدة
يسيرة بعث السلعة وأخليت الدكان ،
وأبنت الزوجات عنهم ؛ لأنهم وكلوني
في ذلك إن طالت غيبتهم ، واشتريت
كتباً وجئت الأزهر والحمد لله

ومع أن الكتاب مؤلف في الدفاع عن
لغة أهل مصر ، فقد كثرت فيه
الاستطرادات لأدنى مناسبة ، كقول
المغربي مثلاً (٩٥ / ١٤) : « ويقولون :
فلان يبرجم : إذا كثر كلامه . ويستعملونه
في صوت الحمام ، يقولون الحمام

الشريف ، وجئت لمصر رأيت أخوالي
يصنعونها وعلموني ففتح الله على فيها . . .
ومع شغلي أتوا القرآن العظيم وأقرأ في سبع
بجامع طولون من المغرب إلى العشاء فكنت في
أثناء القراءة أتأمل اختلاف الحركات في
الكلمات ، ولم تكون هذه الكلمة مرفوعة ،
والأخرى منصوبة ، إلى غير ذلك . فسألت عن
ذلك إمام الجامع ، وهو مولانا الشيخ شعيب
جزاه الله عني ، فقال لي : إذا اشتغلت
بالنحو نصف سنة ، علمت ذلك خصوصاً إن
حفظت شيئاً من متن ألفية ابن مالك ،
وأعطاني إياها فكتبت منها لوحاً ، وصرت
أقرأ فيه ليلاً ، فمنعني أحد أخوالي عن
ذلك ، وقال : ما في أقاربنا علماء تطلع عالم
لمن ؟ وصار ينهرني ويقيمني من القراءة ليلاً ؛
لئلا أنعس نهاراً ، فلا أشتعل كثيراً ،
فإنه يغلب عليه حب الدنيا ، فلا زلت^(١)
أقرأ خفية بعد نومه حتى حفظت الألفية
تماماً . فقدر الله أنهم جمعوا من الحمائل
ما يساوي ألفاً من الدنانير . . .
فعزموا على السفر للسودان لأجل بيعها . . .

(١) هذا التعبير من التعبيرات الشائعة حتى اليوم ، وهو لحن ؛ لأن « لا » حرف نفي تختص بالفعل المضارع ،
ولا يدخل على الماضي إلا إذا كان هناك عطف على منفي مثل : « ما كلمني ولا كلمته » أو تكررت مع الماضي
المتكرر ، مثل قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلي » . فإذا دخلت على الماضي فيما عدا ذلك ، كان الكلام دعاء
لا لإخباراً ، مثل قول ذي الرمة :

ألا يا أسامي يا دارمي على البلى ولا زال منها بجرعائك القطر

كقوله (١١٤/ب) : «ويقولون :
الرمان وهو معروف ، الواحدة بهاء .
فائدة : جلده ملين للطبيعة والسعال ،
وحامضه بالعكس ، ومُره نافع من التهاب
المعدة ووجع الفؤاد . وللرمان ستة طعوم
كما التفاح ، وهو محمود لرقته وسرعة
انحلاله ولطافته » .

ويبدو من نصوص الكتاب أن صاحبه
يعرف التركية وينظم فيها شعرا (انظر
مثلا ص : ٦٨ / ٦٨ : ١٥ / ١٥) ،
كما يعرف الفارسية كذلك ، إذ يقول
مثلا (في صفحة ٢٣ / ١٠) : «ومما
ترجمته فيه من أبيات كلستان الشيخ
سعدى » ، كما قال بعد أن ذكر اشتقاق
كلمة بالفارسية (١٠ / ١٤) : «وإنما
ذكرت مثل هذا هنا حتى يعلم أن هذا
الكتاب اسم على مسمى ، وأنه الفضل
العام ، لا يخص العربى ، إلا أننى لأكثر
من ذلك لئلا يصعب على من لا يعرف
الفارسى : وكثير ما هم » .

وفى الكتاب مادة نافعة لاستنباط
كثير من الأحكام عن لغة أهل مصر
في القرن الحادى عشر الهجرى ،

يبرجم . والذى فى اللغة : البرجمة :
غلظ الكلام . والبراجم : مفاصل
الأصابع . والبراجم : قوم ، فى المثل :
إن الشقى وافد البراجم ، لأن عمرو
ابن هند أحرقتسعة وتسعين رجلا من
بنى دارم ، وحلف ليحرقن منهم مائة ،
فمر رجل فاشتم رائحة فظن شواء اتخذته
الملك ، فعدا إليه ليرزأ منه ، فقبل له :
من أنت ؟ فقال : من البراجم ، فكمل
به مائة » .

كما يظهر فى الكتاب اهتمام مؤلفه
بذكر فوائد الأعشاب والنباتات والثمار
فمثلا (٩٦ / ٩) الثوم إذا كان مسخنا
«مخرج للنفخ والدود ، جيد للنسيان
والربو والسعال المزمن ، والطحال والخاصرة
والقولنج ، وعرق النسا والورك والنقرس ،
ولسع الهوام والحيات والعقارب والكلب
الكلب ، والعطش البلغمى ، وتقطير
البول » ، وهو إذا شوى مفيد « لوجع
الأسنان المتآكلة ، حافظ صحة البرودين
والمشايخ ، ردى للربو اسير والزحير والحبالى
والمرضعات والصداع » .

بل قد يذكر المغربى ثمرة من الثمار
ليتحلىث عن فوائدها الطبية فحسب ،

مقلوب « أسنت » التي أوردتها صاحب
القاموس . ولو بحث قليلا لعلم أن أصل
الكلمة هو : « استثنى » بمعنى انتظر^(١) ،
فسقطت الهمزة ، وأغلق المقطع بتشديد
النون ، أو بعبارة أخرى استغنى عن المد
بالتضعيف ، وتلك ظاهرة تعرفها اللغة
العربية في تطورها ؛ كقولهم في : « بالوعة »
« بأوعة » ، وهى الكلمة التى تطورت عندنا
الآن إلى « بلاعة » تبعاً لقانون المماثلة
الصوتية بين الحركات^(٢) .

ويحار المربي حين يكشف عن كلمة
من الكلمات العامية فى القاموس ، فيجدها
فى شكلها الأخير تماثل كلمة أخرى ، لاصلة
بينهما فى المعنى ؛ كقوله : (٣٠ أ / ٤)
« ويقولون على معلم الأولاد : فقى ، ولم
تعلم ؛ لأن النقى لغة واد باليمامة ،
ونخل لبنى العنبر » . وأصل هذه الكلمة ،
كما هو معروف : « فقيه » ، سقطت
منها الهاء ، وهى من الأصوات الخفية التى
تسقط كثيرا من أواخر الكلمات فى
العامية ، مثل هاء الغائب فى قولنا :
« كتابه » و « فلمه » ، ثم حركات الفاء

وعوامل تطورها من العربية الفصحى
فى ضوء القوانين اللغوية التى أرسى
فواعدها المحدثون من علماء اللغات .
وقد اجتهد المربي فى تحليل تطور الكلمات
التي أتى بها فى كتابه ، فأصاب المحز فى
بعضها ، وخانه الشوفيق فى الكثير منها ؛
لأنه كان فى كثير من الأحيان يجهل
أصل الكلمة ، ويخضع ما آلت إليه
حالتها فى شكلها الأخير ، فيربط بينها
وبين مادة أخرى لاصلة لها بها .

ومن ذلك قوله (١١٤ ب / ٢٠) :
يقولون : فلان استثنى حتى زهق ، أو
استثنىته كذلك . وتأويله بعيد جدا قال
(يقصد صاحب القاموس كعادته ،
والكلام فيه ٤ / ٢٣٣) : الأستن
والأستان أصول الشجر البالية ، واحدها
أستنة . وأستن : دخل فى السنة ، قلب :
أسنت ، فيمكن أن يحمل قولهم : فلان
استثنى على ذلك ، مبالغة أى كأنه انتظر
سنة . ولا يخفى ما فيه من البعد .

فهو فى هذا المثال يربط بين كلمة :
« استثنى » فى العامية المصرية ، « وأستن »

(١) انظر لسان العرب (أ) ١٨ / ٥١

(٢) - انظر لهذه الظاهرة أمثلة أخرى فى كتابنا : لحن العامة بالتطور اللغوى ١٢٣ ، ٣١٦

بالكسر تبعاً لقانون المماثلة الصوتية بين الحركات ..

ولكنه كان في بعض الأحيان يتوقف ، إذا لم يكن على علم بأصل الكلمة ، كقوله (١٤ أ / ٨) : « ويقولون للبرسيم : ربّة . ولم أعرف فيه شيئاً الآن » ! والذي لم يعرفه المغزى يوجد في لسان العرب لابن منظور ، وهو لم يرجع إليه . قال في اللسان (ريب) ١ / ٣٩٢ : « والربّة بالكسر نبتة صيفية . وقيل هو كل ما اخضر في القيظ من جميع ضروب النبات . وقيل : هو ضروب من الشجر أو النبت فلم يحدث . الجمع الربيب » . ومثل ذلك أيضاً قوله (٣٥ ب / ١٤) : « ويقولون : نف طام النهار ، يريدون سرعة الشيء ركنت أفهم أن هفّ حكاية صوت من يطفئ السراج . ولم أنظر فيها شيئاً فانظرها » .

وأحيانا يقطع المؤلف بشأن الكلمة لأصل لها ، كقوله (١٣٢ أ / ٢) : « يقولون : ورّيت فلانا كذا ، يريدون : أطلعته عليه ، أي أريته له . وليس له أصل » . ويبدو أن أصل هذا الفعل هو : « رأى » بتضعيف الهمزة ، وعندما

سقطت الهمزة أصبح الفعل : « روى » وهو ما يستعمله العراقيون حتى اليوم ، فيقولون : « رويته إياه » بمعنى أريته إياه ، أما لهجة مصر فقد حدث فيها قلب مكافئ بين الراء والواو ، فصار الفعل : « ورّى » .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة للقلب المكافئ منتشرة في ثنايا الكتاب : كقوله (٢٣ ب / ١٢) : « ويقولون : زخليفة ، على الدابة المسماة : سلحفاة » فقد جهزت السنين في هذا المثال بسبب مجاورتها للام المجهورة ، ثم حدث القلب المكافئ بين اللام والحاء ، وقصرت حركة الفاء بسبب انتقال النبر .

وكقوله (٢٥ ب / ٧) : « ويقولون : سقّف على يديه أو بيديه ولم أنظرده » ، فأصل هذا الفعل « صَفَّق » فحدث قلب مكافئ بين الفاء والقاف ، ورققت الصاد فصارت سيناً . وأغلب الظن أن القاف كانت قد قلبت هي الأخرى همزة ، كما يحدث الآن في معظم بلاد مصر ،

غير أن الكتابة التقليدية المحافظة كانت تستر مظهر هذا التطور^(١).

ومثل ذلك القلب المكاني الذي نعرفه في كلمة : « مَلْعَقَة » وتطورها إلى « مَعْلَقَة » هذا القلب المكاني كان معروفا كذلك في أيام المغربي ؛ يقول (٤٩ ب/ ١٢) : « ويقولون : مَعْلَقَة لآلة يركل بها ويشرب . ولم أرها في القاموس ، والذي فيه : رجل ذو مَعْلَقَة ، كمرحلة ، يتعلق بكل ما أصابه ، انتهى . ويمكن بالقياس أن تكون الآلة : مَعْلَقَة بالكسر ، تعلق الطعام والشراب . أو يقال : إنها ملعقة ، بتقديم اللام من اللعق .. وما سبق أن قلناه في قاف « صفق » يمكن أن يقال هنا في قاف « مَلْعَقَة » . وانظر كذلك عنده (٥٤ ب/ ٣) .

وكما أن القلب في هذه الكلمات قديم منذ أيام المغربي ، أو ربما قبل ذلك ، فإن ضياع أصوات مابين الأسنان من العامية المصرية قديم هو الآخر ، نجد له أمثلة كثيرة عند المغربي ؛ فمن أمثلة ضياع « الذال » وتحولها إلى « دال »

قوله (٩٢ ب/ ١) : « يقولون في السب : فلان نذل ، بالإهمال ، وإنما هو نذل بالمعجمة » وقوله (١٠٨ ب/ ٤) : « ويقولون : فلان يهدرم الكلام . وله أصل ؛ قال : الهذرمة سرعة الكلام والقراءة ، إلا أنه بالمعجمة » ، وقوله (١٢٥ أ/ ١١) : « يقولون : فلان جلس حِدا فلان ، أي قريبا منه . وهي تصحيف عن حدائه ، بالذال المعجمة » .

ومن أمثلة ضياع « الثاء » وانقلابها « تاء » قوله (٦٣ أ/ ١٩) : « يقولون على الشجر : أثل ، بالمشناة ، وإنما هو أثل بالمشناة ، وأخذه أثلة » ، وقوله (٦٧ أ/ ١٨) : « ويقولون : أكلنا الشيء ورمينا ثِقْلَه . والصواب : الثقل بالمثلثة وبالضم » ، وقوله (٩٦ أ/ ٧) : « ويقولون : ثوم بالمشناة وإنما هو ثوم بالمثلثة »

ومن أمثلة ضياع « الظاء » وتحولها إلى « ضاد » قوله (٧١ ب/ ١) : « ويقولون : حَنْضَل ، على الحنظل ، بالظاء المشبالة ، وليس له وجه ؛ فإن الحنضل الغدير الصغير » !

(١) انظر هنا كذلك : لحن العامة والتطور اللغوي ص ٦٥ . (هامش ١) وص ٣٥٦

مافيه » ، فتحول ضمة الزاى هنا إلى فتحة سببها المماثلة الصوتية مع فتحة الفاء .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله (١٠/٦٢) : «ويقولون : كحك العيد وإنما هو الكحك . خبز معروف ، فارسي معرب» ، فقد همست العين هنا فتحولت حاء ، بسبب المماثلة الصوتية بينها وبين الكاف المهموسة .

أما كلمة : «صُرْم» التي يطلقها المصريون على الدُّبر ، فلم يعرف المغربي أنها متطورة عن كلمة «سُرْم» الواردة في القاموس المحيط (٤/١٢٨) في قوله : «السُّرم بالضم مخرج الثفل وهو طرف المعى المستقيم» . فقال المغربي (١٠٢/ب ٣) : «ويقولون على الاست : صُرْم ، ولم يعلم . قال : صُرْمه يصُرْمه صُرْمًا ويضم : قطعه قطعا . وصرم الرجل : قطع كلامه . والاسم الصُّرم بالضم» فقد خلط المغربي هنا بين كلمة «صُرْم» المتطورة عن «سُرْم» وكلمة «صُرْم» بمعنى قطع . والسبب في انقلاب السين صادا هو المماثلة

ولم تكن العامة في عصر المغربي . تهمز كثيراً من الكلمات التي تهزها الفصحى ، تماماً كما ننطق اليوم : «رفا الثوب» بدلا من «رفاً الثوب» (١/٩٩) ، ومثل ذلك أيضاً قوله (١٦/٩٨) : «يقولون : يزوم عليه إذا هم به أن يغلبه . وفي القاموس : زَام كمنع : أكل أكلا شديداً ، وزَامه ذعره . . . وهذا قد يناسب قولهم : فلان زام عليّ ، أي ذعرني» . ومثل هذا الفعل كان مضارعه : «يزَام» بفتح العين كيمنع ، غير أنه لما ضاع منه الهمز من عينه ، تصرفت تصرف الأجوف ، مثل : قال يقول ومات ويموت ، ورام يروم .

ويضرب قانون المماثلة بسهم وافر في تطور معظم الأمثلة التي ذكرها المغربي ؛ كقوله (٢٤/٢٠) : «ويقولون : عمل له الفرخ بزقة» . وليست الزقة بهذا اللفظ في اللغة . . . وأنسب من هذا أن الزقة بالضم تطلق على الزمرة . والزقة دائما في زمرة ، إلا أنهم حرفوها من الضم إلى الفتح . وفيه

تُسمّوه . وكان القياس : أسبوعه ،
ولكن قال (القاموس ٣ / ٣٦) :
« والأسبوع من الأيام والسبوع وبضمهما » ،
وقوله (١٢٩ أ / ٩) : « يقولون :
علوان الكتاب ، باللام ، وهو صحيح
كالعنوان بالنون » ، فمما لا شك فيه
أن الأصل هنا هو كلمة « عنوان » ،
وأن الثانية متطورة عنها بسبب تأثير
قانون المخالفة الصوتية بين النونين
في هذه الكلمة ، غير أن ذلك قد وقع
من العرب في عصور الاحتجاج ،
ولذلك روى لنا على أنه جائز وصحيح ،
إذ مقياس الضواب والخطأ هنا ، هو
السماع وعدمه عند هؤلاء اللغويين
الذين روى لنا هذه الألفاظ .

أما السبب في تطور كلمة : « نصف »
في العامة إلى « نُصّ » في قوله (٣٤ أ / ١٠)
« ويقولون : نُصّ فضة ، وإنما هو
نصف . قال (القاموس ٣ / ٢٠٠) :
النصف مثلثة : أحد شقي الشيء » -
فهو أن الفاء من الأصوات المهموسة
التي تخفى بعض الشيء عند النطق ،
فيبدو كأن الصوت السابق عليها
مضعف .

الصوتية بين السين والراء ، لأن الراء في الجربية
ذات قيمة تفخيمية ، وهي تميل إلى
تفخيم الأصوات المجاورة لها . كقولنا :
« طور » في « ثور » و « صور » في « سور »
و « آخرص » في « آخرس » و « رقص »
في « رفس » و « ضرب » في « درب »
وغير ذلك .

أما إذا حدثت هذه المماثلة في الزمن
القديم أي في عصور الاحتجاج
اللغوي ، فإن المغربي يعترف بها ، شأنه
في ذلك شأن سائر اللغويين ؛ كقوله
(٤١ ب / ٨) : « ويقولون - ولكن
يقع من البعض : فلان يزدق ، أي
يصدق . وهو يصدق ؛ قال في القاموس :
الزدق بالكسر لغة في الصدق ، وأنا
أزدق منه » ، فقد جهرت الصاد هنا
بسبب مجاورتها للذال المجهورة ،
فتحولت زايا مفخمة ، وكتبت بالزاي
المعروفة ؛ لعلم وجود رمز للزاي المفخمة
في الكتابة العربية .

والاعتراف بالتطور القديم في
الألفاظ ، وعده من الفصيح ، له أمثلة
أخرى في الكتاب كقوله (٤٣ ب / ١٣) :
« ويقولون لمن ولد له مولود : أيّ يوم

وتخريجهما في خاصرة-الصبي ليضحكه .
وهذا خلاف الترقيص . فانظر فيه .

فالتطور الحادث في هذا اللفظ في
عصر المؤلف ، كان في معناه لا في صوته ،
ولكن الذي حدث عندنا الآن بالإضافة
إلى ذلك هو تحول القاف إلى غين .
وانقلاب القاف غينا أمر يعرفه
السودانيون ، وبعض قرى جنوب العراق .
وعندنا من هذه الظاهرة في عاميتنا
المصرية مثال آخر هو قولنا : « مش
عادر » بمعنى : لا أقدر .

وقد عرف المغربي أصل كلمة :
« هين » (١٢٠ / أ / ٦) وأنها كانت
في الأصل : « في آين » فسقطت الهمزة ،
وهذا ما يوافق عليه العلماء المحدثون^(١) .
غير أنه ضل في البحث عن أصل كلمة :
« إيما » في قوله (٣ / ب / ٩) : « ويقولون
إذا وعد أحد بشيء مثلاً ، فيقول له :
إيما يكون . وليس لها وجه إلا أن تكون
(إي) زائدة . ومتى للسؤال عن
الوقت : أو أن (إي) وحدها حرف
جواب ، فكأنه يقول إذا قيل له : نعم

وأما إطلاقهم « أتانة » على أنثى
الحمار ، بدلاً من « أتان » (١٠٩ / أ / ٨)
فهو متفق مع الاتجاه العام إلى إلحاق تاء
التأنيث بمعظم المؤنثات السماعية إن
أريد الاحتفاظ بالتأنيث فيها ؛ مثل
قولنا : « خمرة » في « خمر » و « كبدة »
في « كبد » و « عقربة » في « عقرب »
و « سكين » في « سكين » وما إلى
ذلك .

ويبدو من بعض أمثلة الكتاب شيء
من التطور في لغتنا الحالية ، لغة التخاطب
في مصر ، عنها في عصر المغربي . ومن
أمثلة ذلك انقلاب القاف غينا في قولنا :
زغزغ بدلاً من « زقزق » التي كانت
اتزال مستعملة في عصر المؤلف ؛
إذ يقول (٤٢ / ب / ١٦) : « ويقولون :
زقرقه ليضحك . قال في المختصر :
الزقزقة ترقيص الطفل . وفي القاموس :
الزقزقة الضحك الضعيف والخفة وصوت
طار عند الصبح ، وترقيص الصبي .
كالزقزاق بالكسر ، ولكن خلاف المشاهد
في أن الزقزقة الآن : العبث باليد .

(١) انظر : أصول الكلمات العامية ، لحسن توفيق العدل ص ٦٠ .

وهناك في الكتاب أمثلة كثيرة لتطور الصيغ في العاية المصرية ؛ فمن أدثلة تطور صيغة (فَعْلُول) ، بضم الفاء ، إلى (فَعْلُول) ، بفتحها . قوله (٩٦/أ/٣) . «يقولون . صاحب بلعوم ، أي كثير الأكل ، فيفتحون الباء ، وإنما هو بالضم مجرى الطعام في الحلق » ، وقوله (٩٦/ب/١٥) : «ويقولون : الخرطوم بالفتح ، وإنما هو الخرطوم بالضم ، كزنبور : الأنف أو مقدمه » ، وقوله (١١٦/ب/٨) : «ويقولون : أعطاه العربون ، بفتح العين مع أنه بضمها » .

ومن أمثلة تطور (فَعْلِيل) ، بكسر الفاء ، إلى (فَعْلِيل) بفتح الفاء قوله (٦٥/ب/١) : «ويقولون : البرطيل شيخ كبير ، فيفتحون الباء ، وإنما هو البرطيل بالكسر » ، وقوله (٤٢/ب/١٠) : «يقولون : فلان زنديق ، فيفتحون الزاي ، وإنما هو بكسرها » ، وقوله (٩٠/ب/١) : «يقولون : قنديل بفتح القاف ، وإنما هو بكسرها » . ومن أمثلة تطور صيغة (مَفْعَلَة) بكسر الميم ، إلى (مَفْعَلَة) بفتح الميم قوله

ما أثبتتم به متى ؟ » . والحقيقة أن هذه الكلمة ليست مركبة من (إي) و(متى) كما يبدو في الظاهر ، بل الذي حدث هو أن «متى» سمكت ميمها للسرعة في النطق ، فجاءت بهمزة الوصل ، لئلا يبتدأ بساكن ، وعندما انتقل النبر إلى هذه الهمزة طالت حركتها بعض الشيء ، فلذلك كتبها المغربي بالياء : «إيمتا» .

وعلى الرغم من عدم معرفة المغربي باللغة العبرية ، فإنه استطاع أن يصحح التعبير العبري الشائع عند من يشتغلون بالسحر من العامة ، وهو :

אֶהְיֶה אִשְׁרָאֵל = أكون الذي أكون (يعني أنا أنا) ، إذ يتوله العامة : «أهيا شراهايا» ، وقد جعله المغربي : «إهيا أشرا إهيا» وهو قريب من النطق العبري الصريح وهو : «إهية أشرا إهيه» ، وإن كان المغربي قد ظن أن هذا التعبير يوناني وهما منه ، فقال (١٢١/ب/١٣) : «يقولون : أهيا شراهايا . قال : وهو خطأ ، وإنما هو : إهيا بكسر الهمزة - أشرا إهيا ، بفتح الهمزة والشين . أي الأزلي الذي لم يزل ، يونانية » .

(١١٣ ب / ٥) : « ويقولون لما يوضع فيه القنديل : مَدْنَحَة ، بفتح الميم ، وإنما هي مَدْنَحَة ، كمكنسة » .

ومن أمثلة تطور (فُعُول) بفتح الفاء وضم العين ، إلى (فُعُول) بضمهما قوله (٢٥ أ / ٢٠) : « ويقولون لمايسف : سُفُوف ، بضم السين ، وهو سُفُوف كصبور » ، وقوله (٥٤ ب / ١) : « ويقولون : أُعُوق ، بضم اللام ، وإنما هو بفتحة . قال في القاموس : لعوق كصبور : مايلق » .

أما تطور دلالة الألفاظ في عامية مصر في عصر المغربي ، فلها أمثلة كثيرة كذلك في الكتاب ، فمن أمثلة تخصيص الدلالة استعمالهم كلمة : « الطرب » في معنى الفرح ، كما نستخدمها في أيامنا هذه ، وهي تدل في الأصل على حركة الفرح والحزن ، يقول (١٦ أ / ١٨) : « ويقولون : حصل لفلان الطرب ، يخصصونه بحركة الفرح ، وهو يطلق على حركة الفرح

والحزن من الأضداد . ورجل مطراب ويطروب . وقد ظهر الآن أن قولهم : لو اتفق حماران لأطربا ، أى حركا حركة حزن ، لا حركة فرح ، إذ صوت الحمار بمفرده يحرك حركة الحزن ، ويستفاد منه ، فكيف مع الازدواج » .

ومن أمثلة انتقال الدلالة بسبب إحدى علاقات المجاز المرسل ، استعمالهم « تشنيف الآذان » بمعنى إسماعها ما حسن من الأصوات ، وهو في الأصل يعنى إلباسها الشنف وهو القرط . يقول المغربي (٢٦ ب / ١٥) : « ويقولون عند السماع : شنفتم السماع ، فلو مشى معهم أحد في تشنيف السماع لما شنفوا السماع . ومعنى ذلك أن الشنف بالكسر وسكون النون . . . هو القرط الأذن ، وشنف الجارية فتشرفت : جعل لها شنفا ، مثل قرطها القرط فتقرطت . فكأن المسمع بحسن سماعه ألقى في السماع شنوفا وجواهر ، فصيح قولهم : شنفتم السماع » .

أما «تقطيع فروة» الإنسان ، فمعناه
 في عصر المغربي : ذكره بالمحاسن ،
 يقول (١٢٩ ب / ١٣) : « يقولون :
 كنا نقطع فروتك ، أي كنا نذكرك
 بالمحاسن ، ولكن لا يخفى مافيه من
 الإبهام ، فإن الفروة للخروف ، والفروة
 جلد الرأس » . وقد تطور هذا المعنى
 في عاميتنا الحالية ، فأصبحنا لانفهم من
 هذا التعبير إلا ذكر مساويء الانسان
 لامحاسنه .

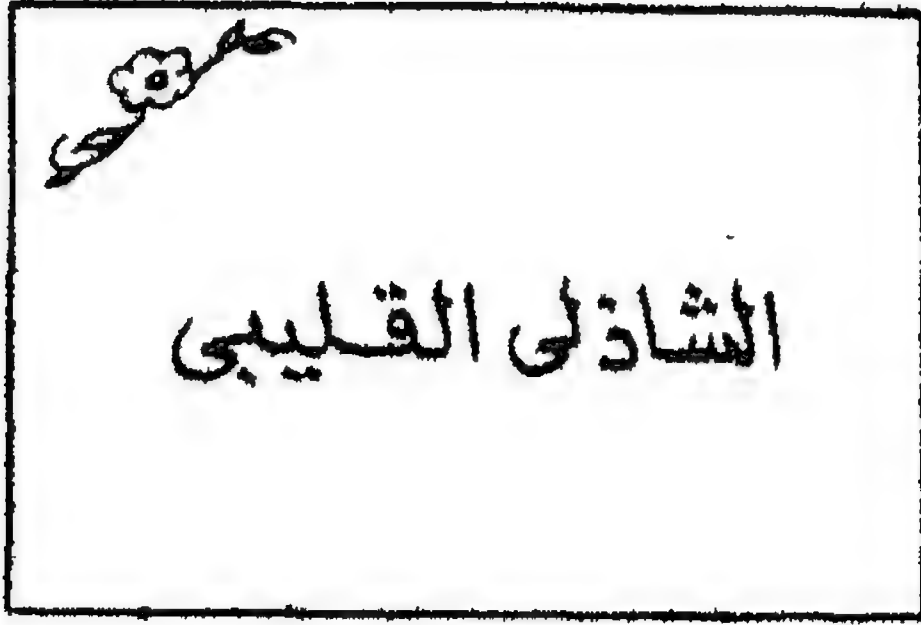
هذا هو تحليل بعض الظواهر اللغوية
 التي يفيض بها هذا الكتاب الممتاز ،
 وهو وثيقة لغوية نادرة في دراسة اللهجات
 العربية . وكم كنا نتمنى لوجاد علينا
 التراث العربي بالكثير من أمثال هذه
 الوثيقة في عصور العربية المختلفة ،
 وبقاعها المتفرقة ، لتلقى بعض الضوء
 على مراحل التطور اللغوي لكثير من
 الظواهر اللغوية في العربية .

رمضان عبد التواب



أقام المجمع حفل استقبال لعضوه الجديد من تونس الأستاذ الشاذلي
القليبي ، الذي خلف المغفور له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب .
وقد أقيم الحفل في الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ٢٧ من ذي الحجة
سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ٢٢ من فبراير سنة ١٩٧١ م . وفيما يلي ما ألقى
في الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكى المهندس في استقبال الأستاذ :



ولعل من محاسن المصادفات أن يكون
استقبال الزميل بعد عودته من الحج ، وأن
يجىء إلينا بعد حج مبرور ، وسعى مشكور ،
وذنب مغفور ، إن شاء الله :

وما من شك في أن وفاة العالم الكبير
المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، قد
تركت بيننا فراغا علميا واسعا ، ولكننا على
يقين بأن الزميل الجديد سيكون خير خلف
لخير سلف ، وأنه سيملا هذا الفراغ بما عرف
عنه من كفاية ونشاط . ولعلنا في هذه
المناسبة نذكر قول شاعرنا القديم :
إذا سيد منا خلا قام سيد

قوول لما قال الكرام فعول

فأهلا بالزميل الجديد ، ومرحبا به في
مجمع الخالدين .

حضرات الزملاء :

سيداتي ، سادتي :

إنمؤتمر المؤتمر أعظم السرور أن يستقبل
الليلة زميلا كبيرا وعالمنا جليلا ، هو السيد
الأستاذ الشاذلي القليبي الذي اختير عضوا
عاملا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة من تونيس
الشقيق ، خلفا للعالم الكبير المرحوم حسن
حسنى عبد الوهاب . والمؤتمر إذ يهنئ الزميل
الجديد بمسئال من ثقة وتقدير ، ليسعده كل
السعادة أن يرى كفاية عربية جديدة تضاف
إلى كفاياته ، ونشاطا علميا جديدا يلتقى
بنشاطه .

كذلك كان تونس الشقيق وسيظل دائما
يزودنا بذوى الثقافات العالية ، والكفايات
الممتازة ليشاركونا في تأدية أهم رسالة تتصل
بقوميتنا ونهضتنا ، وهى خدمة اللغة العربية .

• • كلمة الأستاذ عبد الله كنون :

سيدى الرئيس :

سادتى :

فما نشاهده من عادات وأعراف تختلف
من بلد عربى لآخر ، لعله أن يكون مما أثر
عن هؤلاء القوم أو أولئك من العرب الذين
نزلوا بهذا البلد أو ذاك ، ومثل ذلك يقال
فما نسمعه من لفظ ونبر يختص بشعب عربى
دون آخر . واو تفرغنا لدراسة ذلك ورده
إلى مصادره الأولى لوقفنا على الكثير المعجب
من أصول شعوبنا العربية وخصائصها .

أولئك مثل الطيب كل له شذى

ومجموعه أذكى أريجاً إذا شتمنا

لهذا كان تمثيل البلاد العربية فى مجمع
اللغة العربية بالقاهرة فكرة صائبة وأمر ضروريا
من أجل استكمال الوجود العربى ، واستيعاب
العناصر المكونة للطاقة اللغوية فى كل بلاد
العرب ، ومن أجل التعريف بجهود المجمع
فى سبيل النهوض باللغة العربية وإحلالها المحل
اللائق بها بين اللغات الحية ، فإن هذه الجهود
أو أكثرها يبقى محمولا لدى أبناء العربية فى
وطنهم الكبير الممتد من الخليج إلى المحيط ،
ومن يستطيع أن يعرف بها غير رسل هذه
البلاد الذين يشاركون بما أوتوا من علم

تتكافأ البلاد العربية مجدا وشرفا ،
وتتعاطف إحساسا وشعورا ، وهى فى النهضة
كأفراس الرهان تسابق إلى ما يعلى شأن
العروبة ويرفع من قدرها إلى ما كانت عاياه
فى الماضى وأكثر .

ونحن العرب وإن كنا من أصل واحد
ونبعة مشتركة ، وتولف بيننا هذه الضاد التى
لم تصوغ فكرنا وتطلق ألسنتنا بما يزيد وحدتنا
تماسكاً ، وعروتنا توثقا ، إلا أننا بحكم تباعد
الديار واختلاف المناخ قد يتميز مغرب منسا
من مشرق ، بل موطن من موطن ، بما لا يعدو
ما تتميز به بلدة من أخرى فى القطر الواحد ،
من بعض السمات والعلامات ، ولكن ذلك
ليس بمؤثر فى العمق شيئا ، بل هو أخرى
أن يكون مظهرا من مظاهر التكامل وانعكاسا
لجميع السجاياء والأوصاف ، ولو شئت
لقلت اللغيات واللهجات التى عرفت بها
بعض القبائل والبطون من أجدادنا العرب
القدماء .

موحدة لإرساء قواعد لغتنا، وتصفية مواردها
العذبة من الشوائب والأكدار، فيأتي كل
واحد منا بخير ماعنده، ولا نثبت أننا وطن
واحد تسكنه أمة واحدة وحسب، ولكننا
فوق ذلك، نعمل ما عمله أجدادنا في أسواق
عكاظ ومجنة وذى الحجاز، وفي موسم الحج
بخاصة، فنختار من الألفاظ أعذبها، ومن
الأساليب أعجبها، ونخرج بحصيلة من الكلم،
تؤدي ما نحن في حاجة إليه من أغراض
ومقاصد من غير أن تبعد بنا عن بيان
يعرب وقحطان، وبلاغة السنة والقرآن.

واليوم هذه أرض الكنانة، وهي حرم
آمن للعلم تجيء إليه ثمرات العقول من كل
الآفاق، تمضي على سنتها الحمودة فتستقبل
في حظيرة مجمعها الموقر عضوا جديدا من
بلد عربي، عريق، هو القطر التونسي
الشقيق، خلفا لزميل كريم، ومجمعي عظيم،
خلا كرسيه باستئثار رحمة الله به.

وإذا ذكرنا تونس فلإننا نذكر القيروان
وحضارتها وعلومها وآدابها في وقت كانت
فيه ثلاثة عواصم العالم العربي والإسلامي بعد
بغداد وقرطبة، ونذكر دولة الأغالبة
وعظمتها، وفتوحاتها التي جعلت من غرب
البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية خالصة،
ناهيك بفتح جزيرة صقلية وما نشأ فيها
للعرب من مدنية وسلطان نوه بهما شاعر
الإسلام محمد إقبال حين قال، وقد مر بهذه
الجزيرة: «سلام عليك أيتها الأرض التي

ومعرفة إلى جانب إخوانهم في عاصمة الفكر
العربي، القاهرة المغزية الناصرية، في بناء
ذلك الصرح العتيد، ويلمسون من كتب
ما يقوم به المجمع والمجمعين من عمل عظيم
في هذا السبيل، فيرجعون إلى قومهم
يتحدثون بما رأوا وما سمعوا، وينشرونه
في الأوساط العلمية التي تستفيد منه الفائدة
الحقة، وبذلك تحصل النتيجة المرغوبة
ولا يبقى أحد يتساءل: أين المجمع وماذا عمل؟

ومن يقل للمسك: أين الشذى؟
كذبه في الحال من شمس

هذا إلى الإجماع من ممثلي البلاد العربية
على مقررات المجمع وأوضاعه، ذلك
الإجماع الذي يقطع الشغب ويرد الدعوى
بتعدد المصطلحات العربية واختلافها، وهي
دعوى طالما رددتها بعض الكتاب وركز
فيها المتنطعون هجوميهم على المجمع وعلى
اللغة العربية ذاتها، فن المسلم به أنه بعدما
ينعقد مؤتمر المجمع السنوي، ويحضره النخبة
المعنية بالمباحث اللغوية، وتتفق كلمتها على
ما يوضع بين أيديها من مصطلحات وقرارات
تصبح هذه المصطلحات والقرارات هي
المعول بها والمعول عليها بالإجماع، ويصير
ما عداها لاغيا وغير مقبول.

وإننا إذ نتوصل من أمانة المجمع لما
توصل به من أعمال المجلس لإبداء النظر
فيها، وإذا تجتمع هنا كل سنة في المؤتمر،
نما يحدونا هذا التوافق، والعمل ضمن خطة

بهر بها الدارسين والعلماء من الغربيين قبل الشرقيين . وبذلك صبح أن يعتبر أحد الأفاضل من رجال الفكر العلمى الإنسانى فى العالم أجمع .

أما إذا أردنا أن نستعرض ما أعطته تونس فى مجال الفكر والدراسات الإسلامية ، فإن ذلك شئ عظيم يطول ، ولكن يكفى أن نبدأ بما أنجزه سخون من عمل ضخم فى هذا الصدد ، وهو تأليفه للكتاب الذائع الصيت الذى يعد قمة كتب الفقه فى المذهب المالكى ، والمرجع الأول لمشرعى المالكية فى العالم الإسلامى ، أعنى كتاب المدونة الكبرى . وأن نختم بمختصر ابن عرفة فى المادة نفسها وهو الكتاب الذى استوعب بأوجز عبارة ، مسائل المدونة وما قام حولها من الدراسات ، وتميز بتعاريفه الدقيقة وحدوده المنطقية التى حيرت العلماء ، ووضعت عليها كذلك الشروح والتعليق . إن ذكر هذين العلمين الشهيرين سخون وابن عرفة من رجال تونس النابغين فى العاوم الإسلامية هو من باب الاكتفاء بالعنوان عن قراءة الكتاب ، وإلا فإن من أنجبهم الديار التونسية فى هذا الباب ، قبل وبعد ، هو مما يخطئه الحصر ، وأكثرهم إن لم أقل كلهم من ذوى الوزن الثقيل .

هذا فى الماضى . وفى الحاضر : هل أذكر جهاد تونس وتضحياتها بالحسيمة فى سبيل الاستقلال والتمرد خريتها من يد المستعمر الغاصب ؟ وهل أذكر كتابها ، وصحافها

التي تحتضن حضارة الإسلام . وحسبنا أن نذكر ابن رشيق وابن شرف من أبنساء هذه الأرض الطيبة ، لنقدر ما ساهمت به فى الدراسات اللغوية والأدبية التى نغنى بها فى هذا المجمع ، فابن رشيق هو صاحب كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الذى يعد من أوائل الكتب المنهجية فى هذا الفن ، وابن شرف هو الشاعر الذى عبر عن الزيف السياسى المتمثل فى حكومات دول الطوائف فى الأندلس ، بما صار مضرب الأمثال على لسان كل عربى ، حين قال :

مما يزهدنى فى أرض أندلس
أسياء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملوكة فى غير موضعها
كالهزّ يحكى انتفاخا صورة الأسد

فإذا انتقلنا من ميدان الأدب واللغة والشعر إلى ميدان العلم والفلسفة والاجتماع وذكرنا ابن خلدون من نوابغ تونس وعباقرتها ، فإننا نذكر ما يملأ النفس عظمة وفخرا ، ويطاول الزمان خلودا وذكرنا . إنه المفكر العربى الأصيل السباق إلى وضع علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، والذى أحصى علوم عصره وقام بدراسة مقارنة بين حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات ، وتنبأ بسقوط دولة العرب فى الأندلس ، وتحلل النسبة العربية وعناصر تكوين المجتمع العربى . ووصف داءه ودواءه ، وبقي إلى آخر أيام حياته يعيش مع أحداث عصره ، ويندمج فى مختلف أوساط أمتة ، مسجلا تجاربه وملاحظاته التى

أن الشاذلية كان لها انتشار كبير في تونس
ومريدون صادقون متمسكون بحبلها متفانون
في حبها حتى إنهم يسموه أبناءهم بوصفها
الذي يفيد الانتماء إليها منذ الولادة ، أملا في
سلوك طريقها الواعية والنشوء على تربيته
الحسنة :

والشاذلية كما لا يخفى هي مذهب من
مذاهب التصوف ، أنشأه الشيخ أبو الحسن
الشاذلي الغمري المغربي ، تلميذ الشيخ عبد
السلام بن مشيش صاحب 'الصلاة المشيشية'
المعروفة ، وبناء على طريقة الجنيدي إمام
الصوفية من أهل السنة ، وطهره من بدع
المتصوفة المدعين وضلالاتهم التي تجافي
أصول الدين ، وجعل أساسه محبة الله ورسوله
والتمسك بالشرعية النبوية الغراء ، طبقا
للحديث الشريف القائل : « ثلاث من كن
فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله
ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب
المرء لا يحب إلا الله ، وأن يكره أن يعود في
الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن
يقذف في النار » .

وقد كان الشاذلي مرّ بتونس عند رحلته
إلى المشرق فأخذ الناس عنه وانتشر مذهبه
هناك ، وكان من تأثيره في المجتمع التونسي
ما رأينا من الإخلاص له والتعلق به إلى حد
تسمية الآباء أبناءهم في القرن العشرين بما
يرجى من الاتصاف به .

اللامعين الذين ناصروا القضية العربية
والإسلامية وجهاد الشعوب الشقيقة في المغرب
والمشرق ، ولم يقصروا اهتمامهم قط على
قضية بلادهم رغم ما كانوا يتعرضون له من
امتحان واضطهاد ؟ وهل أذكر علماءها
الكبار الذين أدركنا بعضهم أحياء مثل الشيخ
سالم أبو حجاب الذي ألحق الأحفاد بالأجداد ،
والشيخ المكّي ابن عزوز الذي عرفه المغرب
والمشرق بسعة العلم والاطلاع إذ عاش ودحا
من عمره في الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية ؟
وهل أذكر أمير شعرائها الصديق النبيل
الشاذلي خزنदार ، ونايغتها الفذ أبا القاسم
الشاذلي ؟ وهل أذكر الشيخ الخضر حسين
الذي ولي مشيخة الأزهر وكان مثال العالم
المخلق الكريم ، وفقيدتنا العزيزين حسن
حسني عبد الوهاب والفاضل ابن عاشور ؟

إنها سلسلة طويلة كثيرة الحلقات ،
والوقت لا يسمح بتتبع أفرادها وذكر
أسمائهم ، وكيف بالكلام عليهم والتعريف
بهم ؟ .

والمراد أن أقول إن هذه هي تونس التي
ثلج مجمع اللغة العربية اليوم بممثلها الحديد
من باب الواسع ، فإذا عن هذا الزميل
الفاضل ؟

إن الأستاذ القليبي يحمل اسم الشاذلي ،
وتلك لحظة أخرى من لحات الحياة الروحية
لشعب تونس الكريم ، لا سيما إذا عرفنا أن
هذا يشيع بين التونسيين كثيرا : وقصة ذلك

ولئلا يكون كلامي هذا من باب الشعر والخيال أذكر بعض الوقائع التاريخية التي تصوّر لنا المجتمع التونسي كما وصفناه ، وهي مما ذكره أحد علمائها الأثبات الثقات وليس مما رواه الإخباريون أو القصّاص ، وذلك ما جاء في شرح العلامة الأبيّ على صحيح مسلم ، وهو تلميذ ابن عرفة سالف الذكر ، فقد قال : « كان قضاء تونس في أيام الدولة الموحدية لا يولاه إلا قضاة من مراکش ، فاتفق مرة أن قدم إليها قاض فجلس مجلس الحكم فبقى أياما لا يأتيه أحد ، فظن أن القوم لم يرضوا به ، ثم قدم إليه خصمان من أهل سوق الحبة فقال أحدهما : أصلحك الله إن هذا شريكى وقته باع جبّة من أعرابي وأنا لا أستحل مال الأعراب . فعلم القاضى حينئذ أن عدم اتیان الخصوم إليه إنما هو لتناصفهم ومراعاتهم جانب الله » . ويعنى بالأعراب عرب الصعيد الذين اكتسحوا الشمال الإفريقي وكانوا ثائرين على السلطة الشرعية ، فأموأهم لم تكن تخلو من شبهة .

وهذه واقعة أخرى مما رواه الأبيّ أيضا قال : « وسقط دينار من أحد المسارة بطريق العطارين فبقى ملقى مدة لا يرفعه أحد ، ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس : اليوم دخل بلدنا غريب » .

تلك هي بعض الملامح من صوفية المجتمع التونسي الذي يتفق ما حلم به الفلاسفة قديما من المدينة الفاضلة ، وذلك هو بعض ما يوحى اسم الشاذلي لكل تونسي فاضل حين يسمى

ابنه به ، كما فعل والد زميلنا الكريم . وقد ولد الأستاذ الشاذلي القليبي في عاصمة تونس بتاريخ ٦ من سبتمبر سنة ١٩٢٥ م ، وزاول تعليمه الابتدائي والثانوي بالمدرسة الصادقية ، وبعد التخرج منها التحق بجامعة السربون في باريس حيث واصل دراسته العالية وحصل على شهادة الإجازة في الآداب العربية سنة ١٩٤٨ م ، ثم على شهادة الإجازة في الفلسفة سنة ١٩٤٩ م ، ثم على شهادة التبريز في الآداب واللغة العربية سنة ١٩٥٠ م ورجع إلى وطنه تونس واشتغل بالتعليم في السلك الثانوي ، وبإلقاء بعض الدروس في معهد الدراسات العليا الذي كان حينئذ يعد فرعا بجامعة باريس في تونس ، وفي سنة ١٩٥٧ م التحق نهائيا بالتعليم العالي فكان من الأساتذة المؤسسين لمدرسة المعلمين العليا ، وفي سنة ١٩٥٩ م دعي للاضطلاع بالإدارة العامة للإذاعة والتلفزة ، وفي سنة ١٩٦١ م عين وزيرا للشئون الثقافية والأخبار ، وبقى في هذا المنصب إلى منتصف سنة ١٩٧٠ م وهو الآن نائب بمجلس الأمة ، ورئيس لبلدية مدينة قرطاج ، ورئيس للمركز الثقافي الدولي (بالحمامات) .

إنها وظائف هامة شغلها ويشغلها الأستاذ القليبي منذ انتهاء تحصيله ، ومستويات كبيرة تحملها بجد وإخلاص ، اهتماما بنشر العلم وتثقيف العقول تارة ، وقيامًا بواجبه الوطني في تسيير أجهزة الدولة تارة أخرى ، فهو رجل علم وعمل وتفكير وتدبير ، برهن

ولاسيما ما اختص منه بالنضال العالى ، وهو نضال قديم فى تونس أفرد بالتأليف ، فلو جمع ما كتبه الأستاذ فيه لتهيا لنا أن نطلع على أفكاره فى هذا الموضوع الذى يمت إلى الحركات الليبرالية فى العالم بسبب وثيق .

وللأستاذ القلبي مشروعات تأليف أدبية لم تدع له اهتماماته الكثيرة المتنوعة من الوقت ما يمكنه من تحقيقها وإخراجها إلى حيز الوجود . . وقد نشر له بحث فى مشكلة فلسطين بعنوان « العرب أمام قضية فلسطين » وله كتاب قيد الطبع يحمل اسم « آفاق ومسالك » .

ويعتبر زميلنا الحديد رائدا للثقافة التونسية الحديثة ، فهو أول من خطط لها وأوضح معالمها ، وأول تونسي أشرف على جهاز حكومي يضم جميع اختصاصاتها فى وزارة الشؤون الثقافية التى بقى فيها تسع سنوات ، متوالية يرسى قواعدها فى مختلف المجالات ، وإليه يرجع الفضل فى إحياء التراث الفكرى والفنى والتاريخى بتونس .

وقد عرف له فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية هذه المزية فقلده الوساح الأكبر من وسامى الاستقلال والجمهورية ، كما عرفت مزاياه كثير من الدول الشقيقة والصديقة وفى طليعتها الجمهورية العربية المتحدة التى قلده أيضا الوساح الأكبر من وسام الجمهورية المصرى :

على علمه بدروسه التى استفاد منها العديد من التلامذة والطلاب ، وأسندت إليه الدولة مهام جسيمة فأظهر من الكفاءة والمقدرة فى الاضطلاع بها ما جعلها تنقله من مهم إلى مهم ، ثقة به واعتمادا عليه ، وهكذا نجح فى الميدانين الثقافى والإدارى وكان من خاصة من قيل فيهم :

إذا أيقظتك حروب العدا
فنبه لها عمرا ثم نم

وللأستاذ الشاذلى القلبي مجالات أخرى من النشاط الاجتماعى والثقافى علاوة على ما كان يتقلده من وظائف ومسؤوليات ، فقد انتسب منذ عودته من فرنسا سنة ١٩٥٠ م إلى الحركة العمالية التى أصبح فيها بعد من قادتها المرموقين ، كما شارك فى تحرير جريدة الصباح اليومية منذ بروزها إلى الوجود وأشرف على إدارة جريدة صورة العمل التى يصدرها الاتحاد العام التونسى للشغل ابتداء من سنة ١٩٥٤ م إلى سنة ١٩٥٦ م وكثيرا ما حرر المقالات الافتتاحية لجريدة لكسيون الفرنسية التى تصدر اليوم باسم جون أفريقيا .

وكان من أكبر المشاركين فى تحرير مجلة البندوة من أول ظهورها سنة ١٩٥٣ م وتولى الإشراف على إدارتها وتحريرها سنتى ١٩٥٤ و ١٩٥٥ م . . . وهذا النشاط الحافل فى العمل الصحفى باللسانين العربى والفرنسى لا بد أن يكون له حصيلة أدبية ذات نزعة إنسانية

وأخيرا اختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة
سنة ١٩٧٠ م عضوا عاملا ممثلا لتونس خلفا
للعلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب .

أيها السادة :

هذا هو الزميل الحبيب الذي شرفني
المجمع بأن أكون نائبا عنه في استقباله وأن
أقدمه إليكم بحكم أننا معا ننتهي إلى المغرب
العربي . وقد رأيتم أنه شخصية لامعة وأنه جدير
بهذا الشرف الذي أولاه إياه مجمع الخالدين .
فهو يجر من ورائه تاريخا حافلا بالجد والعظمة
وماضيا زاهرا بالعلم والحضارة لبلد يأتي في
الطليعة من بلاد وطننا العربي الكبير هو
تونس الخضراء . وهو يمثل الجيل الصاعد
من أبناء الجمهورية التونسية الذي ناضل
في غير ما ميدان من أجل بناء الاستقلال
والحفاظ على الذاتية العربية لبلده ، بما أعلى
للثقافة من شأن ، وما أحيا من تراث الفكر
العربي الذي أنحنى عليه الإهمال والنسيان .

والمجمع إذ يفتح أبوابه في وجوه العاملين
الحريين الذين تتدفق في عروقهم وقلوبهم
دماء الشباب الحارة ، إنما يريد من ذلك أن
يعزز جهود الشيوخ الراسخين ويزاوج الحكمة
والمقدرة . ولذلك فإن زميلنا الحبيب ، وإن
كان يخلف علما من أعلام الفكر ، وطودا من
أطواد المعرفة ، وعضوا قد يما من أعضاء المجمع
ساير الركب وشارك في أعماله من لدن
إنشائه وتكوينه ، فإنني مستبشر به ومتوسم
فيه أنه سيكون خير خلف لخير سلف ،

لأنني لا أرى قصر الفضائل على المتقدمين
وحتمية تفوق السابقين على اللاحقين خصوصا
في مجال العلم والأدب ، ولله درّه العلامة ابن
مالك النحوي الطائي الجياني الدمشقي الذي
قال في طالعة كتابه التسهيل : « وإذا كانت
العلوم منحة إلهية ومواهب اختصاصية فغير
مستغرب أن يدخر منها للمتأخرين ما عسر
نيله على كثير من المتقدمين » . والأمر
على كل حال يتعلق بالجد والاجتهاد والمثابرة
والمصابرة ، كما قال ابن البناء السرقسطي
في المباحث الأصلية :

ولم تزل كل نفوس الأحياء
علامة دراكة للأشياء

وإنما تحجبها الأبدان
والأنفس السزغ والشيطان
فسكل من أذاقهم جهنمه
أظهر للعاجز خرق العادة

والأستاذ القليلي قد عرفنا من جهاده
الدائب وكفاحه المستمر ما يجعلنا نوّمن بأنه
سبلا الفراغ الذي تركه سلفه المرحوم في
العمل الجمعي ، وأنه سيكون منه للمجمع
خلف تقرر به الأعين .

وإني أقدم له أصدق التهانى لعضوية
المجمع وأتمنى له النجاح التام في مهمته الجديدة
وذلك باسمي وباسمكم جميعا ، وأهدي إلى
تونس المنجبة تحيات الجمعيين وعواطفهم
السامية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

• • كلمة الأستاذ الشاذلي القليبي :

سيادة الرئيس

حضرات السادة الأعضاء المحترمين

أيها السادة والسيدات :

في هذه اللحظة التي أقف فيها أمامكم تخالطني جملة من المشاعر ليس من الهين أن أميز بعضها من بعض ، فأحلقها بما أبتغى من دقة ووضوح . ولعلها ، إذا أنا رمت إجلاءها وتمحيصها ، تفقد هذا الطعم السخي الذي تختص به ، والذي هو من أعمالها في وحدة متماسكة متضافرة .

فلقد استمعت بمزيد التأثير للكلمة اللطيفة التي تولى لإلقاءها باسم المجمع الأخ العزيز الأستاذ عبد الله كنون ، وإن كنت متحرجا مما اشتملت عليه في حق مما ليس من حق .

فاسمحوا لي بأن أتوجه إليه بجزيل الشكر وأخلص شواهد العرفان مشفوعة بالمودعة والتقدير .

ولاشك أن أهم ما يفعم نفسي ، وأنا أحضر هذه الجلسة التي تتفضلون فيها باستقبالي ، إنما هو شعور الاعتزاز بالانتساب إلى هذا المجمع الجليل الذي سجل له التاريخ من الخدمات في الذود عن العربية وإبراز طاقتها ما جعله بحق أولى المؤسسات الثقافية في العالم العربي .

ولني ، إزاء هذا الاعتزاز ، لا أجد بدا من الاعتراف بأنني أوجس في نفسي نوعا من الإشفاق من مشاركتكم تحمل هذه المسؤولية الثقيلة التي تضطلعون بها عن جدارة وسعة علم .

على أنني قد يشد أزرى ، في هذا الموقف أمامكم ، أني من الذين ، إن تعذر عليهم أن ينقطعوا للبحث والدرس طوال حياتهم ، فعساهم لم يعدوا فرصة النضال في سبيل إحياء الثقافة العربية وتدعيم مكانتها بين الأجيال الصاعدة .

وهل لجمعكم هذا من غاية أنبل من الحفاظ على الذاتية العربية ، بإحياء مقوماتها وتوثيق أواصرها وتدعيم أركانها ؟

لذلك أجدني - سيادة الرئيس ، حضرات السادة الزملاء - معترزا ، عظيم الاعتزاز ، بهذه الدعوة الكريمة التي تفضلتم بها والتي تخولني شرف الانضمام إلى جمعكم .

ذلك أني أشعر صادق الشعور بتجاوب عميق بين ما كنت فيه من عمل وفكر في حقل الدولة ، وما رسمه المجمع لنفسه من أهداف تتلخص في كلمات ثلاث : الحفاظ والتطوير والشمول ، أي جمع كلمة كل من يعنون

بمحصير اللغة العربية وثقافتها ، من المشرق
ومن المغرب على السواء ، لتحقيق الحفاظ
والتطوير :

ولأنه لمن مفاخر المجمع أنه لم يقصر عمله
على البلاد المصرية بل تخطى حدود الأوطان
السياسية وأراد لرسالته إشعاعاً غير مقطوع
ولا ممنوع : فاحتضن من مختلف الأقطار
العربية : أعلاماً أجلاء ساهموا في تدعيمه
وآزروه في النهوض بأعباء المهمة الملقة
بـ على كاهله .

ومن بين هؤلاء رجال من المغرب العربي
الكبير . ومن تونس على الأخص ، شخصيات
من أفاضل علمائنا قاموا بدور هام في تركيز
المجمع النهج لمساغية الموفقة . منهم من كان
قد استوطن مصر كالشيخ محمد الخضر
حسين ، ومنهم من اختير لعضوية المجمع رغم
بعد الشقة كالشيخ الإمام الطاهر ابن عاشور
حفظه الله وأمد في أنفاسه والمرحومين
الأستاذين حسن حسني عبد الوهاب والشيخ
محمد الفاضل ابن عاشور .

ولئن كانت التقاليد الجمعية تقتضى
المبادرة بالحديث عن السلف الذى دعيت إلى
خلافته بالمجمع ، فإننى أستأذنكم ، قبل التفرغ
لذلك ، فى كلمة أرى لزاما على أن أترحم
بها على روح شيخنا الأستاذ الفاضل ابن
عاشور الذى وافاه الأجل وهو فى عنفوان
قوته الفكرية ، يكافح من أجل إعلاء شأن
اللغة العربية وإشعاع الثقافة الإسلامية .

ولقد كان يحتل منزلة خاصة فى تونس
وفى بلاد المغرب الكبير ، إذ كان يمثل الوفاء
المثير للقيم الروحية فى أجل مظاهرها ،
والذود عن مقومات تراثنا الثقافى والحضارى
مع التفتح الحبيب لتيارات الفكر الحديث
وشواغل العصر ، يحدوه فى ذلك يقين المؤمن
بأنه ليس بين هذه وتلك تناقض فى الجوهر
ولا فى الغايات .

وكان — من جملة سلوكه ومواقفه —
يتضوع معنى أساسى : هو طلب الموافقات
والسعى إلى التأليف ، والحرص على الملاءمة
بين أنماط وشواغل وقيم ، يعتقد فى قرارة
نفسه أن الجمع بينها ضرورى لحياة الإنسان .

ولقد خبرتم تبهره فى العلوم العربية
والإسلامية وهو ، مع التوغل فى جميعها ، لم
يكن يتقيد بلون من ألوانها . فقد كان مع
الإحاطة بالعلوم الشرعية مولعا بالدراسات
اللغوية والأدبية ، مشغوبا بالأبحاث التاريخية ،
ذا مشاركة مرموقة فى جميعها ، دون اقتصار
على القديم منها ولا إغفال لأى مشرب من
مشاربها . فتهيأت له بذلك ثقافة موسوعية
فى غير عسف ، طريفة حية فى غير تكلف .

إلى جانب هذه الثقافة التقليدية المتنوعة ،
كان الشيخ الفاضل دائم السعى إلى الاطلاع
على الثقافات الأجنبية ، والتفتح لمقتضيات
الروح العلمى الحديد والتجاوب مع مشاغل
الشباب .

فلا عناصر ثقافته الأصلية بقيت لديه منفصلة بعضها عن بعض ، ولا فكره النير بقي بمعزل عن تيارات العصر ، بل انصهرت هذه وتلك حتى تألف منها ثقافة فذة حية متحركة دوماً بحكم التمازج والتفاعل بين التقليد والاجتهاد . فكان لذلك يغتبر بحق نموذجاً لفئة المفكرين الذين يقومون في تونس بحركة التوفيق بين الحفاظ والتجديد .

وللى هذه الفئة ينتسب سلفنا نابه الذكر المؤرخ التونسي المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

وقد كان من الأعضاء المؤسسين لهذا المجمع ، من أولئك الذين قال عنهم حضرة الأمين العام الدكتور إبراهيم مذكور إنهم « الرعيل الأول الذى أسهم فى بناء مجمع اللغة العربية وتشيد صرحه » ، وإنه كان أحد خمسة من أعلام العالم العربى وشيوخه فى الأدب واللغة ... صدر بتعيينهم مرسوم ملكى فى السادس من أكتوبر لعام ١٩٣٣ ، بقوا أعضاء بالمجمع إلى أن لقوا ربهم ، يمدون المجمع بفيض من واسع علمهم ، ويغذونه بغذاء صالح من دقيق بحثهم »

هذا ما تفضل به السيد الأمين العام فى أربعينية الفقيد المنعقدة بتونس يوم ١٥ جانفى ١٩٦٩ ، وقد استهل به كلمته القيمة التى ألقاها نيابة عن المجمع وتعزية لتونس باسم هذا القطر الشقيق .

ولقد كان لهذه التحية وقعها البالغ فى أوساط المثقفين التونسيين ، إذ بين تونس ومصر أواصر أخوة وتعاطف وتقدير متأصلة فى النفوس والتاريخ . وقد كان الفقيد يعتبر مصر وطنه الثانى ، يحبه ويعتز به . ولقد سأله الملك فؤاد عن رأيه فى مصر فقال له : « سئل أبو العباس المرقى ، مصنف كتاب نفح الطيب ، عما شاهده بمصر حين زارها ، فأجاب : « من لم يزر مصر لا يعرف عز الإسلام » . وأنا أقول بقوله ولا أحيده عنه .

ذلك أن حسن حسنى عبد الوهاب شب واكتهل فى عصر كانت فيه معظم البلاد العربية تحت السيطرة الأجنبية ، وكانت مصر إذ ذاك فى طليعة الحركة التحريرية ، قد خطت فى ميادين السياسة والثقافة خطى جعلتها محل اعتزاز العرب كافة .

فقد ولد سنة ١٨٨٤ ، أى بعد انتصاب الحماية الفرنسية على تونس بنحو ثلاثة أعوام . فنشأ فى بلد مبتور السيادة ، خاضع لدولة أجنبية تتولى إدارة شؤنه ، وتسعى بكل وسائل القهر والإغراء إلى إدماجه فى القومية الفرنسية لسانا وثقافة وحضارة .

وكان والده متخرجاً من الزيتونة ، ولكنه تعلم الفرنسية حتى أجادها ، وكان موظفاً فى الدولة ، ومولعاً بالتاريخ .

شقي . ولكن ظروفًا عائلية عاقته عن المواصلة فعاد إلى تونس ، وانخرط في سلك الوظيفة العمومية ، ولم يزل بها يتقلب في مختلف المناصب السامية حتى أقعد المرض قبيل وفاته ببضع سنوات .

ولئن كانت حياة الفقيه حافلة بأنواع النشاط الخاصة بمجالات الإدارة والدولة ، فقد كانت أيضاً مليئة بالأعمال العلمية الحليّة وذلك منذ ريعان شبابه . فقد كلف بدروس في التاريخ العام سنوات طويلة بمعهدين من أشهر المعاهد التونسية الحرة . وحضر أغلب مؤتمرات المستشرقين ابتداءً من سنة ١٩٠٥ ، وكانت له بها مشاركة مرموقة ، وأسندت إليه رئاسة الوفد التونسي إلى مؤتمر الموسيقى الشرقية الذي انعقد بالقاهرة سنة ١٩٣٢ ، وخلال هذه الرحلة تمكنت علاقات مودة وتقدير بينه وبين عدد من شخصيات العصر ، في مقدمتها الملك فؤاد ، وكان يقول عنه : « وفي نظري أن الملك فؤاد كان بلا نزاع من أجل ملوك المسلمين ومن أقواهم حباً لجمع كلمة العروبة ورغبة صادقة في الدفاع عن الحضارة الإسلامية . . . » .

وفي شيء من الاعتزاز ، يضيف قائلاً : « هو الذي عينني عضواً دائماً في مجمع اللغة العربية لأول تأسيسه آخر سنة ١٩٣٢ » .

وقد كان المرحوم عضواً في مجامع علمية كثيرة ، نخص بالذكر منها المجمع العلمي

وكان من الطبيعي أن يحرص الوالد على تلقين ابنه الثقافتين العربية والفرنسية معا . فوجهه إلى المدرسة الصادقية التي كانت أسست في عهد الإصلاح قبيل انتصاب الحماية الفرنسية .

وقد كان لهذا المعهد دور خطير جداً في تكوين الجيل التونسي الجديد الذي اضطلع ، مع ثلة من خريجي الزيتونة ، بقيادة الحركة الوطنية والفكرية في تونس ، في صدر هذا القرن .

ذلك أن برامج التعليم في المعهد الصادقي كانت ترمي إلى هدفين أساسيين : فكانت تعني بتعليم اللغة والأدب مع تلقين الاعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية ، وذلك على يد نخبة من أكابر شيوخ الزيتونة خاصة ، ولكن في نفس الوقت كانت هذه البرامج تقتضي تعليم اللسان الفرنسي وجملة من العلوم والفنون الحديثة ، وهي بذلك تمكن الطلاب من ثقافة عصرية متفتحة الآفاق .

فكان المعهد الصادقي إذن يجمع بين محاسن التعليم الزيتوني من حيث هو تعليم قومي أصيل ، وبين مزايا التعليم الفرنسي من حيث هو تعليم عصري متفتح . وكان ذلك يساعد متخرجي الصادقية على الانخراط بالجامعات الفرنسية .

ولقد تابع حسن حسني عبد الوهاب دراساته العليا بباريس بمدرسة العلوم السياسية كما كان يحضر دروساً ومحاضرات في علوم

ربى بدمشق منذ تأسيسه ، والمجمع العلمى العراقى ، والمجمع الفرنسى للنقائش والفنون الجميلة ، والمعهد التاريخى الأسبانى .

وللفقيد إنتاج كثير متنوع ، متجه أغلبه إلى تاريخ تونس ومظاهر الحضارة العربية الإسلامية بها ، وكان ذلك موقفا تجاه تيارات الفرنسة التى كادت تكتسح الذاتية العربية فى بلاد المغرب ، وتطمس معالمها عن الأجيال التى نشأت بعد الاحتلال الفرنسى .

أما الأغراض العامة التى تناولتها مختلف أبحاثه التاريخية ، سواء منها الكتب والمقالات والفصول — وهذه تمثل أغلب إنتاجه — فليس أبلغ فى تحديدها مما كتبه هو نفسه فى وصف تأليفه الجامع الذى أسماه « كتاب العمر » ، ولم تسمح له الأقدار بإتمامه قبل وفاته ، إذ يقول عنه :

« والكتاب الذى أشير إليه يتضمن كل ما تمت بصلة إلى تاريخ العلم والاجتماع والأدب والفن فى البلاد التونسية منذ استقرت بها طلائع النور العربى إلى هذا الزمان القريب (١) » .

ويبين المؤلف مقاصده التى يرمى إليها من وراء هذه الأبحاث ، فيقول :

« وأرجو أن تلقى من النابتة الجديدة إقبالا يزيد به التونسيون المحدثون ارتباطا بماضيهم

الحال ، ويتلمسون فيه عوناً على مستقبلهم الزاهر . فإننى لأومن أصدق الإيمان بأن جذورنا المتأصلة فى تاريخ أجدادنا وثيقة الصلة بوعينا القومى الحديث (٢) . . . »

وبقدر ما كان المؤرخ التونسى مغرماً بالتاريخ العربى باعتباره مرآة لأجدادنا الماضية ودعامة أساسية من دعائم الذاتية القومية ، كان يحرص على الاقتباس من الطرائق العلمية الجديدة لدرس هذا التاريخ وإجلاء غوامضه ، وقد مكنته ثقافته الفرنسية من الاطلاع عليها فى تأليف المؤرخين الغربيين ، وخاصة فى أبحاث المستشرقين الذين عنوا بدراسة الحضارة العربية وتاريخ الشعوب الإسلامية .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ عبدالوهاب كتب الكثير من بحوثه بالفرنسية ، وذلك إما لتقديمها إلى مؤتمرات عالمية ، وإما للإسهام بها فى نشرات ومجلات أجنبية ، نخص بالذكر منها دائرة المعارف الإسلامية التى أمضى العديد من فصولها .

ومن الحق أن نقول أيضاً إنه كان فى طليعة المؤرخين العرب المحدثين الذين أخضعوا البحث التاريخى لمعطيات الآثار ، لاستنباط ما ليس مذكوراً فى الكتب أو لمكافحة المعلومات المنقولة فيها ، بما تشهد به النقائش والنقود ومختلف الأعراض التى تكشف عنها الحفريات .

(١) ورقات ، ١ ، ص ٧

(٢) ورقات ، ١ ، ص ١٠ ، ١١

واللغة . تشهد بذلك فصول له وتحقيقات
لنصوص قديمة تولى نشرها والتعريف بها ،
كما تشهد على ذلك مساهمته في مداولات
المجمع ، سواء منها العادية أو المتعلقة بمشا كل
حيوية تهم حياة اللغة ورسالتها الحضارية
ومكانتها بين سائر اللغات الحية في القرن
العشرين .

ولا جرم أن كان اهتمامه باللغة من الوجهة
التاريخية ، ينظر إلى اللغة نظرة المؤرخ الذى
يعتبرها ظاهرة تاريخية واجتماعية واجب
درسها من بين جملة المظاهر الحضارية التى
يعنى ببحثها وإجلاء العوامل المؤثرة فيها .

وقد وقف فى هذا الصدد مواقف معروفة
مدرجة فى سجلات المجمع ، وكان صادرا فيها
عن نظرة متحركة هى أقرب إلى ما تعودناه
عند سلفه ، تونسى النشأة والثقافة ،
عبد الرحمن بن خلدون ، الذى كان له شأن
أيضا فى هذه البلاد ، فكانت نظرته إلى اللغة
نظرة المؤرخ المفكر الذى لا يرضى بالوقوف
عند الأحداث الماضية يصفها ويعملها ، بل
هو يسعى إلى ربطها بالحاضر ، لإجلاء معالم
الحاضر واستكشاف ملامح المستقبل . ذلك
أن عبد الوهاب ، وإن كانت نفسه تطفح
بالاعتزاز بأبجاء العروبة والإسلام — ولربما
من أجل هذا الاعتزاز — لم يكن يطمئن إلى
ما آلت إليه العربية من ركود أضعف قدرتها
على الأداء ، وخط نفوذها الحضارى .

فمن هذه الوجهة ، يمكن القول فى غير
مبالغة إن عبد الوهاب خطا بالدراسات
التاريخية فى تونس أشواطا وجعلها تتصف
بالدقة والأمانة ، وتهتم بالتنفذ إلى المقومات
الحضارية .

كما كان له فضل لا ينكر فى توجيه
ما يسميه بـ « النابتة الجديدة » إلى الاهتمام
بالآثار والغيرة عليها باعتبارها أحد المصادر
الهامة لتاريخ البلاد .

وكان له تأثير غير قليل فى أوساط الباحثين
الشبان ، سواء منهم الجامعيون أو غيرهم .
فقد كان كثير الاتصال بهم يجتمع بهم فى
بيته ويساعدهم فى أبحاثهم ، ويطلعهم على
ما جمعه من نفائس التحف والمخطوطات .

والحق يقال لقد كانت للفقيه شخصية
جذابة ملكت له قلوب أصدقائه ومريديه
بما اجتمع فيها من شمائل شرقية عذبة ، ونواح
مغربية لطيفة ، جعلت مجالسه عنوان الإمتاع
والمؤانسة ومنتدى رجال الظرف والعلم .

وقد لا يكون من المبالغة فى شيء أن نقول
إن تأثيره بالاتصال المباشر وبالسمر وبالإشعاع
الشخصى لم يقل أهمية عن تأثيره بواسطة
كتبه وبحوثه المنشورة .

على أن حسن حسنى عبد الوهاب ، وإن
غلب عليه الولوع بمسادة التاريخ ، لم يكن
ذلك ليشنيه عن الاهتمام بما سواه من العلوم
والفنون . فكان واسع الاطلاع على الأدب

ما تطورت إلى لغة كتابة وتأليف ، ولغة إدارة وفقه وتشريع ، ولغة فلسفة وعلوم وصناعات . فاتسع مجالها ، وظهرت لها وجوه وطاقت جديدة ، تنقاد لأغراض ابن المقفع والجاحظ ، وتنبى بحاجة الفارابي وابن رشد وابن خلدون ، دون أن يمس ذلك التطور جوهرها أو يمزق لحمها .

ذلك أن اللغة على شاكلة البشر الذين يتكلمونها ، فيخضعونها لأغراضهم المختلفة وحاجاتهم المتجددة .

ولأنما غلب الحمود عليها في عصور الانحطاط لما تقلصت الانتفاضات الفكرية وضعفت جذور الفكر عن مواصلة العمل الحضارى ، الذى قوامه اجتهاد متواصل وكشف عن مغلفات الكون ، وسير دائم لحفايا الإنسان . فلم تعد المجتمعات العربية قادرة على ترويض لغتها ؛ إذ لم تعد قائمة بالدور الخلاق الذى كانت اضطلعت به في ميادين الفكر والعلم .

ولأنما بسبب توقف هذا العمل الحضارى الخلاق حدث التقطع في سيل اللغة ، فتجمدت الفصحى لغة أهل الفكر والعلم في حين انطلقت لغة الكلام في مسالكها الخاصة بحكم الضرورة . ولم يزل الفتق يتسع بينهما حتى أصبح هذا البون الذى نشهده اليوم ، وفي ذلك يكمن أخطر مشكل تواجهه العربية في نهضتها الحديثة .

وهو في الحقيقة مشكل المشاكل ، لزام علينا أن نتمعن النظر فيه لأنه متصل بمنزلة الثقافة العربية بين الثقافات الغازية التى تتنازع السيطرة على العالم .

فنحن ننتهى إلى لغة فذة بما تختص به من أساليب في الأداء والإبلاغ ، وكذلك فيما انفردت به من استقرار رغم التطور وانحو اللذين لازماها منذ البدء ، غير أن صورة عنها ضيقة شاعت في بعض الأوساط من أبنائها — ومن غير أبنائها — تقول بأنها لغة خطابة وترتيل . ولا شك أن الذين يأخذون بهذا الرأي يقصدون أن العربية من طبيعتها عدم التقيد بالصيغ والجموح عن مسالك التوضيح .

وصحيح أن أولى خصائص العربية أنها لغة خطابة وترتيل ، بها نزل الكتاب المبين الذى من أسمائه « القرآن » و « الذكر » ، إشارة بذلك إلى أنه أولا وبالذات « خطاب » موجه إلى الناس يرتل ترتيلا . ولعل هذه الظاهرة الخاصة بالعربية هى التى جعلت الشعر العربى في مختلف عصوره وأطواره تغلب عليه أريحية الخطابة وإيقاعات الترتيل .

ولكن ، إن كانت العربية لغة خطابية مثلى فإنه من الحيف حصر طاقتها في ذلك . وهى — على كل — لم تقصر عن القيام بالدور الجديد الذى دعيت إليه لما أصبحت لغة أمة فاتحة ، عايتها أن تبني حضارة من أهم الحضارات الإنسانية . فإذا هى سرعان

حضارية ، لا قضية لغوية . والأمر فيها راجع إلى موقف الشعوب العربية ، وراجع أولاً وبالذات إلى موقف النخبة المستنيرة وصحة عزمها على كسب الرهان الحضارى الذى تواجهه .

فكثيراً ما يتساءل المثقفون : هل العربية فى مقدورها أن تصبح من جديد لغة العلوم والفنون الصناعية ؟ ويبدو أن السؤال ينبغى أن يكون : هل المجتمعات العربية قادرة على إعطاء اللغة العربية هذه المكانة ؟ وذلك مرتبط بقدرتها ، أى قدرة هذه المجتمعات ، على أن تنبت فئة من رجال الفكر والعلم يساهمون فى عملية الإنشاء والابتكار ، عوض الاقتصار على الاستهلاك السلمى بالنقل والتقليد .

فالقضية تعود إذن فى آخر الأمر إلى قدرة المجتمعات العربية على الخروج من طور التخلف واللاحاق بركب الحضارة الجديدة والمشاركة الإيجابية فى تشييد هذه الحضارة .

وبذلك نلمس مدى التضامن المكين بين النهضة الثقافية والنهضة الحضارية التى تهتم المجتمع كافة ، وهو من الأسباب الرئيسية التى من أجلها لم يكتب لما سسمى بـ « النهضة » عندنا أن يتم ، ويؤتى أكله ، ويشع على جميع قطاعات المجتمع ، إذ تصدت النهضة للهياكل السطحية ، ولم تعتمد على تغيير الأوضاع الباطنة العميقة الجذور .

وليس معنى ذلك أننا غير مطالبين بأى عمل فى المجال الثقافى ، ريثما تخرج مجتمعاتنا من التخلف . فإن ذلك يكون تنصلاً من المسؤولية وإخلالاً إلى التواكل . وبقدر

فنحن لا يهمنا من اللغة هذه الثنائية بين الفصحى والدارجة بقدر ما يهمنا جمود الفصحى وانفصال الدارجات عنها .

وقد تعرضت شعوب كثيرة لمثل هذا المشكل ، ولكنها استطاعت أن تتغلب عليه بفضل ما احتفظت به الفصحى عندهم من دور إيجابى فى مجالات الفكر والفنون الصناعية ، وبفضل ما تهيأ لهذه الشعوب منذ أمد طويل من نشر واسع للتعليم باللغة التى اعتبرتها وهى الفصحى .

وليس أبلغ حجة على ذلك من التطور الذى نشهده اليوم ، نتيجة انتشار التعليم ووسائل الإعلام والتثقيف فى أغلب البلاد العربية .

فالتعليم يؤثر فى الفصحى من جهة ، وذلك بأن يدخل عليها مفاهيم وصيغاً فكرية جديدة ، إذ يستعملها فى تبليغ معان وعلوم لم تكن تدرس بها ، وهو ، من جهة أخرى ، يقرب البون بين الفصحى والدارجات لدى فئة المتعلمين ، نظراً إلى ما يقع بين هذه وتلك من تفاعل .

أما الوسائل السمعية البصرية المتجهة إلى الجماهير ، كالإذاعة والتلفزيون والسينما ، فإنها تقوم اليوم بنشر لغة فصحى مبسطة — سميت أحياناً باللغة الثالثة — قد أخذت تشيع بين الناس ويتضافر مفعولها مع تأثير التعليم .

لذلك نعتقد أن قضية اللغة العربية ، وما تعانيه من صعوبات فى الأداء والتبليغ فى ميادين الفكر والعلوم ، إنما هى قضية

اعتبرنا الحفاظ لا يقف عند مجرد الإبقاء ، بل يتعداه إلى ضمان الوسائل الكفيلة بأن تستعيد العربية مكانتها الحضارية .

ولأنه لمن حقه المساهمة - وقد تصدى لذلك منذ تأسيسه - في جعل العربية في مستوى مقتضيات العصر في كافة الميادين الحيوية .

ولئن كان من الطبيعي ، بالنسبة إلى المصطلحات الحديثة ، أن يجرب طرقاً مختلفة لنقلها إلى العربية ، فقد وفق إلى السبيل المثلى حين أعرض عن ترجمة المفردات الغربية بصورة مبدئية دون مراعاة تأكيد الحاجة إليها ، ووجه عنايته إلى ما يتوقف عليه التعليم أو تستوجه به البحوث العلمية والفنون الصناعية . ذلك أنه لافائدة ترجى من اصطلاحات لاتدعو الضرورة إلى استعمالها فوراً ، فتبقى نسياً منسياً ، ولا تكون لها أي « جدوى » علمية ولا اجتماعية .

وفي صورة مراعاة الحاجة الماسة ، فإن النظر فيما قد يكون شاع استعماله على ألسنة أهل الذكر خير من استنباط مفردات يعسر فرضها في واقع الاستعمال . لذلك يحسن تشريك أهل الذكر من كل البلاد العربية حتى لا تستقر في بعض البلاد ألفاظ تكون مجهولة في غيرها .

أما في خصوص سائر الأغراض العامة ، فمن حق المجتمع أن يشرف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على إعداد معجم يكون

ما نرفض القول بعجز جوهري كامن في أحشاء اللغة العربية ، نأبى ترقب أي حل سحري من وراء عملية الخروج من التخلف .

فالخروج من التخلف والنمو والتطور طريق شاقة طويلة ، ونضال شامل ، علينا فيه واجبات أكيدة ، عاجلة وآجلة نحو لغتنا وثقافتنا ومجتمعاتنا . ذلك أن النهضة عملية متضامنة الأوصال شاملة لكل القطاعات . وبناء ثقافة ما إنما هو وجه من وجوه هذا النضال ، وضرب من الرهان ، ومغامرة تقتضي فحولة العزيمة إلى حد التعنت دون استكانة ولا رضى بالدون .

وأولى واجباتنا تجديد الروح والأساليب في تثقيف النشء وذلك بأن تتجه العناية إلى تلقين لغة حية مرنة صالحة لأداء معان مضبوطة . ولابد لذلك من الإقلاع عن حشو الأدمغة بألفاظ وصيغ لاتدعو الحاجة إلى حفظها وكثيراً ما سبق حفظها تصور مدلولاتها ، وقليل ما يعنى بضبط معانيها والتمييز بينها وبين مترادفاتهما . على هذا النحو نتمكن من إعداد آلة طيبة تمتاز بما تمتاز به اللغات العصرية من سهولة التركيب ودقة التعبير ووضوح التبليغ . ذلك أن تعليم اللغة عند الأمم المتقدمة إنما هو ترويض للفكر على مسالك الوضوح والدقة والضبط .

ولاشك أن لمجمع اللغة العربية دوراً هاماً في الحفاظ على اللغة ، في أوسع معاني الحفاظ وأنبهها وأبعثها على الاعتزاز ، إذا نحن

أداة تثقيف عام ، لا تؤخذ الألفاظ فيه مفردات ميتة ، بل تضبط فيه مختلف وجوه استعمالها ، مبوبة ، ومعززة بشواهد مقتبسة من أهم المراجع القديمة والحديثة .

وبذلك يتسنى مراقبة تطور اللغة ، وضبط مقاصدها الحديثة وإصلاح ما تسرب إلى تراكيبها من فساد أو عجمة ، لا في الصحافة فقط ، بل أحيانا على ألسنة خاصة المثقفين وفي كتاباتهم ، وأحيانا كثيرة أيضا في النصوص الرسمية التي هي من وثائق الدولة .

وكثيرا ما يهزى شيوع الخطأ واللعن إلى أن العربية معقدة من حيث قواعدها غامضة من حيث كتابتها . وصحيح أن لغتنا صعبة المراس في نحوها وصرفها ، كما أن هجاءها لا يدل، دلالة واضحة على نطق ألفاظها وما ينتاب الكلام من أحوال داخل الجملة .

ولاشك، أنه من المفيد ، لاسيما في مراحل التعليم الأولى ، تلافي هذه الانقاص حتى يسهل على المتعلمين حذفها ، واجتناب الرطانات التي تعلق باللسان ، ويصعب بعد إزالتها .

وقد اشتكى الأجانب من هذه العقبات التي تعترض سبيل من يريد تعلم العربية . وقد قيل عن الكتابة العربية إن قراءتها متوقفة على فهم المعنى ، بينما الشأن في اللغات الأوروبية أن تكون القراءة وسيلة إلى فهم المعنى ، وقال بعضهم أن العربية لغة نخاة فقهاء .

ولئن كانت هذه الملاحظات على جانب من الصحة ، رغم ما فيها من مبالغة مقصودة ، فإنه يمكن الرد عليها بأن كتابة اليابانية مثلا على جانب غير قليل من العسر والتعقيد ، ولم يمنع ذلك أبناءها من تحقيق ما هم عليه اليوم من جمع غريب بين متناقضين : المحافظة الشديدة على التراث والتقاليد ، والتقدم المذهل في العلوم والفنون الصناعية والاقتصاد حتى إن بلدهم ليعتبر في طليعة البلاد المتقدمة .

ولست أقصد من ذلك أنه لا حاجة بنا إلى تيسير اللغة ، بل قصدي أنه لا ينبغي أن نحمل اللغة تبعة ما نشكوه اليوم من وهن وتخلف في الميدان الثقافي والحضاري .

ومثل هذه القضايا لا تحل باجتهادات فردية ، وليس لأى قطر أن يشترع فيها بمفرده ، وبمعزل عن بقية الأقطار ، وإلا انفصمت تلك اللحمة التي هي من أنفس مكاسب الثقافة العربية .

وإنه من حظ العربية أن كان لها هذا المجال الفسيح الذي يتمثل في مجموعة كبيرة من الشعوب ، ولم يتهيا مثله إلا لقله من اللغات الحية .

على أنه ينبغي أن نصارح أنفسنا بأن كسب ثقافتنا اليوم من هذا المجال الفسيح لم يكن على قدر أهمية المجموعة البشرية المنتسبة إليها .

بوضوح نظام المبادلات الثقافية بينها، على قاعدة تضافر الجهود بحسب الاشتراك في المنافع .

وإذا ما تسنى لهذه السوق المشتركة أن تؤسس على مبدأ مساهمة كل قطر مساهمة فعلية ، وقابلة للنمو والتطور، في كافة ميادين الفكر والفن والعلم ، وبالنسبة إلى كل عمليات الإنتاج والنقل والنشر ، فإن الثقافة العربية بذلك تستطيع أن تحقق قفزة عظيمة نحو اللحاق، بمستوى الثقافات الناهضة .

سيادة الرئيس :

حضرات السادة والسيدات .

إن مجمع اللغة العربية قام بأعمال جليلة ولا تزال العربية تنتظر منه جليل الخدمات وعظيم الجهود في الذود عنها وتفجير طاقاتها. ويكفيه عزاء أنه دوماً محط الآمال وكعبة القصاص بفضل ما اجتمع في رحابه من كفاءات متميزة ومتنوعة .

والله ولي التوفيق؛ وإليه نتجه بالحمد أولاً وآخره .

وأول سبب في ذلك تفاوت هذه الشعوب في النمو والطاقات الفكرية . فكان الحمل على كاهل عدد قليل . ومن الطبيعي أن يكون دور بعض الأقطار في تغذية الثقافة أوسع مدى وأقوى فاعلية بحكم درجة نموها وأوضاعها التاريخية والاجتماعية .

ومن الطبيعي أن يكون دور مصر في طابعة هذه الجهود الرامية إلى التقدم بالفكر العربي أشواطاً نحو الوضوح والموضوعية والنفاذ إلى قضايا الإنسان الجوهرية، والسيطرة على ما به المعاش في يوم الناس هذا .

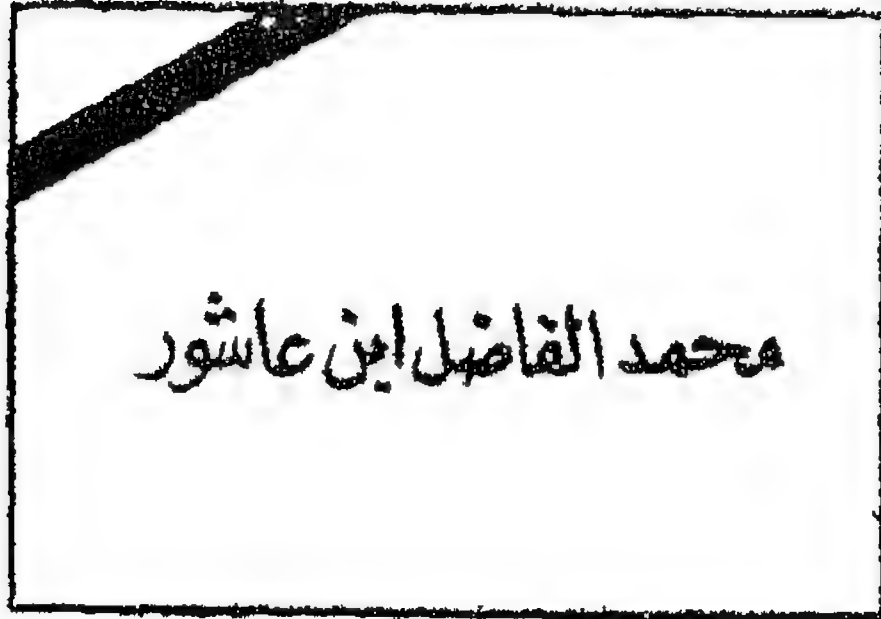
غير أنه ، إلى جانب هذا السبب الأول المتمثل في تفاوت الثقافات ، يقوم سبب ثان وهو سوء تنظيم العلاقات الثقافية بين مختلف البلاد العربية .

وحبذا لو وضع المجمع في جدول أعماله النظر في مشروع يهدف إلى إقامة « سوق ثقافية مشتركة » ، فيتقدم به إلى الحكومات المعنية لتتولى هي دراسة شروطه ومقتضياته ونتائجه في المجالين الثقافي والاقتصادي .

فليس من شك أن لجميع الاقطار مغامراً عاجلة ومصالح آجلة في قيام علاقات تضبط

في الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٢ من ذي الحجة سنة ١٢٩٠ هـ
الموافق ١٨ من فبراير سنة ١٩٧١ م أقام المجمع حفل تأبين لفقيده المغفور
له الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عضو المجمع من تونس ،
الذي استأثرت به رحمة الله في ١٩/٤/١٩٧٠ . وفيما يلي ما ألقى في هذا
الحفل :

كلمة الأستاذ زكي المهندس في تأبين المرحوم الأستاذ الشيخ :



على أننا إذ نبكي الفقيد الليلة لانبكي
فيه عضوا مجعيا نشيطا منتجا فحسب ،
ولنما نبكي فيه رجلا عربيا أصيلا ، وعالما
من أعلام القضاء ، ورائدا من رواد الفكر
الإسلامي . ولعل من أعجب تصارييف القدر
أن الفقيد طيب الله ثراه وقف هنا - وفي
هذه القاعة نفسها - منذ زمن قريب يؤبن
زميله وصديقه العالم الجليل المرحوم حسن
حسني عبد الوهاب ، يبكي فيه علمه وخلقه .
وما كان أحد يدري أنه هو نفسه سيصبح
مرثيا بعد أن كان رائيا ، ومبكيا عليه بعد
أن كان باكيا . ولكن ما حيلتنا في قضاء
الله الذي لا اراد لقضائه ولا معقب لحكمه .
تلك هي طبيعة الحياة ، ما يكاد يرى فيها
الإنسان مخبرا حتى يرى خبرا من الأخبار .
رحم الله الفقيد وأجزل مشوبته ، وأسكنه فسيح
جناته .

حضرات الزملاء .

سيداتي سادتي :

يعز علينا أن نجتمع الليلة لتأبين زميل
كريم وعالم جليل هو المغفور له الأستاذ محمد
الفاضل ابن عاشور عضو المجمع من تونس
الشقيقة .

لقد كانت وفاته مفاجأة أئمة لنا جميعا ،
فقد كان رحمة الله بيننا في المؤتمر الماضي
متمتعا بأكل صحة مملوءا حيوية ونشاطا ،
شأنه في كل مؤتمر فكانت وفاته صدمة
شديدة الوقع على نفوسنا . فما من دورة من
دورات المؤتمر إلا وجاء إلينا الفقيد حاملا
ثروة علمية ضخمة أعدها من دراسته الواسعة
وعلمه الغزير وثقافته العربية والغربية
المتنازة .

• • كلمة الدكتور ابراهيم مذكور :

إلى الإصلاح والتجديد ، واضطلع بها في
إيمان و يقين ، وجد وإخلاص ، حريصا
على أن يربط الحاضر بالماضي ، وأن يلائم
بين الجديد والقديم .

ومجال القول فيه ذو سعة ، وفي سيرته
عبرة ، وفي علمه نفع كبير . وحسبنا الآن
أن نوّرخ له في اختصار ، وأن نعرض لشيء
من جوانب نشاطه وثقافته الواسعة .

* * *

ولد الفقيه الكريم في الثاني من شوال
عام ١٣٢٧هـ ، الموافق ١٠ من أكتوبر عام ١٩٠٩م
ونشأ في بيت علم وفضل ، وتعلم لوالده ،
وهو إمام في علوم الدين واللغة ، قبل أن
يتعلم للمعلم آخر . تعلم له في صباه ، فبدأ
تحت إشرافه في حفظ القرآن ولما تجاوز الثالثة
وفي تعلم القراءة في بعض كتب المطالعة
المصرية ، وحفظ بعض المتون كالأجرومية
والإلفية وهو في السادسة . ووجه في العاشرة
إلى تعلم اللغة الفرنسية على أيدي معلمين
خصوصيين في منزله . وكانما أريد به أن
تقصر طفولته على بيته وأسرته ، فلم يدخل
المكتب الابتدائي ، ولم يعرف من الأطفال
إلا أبناء الأقارب . وفي الثالثة عشرة من عمره
بدأ يدرس القراءات والنحو والفقه والتوحيد .
وفي العام التالي التحق بجامعة الزيتونة ، وبقي

سيدي الرئيس ، سادتي

نودع اليوم شيخا جليلا ، وزميلا كريما
اختطف منا على عجل ، وحرمانا من علمه
وفضله ، ونحن أحوج مانكون إليه .

والموت نقاد على كفه

جواهر يختار منها الجياد

نودع الفاضل ابن عاشور ، وقد كان
فاضلا حقا ، سماه كذلك جده لأبيه ، وكانما
كان يكتنه الحبيب . فجاء ابن ابنه فاضلا
في زيه وسمته ، يملأ العين جلالا ووقارا ،
والقلب تقديرا واحتراما ، وفاضلا في قوله
وعمله ، حديثه جد لا هزل فيه ، ومسلكه
قدوة حسنة ، أدب جم ، وتواضع بالغ ،
وعطف ورأفة ، وبذل للنفس والمال في
سبيل الخير والناس .

ونودع عالما كبيرا ، وإماما من أئمة
الأدب واللغة والفقه والتشريع ، ورائدا
من رواد الإصلاح والتجديد . وكم نعمنا
نحن هنا بأدبه الرقيق ، وببحثه العميق ،
ودرسه الواسع . لا يعني إلا بدقائق الأمور ،
ولا يعرض إلا للمعضلات ، كان حجة
في تراثنا الإسلامي جميعه ، وبخاصة ما خفي
منه من أخبار المغرب وبلاد الأندلس ،
ومحيطا بثمار الثقافة الغربية وما انتهت إليه
من علم وفلسفة ، فاستكمل وسائل الدعوة

بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ ، وعضوا
بمجمع البحوث الإسلامية في العام التالي .

وللقاهرة في نفسه منزلة خاصة ، يحن
إليها عن بعد ، ويطيب له المقام فيها عن
قرب . يتتبع نشاطها الثقافي ، ويجد في
لقاءاتها الفكرية متاعا لا يعادله متاع . ولا
أزال أذكره ، وهو واقف بيننا في العام
الماضي يقول : «حياءك الله يا أرض الكنانة ،
وبارك لك في هذا الجارى من صعيدك إلى
شطتك ، يتدفق خيرا ، ويتفرق ربا ،
ويتألق نورا ، ويتدفع طهرا وصفاء . وهل
يجد أليف عهدك - يامصر - خيرا من نيلك
السعيد ، يحبك به ، وهو الذى تحين به
أنت كل وافد عليك ، كما كان آل جفنة ،
فيما شهد حسان ، يسقون قاصديهم : بردى
يصفق بالرحيق السلسل . فهذه تحيتك -
يامصر - تعود إليك ، لانجد أحسن منها
حتى نحيك بها » .

اضطلع الفاضل بالإفتاء والقضاء ، إلى
جانب عمله في الكلية الزيتونية للشريعة
وأصول الدين ، وكان التدريس أحب إلى
نفسه . حاضر في القرية كما حاضر في المدينة
وخطب في العامة كما خطب في الخاصة ،
وكان محبا إلى طلبته ومستمعيه ، يحرصون
على حضور درسه ، ويسارعون إلى استماع
خطبه ومحاضراته . وجل مانشر من مؤلفاته ،
إنما هو مجموعة دروس ومحاضرات ألقاها ،
أو بحوث أعدها لندوة أو مؤتمر . فدعى
عام ١٩٥٥ إلى معهد الدراسات العربية العليا

به إلى أن تخرج فيه ، ومنذ ذلك لم تنقطع
صلته به ، تولى التدريس به في سن مبكرة ،
وبقى يتدرج طبقة بعد طبقة إلى أن أصبح
أستاذا وقد جاوز الأربعين بقليل ، ثم عميدا
للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام
١٩٦١ ، ولكنه لم يبعد قط عن والده وأستاذه
الأول ، عاش إلى جانبه طول حياته ، واستمع
إلى دروسه في الأدب والتفسير والحديث
بجامع الزيتونة مدة خمس سنين ، ودرج
طول حياته على أن يقرأ بين يديه كل ليلة
من ليالى رمضان بعد صلاة التراويح قدرا
من كتب الحديث والرجال واللغة ، كالبخارى
ومسلم ، والإصابة ، والنهاية ، ولسان العرب .
وقد نعمت بقاء الأب والابن ، وأشهد
أنى لم أر مثله ابنا هو سر أبيه وصورة كاملة
له .

وإلى جانب هذه البيئة الخاصة تفتحت
أمامه آفاق شتى ، واتصل بالتحركات الثقافية
في العالم الإسلامى عامة ، وفي شمال إفريقية
خاصة ، ولم يفته أن ينهل من حياض الثقافة
الغربية . رحل إلى فرنسا لأول مرة وهو
في سن السابعة عشرة ، وكان لهذه الرحلة
أثر كبير في نفسه ، ثم توالى رحلاته إلى
أوروبا وبعض بلاد الشرق الأدنى . واشترك
في عدد غير قليل من الندوات والمؤتمرات ،
ودعى للتدريس في كثير من المعاهد والجامعات
وأسهم في عدة هيئات ، كالرابطة الإسلامية
بمكة ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجمعية
الجامعات الإسلامية بفاس . واختير عضوا

الغالب بالصورة الأخيرة التي وصلت إلينا .
وقد أحس بهذا النقص فقيدنا ، كما أحس
به معاصرون آخرون ، ومكنته ثقافته الواسعة
من تدارك شئ منه . ومن أوضح ما حاوله
في هذا الباب مؤلفه الذي أشرنا إليه من قبل
« في التفسير ورجاله » والذي ظهر بعد موته
بقليل ، ويقع في نحو ١٨٠ صفحة من القطع
الصغير .

ويعالج هذا المؤلف تاريخ علم التفسير
منذ نشأته إلى اليوم ، من ابن عباس إلى
محمد عبده و « تفسير المنار » ، ويوضح
مناهج التفسير المختلفة من أخذ بالمأثور ،
أو بالنظر والمعقول ، أو من جمع بينهما ،
ويربط التفسير بموضوع إعجاز القرآن الذي
كان له شأن في نمو هذا العلم وتنوع أبحاثه
وطرائقه ، وفسر هذا الإعجاز على صور
شتى ، فقليل بالإعجاز الغيبي ، والإعجاز
العلمي . والإعجاز البلاغي ، ويعرف
المؤلف بكبار المفسرين وأهم كتبهم في
المراحل المتلاحقة ، ويقف طويلا عند بعض
الأعلام ، كالطبري والزمخشري والرازي
والبيضاوي بين القدامى ، وكالآلوسي ومحمد
عبده بين المحدثين . وله في كل هذا ملاحظات
دقيقة ومقارنات شائقة .

ويمكن أن يضاف إلى هذا بحثان آخران
لا يخلوان - على قصرهما - من جدة وطرافة ،
وهما : أولا : « الاجتهاد ، ماضيه وحاضره »
وقد ألقى في المؤتمر الأول لمجمع البحوث
الإسلامية ، ويستعرض فيه باختصار الأدوار

بالقاهرة ، وألقى سلسلة من المحاضرات
أخرجت في كتاب كبير تحت عنوان :
« الحركة الأدبية والفكرية بتونس » ونشر
له مجمع البحوث الإسلامية أخيرا بحثا قيما :
« في التفسير ورجاله » . وله في مجلة مجمعكم
ومجموعات محاضراته بحوث لها وزنها وقيمتها
ولو تخفف من بعض أعبائه ومُدَّ في أجله
لغذى المكتبة العربية بغذاء أوفر . وله دراسات
بالفرنسية قدمها في بعض المؤتمرات الدولية .
ويغلب على الظن أن له مخلفات لم تنشر بعد ،
ونعتقد أن أصدقاءه وتلاميذه لن يترددوا
في إخراجها إلى النور ، كى يفيد منها القراء
والباحثون .

* * *

هذه في إيجاز هي حياة الفقيه التي كانت
ملأى بالنشاط والعمل ، غنية على قصرها
بالدرس والبحث . ونود أن نقف عند ثلاثة
فقط من جوانبها :

(١) الفاضل ابن عاشور مؤرخ الفكر
الإسلامي :

في وسعنا أن نقرر أن تاريخ الدراسات
الإسلامية على اختلافها لم ينل بعد حظه ،
ولم يكتب كتابة دقيقة مستوعبة ؛ فلم يكشف
عن أصولها ، ولم تتضح مراحل نموها وتطورها
ولم تعرف آثارها في الحركات الفكرية
الأخرى ، ولم تبين أسباب جمودها وتخلفها .
ولاتزال في ذلك كله عالة بوجه خاص على
ابن خلدون في « مقدمته » ، وقنعنا في

عملية تختار من المذاهب السابقة أنسبها للظروف الحاضرة . ولا شك في أن العالم الإسلامي كان عرضة منذ القرن الماضي لاعتبارات وأوضاع جديدة لم يعرفها السلف ، ولابد من مواجهتها بتشريع واجتهاد طليق على نحو ما صنع الأوائل ولم يكن الاجتهاد في التشريع منذ بدأ من عمل العامة والدهماء ، وإنما اضطلع به الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، وحذا لو تكوّن - كما يرى الأستاذ الكبير الطاهر ابن عاشور والد الفقيه - مجلس إسلامي يضم كبار فقهاء المسلمين في العالم أجمع لمواجهة التطورات الحديثة ، وما أشبه هذا المجلس بمجمع البحوث الإسلامية في مصر .

وأما البحث الثاني في دور حول « السند التونسي في متن اللغة » ، وقد نشر في الجزء التاسع عشر من مجلة المجمع - وفيه عرض شامل للدراسات اللغوية وشيوعها في الأندلس وشمال إفريقيا من القرن الرابع إلى آخر القرن الثامن الهجري ، ثم انتقل السند إلى مصر ، وتلقاه ابن حجر والسيوطي والمرتضى الزبيدي . ويشهد هذا البحث مرة أخرى على مدى تمكن الفقيه من تاريخ الثقافة العربية في نواحيها المختلفة ، وعلى مدى معرفته لكبار الرجال ، إن في الفقه ، أو في الأدب أو في اللغة .

(٢) الفاضل ابن عاشور المجمعى :

لاترجع صلة فقيدنا بمجمع اللغة العربية إلى عام ١٩٦١ فحسب ، يوم أن اختير لعضويته العاملة ، بل تصعد إلى أبعد من ذلك -

التي مر بها الاجتهاد والتشريع الإسلامي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . فيشير إلى كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين ، وإلى نشأة المذاهب الفقهية الكبرى ويعرض لاختلاف المجتهدين ، باختلاف طبائعهم وميولهم ، ومدى تفهمهم للنصوص من كتاب أو سنة ، وتباين العادات والتقاليد من بلد إلى آخر . وقد عرف من قديم تسامح ابن عباس وتشدد عبد الله بن عمر ، واختلاف تشريع المدينة عن تشريع العراق والشام ومصر . ويلاحظ فقيدنا بحق أن المشرعين من الصحابة والتابعين ورجال القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا أكثر منا طلاقة وحرية في قياس الأشباه والنظائر واستنباط الأحكام الشرعية . ويوم أن استكملت المدارس الفقهية بحوثها ، واستقرت أصولها وفروعها ، قنع أتباع كل مدرسة بالأخذ عنها ، وضاق منذ القرن الرابع مجال الاجتهاد والاستنباط في التشريع ، وذهب إمام الحرمين في القرن الخامس إلى أن ليس ثمة موضوع لم يعرض له الفقهاء السابقون . وتنوَسى الاجتهاد أو كاد ينسى ، واستمسك العامة والخاصة بالتقليد ، الأمر الذي لم يرق ابن تيمية ولا تلميذه ابن قيم الجوزية في القرن الثامن ، ورفضوا معا تقليد المذاهب الأربعة ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف . وظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بوادر دعوة إلى شيء من التحرر على أيدي الدهلوي في الهند والشوكاني في اليمن ، وعززها الأستاذ الإمام في القرن الرابع عشر ، وترتبت عليها اتجاهات

فقد كان يتتبع نشاطه منذ إنشائه ، وكان يعتزُّ باشتراك عضوين عاملين فيه كانا من أحب الناس إليه [١]، وهما الخضر حسين ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، واشترك والده أطال الله بقاءه ، فى بحوثه وأعماله بالمراسلة . وكان يعتز أيضا بشيوخ الجمع الآخرين من عرب ومصريين ، ويقدر ما انتهوا إليه من اقتراحات وقرارات ترمى إلى تطويع اللغة لحاجات العصر ومقتضيات العلم والحضارة الحديثة . كان يؤمن بهذه الرسالة إيمانا جازما قبل أن يدخل الجمع ، ويوم أن دخله لم يتردد فى أن يسهم فيها بكل ماوسعه من علم وخبرة . ولقد قضى معنا عشر سنوات كاملة كلها خصب وإنتاج ، ولم يتخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا إلا لضرورة قاهرة . وأخذ الكلمة فى افتتاح مؤتمر الدورة الثلاثين والدورة السادسة والثلاثين ، وأبن فقيده تونس الكبير الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الدورة الخامسة والثلاثين . وغذى المحلة بببحث قيم سبق أن أشرنا إليه ، وقدم للمؤتمر بحثين هامين فى الدورة الثلاثين والدورة الرابعة والثلاثين ، أولهما : « تحرير أفعال التفضيل من رتبة قياس نحوى فاسد » ، والثانى : « المصطلح الفقهى فى المذهب المالكى » . ولن نقف عند ملاحظاته الدقيقة وتعليقاته النافعة على بحوث وموضوعات عرضت فى المؤتمرات الماضية ، ويكفيها أن ننوّه بهاتين الدراستين .

فأما الدراسة الأولى فوليدة تجربة لرجل عاش مع القواعد النحوية والصرفية زمنا

غير قصير ، ولمس مافيا من أقيسة تجاوزت الحد ، واستنتاجات لم تبين على تحر تام للاستعمال القديم ، لاسيما لدى البصريين المحدثين . ورأى أن فيها « مجالا للنظر ، وأن من الخير أن نقلها ، وأن نتحرر من وثاقها ما أمكن توسيعا للغة ، وتيسيرا على طلابها » . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أفعال التفضيل وهو من التصارييف التى تتجلى فيها عبقرية العربية ، ويشيع استعماله اليوم لتقدير النسب وضبط القيم ، وتفضيل صفة أو أمر على آخر . ولكن النحاة ضيقوا أوزانه ، وأثقلوه بشروط كثيرة تعقد استعماله . وفى بحث جاد عميق حاول الفاضل ابن عاشور أن يفك هذه القيود ، وأن يبين مافى هذه الشروط من تزييد وتعسف . وقد استقبل المجمعون بحثه بحماس وتقدير بالغين ، وقضت لجنة الأصول بالجمع فى نظره زمنا طويلا ، وعقبت عليه بدراسات أخرى متعددة . وانتهت إلى الأخذ بكثير مما قال به من تيسير أمر هذه الصيغة ، وتمكين الناس من استعمالها فى طلاقة . وعنده أن باب الاجتهاد مفتوح فى النحو كما هو مفتوح فى التشريع ، وعلينا أن نيسر قواعده ، للدراسين والباحثين ، لأن اللغة ملك أبناء العروبة جميعا ، ونحن نريد بهم أن ينطقوها ويكتبوها فى يسر . وقد كان الفقيه ينوى أن يتقدم إلى الجمع بوسائل لتعلم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن ، ولاشك فى أن هذا أملنا جميعا وغايتنا ، المنشودة .

وتوافر بهذا ثروة لغوية فقهية أفاد منها أساتذة الحقوق وعلماء القانون في العصر الحاضر ، وعليها عولوا فيما ترجموا وألفوا . ويذهب الفاضل إلى أن للفقه المالكي خاصة شأنها فيما ترجم من كتب القانون من الفرنسية وإليها بشمال إفريقية في المائة سنة الأخيرة .

ولا نزاع في أن الفقه كان أسبق الدراسات الإسلامية إلى تكوين لغته الخاصة ، وغنها أخذت دراسات إسلامية أخرى نشأت معه أو ظهرت بعده ، وقد لوحظ أن في النحو والمنطق مثلاً ألفاظاً يمكن ردها إلى المصطلح الفقهي . وحذا لو عولج على هذا النحو المصطلح الفقهي في المذاهب الأخرى ، وجمع في قوائم ثابتة ، وتتبع تطوره في المراحل المتعاقبة . ففي ذلك ما يعين على ربط المصطلحات الفقهية بعضها ببعض ، وما يمكن من إحياء ما ينبغي إحياءه منها .

(٣) الفاضل ابن عاشور أحد رواد الإصلاح والتجديد :

وختاماً لا بد لنا أن نقول كلمة عن الفاضل ابن عاشور المصلح ، ودعوة الإصلاح في تونس قديمة العهد ، تصعد إلى أخريات القرن الماضي ، وتحذو حذو حركات النهضة في العالم الإسلامي ، وفي مصر خاصة ، تتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وجمعية العروة الوثقى ، وكان لهذه الجمعية فرع في تونس ، يتلقى صحيفتها ويروج دعوتها وعلى رأسه الشيخ محمد السنوسي الذي طوف

وأما الدراسة الثانية فبيان نشأة المصطلح الفقهي في الإسلام ، وأنه ضرب من الوضع أدى إلى تكوين مجموعات من الحقائق العرفية التي تتميز من الحقائق اللغوية - وتعرض الفقيه لتاريخ المصطلح الفقهي في المذهب المالكي ، مبيناً أنه نشأ في القرن الثاني على أيدي مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وورث الحركة الفقهية النشيطة بالمدينة في عهد الصحابة والتابعين ، وقد عرف بمئانة السليقة وقوة الارتجال . وفي « الموطأ » قدر لا بأس به من هذه المصطلحات توارثه تلاميذ مالك من بعده ، وغذوه وصقلوه . ثم أخذ المذهب المالكي ينتشر في أقطار مختلفة ، مما أدى إلى اتساع لغة التعبير الفقهي وتنوعها وفي القرن الثالث وضع سحنون « المدونة » التي تشتمل على أربعين ألف مسألة ، وتعد الموسوعة الأولى في الفقه المالكي ، فزادت المصطلح وضوحاً وضبطاً ودقة . وجاء أبو زيد القيرواني ، فوضع في القرن الرابع عدة كتب ساعدت على الضبط والتحديد ، ولخص « المدونة » ، ففتح باب الملخصات التي شاعت في القرون التالية . ومن أهمها ما صنعه فقهاء مصر المالكيون كابن الحاجب والقرافي في القرن السابع ، وخليل في القرن الثامن : ولم يقنع هؤلاء الفقهاء بوضع المصطلحات ، بل عرفوها وجهدوا ماوسعهم في ضبط هذه التعريفات ، وانضم إلى هذا كتب القضاء والأحكام ، والتوثيق والفتوى ، التي طبقت المصطلحات النظرية تطبيقاً عملياً .

تونس مرة أخرى في عام ١٩٠٣ ، قبل وفاته بعامين ، واهتمت لزيارته أندية العلم والأدب ، والتف حوله رجال الإصلاح ، ومن بينهم شاب في الرابعة والعشرين هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيه ، أطل الله بقاءه ، وكان من أبرز مدرسي الزيتونة ، شبابا وذكاء ، وعلما وأدبا ، وعده الأستاذ الإمام سفير دعوته في الزيتونة .

في هذا الجو نشأ الفاضل ابن عاشور ، وربى في بيت من بيوت شيوخ الإسلام ودعاة الإصلاح ، وكان طبيعيا أن يسير في ركب أسسه . وفي سن العشرين أخذ يتصل بحركات الإصلاح ، فانغمس في العمل بالجمعية الخيرية ، وارتبط بالجمعية الخلدونية ، وبدأ يحاضر فيها إلى جانب الشيوخ الكبار . واتصل أيضا بجمعية قدماء الصادقية ، وهي دعامة جديدة من دعائم الإصلاح في تونس ، ربي أعضاؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، وتلاقوا مع الخلدونيين في الدعوة إلى الإصلاح . ولقد كان الفاضل مؤمنا بالحضارة الإسلامية الإيمان كله ، يراها حضارة تعتد بالإنسان كل الاعتداد ، وتقوم على دعامة روحية دون أن تهمل شأن المادة . وكان ملما للمسا دقيقا بأسرارها ، ومتفتحاً لها في الحضارة الغربية من جوانب نافعة . وكان همه أن يلازم بين هذين الطرفين وأن يبين أن تعاليم الإسلام لا تتعارض في شيء مع النهوض بالحاد والتقدم السليم . نفذ إلى روح الإسلام ، وأدرك في وضوح

بالبلاد الإسلامية ، واتصل بكبار مفكرها ، وعد عنوانا لعصره في الدعوة إلى النهوض والتجديد ، وكان على علاقة مستمرة بالأستاذ الإمام . ويوم أن عطلت جريدة العروة الوثقى سافر محمد عبده إلى تونس عام ١٨٨٤ وأقام نحو أربعين يوما لقي فيها أعضاء العروة الوثقى من التونسيين ، وتبادل الحديث معهم في شئون الإصلاح الديني والاجتماعي ، وكان لزيارته أثر كبير ، وما إن سافر إلى بيروت حتى أخذت سلطات الاحتلال تنكل بأنصاره ، وبخاصة السنوسي .

وقد تهادت دعوات الإصلاح أحيانا لكي تتفادى العاطفة ، ثم لا تلبث أن تستأنف نشاطها . وفي عام ١٨٩٦ أنشئت الجمعية الخلدونية على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، لنشر العلوم العصرية باللغة العربية من جغرافيا وتاريخ واقتصاد ، وعلوم طبيعية ورياضية . وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا في أن يمتد هذا التعليم إلى معاهدهم ، واستجاب المسؤولون لذلك . وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد ، متأسية بما كان يجري في مصر على أيدي محمد عبده وما كان ينشر في « مجلة المنار » . وغذاها في أول هذا القرن شاب من طلبة الزيتونة والخلدونية ، غريب الشكل والزرعة والمنطق والقلم ، هو عبد العزيز الثعالبي . عاش في مصر زمنا ، ثم عاد إلى تونس يردد أفكار جمال الدين ومحمد عبده ، ويدعو إلى فهم الدين والوجود . وفي هذا كله ما دفع محمد عبده إلى أن يزور

شملهم . وقد أنفق جهدا غير قليل في الدعوة
إلى الإخاء والوحدة . وحدة المغرب الكبير ،
ووحدة العالم العربي ، بل وحدة المسلمين
عامة .

* * *

سيداتي ، سادتي

هذا هو الفاضل ابن عاشور الإنسان الذي
أسر القلوب بإنسانيته ، والمسلم الصادق الذي
وقف حياته على خدمة الدين ونصرته ،
والفقيه الضاليع في فقهه ، واللغوي الحجة
في لغته . فقدناه ، ففقدنا مرشدا حكيما ،
عرف كيف يحب الناس في دعوته .
فقدناه ، ففقدنا طرازا من دعاة النهوض
والتجديد الذين ليس من اليسير أن نجد من
يخلفهم أو يحل محلهم . بكته تونس ، وبكته
معها مصر أحر البكاء ، وبكاه كل من عرفه
من أبناء العروبة والإسلام . تغمده الله برحمته
وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا وآله الصبر
والسلوان .

رسالته الخالدة ، وأخذ ينشرها بلغة العصر ،
فقرب المسافة بين القديم والحديث ، وربط
الماضي بالحاضر . وحبب إلى الشباب الذين
رأوا في درسه ما تطمئن إليه قلوبهم ،
وما تدعو إليه حاجة النهوض والتقدم .

أخذ بما ارتآه الأستاذ الإمام من أن
النهوض الحق هو ما قام على دعائم ثقافية
سليمة ، فعدل مناهج الدراسة بكلية الشريعة
وأصول الدين . وما إن تولى رئاسة الجمعية
الخلدونية عام ١٩٤٥ ، حتى أنشأ بها معهد
البحوث الإسلامية ، ونظم مؤتمر الثقافة
الإسلامية عام ١٩٤٩ ، وكان مضرب المثل
في درسه وبحثه ، في حديثه وكتابته ، لاتكاد
تعرض مشكلة من مشاكل الحضارة إلا
واجهها مواجهة تامة ، وقدم لها الحلول
السايمة ، وجهد ما وسعه في أن يوفق بين
تعاليم الدين ومقتضيات الفكر الحديث .
وكان يرى أن الثقافة الإسلامية إن فهمت
على وجهها لم يبق محل للاختلاف عليها ،
وهي خير وسيلة لجمع كلمة المسلمين وضم

• • قصيدة للأستاذ عزيز أباظة :

ردع الردى . وهو القوى الرادع
للمراحلين ، مآثر وصنائع
حتم على ثبج الحياة يزيلها
وتزيلها هي ، وهي ذكر ذائع
مامات من خلفاؤه حسناته
تزكو عوارفها ، وفضل شائع
لهفى على الإنسان . عمر ضيق
ومدار طاقته الجليل الواسع
مستخلف هو فى الزمان لربه
وبقاؤه فيه السراب الخادع
ترجى بدائه عقله فإذا ذكا
إشراقها ، دهم الحمام الفاجع
سبعونه إن عاشها وهى المدى
تمضى كما ينجاب برق لامع
لو أنصف الإنسان أرجى يومه
فترف عنه روائع وبدائع
لكنها سنن الوجود ، جماده
باق ، وللى الحمام مسارع
* * *

المجمعى الثبت أدركه الردى
فى حين يرجى منه نفع جامع
حامى عن الفصحى ، وذاد بمنطق
كالصبح لا يقوى عليه مقارع
وإذا احتبى ذو رأى بالإيمان لم
يرهبه مخشى البوادر دارع
يا فاضل الفضلاء يابن عشيرة
زان الحجى فيها القنوت الخاشع
آباؤك المرضى عن آلائهم
للسالكين وسائل وذرائع
للعلم بين صدورهم حرم وفى
أفنائهم للصالحات مطالع
خلفت مجمعك الحزين وأنت فى
أعلامه العلم الأشم الفسارع
فى كل معضلة تهيج به ومب
سهمة تناشبه فقولك قاطع

تُدلى به مستوثقاً متواضعاً

لله ذاك العالم المتواضع

وإذا خطبت فمضتق متسرسل

لهجت به في المذرهين مصاقع

وإذا احتشدت محاضراً أو شارحاً

أنهلاً عنك العارض المتدافع

وإذا سكنت قرب صمت فاصل

فيه الخطاب . وللسكوت مواضع

وجمعت بين العلم والآداب في

نسق ، وجمعهما العسير الشاسع

علم ، وما العلماء إلا مشعل

للخير هاد ، للضلالة قاشع

أدب ، وما الأدباء إلا عيلم

فيه لألوان الجمال مشاع

لهفى على « الزيتونة العظمى » التي

ثكلتك حين مكانها بك تالع

كالروض جانبه الولي الهامع

والأم فارقها الحفى النافع

إن زلت عنها فالألى زاملت من

أقطابها عمدها لها ومراجع

الأزهر المعمور توأمها . وعن

صحنيهما انفجر الضياء الساطع

حصنان للإسلام ، ذاك بنوره

غاز ، وهذا مانع ومدافع

بكياك بالدمع الغزير وربما

سالت بحبات القلوب مدامع

* * * *

يافاضل الفضلاء قد بارحتنا

وبقلبك الريان هم قابع

مما أصاب العرب في أقسدارهم

هام « منكسة » ونحذ ضارع

ليست مصارعنا نكال عدونا

سقطاتنا حفر لنا ومصارع

قل للعروبة مغرباً ومشارقاً

ما ناهض يقظ كمن هو هاجع

نهج التغلب ليس رهوا ؛ إنه

للسالكية زلازل وزعازع

ما بالوعيد ولا النشيد ولا الشعا

رات الزوائف يُسترد الضائع

كلا ولا يجدى ابتهاً ظاهر
 يزجيه دمعاً ساجدً أو راكمُ
 ندعو لأذننى الحقُّ يأسو جرحنا
 دولاً ، وفيما الحقُّ أعسر ظالع
 ونهيب بالدنيا لتدعمَ حقنا
 وحقوق أكثرنا الغداة ضوائع
 والحق وهو الحق ليس بقائم
 مالم يسانده الجهادُ القامعُ
 ما وُحدة بين الصفوف مفيدة
 حين الدخائل للخلاف نوازعُ
 والكره إن ندخله فى عدد وفى
 عدد ولم نُخلص ، فجهدُ خائعُ
 أقسمت إن صفت النفوس وسالت
 ذلَّ الموائبُ واستكان الطامعُ
 قد آن أن نثد «الأنا» فإذا أمحتُ
 كشف الظلام لنا النهارُ المانعُ

* * * *

يافاضل الفضلاء إن كرائم السد
 قم استبد بها العداءُ الجائعُ
 فسدت موازين الشباب فلم نعد
 ندرى ، أيافةً مشيت أم يافعُ

وانتابت الأدب المقدس محنة
 فإذا خمائله الوسام دواضعُ
 ومسممين بكل ضغن واغر
 طويت عليه سرائر وأضالعُ
 ومذاهب ، رجسُ الوجود وشرة
 متراكبٌ فى روحها متدافعُ
 ثاروا على الماثور مما أبدعتُ
 حقبٌ لعلوى البيان جوامعُ
 قالوا : نجدد بقلت : فى عبث وما
 العبث المهوس نافع أو شافعُ
 فالقصبة انتزعت بدائه عقلها
 منها ، فسيقت وهى هذر خالعُ
 والشعر روعَ أيكُه وكائننا
 زحمت بلابله عليه ضفادعُ
 والرسم أرعن ، كل خطرة ريشة
 هاذٍ يُمجمج وهمه ويتابعُ
 وهوى بموسيقى الجمال وسحرها
 صخبٌ إذا ينقض قلت : قعاقعُ
 الخطب فيك تموج فى أسدافه
 لغة ألح خصوصوها وتشايعوا

زحفوا على أقداسها وتراثها

ولهم من الإحن العمّاق دوافعُ

قالوا: لقد عجز الفصيح فبات لا

يقوى على استيعاب ماهو واقعُ

كذبوا على علم بأن كذبوا فما

أم اللغى إلا الخضم الواسعُ

وسعت حضارة كل عصر فاحتوى

آفاق فكرته الفصيح الناصعُ

ولقد نظرت إلى جديدهم الذى

صكّت به فى المشرقين مسامعُ

فإذا بكثرة المهيض جناحسه

إما المسف أو الهذاء الصادعُ

ولعل سائغه هو المنشق فى

قصد ، ومن بعض الأصالة نابعُ

لن تُرزأ الفصحى ، فحافظها على

شفة الدنا الذكّر الحكيم الجامعُ

* * * *

يا تونس الخضراء عشت منيفةً

للسودد المكسوب فيك مراتعُ

ولكل باذخ عزة موسومة

بالتقى فيك مَشارف ومطالعُ

وعلى ثراك الظهر كم خلب الربى

شاد ، وكم هز الخمائل ساجعُ

ياتونس الخضراء أمسك إن يذق

عنتا ، فحاضرک الكريم الرائعُ

يهنيك أنك أم شعب ناهض

حـرر يسدده رئيس بارعُ

قل «للحبيب أبى رقيبة» :دمت قو

ام البلاد لك المقام الفارعُ

فاسلم وأتمم ما بنيت موقفاً

والله داعم ما بنيت ورافعُ

* * * *

يافاضل الفضلا إلى أن نلتقى

يهفو إليك وفاؤنا ويطالعُ

هذا مصابك إن ألم بتونس

فأمض ، فهو على العروبة واقعُ

ليس المعزى والد لك كابرُ

إن المعزى فيك عصر جازعُ

فاذهب فإن العلم والأدب الذى

أصلت ، يتمهما بفقدك لاذعُ

واذهب كما مال الهداة فإن هو

ذهبوا ، فنورهم المقيم الساطعُ

• • كلمة الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة :

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

معالي الرئيس الحليل

سعادة الأمين العام المبجل

حضرات السادة العلماء الكرام أعضاء

المجمع الموقر

سيداتي سادتي

في هذه المناسبة الشاجية الحليلة التي يتناول فيها القول علما من أعلام المجمع وعميدان من عمدة الفكر واللغة ، ما كان يحسن لي وأنا السكيت أن أقترح هذا الميدان فأشارك بالكلام أو أسجل الفرسان . هذا إلى أن الأشجان الثائرة والأحزان المتجددة في النفس تعوق مثلي عن القول في هذا الموقف ، غير أن اقتراح العالمين الحليلين ، والأستاذين الكريمين : الدكتور إبراهيم مدكور ، والشيخ محمد بهجة الأثرى ، اللذين اعتبراني من أسرة الفقيد لما يعلمان من صلتى بالمغفور له شيخى وأستاذى سيدى محمد الفاضل ابن عاشور قدس الله ثراه - حملنى على استجابة الطلبة في الإسهام بكلمة في هذا الحفل الخاشع . واعتقادی أنها لا تنى بحق الراحل الكريم وإنما هي دمة محزون أرجو أن يكتبني الله بها من الأوفياء المخلصين ، وأطمع أن يجعلها منى عرفانا للجميل الذي أسبغته على الفقيد وطوقني به من ثلاثين عاما خلت من جوان (يونيو) ١٩٤١ إلى أن تقبله الله راضيا مرضيا .

فقد أنعم الله على بصحبته وخالص محبته ولزمته ثلاثة عقود من عمره المبارك . كنت فيها أترقى في اتصالي به وتعاوني معه من منزلة إلى أخرى ، حتى كتب لي في إجازته إياي في العلوم الشرعية واللغوية قائلا : « فلم نزل في تقارب واتصال وتعاون على جلائل الأعمال حتى أصبحت مودته عندي علقا كاملا النفاسة ، وبنوته لي مصداق بيت الحماسة :

نحن بنى نهشل لا ندعى لأب

عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

فلقد كان لي شيخا ومربيا وأبا ، وأفادني الاتصال به والملازمة له علما ورأيا وجميل أخلاق وصفات ، وواسع معرفة وباهر محاضرات ، أدعو الله أن يفرغ عليه من شآبيب الرحمة ويجزيه غنى وعن أمثالي الجزاء الأوفى ويوفر لنا بما ابتلانا به فيه أجرا .

حضرات الأساتذة

أيها السادة

انتسب الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الحسنى الأشعرى المسالكى التونسى المغربى الأندلسى إلى مجمعكم هذا الموقر من سنة ١٩٦١ فتسنى لكل من عرفه أو خالطه خلال ما بين

حفل استقباله وتكريمه بالأمس ، وحفل توديعه وتأبينه اليوم ، أن يلمس في فقيدنا الراحل قيما وصفات ويتبين منه مواقف وكمالات ، كان اجتماعها فيه عنوانا دالا عليه وتحديدًا كاملا لشخصيته .

ولو أننا عمدنا في استعراض سريع إلى الإيماء إلى جوانب هذه الشخصية لألفيناها تنطق حضارة وأدبا، وتفيض معرفة وعلمًا وتسمو تقي ودينا .

أول ما يطالعك من الشيخ الفاضل أخلاقه الفاضلة . كان رحمه الله حسن الأخلاق ، موطأ الأكثاف كريم المعاشرة ، جم أدب النفس مع رقة حاشية، وجميل ذوق، وفرط ذكاء وحسن تقدير للأمور .

اقتبس ذلك من بيئته النبيلة الراقية ، بيت العلم والشرف والمجد والوزارة ، ومن والده المعظم شيخنا محمد الطاهر ابن عاشور أطل الله عمره وبارك في حياته العامرة بمجلائل الأعمال وكريم الخلال ، ثم من تلك الأوساط الكريمة الفاضلة التي كان لها اتصال بأسرته ، ومن العلماء والأشراف أصحاب المجادة والرئاسة الذين كانوا يترددون على والده يقدون عليه من كل صوب وبلد، وتشدهم به أواصر القربى أو تربطهم به علاقات الإنحاء والمودة . فكان بحكم هذه البيئة ناشئا في وسط راق رائق ، توفرت له به أسباب المعرفة الغزيرة والخلق الرضى مع أذواق حضرية ممتازة . وهو إلى ما عكف عليه في

البيت في سنى الطفولة من حفظ للقرآن الكريم وتلق للعقيدة الصافية، وتأدب بالسنة النبوية الشريفة، واستظهار لأهم المتون في علوم الوسائل والمقاصد ، قد شدا اللغة الفرنسية وآدابها وتعلق بالتاريخ الإنسانى الحضري والفكرى ، ووجد من مطالعته قبل دخوله إلى الجامع الأعظم «جامع الزيتونة» - عمره الله - أول مدرسة خارج البيت انتسب إليها ، ما نمي مداركه وصقل مواهبه، وهىأة تهيئة كاملة للأخذ بأسباب المعرفة الدقيقة والعلم المتين .

وقد كان اتصاله بوالده وأستاذه خارج حلقات الدروس مستمرا دائما طول حياته سفرا وحضرا إلى أن لقي ربه . وكانت له من ارتباطه وامتزاجه به منزلة مزدوجة من البنوة والصحبة، شاهدنا آثارها المباركة الزكية فيما كان عليه الفقيه من كمال التخرج في الناحيتين العلمية والسلوكية، وفيما كان يتحلى به رضى الله عنه من أخلاق النبوة .

ويظهر هذا الجانب الخلقى في شخصية الراحل الكريم جانب آخر عظيم عرفه الخاصة والعامة فيه، هو غزارة علمه واتساع ثقافته وصحة مداركه وسداد رأيه .

ومرد هذا أولا - كما ألمعنا إلى ذلك عند الحديث عن ظروف نشأته - إلى حسن تكوينه، غير أن الأدب البيتي والتكوين في المدرسة الأولى المنزلية لا يغنيان عن استقراغ الوسع في طلب العلم والتبحر فيه . لذلك رأينا

والأدبية ونحوها بالجمعية الخلدونية وجمعية
قدماء الصادقية . ولا يسمع بكتاب قيم جديد
ينشر باللغتين العربية أو الفرنسية إلا أسرع
إلى اقتنائه وألم بما فيه شكلا ومضمونا .
وتولد له من كل ذلك شغف بالمعرفة جعله
ينقب عز المخطوطات النفيسة النادرة متأسيا
في هذا بأنه قدوته وشيخه : والده . فأحاط
بالتراث الإسلامي إحاطة كاملة ، وألم بقضايا
العلم ، مكتملا لعناصره ، جامعاً لمقوماته ،
وعاش وسطه الفكري والثقافي منتبها إلى كل
ما يجري به من اتغيرات ، مشاركاً فيما
يحدث به من هزات وتطورات .

فلا بدع بعد ذلك إذا تميز على معاصريه
من بني جلدته ذكاء وعلم وإدراكاً ورأياً .
فقد اجتمع له ما تفرق في غيره ، وكان لنا
منه وبه العالم الفرد الذي جمع بين أصالة
التكوين وغازاة العلم وسعة المعرفة بالمصادر
والكتب ، وبين الدقة في النظر والإتقان
للأساليب العلمية والأخذ بالطرق المنهجية
في الدراسة والبحث .

عرفنا ذلك وعرفه كل من تخرج عليه
أو اتصل به في دروسه وتقريراته ، وإلى
ما أزال أذكر الدرس الأول الذي حضرته
له سنة ١٩٤٢ وهو يشرح لنا صدر الرسالة
الجديدة لابن زيدون ، فإن نبرات صوته
من ذلك اليوم ما تزال ترن تملأ مسمعي .
وتوالت الدروس والتقريرات من شيخنا
العلامة البحر ، كما اصططح الناس بتونس
على تلقيه ، في اللغة وآدابها ، والقرآن
وتفسيره ، والعقائد وأحكامها والفرق

الشاب محمدا الفاضل ابن عاشور يدخل
الجامع الأعظم ويجلس إلى حلقاته يأخذ عن
أعلام البحث والدرس وأساطين الفقه واللغة
أمثال والده ، والعالمين الجليلين المرحومين شيخ
الإسلام محمد بن يوسف والمحقق النابغة الشيخ محمد
النخلى ، ثم إمام الأدب ورجل الفكر الصليح
التميز المرحوم الشيخ محمد مناشو ، فهناك
توفر الطالب الشاب على دراسة علوم المنقول
والمعقول ، منكبا على المصادر والتصانيف
الهامة في العلوم الشرعية ، يذاكر في علوم
القرآن ، والتفسير والحديث والفقه والأصول
والكلام ومقاصد الشريعة والتصوف ،
ويقرأ ويدرس بغاية الإمعان والتعمق كتب
اللغة وعلوم العربية وأسرارها ، متنقلا من
ذلك إلى مطالعات شتى في دواوين الأدب
وشروحه ، يحفظ ما يطيب له منها ويختار ،
من خطب وأشعار ، ويتولى مع بعض زملائه
من أعلام النهضة الأدبية أمثال الشيخ المرحوم
الراوي محمد العربي الكبادي دراسة أمهات
كتب الأدب ، من مشرقية كالكمال لأبي
العباس المبرد ، ومغربية كنفتح الطيب لأبي
العباس المقرئ .

وقد كان رحمه الله إلى جانب هذا التخرج
الممكن في العلوم الإسلامية الشرعية واللغوية
والأدبية - استظهاراً لأصولاً وقوانينها ، وحقاً
لموضوعاتها وفنونها ؛ وغوصاً على كتبها
ومعاقدها ، وفهماً لقضاياها ومشاكلها -
يحضر دروس التعريب والنقل بالمدرسة العليا
للآداب العربية ، ويغشى مجالس العلماء
ندوات الفكر ، ويشهد المحاضرات التاريخية

التي وقعت معادلتها بالتوجيهية ، وأذن لأصحابها بفضل سعي شيخنا الحثيث بالالتحاق بكليات الآداب والعلوم في المشرق العربي والبلاد الغربية أين تخرجوا نهائيا بصر وسوريا وإنجلترا، في التاريخ والجغرافيا والآداب واللغات الأجنبية والعلمين الرياضي والطبيعي .

وبعد أن ركز التعليم لثانوي العربي العصري بهذا المشروع ، ولقي ما بقي من عنت الإدارة ومدير التعليم العمومي الفرنسي ، أسس اللجنة القومية للتعليم في تونس التي تولت رئاستها .

وأضاف إلى هذا العمل الثقافي البناء تأسيس معهدين عالين بالجمعية الخلدونية: هما معهد الحقوق العربي ومعهد البحوث الإسلامية . وقد كانت محاضرات شيخنا الحليل رحمه الله في معهد البحوث الإسلامية محور نشاطه وحركة الدفع وسند التوجيه به .

كانت له طوال أربع سنوات محاضرتان في كل أسبوع ، إحداهما مساء الاثنين وثانيتهما مساء الأربعاء ، وكان فيها كعادته المحلى والأسوة . تشهد هذه المحاضرات الجموع الغفيرة وتكتظ بها قاعة المكتبة بالجمعية الخلدونية والمسالك المؤدية إليها . وكانت محاضراته ارتجالا لا تزيد ولا تنقص الواحدة منها عن الساعتين إلقاء .

واختلافاتها ، وشتى الفنون الأخرى ، كالمقاصد الشرعية وتاريخ التشريع وتاريخ الأديان ونحوها ، ولم أكن أومن أن واحدا من الناس يستطيع أن يدرس كل فن من فنون العلم الشرعية واللغوية ، فيجمع بين مختلف الاختصاصات ، ويكون في كل نوع إماما حتى حضرت دروسه وشهدت مجالسه . فهو اللغوي الأديب العالم الفقيه الأصولي المتكلم المؤرخ النصار المتقطع النظر غير منازع .

وقد سمت به همته رحمه الله رحمة واسعة إلى أن يضيف إلى نشاطه العلمي التدريسي هذا عملا آخر عظيم النفع كبير الحدود فكان بعد انتخابه رئيسا للجمعية الخلدونية سنة ١٩٤٥ مؤسسا لحلقات من التعليم الثانوي العصري أراد بها استكمال مناهج التدريس لطلبة الجامع الأعظم . وهكذا لأول مرة بتونس درست بتوجيه وإشرافه كل الفنون الطبيعية والرياضية باللغة العربية . وانتدب لها أساتذة كثيرين من ذوي الاختصاص في هذه المواد ، كانوا وهم من أبناء لغة الضاد لا يؤمنون بحكم تخرجهم بالمعاهد الأوروبية أن لغتهم الأصلية العربية تستطيع أن تضطلع بهذه المهمة أو تقوم بهذه الرسالة . وبفضل حرصه وعنايته مضوا في السبيل التي خطها لهم ، ونجحوا في القيام بوظيفتهم ، وتوجوا دروسهم بامتحانات أجروها على تلامذتهم في نهاية داساتهم ، كان بها حصول الكثيرين من هؤلاء على شهادة البكالوريا العربية

كما كان يريد أن يسميه . وكان هذا الإمام والمؤرخ النابغ مع ما يكن للشيخ الفاضل رحمه الله من مودة معجباً به مقدرًا لعلمه وأدبه لما كان يلتمس فيه من معرفة غزيرة ورأى صائب ، وما يطلعه عليه فقيدنا من بحوث ودراسات يعدها للمشاركة في تلك اللقاءات العلمية العالية .

هذا وقد قام الراحل الكريم بمحاضرات إسلامية وعلمية كثيرة بجامعة متعددة وعرفته الأوساط العلمية بالقاهرة والكويت والسعودية والمغرب وليبيا وتركيا وباكستان من البلاد العربية والإسلامية ، كما عرفته الأوساط العلمية الأوروبية بإنجلترا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وأسبانيا .

وإني متى ما ذكرت هذا النشاط الجهم وتلك المحاضرات والمعارف القيمة يؤلمني جدا ويؤسف أهل الفكر ألا تكون كلها مجموعة مدونة . وليس لنا من كل ذلك غير كتاب الحركة الفكرية والأدبية بتونس وكتاب التفسير ورجاله ومحاضرات في التشريع الإسلامي والمحاضرات التي نشرها له المجمع أو غيره من الهيئات العلمية وكتاب تراجم الأعلام . أما المخطوطات التي أعرفها له أو حدثني عنها والدراسات الكثيرة التي كان يعدها فإني أذكر منها رسالة ترجم لها بكشف الذعرات في وصف الشعرات ، تحدث فيها عن ملاذ إفريقية وقذوتها الصباحي بالحليل أبي زمعة الباوي رضى الله عنه ،

ومن على منبر معهد البحوث الإسلامية بالجمعية الخلدونية حلل الراحل الكريم آراءه السياسية وأفكاره الإصلاحية وتوجه بدعوته الإسلامية . فصور للحضور ومن وراءهم من الناس حقيقة الجامعة الإسلامية متناولا على التوالى والترتيب حسب المخطط الذي رسمه لنفسه والمنهج الذي أعده لمحاضراته خلال تلك الفترة القصيرة الثرية الوحدات الأربعة عمد تلك الجامعة : وهى الوحدة العربية والوحدة الإيرانية والوحدة الطورانية والوحدة الهندية ، وهكذا تعرض إليها واحدة واحدة بالدرس والتحليل لعناصرها الكثيرة والمقومات المختلفة المتنوعة بها . وهو مع ذلك لا يفتأ يتتبع أحداثها ويساير تطوراتها ويقدم البيانات عن الحركات القومية والتحريرية بها ، مبشراً بالصباح الجديد والعهد السعيد .

هذا وقد رتب للمعهدين العالين شهادات تتوج الدراسة بها .

وعقد سنة ١٩٤٧ مؤتمراً للبحوث الإسلامية بتونس دعا له الدارسين والباحثين من مختلف البلاد العربية والإسلامية

وقد عرف العلامة الفقيد الراحل في مؤتمرات علمية كثيرة أخرى ، من بينها مؤتمرات المستشرقين ومؤتمرات مجمعكم الموقر هذا ، وكان يأنس فيها ويصاحب بها شيخه وصديق والده العلامة المغفور له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، أو الباشا

الدائم بالأصول الإسلامية والمبادئ الشريفة الشرعية التي حببها لنا الرحمن ، ودعانا لها القرآن وحثنا عليها إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد كانت هذه العقيدة راسخة فيه ممتزجة بذهنه وقلبه لكثرة ما كان يتعهد به نفسه من تلاوة القرآن الكريم في أوقات توجهاته ، ومن رواية الحديث الشريف باطراد وخاصة في ليلى رمضان من كل عام بين يدي والده شيخنا الجليل .

والدين سلوك عنده ، بما حمل عليه نفسه من طاعة الله ومراقبته في أمره كله ، وما كان ينزع إليه من ألوان المعروف والإحسان ابتغاء مرضاة ربه ، والتأسي برسوله ، فيما يأتي وينذر ويستقبل ويستدبر من شؤون وأحوال وشواغل وأعمال .

كانت روحه الكريمة الطيبة الطاهرة تزخر إيمانا وتفويض إحسانا . فإذا هو الداعي إلى الله المجاهد في سبيله المجادل لأعدائه المثبت لدينه الذائد عن حماه . وإذا هو في كل عمل يقدم عليه تربويا كان كالعناية بالأطفال والشبان والخاصة والعامة ، أو اجتماعيا كالحرركات العمالية وتوحيدها وتنظيمها وتكتيل جهودها ، أو سياسيا كان كالدعوة إلى الوحدة وبناء الجامعة الإسلامية والعمل على توثيق الروابط والسعي في ابتغاء العزة التي كتبها الله للمؤمنين ، أو فكريا كتركيز الأصول الثابتة العقائدية والدعوة إلى الإيمان بالمثل الإسلامية والقيم

وتفسيره القرآن بالمأثور ، وجمعه وترتيبه المديوان بشار بن برد ، مع شرح موجز لما أشكل من تراكيبه وأغلق من معانيه ، وتحقيقه لمعجز أحمد لأبي العلاء المعري ، ورسائل أدبية وقصائد ومقطعات من الشعر :

ولو يتاح لأحد أن يثفرغ لجمع آثار شيخنا ودراستها وتحليلها والتعريف بها لكان للناشئة من ذلك خير توجيه وأفضل تكوين . فقد عرفنا في الراحل العزيز الشيخ سيدي محمد الفاضل ابن عاشور الرائد الكريم ، الجليس الحبيب ، والشيخ الموجه ، والمربي النصوح ، والمدرس المحقق ، والخطيب المصقع ، والمحاضر المبدع ، والناقد البصير ، والكاتب المفنن ، والشاعر الفحل .

ولاعجب بعد ذلك أن رزق الشيخ الفاضل في بلده وخارج بلده المحبة والتعلق من كل من اتصل به أو لقيه ، والإكبار والتقدير من كل من عرفه أو خبره .

غير أن هذين الجانبين السلوكي والعملية في شخصية فقيدنا لا يمكن أن نتصور مداهما ولا أن ندرك على التحقيق طبيعتهما إذا نحن أغفلنا الجانب الثالث المؤثر فيهما والصاهر لهما وهو الجانب الديني .

فالدين عند فاضلنا عقيدة وسلوك علانية وسرا .

هو عقيدة تعمّر قلبه إيمانا ، وتملأ نفسه اطمئنانا ، وتشرح صدره إيقانا ، ومن تكن تلك حقيقته يرزق الصمود والثبات والقوة والحرارة والحشية الكاملة لله والتعلق

وتمام الرواية، كتب الله له في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة إنه سميع مجيب .

تلك هي الجوانب المتكاملة من شخصية العلامة فقيه العروبة والإسلام شيخى مقام والدى المقدس المبرور سيدى محمد الفاضل ابن عاشور . ولا أريد أن أطيل في هذا القول ولا أقدر أن أفصل شيئاً من نواحيها وجهاتها، لأننى، وإن رضيت بأن أقحم نفسى في هذا المجال، فإنما كان ذلك لأذكر لهذا المجمع الموقر فضله وأشكره باسم الأسرة الزيتونية أبناء الرحم العلمية التى شرفت بالانتساب إلى الراحل الكريم ، وأدعو الله مخلصاً أن يرزقنا صبراً، ويدخر لنا في الآخرة أجراً ، ويعلى مقام شيخنا الفقيه العزيز في عليين ، ويجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

الدينية ، لا يراقب في ذلك كله إلا الله ولا يهتدى في عمله جميعه إلا بهديه وسنة رسوله :

وهو في خلواته كثير الخشوع إلى ربه يدعو تضرعاً وخيفة ، ويتقرب إليه بألوان القربات والطاعات وقد شاهدت من هذه المشاهد أحواله في طوافه وفي توجهاته في الأسفار، وما كان يقوله من دعوات وأذكار، وما كان يبدو عليه من عظيم الحشية وكبير التقدير لرسول الرحمة وشفيع الأمة صلى الله عليه وسلم . عرفت ذلك منه حين شرفنى رحمه الله بأن أتلو بين يديه ثلاثيات البخارى أمام المواجهة الشريفة، وأروى كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه في الروضة النبوية زادها الله سناء عام حججت معه سنة ١٣٨٥ هـ . وقد كتب لى في الأصلين الذين تلوت منهما الشهادة بصحة

● كلمة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلَانَقُولُ
إِلَّا مَا يَرْضَى الرَّبُّ » .

فإذا كانت تلك النفس المحمدية
الزكية تعبر عن تمكّن الحزن منها
وتجدده لفقدان فلذة الكبد ، فماذا
يُظَنُّ أَنْ يُقَدَّرَ بِهِ تَأْثُرُ نَفْسِي الضَّعِيفَةِ
مِنَ الْأَمْسَى (فَيَا لَلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ) .

غير أنني أجدهم سُلُوباً بما رَوَّحَ عَلَى النَّفْسِ ،
مِنْ خَالِصِ تَعْزِيَّاتِ أُسْرَةِ هَذَا الْمَجْمَعِ
الجليل ، والتعبير عن صديهم مشاركتهم
لأسرة الفقيد في مصابنا الجَلَلِ ، وخاصة
ما أَلْقَاهُ مِثْلُ الْمَجْمَعِ ، الشاعِرُ الْعَبْقَرِيُّ ،
الأستاذ عزيز أباظة في حفل الأربعين
الذي أقيم بتونس . مِنْ شَعْرِ يَلُوحُ
مِنْهُ بَرَقُ صِدَاقَةِ لَمَاعَةٍ ، وَوَدَقَ عَهْدُ
مَحْفُوظَةٍ غَيْرِ مَضَاعَةٍ .

واليوم أعاد إزجاء سحائبه ، ماهب
عليها من لواقح هذا الحفل الجليل ،

تحية مباركة طيبة ، أوجهها إلى
السادة الأساتذة العلماء الجلة رجال
المجمع اللغوي ، وإلى السيد الأمين العام
الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور ، الذي
ألجى طلبته - بكتابه رقم ١٠٥ - أَنْ
يَكُونَ لِأُسْرَةِ زَمِيلِهِمُ الْفَقِيدِ الْعَزِيزِ ابْنِ
- الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْفَاضِلِ ابْنِ عَاشُورَ - كَلِمَةً
فِي حِفْلِ تَأْبِينِهِ ، الَّذِي يُقَامُ فِي هَذَا
الْيَوْمِ ، جَرِيًّا عَلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ تَقَالِيدُ
الْمَجْمَعِ مِنْ تَأْبِينِ أَعْضَائِهِ الْأَشْقَاءِ فِي
مُؤْتَمَرِهِ كُلِّ عَامٍ ، وَنِعْمَتِ السُّنَّةِ لِلْوَفَاءِ
بِالْعَهْدِ .

وأما بعد ، فلا أَمِنَ ، وَلَا أَبْلَغُ فِيمَا
يَحِقُّ أَنْ أَفْتَتِحَ بِهِ خُطَابِي ، الْمَتَلُوءُ فِي
هَذَا الْمَقَامِ مِنَ الْكَلِمَةِ النَّبَوِيَّةِ الْجَلِيلَةِ

عن صدق الأخوة ، ورعى صفاء الخلّة ،
لفقيد كان ذكرهم بالجميل هجّيراً
لسانه ، والتحفز للقائهم أهمّ شأنه .

ولالأستاذ الجليل رئيس المجمع الموقر ،
من ذلك الحظّ الأوفر ، ولكل من
الأستاذين نائب الرئيس والأمين العام
مايوازنه .

وأبتهل إلى الله تعالى ، أن يجازي
الفقيد العزيز أحسن الجزاء ، على ما بذله
من طاعة الله ورسوله ، في تأييد الشريعة
الإسلامية ، والذب عن اللغة العربية : « ومن
يُطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين
أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك
 رفيقاً » .

وأعيد إليهم تحية الختام ، وذكرى
السلام ، مني ومن أسرة الفقيد العزيز .

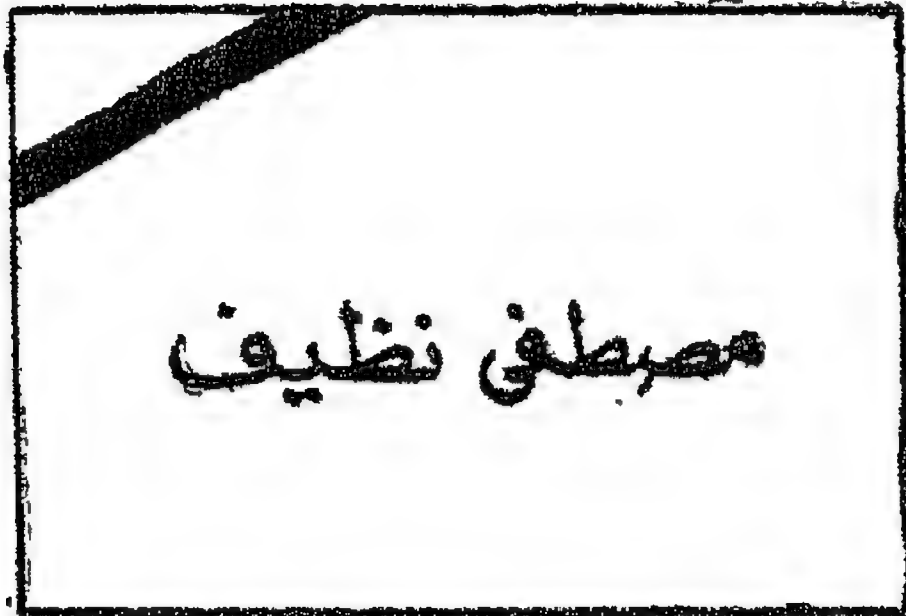
مما دل على أنه ود لا ينضب ماؤه .
ولا يرنق بمرور الزمان صفاءؤه . ووددت
لو كنت حاضراً بينكم بجثمانى ليتظاهر
المقال مع شواهد الحال ، بيد أنى أرسلت
كتابى هذا معبراً عنى ، فما الكتاب إلا
أثر القلم الذى أمسكته اليد ، إمساك
الماتح بالعرّوة ، ليفرغ سجلاً مما فى
الضمير من جزيل الشكر ، والاعتراف
بالجميل للسادة أسرة المجمع ، وإلى
لأجد حال شكرى لهم ، مصداق ماودّه
أبو العلاء ، أن يكون به لقاءه لأبى حامد
الإسفرائينى بقوله :

يحمّته وبودى أننى قلم
أسعى إليه ورأسى تحتى الساعى

شكراً أرجو أن ينفى بحق ما أبدوه
جماعات ووجدانا ، من مشاطرتى وسائر
أسرة الفقيد العزيز فى الأسف والأسى ،
من مقاويل ومستمعين مشاطرة منباعدة

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١١ من المحرم سنة ١٣٩١ هـ
الموافق ٨ من مارس سنة ١٩٧١ م أقام المجمع حفل تأبين لفقيهه المغفور
له الأستاذ مصطفى نظيف ، الذي استأثرت به رحمة الله في ١١/١/١٩٧١ .
وفيما يلي ما ألقى في هذا الحفل :

كلمة الدكتور عبد الحليم منتصر في تأبين المرحوم الأستاذ :



ثم عدت أردد قول شوقي :
قد كنت أوثر أن تقول رثائي
يا منصف الموتى من الأحياء
عرفت أستاذي وصديقي مصطفى نظيف
منذ نيف وعشرين عاما ، حين دعاني لإلقاء
محاضرة عن الرواد الأوائل من العرب في
علم النبات ، وإذابه يقبل على بعد المحاضرة
مهنتا هاشا باشا وفي عينيه رضا وفرح ،
كأنني بها بسمه المعلم الفرح بتلميذه ، أو
الوالد بابنه ، إنها بسمه الحب الأبوي الصادق
الذي لا يغيض أبدا .

ومنذئذ اتصلت بيننا آصرة قوية من
الصداقة الصادقة الصادوق ، زادتها الأيام
وثيقة . وأضافت إليها روابط العمل في الجامعة
والمجمع وفي الاتحاد العلمي والجمعيات
العلمية والمؤتمرات العلمية وغيرها من أوجه
النشاط العلمي ، الذي كان رحمت الله عليه ،

فأمنك معتناض ولاعنك ساوة
نظيرك مفقود وحزني مؤبد

أيها السادة :
أشفقت على نفسي ، حين رأيتم أن أقوم
بتأبين فقيدنا العظيم مصطفى نظيف ، فأين
أنا من الإحاطة بهذه الشخصية العظيمة الفذة ،
التي يعز نظرها فيمن أعرف من الرجال ،
وأشفقت عليكم أن تستشعروا قصوري عن
تجلية شخصيته ، لأنني أعلم إجماعكم على حبه
وتقديره ، وهيات أن أرسم صورة ترضيكم
أو ترضون عني من أجلها .

وإني لأعترف بادئ ذي بدء بعجزى
عن ترجمة أحاسيسي لفقده ، فقد فاق تقديره
لدى كل حدود ، وليس غريبا أن يكون
حزني عليه مؤبدا كما يقول الشاعر ، حتى
لقد رددت قول الأخطل الصغير :

سألتنيه رثاء خذه من كبسدى
لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره

وحيث توجهت إليه مع مجلس الكلية بعد استقالته ليقبل أن يكون أستاذا غير متفرغ بالكلية، لم يتردد في اجابتنا إلى مطلبنا، وكان

آخر عهده بالتدريس الجامعي فألقى مقورا في تاريخ العلم ، وآخر في البصريات ، لقد ذهبت وظيفة المدير ، ولكن بقيت في مصطفى نظيف الأستاذية التي لا تزول ، وما أظن الذين تتلمذوا عليه في كلية العلوم بجامعة عين شمس . . سينسون هذه الشخصية أبدا . . وكان الحرج البالغ أنه يرد المكافأة عن أشهر الصيف ، وما أشك في أن له في ذلك قرينا أبدا .

قلت له يوما لقد كفرت بالقيم ، وهي التي عشنا بها وعملنا لها طيلة حياتنا ، فغضب رحمت الله عليه غضبا شديدا وقال إن مثلك لا يكفر بالقيم أبدا ولا ينبغي له ، وإنما يكون الكفر بالذين لم يبقوا عليها ويعملوا بها ويؤمنوا بها . . وتطرق الحديث إلى تحكم الأقزام بحكم مواقعهم ، فقال إن الأقزام لن يستطيعوا البقاء في تلك المواقع أبدا وسيتركونها حتما يوما ما ، طوعا أو كرها ، وأما القيم فستبقى أبد الأبدين .

وانعقد مجلس الجامعة يوما برياسته في هيئة محكمة تأديبية عليا ، لمحاكمة عضوين من أعضاء هيئة التدريس ، أما أحدهما فقد اتهم بتبديد أشياء في إحدى تجاربه وبحوثه وكان يمكنه الاحتفاظ بها والإبقاء عليها ، وأما الآخر فقد اتهم بالتطاول على أستاذه - وقد حوكم الأول من قبل هيئات مختلفة وقد أدانته جميعا ، ثم جرى به إلى هذه الهيئة التأديبية العليا لترى رأيها فيه ، ولم يكن المتهم ممن يحسنون الكلام والدفاع ، وإنما

يبرطم به برطمة ، فنهزه الرئيس قائلا ، إننا نحن الذين نحاكمك ولست أنت الذي نحاكمنا ، فهمست في أذنه أن يترفق بالمتهم حتى تثبت الأدانة وسألت المتهم أن يشرح لنا الهدف من التجربة ، وأن يتأني في حديثه ، ويسلسل الوقائع ، فإذا بالأرقام والنتائج الإيجابية في صفه ، فقلت إياكم والحجر على حرية البحث العلمي ، إن للباحث أن يجرب كيف شاء ما دام يتبع الأساليب العلمية الصحيحة ، وإنه لم يثبت على المتهم أنه أخذ لنفسه شيئا أو أضاع على الدولة حقوقها ، ومن واجبه أن يكرر التجربة ، وأن يتثبت ولا يتعجل ، ونحن هيئة من المشتغلين بالعلم نحاكم زميلا فإذا أدناه ، فسيكف كل باحث في معمله عن البحث ، وكان أن اقتنع الجميع ببراءة ساحته ، وكان الرئيس أول المهنيين له . أما الآخر فكان جزاؤه شديدا وعقابه صارما .

وانعقد مجلس النقابة يوما برئاسته ، وانبرى أحد الزملاء الشبان يفند ما انعقد عليه الإجماع تقريبا ، ويوجه الرأي وجهة أخرى ، ولما رآني قد أسرفت في لومه أوقفني عند حد بقوله ، وأين حرية الرأي إذن تلك التي تدعو لها وتؤمن بها .

وكذلك كان عالمنا الكبير ، أبدا نصيرا لحرية الرأي ، ذابا عن حياضه ذباً عن حوزته ، مؤمنا بالقيم الإنسانية العليا ، من عدل وإنصاف وأمانة وخير ، لا يرضى عنها بديلا ، ولا يستطيع عنها حولا .

عن تصرف أحد المسؤولين ، أنه تصرف أقل ما يقال عنه أنه قد جانبه التوفيق ، وعن قولي لآخر وقد عرض على أن يعتذر لي المسئول من موظفيه — بل — تعتذر أنت — فكان يقول وفي وجهه بسمة رضا وتحييد وتشجيع ، وفي صوته رنة اشفاق ، لا عليك أو رفقا ، وكم كان يسوؤه أن تتبدى عدم الجدية في العمل أو الإهمال أو التسويف أو إضاعة الوقت فيما لا طائل فيه .

ولا مراة في أنه كان في ذلك كله أمة وحده ، لا أكاد أضع معه في نفس المستوى أحدا — وكنا نتبين بعد نظره ، ولو بعد مدة ، حين يعلق على بعض القرارات بأنه غير مرتاح لها ، وإذا الأيام تثبت أنه كان على حق ، ولكن القرار سليم من حيث الشكل ومن حيث موافقة الأغلبية ، فهو يخضع له ، ثم يعلق هذا التعليق الخاص بأنه غير مرتاح له .

وقد كان عالما حفيا بنشر الثقافة العلمية ، داعيا إلى تأصيل العلم في البيئة العربية ، وكان لا يفتأ يردد هذه المعاني في محاضراته العامة وفي المؤتمرات العلمية ، استأذنته مرة في إقامة موسم ثقافي لكلية العلوم في مكان عام بعيدا عن أبهاء الجامعة ، بل في مكان وسيط ، فرحب بالفكرة في الحال ، وعرض أن يلقي محاضرة الافتتاح ، وكان والحق يقال كدأبه أبدا محاضرا ممتازا ، موضوعا وبحثا وعرضا ولغة وإلقاء وأسلوبا ، وكم أتمنى لو تجمع هذه المحاضرات العامة التي لم تشملها كتبه في مطبوع خاص لتنشر على الناس في كتاب

أما عن دقته وأمانته في العمل فقد بلغ في ذلك حدا قل أن عرف له نظير ، فلا أذكر على طول الزمان الذي عرفته وعملت معه فيه سواء في الجامعة أو النقابة أو الاتحاد العلمي أو المجمع اللغوي ولجانه ، أن تأخر يوما عن مواعده ، أو حضر اجتماعا أو جلسة أو لجنة لم يكن قد درس الموضوعات المعروضة دراسة وافية مستفيضة ، أو أعد المسادة المطاوعة أعدادا سليما ، أو أباح اجتماعا لم يحضره العدد القانوني ، فاذا لم يحضر العدد القانوني ، فلا اجتماع ، وإذا تأخر بعض الأعضاء عن ربع الساعة مثلا فلا اجتماع ، ولا خروج عن المناقشة في الموضوع المطروح ولا جلسة تطول أكثر من الموعد المقرر لها . كأنما كل شيء عنده بمقدار ، كل ذلك في جد صارم محبب ، لا مراة في أنه قدوة صالحة للعمل الدقيق المنتج ، وكم كان يستبين — لا أقول الفرق بل البون الشاسع — بين جلسات يتولى أمرها ، وغيرها يتولاها سواه ، ففي الأولى ما ذكرت من جد ودقة ودراسة ، أما في الثانية فالجلسات تستمر أياما ، وهذه المسألة أو تلك تؤجل لاستيفاء بياناتها ، وهذه تتشعب المناقشة فيها إلى غير اتجاه وغير هدى .

ومع هذه الجدية الصارمة المحببة التي أثرت عنه وعرف بها ، فقد كان يشفق على تلاميذه ومريديه أن يحتدوا به ، فقد ظل يذكر لي حتى قبيل وفاته بأيام بعض عبارات قلتها في مناسبات خاصة كقول في تقرير عني

أما غيرته على اللغة العربية واستعمالها لغة للعالم ، فكانت فائقة الحد ، وقد ذكر لي يوماً أنه لا حظ هذه المفارقة العجيبة ، حين كان أستاذاً بمدرسة المعلمين العليا في العشرينيات ، وكان هو وصديقه المرحوم الأستاذ عبد الحميد أحمد يدرسان الكيمياء والطبيعة باللغة الإنجليزية ، على حين أن زملاءهما من الأساتذة الأجانب يدرسون الرياضيات باللغة العربية وقد أستقر رأيهما على التدريس باللغة العربية ، فلما كان الغد كان يحاضر في علم الطبيعة باللغة العربية ، ومنذئذ اتخذها لغة التدريس سواء في المعلمين العليا أو كلية الهندسة أو كلية العلوم بعد ذلك . وكان من رأيه أن المصطلحات ليست عقبة أبداً ، وأنها إذا انتظرنا حتى نفرغ من ترجمة المصطلحات ، ثم توحيد ترجمتها في البلاد فسيطول انتظارنا جداً ، وأذكر له نظيرين في هذا الرأي هما المرحوم الدكتور مشرفة والمرحوم الدكتور ولي فقد أجريت استفتاء حول هذا الموضوع منذ سبعة وثلاثين عاماً ، فكان الرأي أن نبدأ في الحال — وقد أتاح له ذلك فرصة تأليف مراجع أساسية في علم الطبيعة باللغة العربية كان يذيلها بالترجمة العربية للمصطلحات الأجنبية .

وقد اشتهر عالمنا الأستاذ مصطفى نظيف بدراسته لأعمال العالم العربي الأشهر « ابن الهيثم » . ولا شك أن هناك تقابلاً وتلاؤماً بين الشخصيتين ، فهو يقول عن ابن الهيثم وكأنما يصف نفسه : إن ابن الهيثم في منحى

ففيها من الأفكار والآراء والدراسات ما يستحق التسجيل والتخليد ، ولعلنا لا ننسى محاضراته الرائعة في التاريخ للجامعات المصرية ، ولا دراسته الفذة التي أعدها بمناسبة العيد المئوي للمجمع العلمي المصري ، فقد أبي ألا أن يستعرض تاريخ مصر في يوميات الجبرتي ، فأرسلت في طلبها ليعكف عليها في دراسة أمينة وافية لتاريخ المجمع العلمي ، ومع ذلك فلم يتح لهذه الدراسة أن ترى النور لأسباب لا محل لذكرها ، ويتجلى صبره العجيب في البحث والدرس حين أراد أن يؤرخ للجامعات ، فلا بد أن يرجع إلى سجلات الوقائع المصرية ويقرأها بنفسه ، يستقرئ القرارات الوزارية ومحاضر الجلسات الخاصة بهذا الموضوع ، حتى تكون الدراسة مدعومة بالأسانيد التي لا تقبل الشك ولا يقاربها من ولا زيف .

سألته الرأي يروما في طابى للعمل بالخارج ، وذكرت له رأى من أشار بالقبول ، لأن عملي هناك نفع عام وعملي هنا نفع خاص ، والعام يجب الخاص ، فقال متسائلاً : وأليس عملك هنا من النفع العلمي العام ، وكأنما كان يريد أن يقول إنك لا تصبر على ضيم ، وأن النفع العام هنا أحق وأولى وأكرم . وكذلك كان بعيد النظر ، كأنه المعنى بقول الشاعر :

يرى فلتات رأى والرأى مقبل

كأن له في اليوم عينا على غمد

المسلم بها ، وأن أوقليدس وبطليموس وغيرهما
من سبقوا ابن الهيثم كانوا متفقين في أن
الإبصار هو بخروج شعاع من البصر إلى
المبصر ، فالذي ينعكس بحيث تكون زاوية
السقوط فيه مساوية زاوية الانعكاس هو هذا
الشعاع ، والذي ينعطف في الماء مثلاً إلى
العمود هو هذا الشعاع ، فهو الذي يخرج
من البصر ويتبع على السطح العاكس فينعكس
أو على سطح الماء فينعطف ، فإذا وقع بعد
انعكاسه أو انعطافه على مبصر ، أدرك البصر
هذا المبصر بالانعكاس أو الانعطاف .

لقد أعاد ابن الهيثم بحث هذا كله ، واتجه
وجهة جديدة لم يولها أحد من المتقدمين ،
وأصلح الأخطاء وأتم النقص وأضاف
الجديد ، لقد أبطل علم المناظر القديم وأنشأ
علم الضوء بالمعنى الحديث ، وإذا كانت
دائرة المعارف البريطانية تقول إنه بعد
بطليموس لم يظهر من يجاريه في علم الضوء
إلا ابن الهيثم ، فمن الحق أن نقول إن مصطفى
نظيف هو مجلي علم الضوء في البلاد العربية
بعد ابن الهيثم .

ويقول إنه ما كاد يهم بهذه الدراسة عن
بحوث ابن الهيثم وكشوفه البصرية حتى ملأ
نفسه اعتقاده بأن من بحوث ابن الهيثم في
موضوعات علم الضوء ما لا يصح أن يعد
مجرد زيادة اتسعت بها دائرة المعلومات ،
بل حقيق بها أن تعد أحداثاً قلبت أوضاع
هذا العلم وعدلت مجراه ، ولا يكفي فيها
نشر ما لم يطبع من مخطوطات بل هي جديدة

تفكيره وفي طريقة بحثه ، رجل تتوافر فيه
الصفات التي تتوافر في رجال العلم في
العصر الحديث ، فهو عالم بمعنى « سيانتست »
بكل ما يؤديه هذا اللفظ من معاني ، وهو
في ميدان علم الطبيعة أن لم يكن من طراز
المحدثين في الجيل الحاضر فإنه من غير شك
من طراز علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر ،
وبحوثه المبتكرة في علم الضوء تجعله في مقدمة
الأعلام الأفاضل في تاريخ هذا العلم ، ولكن
له غير ما أضافه على صفحات هذا العلم من
الصفحات المحيطة ، أثراً عاماً عميقاً ، جعل
علم الضوء ، يتخذ صبغة جديدة وينشأ نشأة
أخرى غير نشأته الأولى ، وهذا التأثير الذي
أحدثه ابن الهيثم في علم الضوء يتغلغل إلى
الأساس ذاته الذي يقوم عليه هذا العلم جدير
بالتقدير - ويقول: إن أثر ابن الهيثم في علم
الضوء نظيره في تاريخ العلم أثر نيوتن في علم
الميكانيكا ، ولا يضيره أن يقال إن بعض
بحوث ابن الهيثم قد سبقه إليها أوقليدس
في أحد شطري قانون الانعكاس ، وبطليموس
في دراسة الانعطاف ، وآخرون في بيان كيفية
الإحراق في المرايا المحرقة - ولكن كما
كانت أصول علم الميكانيكا مبعثرة قبل
نيوتن ، فأدرك حقائقها وأضاف إليها وربط
بينها حتى صارت على يديه وحدة شاملة هي
التي قام عليها علم الميكانيكا . وكذلك علم
الضوء ، أو كما كان يسمى علم المناظر ،
وأنه حتى الفكرة الأولية البسيطة من أن
للضوء وجوداً في ذاته ، لم تكن من الأمور

أو مقتضبا وأنه ليأمل أن يكون لهذه الدراسة بعض الأثر في تعديل الأوضاع التاريخية لبعض البحوث والكشوف العلمية الخاصة بعلم الضوء ، كما يأمل أن يكون من آثارها بعث ابن الهيثم بعثا جديدا في الكتب التي تؤلف لطلبة مدارسنا في هذا العلم ، وأن يستبدل اسمه بأسماء أمثال روجر باكون ومورلكيوس ودافنشي ودلابورتا وكيلر وغيرهم في مواضع كثيرة، ألفنا فيها رؤية هذه الأسماء ، كما يأمل لإصلاح كثير من الاصطلاحات والعبارات التي نستعملها الآن في علم الضوء، فيستبدل بها خيرا منها مما ورد في أقوال ابن الهيثم ويمتاز دقة ورصانة .

لقد وجد عالمنا في ابن الهيثم صورة من ذات نفسه فشغف به ، وأقبل عليه ، وبذل في دراسة أعماله جهدا رائعا ، ووضع مثالا يحتذى في دراسة تاريخ العلم ، وأقبل المستشرقون والمهتمون على دراسة كتاب عالمنا عن ابن الهيثم الذي يقع في جزأين تبلغ صفحاتهما نحو الألف عدا . وتتجلى فيها الأمانة العلمية والدقة الفائقة والصبر بغير حدود على القراءة والمقارنة والتحليل حتى يصل إلى الحقيقة ناصعة لا زيف فيها ، وجلى لنا وللعالم ابن الهيثم أبدع تجلية وأروعها ، ووضع في مكانه الصحيح بالنسبة لتاريخ العلم عامة وللبحوث والكشوف البصرية بصفة خاصة .

لقد خلص أستاذنا مصطفى نظيف من هذه الدراسة الممتعة بالنسبة لابن الهيثم ، إلى

بعمل أبعد غورا وأشد جهدا من المقدمة لها بمقدمة والتعليق عليها في الهوامش ، هي جديرة أن تدرس وتمحص مع شيء غير قليل من التلطف في تفهم معانيها ومقاصدها، فبعد الأمد بيننا وبين صاحبها يجعلنا اليوم لا نألف بسهولة بعض اصطلاحاته وعباراته، بل ولا ماهية ما كان يسود القول في عصره من الآراء والمذاهب العلمية، ثم يقول إن بحوث ابن الهيثم في موضوعات الضوء ، ما ورد فيها في المناظر وما ورد في المقالات الأخرى ، تبين أنها حقا جديرة بأن تدرس في آجلتها كوحدة ، دراسة يصحبها التحليل والموازنة ، فهي جميعا نتاج عقل واحد ، فقد توافرت فيه مميزات أولى التفكير العلمي الصحيح ، وهي من خير الأمثلة التي تدل على نضج الفكر وعمق النظر .

ويضع الأستاذ نظيف مثالا ينبغي أن يحتذى في هذه الدراسات ، حين يقول إنه لا يكفي فيها تحري الأمانة والصدق في مجرد عرضها على ما جاءت عليه في الواقع ، وإنما يجب تحري العدل والإنصاف اللذين يقضيان بالحرص على تعرف ظروفها ومعرفة ملاساتها ، ثم معايرتها بالمعيار الذي يلائمها ، حتى نتبين قيمتها الصحيحة وتحل في المكان الذي هي أهل له في تاريخ نشوء العلم وتطور الفكر .

ويضيف أنه يرى أن من المعلومات التي يتضمنها الكتاب ما كاد يطويه الدهر في ثنايا انسيان ومنها تفصيل مالا يزال العام به مجعلا

على التحقيق أن جل البحوث والكشوف الضوئية التي تنسب إلى علماء أوروبا حتى عصر النهضة قد وردت فيه ، وأن كثيرين من علماء أوروبا المشهورين في تلك العصور لم يسموا إلى مستوى الآراء والفكر الأساسية التي ذكرها ابن الهيثم ، وأنه كان للكتاب أثر عميق في توجيه دراسة علم الضوء إلى الوجهة الصحيحة ، ويقول إن مستواه العلمي بوجه عام قد سما سموا رفيعا فوق مستوى كثير من الكتب العلمية التي ألفها الغربيون في تلك العصور ، بما فيها مؤلفات كبلر في الضوء . وكذلك أثبت أن كتاب الذخيرة اللاتيني أنمسا هو ترجمة كتاب المناظر لابن الهيثم .

يقول وكأنا يصف نفسه ، وعظمة ابن الهيثم العلمية ، لم تشبها قط شائبة من الغرور أو يمسها ضعف من الخلق ، بل زادها متانة الخلق وجمال التواضع جلالا وبهاء . كان فاضل النفس ، وافر الزهد ، محبا للخير وفوق حبه عمل الخير لذاته ، وفوق زهده عن المال وترف العيش متواضعا ، مقدرا السابقين من العلماء حق التقدير ، يذكركمهم بالفضل والإحسان ، وينصفهم حقوقهم كاملة . وهو إن ابتكر فكرة جديدة أو تناول بحثا لم يسبقه إليه أحد ، قنع بالإشارة إلى ذلك بمثل قوله ولا نعرف أحدا من المتقدمين ولا المتأخرين بين هذا المعنى ولا وجدناه في شيء من الكتب ، ويروى عن القفطي : « سمعت أن ابن الهيثم كان ينسخ في

مثل ما خلاص إليه أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة من دراسة لأعمال الخوارزمي حين قال : « صحيح أنه كانت هناك معلومات مشتتة متناثرة في الحساب قبل الخوارزمي ، وكان حل بعض المعادلات الجبرية معروفا قبل الخوارزمي ، ولكننا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتب الخوارزمي وكان لا بد أن تنتقل هذه المعلومات المتناثرة المشتتة إلى عبقرى كالخوارزمي ، لكي ينسجها ويعلمها للناس أجمعين » . وها هو ذا مصطفى نظيف يدرس ويقارن ويحلل أعمال بطليموس وأوقياديس وغيرهما ممن سبقوا ابن الهيثم ، وينتهي إلى القول بأن ابن الهيثم قد وضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث ، وأنه أبطل علم المناظر الذي كان معروفا أيام هؤلاء وأولئك ووضع أسسا ونظريات وآراء جديدة لم يسبق إليها .

وقد بدأ عالمنا بدراسة كتاب « فيثا » في البصريات الذي نشر في القرن الثالث عشر الذي قال إنه وضعه على أساس كتاب بطليموس القلوذي وآخر لعالم عربي عرف باسم الهازن . ونشر « رزير » سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية للكتاب العربي بعنوان « الذخيرة في الأوبطيق للهازن » فتبين أن جل ما ورد في كتاب « فيثا » قد نقل من الكتاب العربي ، وقد قال دلابورتا بعد ذلك « لقد أخطأ فيثا » فيما نقله عن الهازن وكان كالقرد المقلد . ولبت هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجع أهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى . يقول مصطفى نظيف وقد تبين لي

له ، عاد إلى القاهرة وهو في أشد حالات
الحجل واعتذر للحاكم .

ولا مرأى في أن مصطفى نظيف قد أضاف
إلى معارفنا بتصحيحه لتاريخنا العلمى ، حين
قال بسبق ابن الهيثم لباكون في ابتداء الطريقة
العلمية والأخذ بأسبابها ، فيقول إن هذه
الطريقة التى تعد من مبتكرات العصر الحديث
هى الطريقة التى لا ترد في أن نقول إن ابن
الهيثم اتبعها في بحوثه وكشفه الضوئية وهذه
ناحية من نواحي ابن الهيثم لم يتناول بيانها على
ما نعلم أحد ، وهى جديرة بالإشارة والتقدير
فابن الهيثم أخذ في بحوثه بالاستقراء . وأخذ
بالقياس . ونفى بالتمثيل ، وأخذ بهذه
العناصر على المنوال المتبع في البحوث الحديثة
وهو في ذلك لم يسبق فرانسيس باكون فحسب
بل سما عليه سموا . وكان أوسع أفقا وأعمق
منه تفكيراً .

لقد عرض عالمنا لنظريات الإبصار في
الفلسفة اليونانية من فيثاغورس إلى أمبدقايس
ومن أفلاطون إلى أرسطو وأبيقور ثم
العمير الاسكندري من أوقليدس وبطليموس
إلى هيرون وناون ؛ كما عرض آراء
الإسلاميين المتقدمين عن ابن الهيثم من أمثال
الكندى وقسطا ابن لوقا والرازى ، ويقول
ليس من المعروف الآن أن أحدا من
الإسلاميين المتقدمين على ابن الهيثم قد أضاف
إلى علم الضوء شيئا جديدا ذا قيمة ولم يكن
معروفا من قبل . فهم لاشك قد أصلحوا
الكتب التى نقلت عن اليونانية وشرحوا

مدة سنة ، ثلاثة كتب ضمن أشغاله ، وهى
أوقليدس والمتوسطات والمجسطى ، فيستكملها
في مدة السنة ، فإذا شرع في نسخها جاءه
من يعطيه فيها خمسين ومائة دينار مصرى ،
وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه إلى
مواكسة ولا معاودة فيجعلها مؤونة لسنته .

وهو يدافع عن الحاكم بأمر الله أبليغ دفاع
بمناسبة قصته مع ابن الهيثم ، فقد صور له
المؤرخون بأنه كان شاذا غامضا ، فيقول كان
به ميل إلى الحكمة والفلسفة وكانت له رغبة
في تشجيع العلم والعلماء . أوى كثيرا من
أطباء عصره ، وأسس في القاهرة دار الحكمة
وأشأ في المتظم مرصدا جعل فيه ابن يونس
المصرى ، وأنه عندما بلغه قول ابن الهيثم :
« لو كنت بمصر لعمات بزيانها عملا يحصل
به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة
ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع
عال وهو في طرف الإقليم المصرى » . فاشتاق
الحاكم إلى رؤيته ، ولعله أراد أن يستفيد به
فيما قال في أمر النيل ، ولعله أراد أيضا أن
يأويه إليه ويشمله بعطفه لكى يستأثر بفخر
استظلاله برعايته وانتسابه إليه ، فأرسل إليه
مرغبا إياه في الحضور إلى مصر ، وخرج الحاكم
نفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة ، وأكرم
وفادته ، وأمر باكرام مثواه ، وأنه لما رحل على
رأس بعثة هندسية بأدق المعانى الحديثة لهذه
العبرة ، تتبع مجرى النيل من القاهرة إلى
جنوبي أسوان يدرسه ويعاينه ، وأنه لما لم
يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسية التى خطرت

وهي تتلخص في أن الإبصار يكون بأشعاع \bar{E} أو بحزمة من الأشعة على حسب التعبير الحديث ، تخرج من البصر إلى المبصر وخلاصة رأيه أن هذا الشعاع الذي يخرج من البصر إما أن يكون عاديا أو على حسب تعبيره جسما أولا ، فإن كان جسما ، فنحن إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب ، فقد خرج من البصر جسم ملاء ما بين السماء والأرض ولم ينقص من البصر شيء ، وهذا كما يقول : « محال في غاية الاستحالة وفي غاية الشناعة » وإن لم يكن جسما فهو لا يحس هو نفسه بالمبصر « لأن الإحساس ليس هو إلا للأجسام ذات الحياة ، والإبصار بالبصر لا به . فهو إنما يؤدي شيئا من المبصر إلى البصر ، وليس هذا الذي يقال إنه يخرج من البصر شيئا محسوسا وإنما هو مظنون » . وعارض أصحاب الشعاع ومن قال بنظرية الورود ، وكان رأيهم غامضا لا يغني شيئا في بيان كيفية ورود صورة المبصر إلى البصر ، فكان ابن الهيثم أول من ذهب في أن للضوء حقيقة ووجودا ذاتيا ، وكان رأيه كفيلا بسد أكبر ثغرة في النظرية وإزالة أخطر دواعي الخلل فيها .

لقد وجد عالمنا في ابن الهيثم صورة مطابقة لنفسه كما ذكرنا ، فعكف على دراسة أعماله في صبر ومصابرة ، أعجب بعبوفه عن الصغائر وزهده في الترف والمسال والسلطان وانكبابه المنقطع النظير على العمل ، فراح يترجم له وينقب عن مخطوطاته وكشوفه ، يحلوها على الناس ، ويعرفنا بهذا التراث

غوامضها وصححوا أغلاط براهينها الهندسية ، ولكن ظل علم الضوء عند المستوى الذي وصل إليه وبقي كذلك حتى تناول ابن الهيثم دراسته ثم عرض آراء ابن الهيثم في الضوء وقارنه بالآراء السائدة في عصره ، شرح آراءه في الأضواء الذاتية والعرضية والمنعكسة والفجر والشفق ونقده لرأي أصحاب الشعاع وألوان الأجسام الكثيفة والأجسام المضيئة بذواتها والتفازيح ، وأن انتقال الضوء لا يكون إلا في زمان معارضا السرعة الآتية للضوء التي قال بها ابن سينا ، وتجاربه لإثبات سرعة الضوء والناحية الميكانيكية من نظرية ابن الهيثم في الانعكاس والانعطاف والهالة وقوس قزح والكسوف وما إلى ذلك ، كل ذلك عرضه فقيدنا العظيم في أسلوب أنخاذ ، في عمق ورصانة وأصالة ، في وضوح وجلال ، في دقة وأمانة .

ولا يستطيع أن يقدر الجهد الذي بذله عالمنا العظيم في قراءة هذه المخطوطات وتلك المراجع إلا من كابد هذا العمل نفسه ، وما أظنه ببالح بعض ما بلغ فقيدنا عن دراسة لأعمال ابن الهيثم ، فهو يعرض آراء أصحاب التعاليم والفلاسفة الطبيعيين والأبيقوريين والأفلاطونيين والفلاسفة الإسلاميين ويناقشها مناقشة موضوعية ، ثم يثبت في وضوح أن نظرية ابن الهيثم في الضوء ، جديدة ، مخالفة لآراء هؤلاء جميعا ، ويقول : إن أعظم آثار ابن الهيثم في الضوء أنه أبطل نظرية قديمة كانت شائعة توارثتها الأجيال من عصر اليونان إلى عصره في كيفية حدوث الإبصار

العلمية ، وأن أمتنا ذات أصالة في العلوم الطبيعية اعترف بها المنصفون من مؤرخي العلم من الغربيين ، على حين يجهلها شبابنا ، ويظنون أنها مستوردة من الخارج ، ومن أسف أن تعثر لإنشاء هذا الكرسي ، بحجة أى الأقسام يتبع ، ثم تبودلت المذكرات والتوصيات بإنشائه بين الجامعات وجامعة الدول العربية ، ثم اكتفى بتدريس مقدمة في تاريخ العلم في بعض الكليات لبضع سنين ثم ألغيت إلغاء باعتبارها إحدى المواد القومية التي تقرر إلغاؤها . أليس من الواجب وفاء لراحلتنا العمل على إنشاء قسم لتاريخ العلم أسوة بكثير من الجامعات الأوروبية خاصة وأنها لا تعطى العناية الكافية للعصر العربي الاسلامي ، وان اعترفت بفضله على العلوم الطبيعية. إنى أقدم هذا الاقتراح إلى المسؤولين وهو إنشاء كرسي مصطفى نظيف لتاريخ العلم في إحدى الجامعات المصرية ولتكن جامعة عين شمس التي عمل وكيلا ومديرا لها وأستاذا بكلية العلوم بها أو في جامعة القاهرة التي عمل أستاذا بها نحو عشرين عاما .

ويعتبر تأريخه لعلم الطبيعة أو الفيزيكا كما كان يجب أن يسميه أخيرا في كتابه الذي نشره سنة سبع وعشرين، ويقع في نحو أربعائة وخمسين صفحة يعتبر مثالا يحتذى ، فهو يقول: إن الإحاطة بكيفية نشوء العلم ومعرفة الأدوار المختلفة التي مرت بها نظرياته ، والوقوف على مواضع الضعف

العلمي العربي المجيد ، وأنه ليروى قصة ابن الهيثم مع الأمير الذي دفع له أجر تعليمه فردها قائلا خذ أموالك بأسرها ، فأنت أحوج اليها مني عند عودتك إلى ملكك ومسقط رأسك ، واعلم أنه لا أجر ولا رشوة ولا هدية في نشر العلم وإقامة الخير . كما يروى في اعتراف قوله، يكفيني قوت يوم فما زاد على ذلك إن أمسكته كنت خازنك، وأن أنفقته كنت قهر ما نك ، فاذا اشتغلت بهذين فن يشتغل بعلمي وأمرى، كما يروى قول سارتون عن ابن الهيثم : إنه أكبر عالم طبيعي مسلم في جميع العصور والأزمان .

وفي الحق أن جهود عالمنا في التعريف بالتراث العلمي العربي ، بإنشاء الجمعية المصرية لتاريخ العلم ورياسته لما طيلة حياته وإشرافه على إصدار ستة أعداد من مجلة هذه الجمعية ، وإنشائه للمحاضرات التذكارية لابن الهيثم التي ألقى أثناء عمله في كلية الهندسة ، وتضمنها عدد خاص من مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم والمقالات العديدة التي نشرها في رسالة العلم في موضوعات تتصل بتاريخ العلم عند العرب ، والمحاضرات التي ألقاها في العيد الألفى لابن سينا والعيد الألفى لابن الهيثم وفي المؤتمرات العلمية، وأنه لخليق بنا اعترافا بفضله عالمنا ، أن ننشيء كرسيًا باسمه لتاريخ العلم في كل جامعاتنا، وهو الكرسي الذي سعى لإنشائه منذ مدة طويلة، وذلك تخليدا لذكراه فقد كان يأمل رحمت الله عليه أن يعرف شبابنا أمجادنا

البحث في تاريخ علم الطبيعة منذ أول نشأته في العصور القديمة وتدرج بها إلى أحدث الآراء والنظريات في هذا العصر .

وأنه لتتبع نشأة العلم في المدينيات القديمة والفلسفة اليونانية وعلاقتها بالعلم ونشوء فكرة العناصر وبقاء المادة في الفلسفة اليونانية ثم التعاليم الرياضية والفلكية في فلسفة فيثاغورس وعند أرسطو ونظريته في حركة الأجسام ، ثم ينتقل إلى الحركة العلمية القديمة وتأسيس علم الهندسة عند أوكليدس وأرشميدس وبحوثه ، ويعرض للمخترعات العلمية في العصر الاسكندري ، ثم ينتقل إلى النهضة العلمية في دولة الإسلام وعن تقدم علم الفلك عند العلماء العرب وفلاسفتهم في علم الطبيعة ثم في الميكانيكا ، ويعرض لكتاب ميزان الحكمة والبحوث الميكانيكية التي وردت فيه ثم منجزاتهم في علم الصوت ومبلغ تقدم علوم الحرارة والمغناطيسية والضوء عند العرب .

ويمضي عالمنا الفذ في تتبع نمو علم الطبيعة في عصر النهضة الأوروبية ، بادئا بأعمال كوبرنيك وكيلر وجاليليو ، ثم هيجنز ونيوتن وكافندش وغيرهم ودورهم في تكون علوم الميكانيكا والأيدروستاتيك ثم تورشيلي وباسكال وبويل ثم هولم هولتز ورالي وجاي لوساك ومكسويل وفراداي وآثارهم في علوم الحرارة والصوت والضوء وهكذا إلى أن يصل إلى أحدث البحوث في نظرية الكم

في النظرية الواحدة ، وكيف أدى البحث في إصلاحها إلى الخروج بها من حال إلى حال ، كل ذلك أدعى إلى حسن تصور الآراء والنظريات المختلفة وإلى معرفة قيمتها النسبية وتقديرها تقديرا صحيحا ، كما أن تتبع كيفية نمو العلم وتدرجه ومعرفة ما قام به العلماء من الأعمال التي أحدثت هذا النمو والتدرج ، يوضح بجلاء أن العلم كالكائن الحي ، قابل للنمو والرقى ، ويبعث في نفس القارئ حب الاقتداء بمشهورى العلماء الذين لهم الفخار في رفع منار العلم .

ويقول إن من أكبر ما يشوق المبتدئين في دراسة العلم أن تذكر لهم الحقائق العلمية منسوبة إلى كاشفيها ، ويمزج بذكرها ما يجعل شخصيات هؤلاء الكاشفين مألوفة لديهم ، وأن العناية إلى حد ما بالخطوات المتتابعة التي أدت إلى الكشف عن هذه الحقائق يساعدهم في فهمها ، ويذكر فيهم حب البحث في الموضوعات العلمية ، ويحملهم على الاهتمام بمزاوتها ودراستها .

ويضيف أن الغرض الذي يقصده من الكتاب الإحاطة بأوليات تاريخ علم الطبيعة وسد الحاجة إلى كتاب يقف منه الدارسون على الكشوف الحديثة وما أدت إليه من الآراء والنظريات ، ويقول إن الكتب العربية التي تبحث في تاريخ علم الطبيعة معدومة بتاتا ، وهي باللغات الأوروبية نادرة جدا ، ولا يكاد يجد القارئ كتابا تناول

والنظرية النسبية لأينشتين وطومسون
ورذرفورد والنظرية الإلكترونية - كل ذلك
في أسلوب سهل جذاب ، إنه الوضوح بعينه ،
هو السهل الممتنع .

أما كتابه البصريات الهندسية والطبيعية
الذي نشره سنة ثلاثين ، ويقع في أكثر من
سبعمئة وخمسين صفحة من القطع الكبير ،
فإنه هو الآخر فريد في بابه ، متألق في أسلوبه
ودقته ، وأنه ليتدرج كذلك من مبادئه
الأولية إلى المستوى المعتاد لدراسة هذا العلم
في الجامعات ، ويقول إنه يبدأ بهذه الدراسة
المستفيضة لعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة
الأخرى ، لأنه الفرع الذي نمسا وازدهر في
عصر التمدن الإسلامي ، وكان من أعظم
مؤسسيه شأنا ورفعة وأثرا ، الحسن بن الهيثم ،
الذي كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد
عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ،
ويقول إنه لمن المعرة ألا يجد الباحث كتابا
عربيا يرتفع فوق مستوى المبادئ الأولية التي
يدرسها طلبة المدارس الثانوية في علم كانت
اللغة العربية لغته حتى عصر النهضة في أوروبا .

وقد عالج في هذا الكتاب موضوعات
الانعكاس والانكسار ، وما يرتبط بها من
المسائل الخاصة بالعدسات وتركيبها وما إليها
بالبراهين الهندسية ، على اعتبار أن شعاع
الضوء في الوسط المتجانس الأجزاء المتشابهة
الخواص في جميع الاتجاهات ، خط مستقيم ،
وأنه ينقاد عند الانعكاس والانكسار إلى
القوانين الأربعة المعروفة ، ويتكون من هذا

الشرط الأول من الكتاب المقصود بالبصريات
الهندسية ، وأما شرط البصريات الطبيعية فهو
الذي يدور البحث فيه حول موضوع ماهية
الضوء وما يتفرع منه أو يرتبط به من
الموضوعات ، ثم عرض للحركة الاهتزازية
والحركة الموجية والنظرية الموجية ثم يصف
العين وآلات الإبصار المألوفة والتشتت
والألوان وتعين الأبعاد البؤرية للمرايا الكرية
والزيج الكرى والزيج اللوني وقوس قزح
وسرعة الضوء ، والمبادئ الأساسية في
النظرية الموجية ثم التداخل والحيود ،
والاستقطاب والتحليل الطيفي وقوانين
الإشعاع كل ذلك وغير ذلك مما
لا يتسع المقام لذكره والإفاضة فيه ، في لغة
سهلة جذابة ، وفي أسلوب عربي سليم ، مع
العناية بترجمة وتعريب المصطلحات العلمية .

وكم حدثني رحمت الله عليه في أمله في أن
يعيد طبع هذه الكتب ، ليضيف إليها
ما استحدث في العلم من آراء ونظريات
وتجارب ، وأنا أعلم أن لديه ما كتبه بخطه
في هذه الموضوعات التي كان يود أن
يضيفها ، وكم تمنيت عليه أن يملأ على ما يشاء
من هذه الموضوعات ومن غيرها في تاريخ
العلم ، حتى تنشر ويعمم نفعها للقارئ
والدارسين .

ولا مرأ في أن الأستاذ مصطفى نظيف
شيخ علماء الطبيعة في مصر بل وفي العالم العربي ،
وأنه لرائد من رواد النهضة العلمية العربية في
العصر الحديث ، وقد اختير عضواً بمجمع

إلى أن طلب إعفائه في أكتوبر سنة ست وخمسين ، فعين عضواً بمجلس الجامعة وأستاذاً غير متفرغ للطبيعة بكلية العلوم ، ثم استقال من عمله في يونيه سنة ثمان وخمسين .

وقد كان عالمنا قطب الرchy في كثير من الجمعيات والهيئات العلمية ، فهو إلى جانب عضويته بمجمع اللغة العربية ، ومجلس جامعة عين شمس ، عضو مراسل بالمجمع العلمي العراقي ، وعضو بالمجمع العلمي المصري ، ورئيس سابق له ، وعضو بالأكاديمية المصرية للعلوم ورئيس سابق لها ورئيس الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، ورئيس الاتحاد العلمي المصري ، ورئيس الاتحاد العلمي العربي ، والشعبة القومية للاتحاد الدولي لعلوم الطبيعة ، وكان عضواً بالمجلس الأعلى للعلوم طيلة مدة قيام هذا المجلس ، وعضواً بلجنة الطاقة الذرية وأول نقيب للمهن العلمية ، وأول من حصل على الجائزة التقديرية في العلوم .

وكذلك كان الأستاذ نظيف منذ أول عهده من الداعين لتأصيل العلم في البيئة العربية وإلى تدريس العلوم في الجامعات باللغة العربية ، وبذل ما استطاع من جهد في سبيل ذلك سواء كان بوضع الاصطلاحات أو بالتأليف أو بالقيام بتدريس المقررات المتقدمة في علم الطبيعة باللغة العربية ، كما عني بالتعريف بأهمية العلم وعلاقته بالمجتمع والتعريف بأهمية تاريخ العلم وبمآثر العرب

اللغة العربية سنة ست وأربعين ، ومنح جائزة الدولة في الطبيعة سنة سبع وأربعين ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ثمان وخمسين ، ووسام الجمهورية سنة خمس وخمسين ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة تسع وخمسين .

وقد ولد عالمنا بمدينة الاسكندرية في الثاني عشر من يناير سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف . وأوفد في بعثة إلى إنجلترا بعد حصوله على الشهادة الثانوية وكان من الخمسة الأوائل فالتحق بجامعة برستول حيث تخصص في الطبيعة مادة أساسية والرياضيات مواد ثانوية ، ولما عاد من بعثته سنة أربع عشرة عين بالتعليم الثانوى ثم نقل في سنة ١٩٢٠ مدرساً لعلم الطبيعة بمدرسة المعلمين العليا حتى سنة ١٩٣٠ ، ثم عمل مفتشاً بوزارة المعارف وناظراً لمدرسة الفنون والصنائع ، ثم اختير أستاذاً مساعداً للطبيعة بمدرسة الهندسة التي صارت بعد ذلك كلية الهندسة بجامعة القاهرة

وفي سنة ١٩٣٤ رشح ليشغل وظيفة الأستاذية بدلا من الأستاذ الأجنبي ، ولكن حال نقله ناظراً لمدرسة أسيوط الثانوية دون تعيينه في ذلك الوقت ، ثم أعيد الى وظيفته بمدرسة الهندسة ، ولما ضمت المدرسة إلى الجامعة متحولة الى كلية الهندسة ، عين أستاذاً للطبيعة ورئيساً للقسم ، إلى أن اختير وكيلاً بجامعة عين شمس سنة خمسين ، وعين مديراً للجامعة سنة أربع وخمسين وظل يشغل المنصب

كما شارك في مراجعة معجم المصطلحات العلمية والفنية التي أصدرته القوات المسلحة مهندسين .

ومن دراساته التي عرضت على مؤتمرات المجمع ، بحث عن نقل العلوم إلى اللغة العربية وثان عن العلم التعليمي في الاصطلاح القديم وآخر عن العلم ودلالة اللفظ في اصطلاح الفلاسفة الإسلاميين وأقسام العلم عندهم .

أيها السادة

قلت في صدر هذا الحديث إنني أشفقت على نفسي من القصور عن الوفاء بحق فقيدنا العظيم ، وما أنذا أعتذر إليكم عن هذا القصور ، آملا أن تغفروا لي ذلك ، أسأل الله العليّ القدير أن يتغمّد فقيدنا العظيم بواسع رحمته وأن يسكنه فسيح جناته ، وأن ينزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً ، والسلام .

في العلوم وذلك في محاضرات ودراسات ألفت ونشرت في مناسبات مختلفة ، وقد بلغ نشاطه الإنتاجي الذروة فيما بين منتصف العشرينيات ، حتى منتصف الأربعينيات بإنتاجه ما قدمنا من كتب في علم الطبيعة وفي البصريات وفي دراسته للحسن بن الهيثم ، ثم في بحوث ومحاضرات ودراسات ألفت في محاضرات عامة أو نشرت مقالات في مجلات علمية ، ثم شغل بالمؤتمرات العلمية والاتحاد العلمي والأكاديمية والعجان العلمية والجمعيات المختلفة .

وقد أسهم الأستاذ نظيف في أعمال لجان مجمع اللغة العربية ، ولكنه ركز جهوده بصفة خاصة في لجنة العلوم الرياضية والهندسية والطبيعة وعلم النفس ، وشارك في وضع مصطلحات الرياضة والطبيعة التي أقرت في مؤتمرات المجمع منذ اختياره عضواً فيه

• قصيدة الأستاذ عزيز أباطة :

جزع الشعر على العلم فسلا
فاعلا يلقي ولا يلقي فعولا
عرف الناس لعمرى مصطفى
راهباً في معهد العلم بتولا
غارقاً في بحثه ملتصقاً
لأحاجي الكون بالدرس حلولا

أنبتت مصر العماليق الفحولاً
فهووا عن أفقها إلا قليلاً
أفدح الأرزاء ما مسّ الأولى
إن تولّوا ، لم تجد عنهم بديلاً
ومصاب العلم في أعلامه
يجعل القول وإن صبح عليلاً

واهباً للعلم نفساً حرة
 تبذل الجهد وتبني أن تقولوا
 واجداً في بحثه لذته
 خلق الناس طباعاً وميولاً
 صامتا يسمع في مجمعه
 فإذا قال فتصويباً جليلاً
 يرسل القول وجيزاً محكماً
 إن في إيجازه سبحاً طويلاً
 لم يكن من معشر إن عملوا
 قرعوا الأجراس أو دقوا الطبولا
 واسع الصدر إذا حاجيته
 وحياً حين تطريه خجولاً
 وجد الهيثم ذهنًا صافياً
 كشف الأستار عنه والسدولا
 ليت شعري كم لنا من هيثم
 بين عينيه وبين النور حيلاً
 أمها الباحث عن تاريخنا
 إن في تاريخنا مجداً أثيلاً
 أنت ما قلبت فيه واجد
 حكمة توثر أو فنا أصيلاً
 إن في قرطبة علماً عفا
 ومنارات له أمست طولاً

إن في بغداد إشراقاً خيلاً
 فاسألن دجلة عنه والمغولا
 أمة أمية كم نشطت
 تبعث العلم فروعاً وأصولاً
 سائل الصحرَاء كم قاع غدا
 للحضارات مقراً ومقيلاً
 أسرج الجنو أناس أخذوا
 عن أناس أسرجوا فيها الخيولاً
 كان للعرب . فهل جد لهم
 أثر في كل فن لن يزولا
 ما لنا هنا وكنا قممنا
 فارعات . حسبنا الله وكيلاً
 هذه الدنيا وقد مالت بنا
 في سرها دفعتنا أن نميلاً
 كل عام تنتهيننا نوب
 في زميل راحل يقفو زميلاً
 ليت شعري من من الصحب إذا
 أطبق الحين وأزمنت الرحيلاً
 قسائم بينكمو يذكرني
 حامل في يومه عبداً ثقيلاً
 لن يرى إلا حياة جديبت
 ليس فضلاً ما احتوت لكن فضولاً

إن تكن طالت فما أبأسها
أن تضم العُقم موصولا طويلا

كملايين الوري ؛ قد طالعت
أول السبل ولم تسطع وصولا

آه لو عاد بى العمر إلى
باكري منه ، لغيرت الدليلا

وقصدت الطود لم أبذل به
مُضْباً طفت عليها وتلولا

وصبرت الطبع عن أوائه
وحبست السمع عن قال وقيل

ومضيتُ النفس من ضغن وإن
سامنى الناس من السوء شكولا

وتكرمتُ فلم أدلف إلى
درَج خُضت إليهن الوحولا

وتحنّفت فكان الطهر لى
والهدى زادا ونقلا وشمولا

وترفعت فلم أجعل لـ
أبتغيه غير ذى العرش مسولا

أمنيات كم تمنّاها الأولى
أخطأوا فانفرطوا عنها فلولا

أيها الإنسان لم تؤت من الـ
علم فى أطرافه إلا قليلا

هيك طالعت السها فى أوجها
وتطوّلت صعودا ونزولا

هل تسوم العمر يجرى القهقري ؟
هل ترد الموت بالحى نزيلا !

هل تنقى النفس مما ضمنت
هل تزيل الحقد عنها والغليلا !

هل تقيم العدل فى الدنيا فلا
يلبث الباطل فيها أن يزولا !

هل تقى الضعفى من الأقوى إذا
ضرب الخسف عليهم والكُبولا

أيها الإنسان مازلت وإن
جبت أقطار السماوات ضئلا

فاعتصم بالله واخشع ؛ إنه
إن يشأ يسر هذا المستحيلا

وخف الله وسله واقتسرب
وتطهر يعطك الله جزىلا

صحب الدنيا أناس لم يكن
أمرهم إلا قدوما ورحيلا

لم يعيش يوما وإن عمّر من
لم يزد عيشه إلا خمولا

إنمسا الدنيا كتاب جامع
خالد . من زاد فى المتن فصولا ؟!

لا لعمري ما توارى عالم
طَبَّقَ الأرض اسمه عرضاً وطولاً
من يكن بالعلم غَدَى معهداً
فنظيف وحده علَّم جَيْلاً
يا نظيف العرض والنفس لقد
حمد الشرق لك الجهد الجليل
إن من أجلاك عنا بغتة
قادر أن يَهَبَ الصبر الجميل
إن يُثَمَّما فقد أمُّ أو أب
أو إذا سَجَّيت خِلاً وزمَيْلاً
رَبِّ هذا عبدك اعتزَّتْ به
أمم طَبَّقَها علما أَصَيْلاً
وهفا يصقل فيها جهده
وهو ريان قبيل فقبيل
فاسكب الفضل عليه غَدَقاً
إنك الرحمن ، واقبله قبولاً

• • كلمة أسرة الفقيد للأستاذ كمال نظيف :

سيدى الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين
رئيس المجمع
السيد الأستاذ الوزير بدر الدين أبو غازى
السادة العلماء أعضاء المجمع
حضرات السيدات والسادة
السلام عليكم ورحمة الله .
لقد استمعت اليوم إلى كلمتين . . . كان
لهما أثر كبير فى نفسى .. كلمة الأستاذ الدكتور
عبد الحليم منتصر وكلمة الأستاذ الشاعر
عزيز أباظة ، كان حزنى بالغاً وأليماً فرأيت
أنكما مثلى أول من أحس فداحة المصائب ،
وكان اشتياقى إليه وإلى ذكره شديداً فكنتما
خير من يذكرنى به .
أيها السادة :
إن مشاركتكم الصادقة لى هونت على
وخففت من حزنى لفراقه رحمه الله . وكان
عزائى أنه ترك لى ولأمثالى من الأعمال
والمبادئ ما ينير لنا الطريق وما نسير على
هداه . وأدعو الله أن يوفقنى فى أن أحذو
حذوه فى أفعاله وفى جده وفى حسن بصيرته .
لقد كان رحمه الله يحل اللغة ويحترمها حتى
فى مكاتباته وخطاباته العادية ، كما كان يحل
النهضة العربية القديمة ويغار عليها فى العلم
والأدب . كان دائماً الاتصال بكم أهل
العلم والأدب من مصر و الأقطار الشقيقة .
وأذكر على سبيل المثال الفقيد المرحوم
الدكتور قدرى طوقان الذى لى نداء ربه

وإلى كل من تفضل بمشاركتي الحزن والأسى
لفراقه ، بخالص شكرى وتقديرى .

وإني أجد نفسى مهما أوتيت من قدر
وبلاغة عاجزا عن أن أوفيكم قدركم من
تقدير وشكر . جزاكم الله خيرا ، ورحم الله
الفقيد وأسكنه فسيح جناته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بعده بوقت قصير . فكأنه كان على موعد
معه فى السماء .

إن تأبينكم اليوم لوالدى لعمل جليل .
وبرهان بين واضح على صدق مشاعركم
الطيبة ، إنه تكريم لذكراه ولأسرته
ولأصدقائه ولرفاقه الأخيار . لذلك أرجو
أن تسمحوا لى بالتقدم إلى حضراتكم جميعا

• • كلمة ختام الجلسة للدكتور طه حسين :

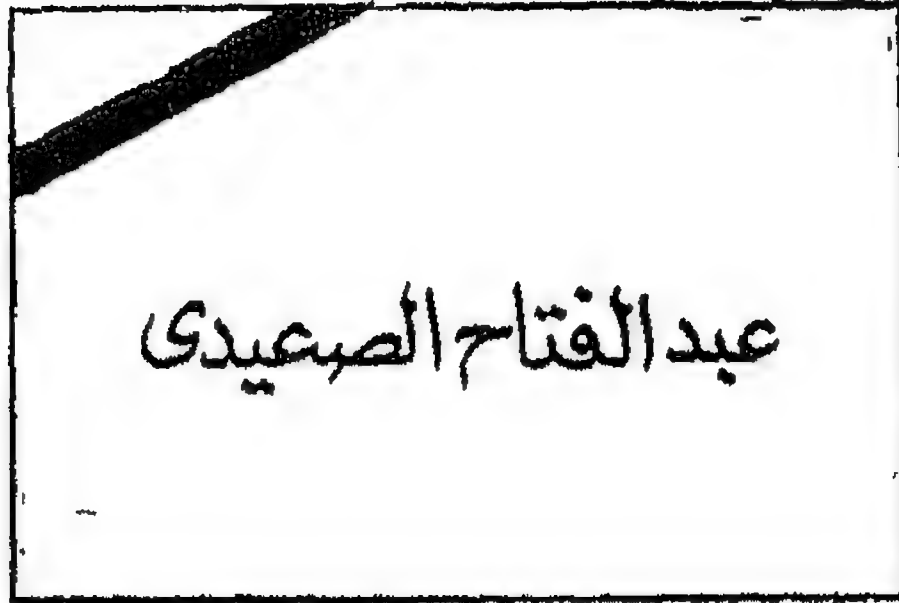
له ، وفخراً به ، وحبا كأعمق ما يكون
الحب .

وإني أشكر الخطباء أجزل الشكر ،
وأرجو لأسرة الفقيد العظيم ولنا العزاء ،
والصبر الجميل .

أما الآن وقد استمعنا لما ألقى من أحاديث
تزيد حزننا وأسانا على فقيدنا العظيم ، فإننى
أؤكد لكم أنه مهما قيل عنه فلن يؤدّى
حقه كما ينبغى أن يؤدّى ، وأؤكد لكم أنى
كنت - وما زلت - من أشد الناس إجلالا

أقام المجمع في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ٨ من ربيع
الأول سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٣ من مايو سنة ١٩٧١ م حفل تأبين لفقيده
المغفور له الأستاذ عبد الفتاح الصعیدی ، الذي استأثرت به رحمة الله
في ١٩٧١/٣/٨ . وفيما يلي ما ألقى في الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكي المهندس في تأبين المرحوم الأستاذ :



نحيها اليوم . فللحياة الحضارية ضحايا ،
ولن يكون فقيدنا أول ضحية لها ، ولن
يكون آخر ضحاياها .

إن حوادث الطريق هي إحدى ظواهر
هذه الحياة الحضارية ، وهذه الحياة ظواهر
أخرى فاجعة .

إن الأزمات القلبية والذبح الصدرية
والضغط العالي والواطي وحوادث الطريق
كلها ظواهر لتلك الحياة التي نحيها اليوم .
رحم الله الفقيد ، وأسكنه فسيح جناته .

يعز علي المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين
الزميل الكريم المغفور له الأستاذ عبد الفتاح
الصعیدی . ولقد كانت وفاته الفجائية فاجعة
هزت أعصابنا جميعا ، وملأت قلوبنا حزنا
وأسى ، وقد زاد في ألمنا أن الفقيد كان في
طريقه إلينا لحضور حفل تأبين المغفور له
الأستاذ مصطفى نظيف .

لقد خرج من بيته سليما معافى وهو لا يدري
أن المنية كانت له بالمرصاد . وقد كان الفقيد
ضحية من ضحايا الحياة الحضارية التي

• • كلمة الأستاذ عبد الحميد حسن :

وليس لنا إزاء ما قدره الله إلا الرضا والتسليم.
جرت عادة الدنيا بكل الذى نرى
وليس لها صرف لما تتعبد
فصبرا وتسليما لكل ملمة
إذا لم يكن يوما عن الخطب مبعده
نعم هذه هى طبيعة الحياة وسنة الله فى
خلقه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شىء
وإليه يرجع الأمر كله ، « تبارك الذى بيده
الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق
الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملا وهو
العزیز الغفور » .

حقا ، خلق الله الموت ليكون للناس
واعظا ورادعا وحافزا ، وخلق الحياة وحدد
لكل إنسان عمرا محتوما وأجلا معلوما ،
وأخفى مواعده لكى يتسع الأمل ، وينفسح
مجال العمل ، والعمل الصالح هو رصيد
الحياة ، وضريبة الصحة ، والعنصر الأساسى
لبقاء المجتمع الإنسانى ، والعامل الأول فى
عمران الكون ، وقد جعل الله العمل وثيقة
ينال بها الإنسان النعيم المقيم والحياة الطيبة
الحالدة . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات

نجتمع اليوم لنلقى نظرة مقرونة بالأسى
على ما وعته الذاكرة ، وما انضمت عليه
الجوانح ، من جليل الشمائل وحيد المآثر لازميل
الكريم والصدیق الحميم الأستاذ عبد الفتاح
الصعيدى عضو مجمع اللغة العربية ، الذى
اختطفته حوادث الزمن وشروخ الطريق
وهو أقوى ما يكون صحة ، وأعظم ما يكون
أملا فى متابعة جهوده اللغوية ، وأكثر
اهتماما بالمشاركة فى الأعمال التى رسم مجمع
اللغة العربية خططها لتطوير اللغة العربية
والهوض بها إلى المستوى اللائق بماضيها
الحيد .

ولقد كنا نأنس إليه فى لقاءاتنا فى
المجمع ، ونرى فى قلبه الرحيم عطفًا عميقًا ومودة
صافية ، ونلمح فى بحايه التواضع وحب الخير
ونحمد له بالتقدير دأبه المتواصل على البحث
والتنقيب فى شتى نواحي اللغة العربية ، ودلالات
مفرداتها ، وما ينطوى عليه كل ذلك من سعيا
ووفائها بمطالب التقدم العلمى والفنى . لقد
اختطفته يد الموت وما كان فى مقدور أحد
أن يرد عنه عاديات الدهر ، أو أن يدفع ما كتب
له فى الأزل . فهذا قضاء الله ولا راد لقضائه

يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار
في جنات النعيم» (يونس ٩) .

ولقد كان الفقيه الكريم من خير العاملين
المخلصين في جميع مازاوله من أعمال في التعلم
والتعليم وما تقلد من مناصب .

ولد رحمه الله بسمنود في محافظة الغربية
في ٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٩٢ ، ودخل كتاب
الأربعين ، وتعلم ما كان يدرس في هذه
الكتاتيب وهو حفظ القرآن الكريم ومبادئ
الدين وشئ من الحساب وقواعد الكتابة
والخط . وجوّد القرآن بمسجد « العدوى »
على إمام القراءات بالجهة وهو الشيخ عزب
جاني ، ثم طلب العلم بمسجد « سيدى سلامة »
على الشيخ مصطفى البكرى .

ثم غادر سمنود إلى المنصورة فالتحق
بمدرسة المعلمين وقضى بها سنتين ، ثم دخل
بعد ذلك « دار العلوم » وتخرج سنة ١٩٢٠ .
وبذلك يكون الراحل الكريم قد أتم
مرحلة الإعداد العلمي والثقافي ، وهى
مرحلة لها أبعادها وعمقها في مجال اللغة العربية
والدين .

وتجزأ بعد ذلك مرحلة العمل والاستثمار
وجنى الثمار . ويبدوها المرحوم مدرسا
بمدرسة بنى سويف الابتدائية . وهنا يلتقى
بزميل كريم وصديق وفّى رضى الأخلاق
دمث الطباع في تواضع وإخلاص ، وهو
الأستاذ حسين يوسف موسى ، وقد ألّف
الجد والنشاط والإخلاص بين قلبى الزميلين

وأسفر ذلك عن ائتلاف علمى وتجاوب عملى
في البحث اللغوى ، فأخرجنا كتابا قيما وهو
كتاب « الإفصاح » في اللغة ، طبعت طبعته
الأولى سنة ١٩٢٩ م ، وكان عدد صفحاته
٧٣٦ صفحة ، ثم طبعت طبعته الثانية التى
تمت سنة ١٩٦٧ في حجم كبير يقع في
جزأين بلغت صفحاتهما ١٣٩٤ صفحة .
وهو كتاب عظيم الفائدة في البحوث اللغوية
على غرار المعاجم المعنوية ، مثل المخصص لابن
سيده وفقه اللغة للثعالبي ، وغيرهما من كتب
اللغة التى تجمع المفردات طبقا لما تنتمى إليه
من فصائل المعانى ، مثل الأظعمة والأشربة
والملايس والمساكن والرياح والسحب
والأشجار والثمار وغير ذلك .

ويعد مرجعا ذا شأن في وضع المصطلحات
العلمية والفنية ، ودليلا موجها ومفيدا لمن
يجولون في ميادين اللغة وبطون المعاجم للبحث
عن كلمات عربية تقابل المصطلحات الأجنبية ،
لعلهم يظفرون بما يحقق ما ينشدون من الألفاظ
الملائمة ، التى يمكن أن نشق طريقها في المجال
العملى في يسر وسهولة .

ولإلى جانب هذا المعجم اشترك الزميلان
في تأليف ثلاثة أجزاء في متن اللغة والمحفوظات
للمدارس الثانوية .

بعد ذلك استمر الراحل الكريم مدرسا
في مدارس متعددة وهى الناصرية ، فالمعلمين
بالمنصورة فالمعلمين بعابدين فمدرسة فؤاد
الأول الثانوية .

عابدين للمعلمين ، وكانت فى حى السيدة زينب بالقاهرة أمام المدرسة السنية الثانوية للبنات ، وقد تغيرت معالمها وحلت محلها مبان أخرى .

فى هذه المدرسة وفى غيرها من مدارس المعلمين لقيت زملاء أعزاء من بينهم الراحل الكريم ، زملاء لهم علم وفضل وتطلع إلى البحث والدرس والتجديد ، وكان لهم أثر عظيم فى النهضة التعليمية فى اللغة العربية والدين ، تلك النهضة التى نأمل أن تعود سيرتها الأولى فتعود للجيل الحاضر والأجيال القادمة أصالتها ، وقوتها الحلقية والاجتماعية ، ثم مقدرتهما العلمية .

وقد لمست فى فقيدنا الكريم فى هذه المدرسة حباً للعمل ، ونشاطاً ، وإخلاصاً ، ومثابرة ، وقياماً بالواجب على أكمل الوجوه ، وهذه هى الصفات الكريمة التى كانت شعاراً له فى جميع ما تولاه من أعمال .

وفى سنة ١٩٣٦ م نقل إلى المجمع اللغوى رئيساً للتحرير . وفى سنة ١٩٤٣ م رقى إلى وظيفة المراقب الإدارى بالمجمع . خلفاً للمرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، وظل فى هذه الوظيفة حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٢ م . ثم اختير عضواً بالمجمع سنة ١٩٦١ ، وظل عاملاً فى جد ونشاط وإخلاص ، إلى أن وافاه القدر المحتوم .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية كانت جولته العلمية التى سعدت فيها بلقاءه ، وكانت هذه المدارس فى القمة من نظام التعليم القومى المرتكز أولاً وبالذات على اللغة العربية والدين ، إلى جانب المواد الثقافية التى يتزود بها المواطن الصالح ، وكذلك المواد التربوية اللازمة لإعداد من يقومون بتعليم الشعب فى أجياله المتعاقبة .

وقد حرص القائمون على إدارة التعليم الأولى إذ ذاك على أن ينشئوا أكبر عدد من هذه المدارس ، لكى تنفى بتخريج العدد الكافى من المعلمين ، حتى يمكن تنفيذ التعليم الإلجبارى بعد إعداد العدة له ، فأنشأوا خمسا وعشرين مدرسة وكانت منبثة فى أنحاء القطر المصرى من أسوان إلى شواطئ البحر المتوسط ، وقصّصوا بتوزيعها على هذا النحو أن يحققوا فكرة التعليم المحلى ، حتى ينشأ الناشئ فى بيئته متعلماً ، ثم يعود معلماً فيها .

وكانت مناهج هذه المدارس فى اللغة العربية والدين حافلة بالعدد الكبير من الدروس فى مختلف موضوعات هاتين المادتين ، حتى يكون خريج هذه المدارس أوسع أفقاً فى اللغة والدين ، وبذلك يستطيعون أن يضعوا الأساس القوى المتين للقومية الصحيحة .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية التقيت بالراحل الكريم مدرسا بمدرسة

١ - وكان نشاطة في مجمع اللغة العربية واسع النطاق ؛ فقد كان عضوا في كثير من لجانته وهي :

١ - لجنة الكيمياء والصيدلة .

٢ - لجنة علوم الأحياء والزراعة .

٣ - لجنة الحيوانيات .

٤ - لجنة المعجم الكبير .

٥ - لجنة المصطلحات الطبية .

وفي الكتاب الذي ألفه الدكتور مهدي علام لمجمع اللغة العربية وعنوانه « المجمعيون » جاء عن الراحل الكريم مايلي :

« وأسند إليه من قبل وزارة الصحة مراجعة دستور الأدوية من الناحية اللغوية ، وهو أول دستور رسمي يظهر باللغة العربية ، وقد نشر في مجلة المجمع بحثا بعنوان « مصطلحات العلوم في اللغة العربية ودور المجمع فيها » (ج ١٣ ص ٢٠٩) .

وفي هذا البحث تعرض لوضع المصطلحات العلمية في عهد الترجمة في عصر الدولة العباسية وما مرت به هذه المصطلحات في دور النقل والترجمة العاجلة ، ثم في دور التخصيص والتأني بعد دراسة العلوم الجديدة ، وامتلاك زمامها وفهمها فهما عميقا مستوعبا .

ثم عرض للأدوار الأربعة التي تمر بها المصطلحات في مجمع اللغة العربية وهي :

لجان المجمع ، وجلساته ، ومؤتمراته ، ثم رأى جماهير العلماء والمثقفين في هذه

المصطلحات بعد أن تطبع وتذاع ويطلع عليها الجميع ، وأشار إلى استعداد المجمع لإعادة النظر في أي مصطلح كان إذا ظهر له وجه الصواب ، ورأى ضرورة التغيير .

وجاء أيضا في كتاب « المجمعيون » في معرض اقتراحات الفقيد الكريم مايلي :

« وله اقتراحات في تيسير وضع المصطلحات العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية ، قدم بعضها لمجمع اللغة العربية والمكتب الدائم للتعريب بمدينة الرباط بالمغرب ، وترعى هذه المقترحات إلى استخراج مصطلحات العلوم من الكتب العربية القديمة ، وتوزيع كلمات المعجمات العربية على حسب معانيها لتكون مصطلحات كل علم بين يدي اللجنة الخاصة بوضع مصطلحاته ، فلا ترجع اللجان إلا إلى ما بين يديها من هذه الألفاظ العربية ، وفي هذا اقتصاد للوقت والجهد ، فوق ما فيه من ربط الحديث بالقديم ، مما ييسر على العلماء المحدثين الاطلاع والاستفادة من علوم الأقدمين » .

هذه بعض جهود الفقيد الكريم في اللغة وفي نواحي المصطلحات العلمية والفنية ، وهي جهود تتسم بالنشاط الجهم ، وتاج هذا النشاط هو كتاب « الإفصاح » ، فإن تأليفه وتخصيص ما احتواه من ألفاظ ، وتنسيقها وجمع متفرقاتها في أنواع مؤتلفة ، كل هذا ينطوي على محصول لغوي غزير ، وإلمام له وزنه في المجال اللغوي .

ولم يكن نشاط الفقييد مقصوراً على هذا المجال اللغوي فحسب ، بل كان له رحمه الله إلى جانب ذلك اهتمام بالأدب وميل إلى الشعر تجود به قريحته في بعض المناسبات ، مما يدل على استعداده للانطلاق في هذا الميدان ، ولعل اهتمامه باللغة وبالتنقيب في المعاجم قد استولى على اتجاهاته الفكرية ؛ فلم يدع له فسحة من الوقت لحولات في مجال الشعر ، ولكن الموهبة كانت ثابتة الجذور في أعماق عاطفته وخياله ، وكانت جذوتها تشتعل حينما تهبّ المواقف التي تستحث قريحته وتحفز شاعريته .

ومن نماذج شعره قصيدته التي ألقاها في الدورة الثانية والثلاثين لمؤتمر الجمع الذي عقد في بغداد سنة ١٩٦٥ م . وأبياتها ٨٢ بيتاً ، ومطلعها .

داع دعا لاحتفال بابنة الضاد

نادى فأسمعنا من عدوة الوادي

صوت نديّ ببغداد دعا فسعى

قوم من العرب ما يندوهم النادي

وبعد ذلك يفيض في وصف الطائفة وأجزائها في أكثر من عشرين بيتاً ، ثم يخاطب السفينة لينتقل إلى الحديث عن العراق فيقول :

لَدَعَى السماء وعوجى اليوم ناجية

نحو العراق ففيها خير مرتداد

وفي السماء رجوم الشهب قد رصدت

وفي العراق نجوم الرائح الغادي

منازل العرب في كل البلاد شوى
أنى رحلنا نزلنا بين أنساد
ثم يعاوده الحنين إلى الاعتزاز باللغة العربية
فيقول :

ليلي بني العرب في أوطانهم لغة

بحبها وهواها قد شدا الشادي

وكلهم قيسها والحب يجمعهم

موثقاً ضم منقاداً لمنقاد

هي اللسان لدنياهم ودينهم

لحاضر مترف فيهم وللبيادي

بها تنزلت الآيات واتضحست

مناهج الدين والدنيا لعباد

هي الرباط الوثيق العقد قد جمعت

أشتاتهم ثم ردوا صولة العادي

ثم يعود إلى تمجيد الماضي العربي والحث على استعادة أمجاده فيقول :

يا قوم عودوا لماضيكم فإن به

ركازكم فانفضوه نفض نقاد

فيه لكم غنية عن كل مجتلب

يفنى القديم ويعي همّة الشادي

أحيوا الذي اعترف العلم الحديد به

وصرفوه كما شئتم بإعساد

هيا ابذلوا الجهد والأموال طائلة

في خطة المجد تحقيقاً لإعساد

والبحت الدائب في اللغة وألفاظها ومدلولاتها
ومختلف نواحيها .

وقد ظل الراحل الكريم مدافعا عن
المصطلحات العربية السليمة وعن الألفاظ
التي تحل محل الدخيل وتثبت دعائم الأصيل .
وإننا لنذكر له جهوده في هذه النواحي
بالثناء والتقدير .

وننتجه إلى الله سبحانه أن يجزيه الحزاء
الأوفى ، وأن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح
جناته ، وأن يلهم أسرته الكريمة وأصدقائه
ومحببيه الصبر الجميل .

ثم يقول في آخر القصيدة مشيرا إلى
المقترحات التي كان قدمها كتابة :

قدمت مقترحا من قبل متضجحا
نثرا وإني أثنيه بإنشاد
لا يرجع الوقت إن ضيعتموه سدى
والجد والجد في الدنيا بميعاد

* * *

هذه سطور من الصفحة الناصعة لحياة
الراحل الكريم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى
وهي صفحة حافلة بالخلق الرضى والإخلاص
الوافى ، والجد المثابر والنشاط المتوقد ،

● ● كلمة أسرة الفقيد للدكتور فتحى عبد الفتاح الصعيدى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين

الأعضاء إيانا ، خير عزاء لنا في مصابنا .
ولسنا ندرى ، بأى لسان نشكر هذه اليد
الكريمة ، التي أسداها لنا المجمع ، فأثلجت
صدورنا ، وضممت جراحنا .

ولإني لأحس كأن روح والدنا تحوم
حولنا الآن ، وترى هذه القلوب العامرة
بالحب والتقدير ، فترتاح في مثواها ،
وتدعو لكم بطول العمر وسعادة الحياة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

السيد نائب رئيس المجمع — السادة
الأعضاء — حضرات السادة .

قضى الله — ولا راد لقضائه — بأن نبثلى
بانتقال والدنا إلى الرفيق الأعلى ، فتلك
سنته في خلقه ، وكم كان الامتحان قاسيا ،
لأنه لم يكن بين مقامه وبيننا ، وبين لقاء ربه ،
بهذه الصورة الأليمة ، ما يتيح له أن يسمعنا
كلمته الأخيرة ، التي كنا في حاجة إليها .
ولكن ، كان في مواساة مجمع اللغة
الموقر لنا ، ومشاركة سيادة الرئيس والسادة



تجديد انتخاب رئيس المجمع :

قرر مجلس المجمع بالاجماع - بجلسته المنعقدة في ١٥/١١/١٩٧١
- تجديد انتخاب الدكتور طه حسين رئيسا للمجمع لمدة أربع
سنوات أخرى ، تبدأ من ٦/١٢/١٩٧١

انتخاب عضو جديد من تونس :

قرر مؤتمر المجمع بالاجماع - بجلسته الختامية المنعقدة في
١/٣/١٩٧١ - اختيار الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة
عضوا عاملا بالمجمع من تونس ، في المكان الذي خلا بوفاة المغفور له
الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور .

أعضاء راحلون :

- استأثرت رحمة الله سبحانه بعدد من أعضاء المجمع ، هم السادة :
- الدكتور قسدرى حافظ طوقان ، عضو المجمع من الأردن (توفي
في ٢٦/٢/١٩٧١) .
 - الأستاذ عبد الفتاح الصعیدی (توفي في ٨/٣/١٩٧١) .
 - الدكتور عبد الرزاق السنهوري (توفي في ١٩/٦/١٩٧١) .
 - السير هاملتون الكسندر جب ، عضو المجمع من إنجلترا (توفي
في ٢٤/١٠/١٩٧١) .

خبراء جدد للمجمع :

- وافق مجلس المجمع على اختيار خبراء لبعض اللجان ، وهم السادة:
- الدكتور عبد الحميد الغزالي (للجنة الاقتصاد) .
 - الأستاذ محمد شوقي أمين الخبير بلجنتى الأصول والمعجم الوسيط
(للجنة الألفاظ والأساليب) .

- الدكتور أحمد مدحت اسلام (للجنة الكيمياء) .
- الدكتور محمد بسيوني خفاجي (للجنة الجيولوجيا) .
- الدكتور شارل كونز الخير بلجنة اللهجات (للجنة الحضارات القديمة والوسطى) .
- الدكتور محمد داود التنير (للجنة الطب) .

صلات المجمع العلمية :

- ● عقدت الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو العربية) مؤتمرًا لبحث « الأصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة » في ١٩٧١/١٠/٤ . وقد مثل المجمع في هذا المؤتمر الدكتور محمد مهدي علام والأستاذ محمد خلف الله أحمد ، عضوا المجمع .

- ● بعثت إدارة المواصلات بجامعة الدول العربية الى المجمع مجموعة من مصطلحات الطرق والنقل البري . وقد قرر المجلس - بجلسته المنعقدة في ١٩٧١/١٠/٤ - احالة هذه المصطلحات الى لجنة الهندسة ؛ لابداء الرأي فيها .

- ● ورد المجمع كتاب من الأستاذ أحمد أصلان - من الملكة الأردنية الهاشمية - يتضمن بعض المقترحات الخاصة برسم الحروف العربية المستعملة في الآلات الكاتبة . وقد رأى المجلس - بجلسته المنعقدة في ١٩٧١/١٠/٢٥ - احالة الموضوع الى لجنة تيسير الكتابة العربية لدراسته ، وابداء الرأي فيه .

- ● ورد المجمع كتاب من الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال يطلب فيه من المجمع أن ينظر في مؤلفه (معجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصل العربي) ، وقرر المجلس - بجلسته المنعقدة في ١٩٧١/١١/٢٢ - احالة هذا المعجم الى لجنة الألفاظ والأساليب ، لتبدي رأيها فيه .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

رئيس مجلس الإدارة

علي سلطان علي

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٢٠٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٠٠٢-١٩٧١-٧٢٥

